

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190743

UNIVERSAL
LIBRARY

دار الكتب المصرية

نهاية تراجم

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين محمد بن عبد الله بن يوسف

السفر الخامس

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م

فهرس

السفر الخامس

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنويرة

(تابع أخبار المغنيين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية)

ومن أخذ عنهم ومن أشتهر بالغناء

صفحة

١	ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم
٩	ذكر أخبار علويّه (صواب ضبطه : علويّه)
١٣	ذكر أخبار معبد اليقطيني (صوابه : القطني)
١٧	ذكر أخبار محمد الرف
١٩	ذكر أخبار محمد بن الأشعث
٢١	ذكر أخبار عمرو بن بانه (صوابه : بانه)
٢٢	ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعي
٣٠	ذكر أخبار وجه القرعة
٣٢	ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بشخير (صوابه : بُشخُر)
٣٣	ذكر أخبار أحمد بن صدقة
٣٥	ذكر أخبار أبي حشيشة
	ذكر أخبار القيان وأول من غنى من النساء ومن أشتهر بالغناء منهن
٣٧	في الإسلام

صفحة

٤٠	ذكر أخبار جميلة (مولاة بنى سليم)
٤٩	ذكر أخبار عَمْرَةَ المِثْلَاء
٥١	ذكر أخبار سَلَامَةَ الْقَسَّ
٥٦	ذكر أخبار حَبَابَةَ
٦١	ذكر أخبار خُلَيْدَةَ المَكِيَّة
٦٢	ذكر أخبار مُتَيْمِ الهاشمية
	ذكر أخبار ساجى جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (فى الأغاني
٦٦	طبع بولاق : شاجى)
٦٧	ذكر أخبار دُقَاق
٦٨	ذكر أخبار قلم الصالحية
٧٠	ذكر أخبار بصبص جارية آبن نفيس
٧٢	ذكر أخبار جوارى آبن رامين (وهن سَلَامَةُ الرِّقَاء ، وَرُحْبَةُ ، وَسَعْدَةُ)
٧٥	ذكر أخبار عنان جارية الناطقى
٨٠	ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدي
٨٥	ذكر أخبار بَذَل
٨٨	ذكر أخبار ذات الخلال
٩٠	ذكر أخبار دنانير البرمكية
٩٢	ذكر أخبار عَرِيب المأمونية
١٠٨	ذكر أخبار محبوبَة
١١١	ذكر أخبار عُيَيْدَةَ الطُّنْبُورِيَّة

الباب السابع :

فما يحتاج اليه المغنى ويضطر الى معرفته ، وما قيل فى الغناء وما وصفت

به الفنان ، ووصف آلات الطرب ١١٣

صفحة

- ذكر ما يحتاج اليه المغنى ويضطر الى معرفته وما قيل في الغناء والقيان
 من جيّد الشعر ١١٣
 ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب ١١٩

القسم الرابع :

- في التهاني والبشائر والمراثي والنوادر والزهد والتوكل والأدعية وفيه
 أربعة أبواب ١٢٣

الباب الأول :

- في التهاني والبشائر ١٢٣
 ذكر شيء مما هُتّي به ولالة المناصب ١٢٣
 ومما هُتّي به من اتصل بزوجة ذات جمال وحسب وأصالة وأدب ... ١٢٧
 ومما هُتّي به من رزقه الله ولدا وزاده به قوة وعددا ... ١٢٨
 ومما هُتّي به في المواسم والقُدوم ١٣٢
 ومما قيل من شواذ التهاني وهي الجمع بين التهنئة والتعزية ، والشارة
 والتسلية ١٣٣
 ذكر نبذة من التهاني العامة والبشائر التامة ١٣٧
 ومما قيل في التهاني بالفتوحات وهزيمة جيوش الأعداء ... ١٤٢

الباب الثاني :

- في المراثي والنوادر ١٦١
 ذكر شيء من المراثي والنوادر ١٦٦
 ومما قيل في شواذ المراثي ٢١٤

الباب الثالث :

- في الزهد والتوكل ٢٢٧
 ذكر بيان حقيقة الزهد ٢٢٨

صفحة

وأما العلم الذى هو المثمر لهذا الحال	٢٣٠
وأما العمل الصادر عن حال الزهد	٢٣٢
ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا	٢٣٤
ذكر بيان ذم الدنيا وشيء من المواعظ والرفائق الداخلة فى هذا الباب	٢٣٩
ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه	٢٥٢
ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة	٢٥٦
ذكر بيان علامات الزهد	٢٦٨
ذكر ماورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته	٢٧١
أما فضيلته	٢٧١
وأما حقيقته	٢٧١
ذكر بيان أعمال المتوكلين	٢٧٤
أما جلب النافع	٢٧٤
وأما حفظ النافع	٢٧٧
وأما دفع المضار عن النفس والمال	٢٧٧
وأما إزالة الضرر	٢٧٨

الباب الرابع :

فى الأدعية	٢٨٠
وأما ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء	٢٨٣
وأما ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهىمة الدّلة والإنابة	٢٨٣
وأما ما ورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء	٢٨٤
وأما ما ورد فىمن تجاب دعواتهم	٢٨٥
ذكر الأوقات التى تُرعى فيها إجابة الدعاء	٢٨٦
ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها	٢٨٨

- ذكر ما يدعى به في المساء والصباح والغدق والرواح والصلاة والصوم
 والجماع والنوم والورد والصدّر والسفر والحضر وغير ذلك ... ٣٠٠ ...
 فأما ما يقال عند المساء والصباح ... ٣٠٠ ...
 وأما ما يقال عند النوم ... ٣٠٢ ...
 وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منها ... ٣٠٢ ...
 وأما ما يقال عند النداء ... ٣٠٤ ...
 وأما ما يقال عند دخول الخلاء ... ٣٠٤ ...
 وأما ما يقال عند الوضوء وغسل الأعضاء ... ٣٠٤ ...
 وأما أدعية الصلاة ... ٣٠٦ ...
 وأما ما يدعى به في نفس الصلاة ... ٣٠٦ ...
 وأما ما يدعى به بعد التسليم ... ٣٠٩ ...
 وأما ما يقال عند رؤية الجنائز والتلقين والدفن ... ٣١١ ...
 وأما ما يقال عند زيارة القبور ... ٣١٢ ...
 وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم والأكل والشرب ... ٣١٣ ...
 وأما ما يقال عند لباس الثوب وإلباسه وعند النظر في المرأة والتسريح
 وفي المجلس ... ٣١٤ ...
 وأما ما يقال في المرض والرقي والوسواس والحريق ... ٣١٥ ...
 وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابة ... ٣١٧ ...
 وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفي الرعد والمطر ... ٣١٨ ...
 وأما ما يقال في الخوف والشدائد ... ٣١٩ ...
 وأما ما يقال في الغضب والفرع ... ٣٢٠ ...
 وأما ما يقال في السفر وركوب الدابة والسفينة ودخول القرية ... ٣٢٠ ...
 وأما ما يقال في الزواج والجماع ... ٣٢٣ ...
 وأما ما يقال في قضاء الدين ونجاح الحوائج ... ٣٢٣ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقى



ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلى وقد تقدم نسبه فى أخبار أبيه . وكان
 الرشيد يولع به فيكنّيه أبا صفوان . قال أبو الفرج الأصفهاني فى ترجمة إسحاق :
 وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدمه فى الشعر ،
 ومترلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يُدَلَّ عليها بوصف . قال : فأما الغناء فكان
 أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه ،
 فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير . لحق بمن
 مضى فيه وسبق من قد بقى وسهل طريق الغناء وأنارها ، فهو إمام أهل صناعته
 جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك منه الخاصّ والعالم ، ويشهد له به
 الموافق والمفارق ، على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لثلاث يدعى إليه
 ويسمى به . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به
 عندهم من الغناء لوليت القضاة بحضرتي ، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر
 ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة . وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس
 وسفيان بن عيينة [وهشيم بن بشير] وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير ورؤح

(١) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : المجالس .

(٢) كذا فى الأغاني . وفى الأصل : لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته الخ .

(٣) زيادة فى الأغاني .

أَبْنُ عُبَادَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شِيوخِ الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ . وَكَانَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِلْغَنَاءِ أَضْنَّ خَلْقَ اللَّهِ بِهِ وَأَشَدَّهُمْ بَحْلاً عَلَى كُلِّ أَحَدٍ حَتَّى عَلَى جَوَارِيهِ وَغُلَامَانِهِ وَمَنْ يَأْخُذُ عَنْهُ مَنْتَسِباً إِلَيْهِ وَمَتَعَصِّباً لَهُ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِمْ . قَالَ : وَهُوَ صَحَّحَ أَجْنَاسَ الْغَنَاءِ وَطَرَائِقَهُ وَمَيَّزَهَا تَمَيِّزاً لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ .

- وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْجُرْجَانِيُّ : كَانَ وَاللَّهُ إِسْحَاقُ غُرَّةً فِي زَمَانِهِ وَوَاحِداً فِي عَصَرِهِ
 ٥ عَلِماً وَفَهْماً وَأَدْباً وَوَقَاراً وَجُودَةً رَأَى وَصَحَّةَ مَوَدَّةٍ ، وَكَانَ وَاللَّهُ يُخْرِسُ النَّاطِقَ إِذَا نَطَقَ ، وَيَحِيرُ السَّامِعَ إِذَا تَحَدَّثَ ، لَا يَمَلُّ جَلِيسُهُ مَجْلِسَهُ ، وَلَا تَمُجُّ الْآذَانُ حَدِيثَهُ ، وَلَا تَبْوَ النَّفْسُ عَنْ مَطَاوِلَتِهِ ؛ إِنْ حَدَّثَكَ أَهْلَكَ ، وَإِنْ نَاطَرَكَ أَفَادَكَ ، وَإِنْ غَنَّاكَ أَطْرَبَكَ ؛ وَمَا كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنَ الْأَدَبِ وَلَا جِنْسٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَكَلَّمُ فِيهِ إِسْحَاقُ فَيُقَدِّمُ أَحَدٌ عَلَى مَسَاجِلَتِهِ أَوْ مَنَاوَاتِهِ فِيهِ .

١٠

- حَكَى أَبُو الْفَرَجِ عَنْ إِسْحَاقَ قَالَ : دَعَانِي الْمَأمُونُ وَعِنْدَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ
 وَفِي مَجْلِسِهِ عَشْرُونَ جَارِيَةً قَدْ أَجْلَسَ عَشْرًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَشْرًا عَنْ شِمَالِهِ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ
 سَمِعْتُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْيُسْرَى خَطأً فَأَنْكَرْتُهُ ، فَقَالَ الْمَأمُونُ : أَسَمِعْتَ خَطأً ؟ قُلْتُ : نَعَمْ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ : هَلْ تَسْمَعُ خَطأً ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ
 ١٥ فَأَعَادَ عَلَيَّ السُّؤَالَ فَقُلْتُ : بَلَى وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهُ لَفِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ ،
 فَأَعَادَ لِإِبْرَاهِيمَ سَمْعَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الْيُسْرَى ، ثُمَّ قَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا فِي هَذِهِ
 النَّاحِيَةِ خَطأٌ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُرْ الْجَوَارِيَ الْإِلَاقِي عَلَى الْيَمِينِ يُمَسِّكَنَّ ،
 فَأَمْرَهُنَّ فَأَمْسِكَنَّ ، ثُمَّ قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ : هَلْ تَسْمَعُ خَطأً ؟ فَتَسْمَعُ ثُمَّ قَالَ : مَا هَهْنَا
 خَطأٌ . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُمَسِّكَنَّ وَتَضْرِبُ الثَّانِيَةَ ، فَأَمْسَكَنَّ وَتَضْرِبُ الثَّانِيَةَ ،
 ٢٠ فَعَرَفَ إِبْرَاهِيمُ الْخَطَأَ فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَهْنَا خَطأٌ ؛ فَقَالَ الْمَأمُونُ عِنْدَ ذَلِكَ

لإبراهيم بن المهدي : لا تُمارِ إسحاق بعدها، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين و ترا وعشرين حلقا لجدير ألا تماريه، قال : صدقت .

وقال ابن حمدون : سمعت الواصل يقول : ما غنّاني إسحاق قطّ إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سريج إلا ظننت أن ابن سريج قد نُشر، وإني ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدمه عندي بطيب الصوت، حتى إذا اجتمعنا عندي رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننت أنه يتقدمه ينقص، وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ أحد بمثلها، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يُشتري لأشتريتهن له بشرط مُلكي .

وحكى عن أحمد بن المتكى عن أبيه قال : كان المغنون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه، ولا يزال بلطفه وحذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضلهم ويتقدم عليهم . قال : وهو أول من أحدث المجتث ليوافق صوته ويشاكله بقاء معه عجا من العجب، وكان في حلقه نُبُو عن الوتر .

وحكى قال : سأل إسحاق الموصلي المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين ، فإذا أراد الغناء غنّاه، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مدة طويلة أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن له ، قال : فكان يدخل ويده في يد قاضي القضاة يحيى بن أكثم . ثم سأل إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المقصورة، قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق ! وقد آشتريت منك هذه المسئلة بمائة ألف دينار وأمر له بها .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهدي مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه، من ذلك ما حكاه إسحاق قال : كنت عند الرشيد يوما وعنده ندماءه وخاصته وفيهم إبراهيم بن المهدي، فقال لي الرشيد : غنّ

٥ شربت مُدَمَّةً وَسُقِيتُ أُخْرَى * وراح المنتشون وما آنشيتُ

- فغنيته، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه، وإن شئت فغنّه فإن لم أجذك أنك تخطئ فيه منذ ابتدأك إلى آتئائك فدمي حلال، ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى وصناعة أبى وهى التى قربتنا منك وأستخدمتنا لك فأوطأنا بساطك، فاذا نازعنا أحد بغير علم لم نجد بُدًّا من الإفصاح والذب، فقال : لا غرو ولا لوم عليك، وقام الرشيد ليقول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال : ويحك يا إسحاق ! أتجترئ على وتقول لي ما قلت يا ابن الفاعلة ! لا يكنى، فداخلى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له : أنت تشتمنى ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك : يا ابن الزانية كما قلت لي يا ابن الزانية، أو ترى كنت لا أحسن أن أقول يا ابن الزانية ! ولكن قولى فى ذمك ١٥ ينصرف كله إلى خالك الأعم، ولولاك لذكرت صناعته ومذهبه، قال إسحاق : وكان بيطارا، قال : ثم سكّ، وعلمت أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد وسوف يسأل من حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيت ذلك بأن قلت : إنك تظن أن الخلافة لك فلا تزال تهتدى بذلك وتعاينى كما تعاين سائر أولياء أخيك حسداً له ولولده على الأمر وأنت تضعف عنه وعنهم، وتستخف بأوليائهم تسفياً، وأرجو ٢٠ ألا يخرجها الله من الرشيد وولده وأن يقتلك دونها، فإن صارت إليك — والعياذ

بأنه تعالى من ذلك — فخرًا على حينئذ العيش ! والموت أطيب من الحياة معك ،
 فأصنع حينئذ ما بدالك ! قال : فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم بجلوس بين يديه وقال :
 يا أمير المؤمنين ، شمتي إسحاق وذكر أمي وأستخف بي ، فغضب وقال لي : ويلك !
 ما تقول ؟ قلت : لا أعلم فسأل من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين فسألها عن القصة
 فجعلتا يخبرانه ووجهه يربد إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة فسرى عنه ورجع لونه ،
 وقال لإبراهيم : لا ذنب له ، شتمته فعزفك أنه لا يقدر على جوابك ، أرجع إلى موضعك
 وأمسك عن هذا ، فلما آنفص المجلس وأنصرف الناس أمر الرشيد بأن لا أبرح ، وخرج
 كل من حضر حتى لم يبق غيري ، فساء ظني وهمتني نفسي فأقبل على وقال :
 يا إسحاق أتاني لم أفهم قولك ومرادك ! قد والله زنيته ثلاث مرات ، أتاني لا أعرف
 وقعاتك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تعد ! حدثني عنك لو ضربك إبراهيم
 أكنت أقتص لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل ! أتراه لو أمر غلمانه فقتلوك
 أكنت أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قد قتلتى هذا الكلام ، وإن بلغه
 ليقتلنى ، وما أشك أنه قد بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال له : على بإبراهيم ، فأحضر
 وقال لي : قم فانصرف ، فقلت للجماعة من الخدم — وكلهم كان لي محبا وإلى ماثلا
 ولى مطيعا — : أخبروني بما يجرى ، فأخبروني من غد أنه لما دخل عليه وتجه
 وجهه وقال له : ألتستخف بخادمي وصنعتي وأبن خادمي وصنعتي وصنعة أبى
 فى مجلسى ! وتقدم على وتستخف بجلوسى وحضرتى ! هاه هاه ! وتقدم على هذا
 وأمثاله ! وأنت مالك واللغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أخذك به وطارحك إياه حتى
 نتوهم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غدى به وعلمه وهو من صناعته ؟ ثم تظن أنك
 تحطه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجّة عليه فلا تثبت لذلك وتعتم بصنمته !

هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيها لا يشبهك ،
وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارك إياه ولم تحكمه ، وآدعائك
ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم ، ويحك ، أن هذا سوء أدب
وقلة معرفة وقلة مبالاة بالخطأ والتكذيب والرد القبيح ! ثم قال : والله العظيم
وحق رسوله وإلا فأنا برىء من المهديّ إن أصابه أحد بسوء أو سقط عليه حجر من
السماء أو سقط من دابته أو سقط عليه سقفه أو مات بخاة لأقفلتكم به . والله !
والله ! والله ! فلا تعرض له وأنت أعلم ! قم الان فانخرج ، فخرج وقد كاد يموت ؛ فلما
كان بعد ذلك دخلت على الرشيد وإبراهيم عنده [فاعرضت عن إبراهيم] فجعل
ينظر إلى مرة وإلى مرة ويضحك ؛ ثم قال : إني لأعلم محبتك لإسحاق وميلك إليه
وإلى الأخذ عنه وإن هذا لا يبيحك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى ، والرضى
لا يكون بمكرهه ، ولكن أحسن إليه وأكرمه وأعرف حقّه وبرّه وصلّه ، فإذا فعلت
ذلك ثم خالف ماتهواه عاقبته بيد مستطيبة منبسطة ولسانٍ منطلق ؛ ثم قال لى : قم
إلى مولاك وآبن مولاك فقبل رأسه ، فقامت إليه وقامت إلى وأصلح الرشيد بيننا .
قال أبو الفرج : وكان إسحاق جيد الشعر ، كان يقول الشعر وينسبه للعرب ،

فن ذلك قوله

لفظ الحدودُ إليك حُورًا عِينًا * أنسين ما جمع الكاسُ قَطِينًا
فإذا بَسَمَنَ فَعَنَ كَثِلَ غَمَامَةٍ * أو أَلْخُوَانُ الرمل بات مَعِينًا
وأصح ما رأت العيونُ محاجرا * وَلَهْنُ أَمْرُضُ ما رأيت عِيونا

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « من دخولك فيها لا يشبهك ثم اظهارك إياه وغلبت لذتك الخ » .

(٢) كذا في الاغانى . وفي الاصل : « وأنت أعلم ولا تعرض له » .

(٣) زيادة في الأغاني . (٤) كذا بالأغاني ، وفي الأصل : جوارحا .

فكأنما تلك الوجوه أهلة * أقرن بين العشر والعشرين
وكأنهن إذا نهضن لحاجة * ينهضن بالعقدات من يبرينا
وأشعاره في هذا النوع كثيرة .

وروى عن الأصمعي قال : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد
فرأيناه لقس النفس فأنشده إسحاق ^(١)

وأمره بالبخل قلت لها أقصرى * فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى الممات خليل
وإني رأيت البخل يُزرى بأهله * فأكرمتُ نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتي لو علمته * إذا نال خيرا أن يكون يُبيل ^(٢)
فعالي فعال الكثيرين تجللا * ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر وأحرم الغنى * ورأى أمير المؤمنين جميل !

قال فقال الرشيد : لا تحف ^(٣) إن شاء الله ، ثم قال : لله در أبيات تأتينا بها ما أشد
أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فصولها ! وأمر له بنحسين ألف درهم ، فقال له
إسحاق : وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه فعلام أخذ الجائزة ؟
فضحك الرشيد وقال : أجعلوها مائة ألف درهم ، قال الأصمعي : فعلت يومئذ أن
إسحاق أحذق بصيد الدراهم متى .

قال أبو عبدالله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق فعرف أنه كُف وأنه بمنزله
ببغداد ، فكتب في إحضاره ، فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه

(١) الشره النفس الحريص على كل شيء . . . (٢) كذا في الأغاني وكتب الأدب وفي الأصل :

ومن خير خللات الفتي قد علمته * إذا نال خيرا أن يقال نبيل

(٣) كذا في الأغاني : وفي الأصل : لا كيف .

مَحْدَّةً وقال : بلغني أن المعتصم دفع إليك في أول يوم جلست بين يديه مَحْدَّةً ، وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرمئله إكرامه ، ثم سأله : هل أكل؟ فقال : نعم ، فأمر أن يُسقى ، فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبي محمد عوداً ، بغى به فاندفع يغني بشعره

٥ ما علة الشيخ عيناه بأربعة * تَغْرُورِ قَانٍ بدمع ثم ينسكب

قال ابن حمدون : فما بقي غلام من الغلمان الوقوف إلا وجدته يرقص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل ، فأمر له بمائة ألف دينار . ثم آنحدر المتوكل الى الرقة وكان يستطيعها لكثرة تعريد الطير فيها فغناه إسحاق

أَن هَتَفَتْ ورقاءُ في رَوْقِ الضُّحَى * على فَنَبٍ غَضَّ النبات من الرِّند

١٠ بكيت كما يبكي الوليدُ ولم تزل * جليداً وأبدت الذي لم تكن تُبدى

فضحك المتوكل ، ثم قال : يا إسحاق هذه أخت فعلتك بالوائق لما غنيته بالصالحية

طَرِبْتُ إلى أَصْبِيَّةٍ صِغارٍ * وذَكَرَني الهوى قُربُ المزار

فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف ؟ قال : مائة ألف دينار ، فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف . وكان آخر عهده بإسحاق . تُوِّفِيَ بعد ذلك بشهرين . وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين . وكان يسأل الله تعالى ألا يتلبه بالقولنج لما رأى من صعوبته على أبيه ، فرأى في منامه كأن قائلًا يقول له : قد أُجيبَت دعوتك ولست تموت بالقولنج ولكلك

(١) في الأغاني : "درهم" .

٢ (٢) عبارة الأغاني : « وأذن له بالانصراف الى بغداد ، وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ » .

(٣) مرض يصيب المعدة يصرمه خروج النفل والريح .

تموت بضدّه ، فأصابه دَرَبٌ في شهر رمضان فكان يتصدّق في كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضُفِعَ عن الصوم فلم يُطَقه ومات في الشهر . ولما نُعي إلى المتوكل غمّه وحزن عليه وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار علويّه

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف ، وجده سيف من الصُّغد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفان وآسرتهم جماعة آختصم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يُعتق الباقيين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهاني : وكان عليّ هذا مغنياً حاذقاً ، ومؤدّباً مُحسِّناً ، وصانعاً متقناً ، وضارباً متقدماً ، مع خفة رُوح وطيب مجالسة وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصليّ علمه ونحرجه وعُنَى بتحذيقه جداً ، فبرع وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل ومات بعد إسحاق الموصلي بيسير . وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ فشكاه إلى يحيى بن ماسويه ، فبعث إليه بدواء مُسهل وطلاء ، فشرب الطلاء وأطلى بالدواء فقتله ذلك . قال : وكان علويّه أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار : البَمُّ أسفل الأوتار كلها ثم المثلث فوقه ثم المنخى ثم الزّير ، فكان عوده إذا كان في يد غيره يكون مقلوباً ، وإذا أخذه كان في يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويّاً . وكان إسحاق يتعصب له في أكثر أوقاته على مُحَارِق . وقال حماد ابن إسحاق قلت لأبي : أيُّما أفضل عندك مُحَارِق أم علويّه^(١) ؟ فقال : يا بُنَيّ ، علويّه أعرقهما فهماً بما يخرج من رأسه ، وأعلمهما بما يغنيه ويؤديه ، ولو خُيرت بينهما من يطارح جوارى ، أو شاورني من يستنصحنني لما أشرت إلا بعلويّه ، لأنه يؤدى

الغناء، [و] إذا صنع شيئاً صنعه صَنَعَةً مُحْكَمَةً، ومُخَارِقٌ لِمَتَّكُنْه من حَلَقَه وكَثْرَةُ نَعْمَه لَا يُقَنَّعُ بِالْأَخْذِ مِنْه، لَأَنَّهُ لَا يُؤَدِّي صَوْتَا وَاحِدًا كَمَا أَخْذَه وَلَا يَغْنِيهِ مَرَّتَيْنِ غَنَاءً وَاحِدًا لِكثْرَةِ زَوَائِدِهِ فِيهِ، وَلَكِنْهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا عِنْدَ خَلِيفَةٍ أَوْ سُوْقَةٍ غَلَبَ مُخَارِقٌ عَلَى الْمَجْلِسِ وَالْجَائِزَةِ بِطِيبِ صَوْتِهِ وَكَثْرَةِ نَعْمِهِ .

وقال أبو عبد الله بن حمدون : حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : اجْتَمَعْتُ مَعَ إِسْحَاقَ يَوْمًا فِي بَعْضِ دُورِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَحَضَرَ عَلَيْهِ فَغَنَى أَصَوَاتًا ثُمَّ غَنَى مِنْ صَنَعَتِهِ وَنَبَّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشِفَاعَةٍ * إِلَى فَهْلًا نَفْسُ لَيْلٍ شَفِيعُهَا !

فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ : أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْحَسَنِ أَحْسَنْتَ مَا شِئْتَ ، فَقَامَ عَلَيْهِ مِنْ مَجْلِسِهِ قَبْلَ رَأْسِ إِسْحَاقَ وَعَيْنِهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَرَّ بِقَوْلِهِ سُرُورًا كَثِيرًا ، ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ سَيِّدِي وَأَبْنُ سَيِّدِي [وَأَسْتَاذِي] وَأَبْنُ أَسْتَاذِي ، وَلِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ ، قَالَ : قُلْ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَبْلُغُ فِيهَا مَا تُحِبُّ ، قَالَ : أَيُّمَا أَفْضَلُ أَنَا عِنْدَكَ أَمْ مُخَارِقُ ؟ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلًا يُؤَثَّرُ وَيَحْكِيهِ عَنْكَ مِنْ حَضَرَ ، فَشَرَفَنِي بِهِ ، فَقَالَ إِسْحَاقُ : مَا مِنْكَ إِلَّا مُحْسِنٌ مُجْمَلٌ ، فَلَا تُرَدُّ أَنْ يَجُورَ فِي هَذَا شَيْءٌ ، قَالَ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّي عَلَيْكَ وَبُتْرَبَةِ أَبِيكَ وَبِكُلِّ حَقٍّ تُعْظِمُهُ إِلَّا حَكَمْتَ ! فَقَالَ : وَيْحَكَ ! وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ أَسْتَجِيزُ أَنْ أَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ لَقُلْتُهُ فِيمَا تُحِبُّ ، فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتَ إِلَّا ذِكْرَ مَا عِنْدِي ، فَلَوْ خَيْرْتُ أَنَا مِنْ بَطَارِحِ جَوَارِيٍّ وَيُغْنِيَنِي لِمَا آخَرْتَ غَيْرَكَ ، وَلَكِنْ كَمَا إِذَا غَنَيْتُمَا بَيْنَ يَدَيِ خَلِيفَةٍ أَوْ أَمِيرٍ غَلَبَكَ عَلَى إِطْرَابِهِ وَأَسْتَبَدَّ عَلَيْكَ بِجَائِزَتِهِ ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ وَقَامَ وَقَالَ : أَفَّ مِنْ رِضَاكَ وَغَضَبِكَ !

وَكَانَ الْوَاقِعُ بِاللَّهِ يَقُولُ : عَلَيْهِ أَحْصَى النَّاسُ صَنَعَةً بَعْدَ إِسْحَاقَ ، وَأَطِيبَ النَّاسُ صَوْتًا بَعْدَ مُخَارِقَ ، وَأَضْرَبُ النَّاسَ بَعْدَ زَلْزَلٍ وَمُلَاحَظَ ، فَهُوَ مُصَلَّى كُلِّ سَابِقٍ نَادِرٍ (١) زِيَادَةُ نَرَاهَا لِازِمَةٍ . (٢) كَذَا فِي الْأَغَانِي فِي الْأَصْلِ : ”صَلَّى“ . (٣) زِيَادَةُ فِي الْأَغَانِي .

١٠

١٥

٢٠

وثاني كل أول، وأصل كل متقدم . وكان يقول : [غناء] علويه مثل نقر الطست
يبقى ساعة في السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر : لو أقنصرت على رجل واحد يغني لي لما آخرت سوى
علويه ، لأنه إن حدثني الهاني ، وإن غناني أشجاني ، وإن رجعت إلى رأيه كفاني .
وقال محمد بن عبد الله بن مالك : كان علويه يغني بين يدي الأمين ، فغني في بعض
غناؤه

لَيْتَ هَذَا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعْدُ * وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَحْجِدُ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليه شيئا ، فقال للأمين : إنما يعترض بك
ويستبطئ المأمون في محاربتك ، فأمر به فضرب خمسين سوطا وجرّ برجله حتى
أخرج ، وجفاه مدة حتى سأل كوثرا أن يترضاه له فترضاه له وردّه إلى الخدمة وأمر
له بخمسة آلاف درهم . فلما قدم المأمون تقرب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحب ،
وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرض لما يغضبه ، فإنه ربما جرى منه
ما يتلفك ثم لا يقدر بعد ذلك على تلافٍ ما فرط منه ؛ ثم قرب من المأمون بعد ذلك .

قال علويه : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطحب ، فلقيني عبدالله بن إسماعيل المراكبي
مولى عريب فقال : أيها الظالم المعتدى ، أما ترحم ولا ترق ! عريب هائمة من الشوق
إليك تدعو الله وتستحكه عليك وتحلم بك في نومها في كل ليلة ثلاث مرات ، قال
[علويه : فقلت أم الخلافة زانية^(١)] ومضيت معه ، فحين دخلت قلت : استوثق من
الباب فإني أعرف الناس بفضول الحجاب ، وإذا عريب جالسة على كرسي تطبخ
ثلاث قدور من دجاج ، فلما رأيته قامت فعاقتني وقبّلتي وقالت : أي شيء تشتهي ؟

فقلت : قَدْرًا من هذه القدور، فأفرغت قَدْرًا ببني وبينها فأكلنا، ودعت بالنبيد
فصبّت رطلًا فشربت نصفه وسقتني نصفه، فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر،
ثم قالت : يا أبا الحسن، غنيتُ البارحة في شعر لأبي العتاهية أعجبنى أقتسمعه^(١)
وتصلحه، فغننت

عَذِرِي من الإنسان لا إن جَفَوْتُهُ * صفا لى ولا إن صرْتُ طَوَّعَ يديه °
وإني لمشتاقٌ إلى ظِلِّ صاحبٍ * يروقُ ويصفو إن كِدَرْتُ عليه

فصيرناه مجلسنا . وقالت : قد بقى فيه شيء، فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه .

ثم قالت : أحبُّ أن تغنى أنت أيضًا فيه لحناً ففعلت، وجعلنا نشرب على اللحنين^(٢)
ثلاثاً، ثم جاء الحُجَّاب فكسروا الباب وآستخرجونى، فدخلت على المأمون فأقبلت

أرقص من أقصى الإيوان وأُصَفِّقَ وأُغْنَى بالصوت، فسمع المأمون والمغنُّون ما لم^{١٠}
يعرفوه فاستظرفوه، وقال المأمون: آدُّ يا علويه وردده، فرددته عليه سبع مرات،
فقال لى فى آخرها عند قولى ” يروق ويصفو إن كدرت عليه “ : يا علويه خذ
الخلافة وأعطني هذا صاحب .

وقال علويه : قال إبراهيم الموصلى يوماً : إني قد صنعت صوتاً وما سمعته منى

أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفك به وأرفع منك بأن ألقيه عليك وأهبه لك، والله^{١٥}
ما فعلت هذا بإسحاق قط، وقد خصصتك به فآتخله وآدعه فلست أنسبه إلى نفسى
وستكسب به مالا، فالقى علىّ

إذا كان لى شيثان يا أمَّ مالكٍ * فإنَّ لجارى منهما ما تخيراً

فأخذته عنه وآدعته، وسترته طول أيام الرشيد خوفاً من أن أتهم فيه وطول

أيام الأمين، حتى حدث عليه ما حدث وقدم المأمون من نُرَّاسان وكان يخرج^{٢٠}

(١) كذا بالأغاني؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغاني : ملياً .

إلى الشَّامِيةَ فينتَهَ، فركبت يوما في زَلَّالِيٍّ^(١) وجئتُ أتبعه، فرأيت حَرَاقَةَ علي بن هشام
فقلت للملاح: أطرح زَلَّالِيٍّ على الحَرَاقَةِ ففعل، وأستؤذِن لي فدخلت وهو يشرب
مع الجوارى، وما كانوا يحجبون جواريمهم، فغَنَيْتَه الصوت فاستحسنه جدا وطرب
عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحد قبلك،
فأزداد به عجباً وطرباً وقال للجارية: خُذِيه عنه، فآلَقِيته عليها حتى أخذته، فُسِّرَ بذلك
وطرب، وقال لي: ما أجد لك مكافأة على هذه الهدية إلا أن أتحوّل عن هذه
الحَرَاقَةِ بما فيها وأسلمه إليك، فتنحوّل إلى أخرى وسُلمت لي بخزانتها وجميع
آلاتها وكل شيء فيها، فبعت ذلك بمائة ألف ونحسين ألف درهم، واشتريت
ضيعة الصالحية.

وقال علويه: خرج المأمون يوما ومعه أبيات قد قالها وكتبها في رُقعة بنخطه وهي
خرجتُ إلى صيد الطَّيِّاءِ فصادني * هناك غزالٌ أدعجُ العينَ أحورُ
غزالٌ كأنَّ البدرَ حلَّ جبينه * وفي خَدَّه الشَّعْرَى المنيرةُ تُزهِرُ
فصاد فُؤادى إذ رمانى بسهمه * وسهمُ غزالِ الإنسانِ طرفٌ ومُحجِرُ
فيا من رأى ظيِّاً يصيد، ومن رأى * أخا قَتَصَ يُصطادُ قهراً ويُقسِرُ
قال: فغَنَيْتَه فأمر لي بعشرين ألف درهم^(٢).

ذكر أخبار معبد اليقطيني

قال أبو الفرج: كان معبد هذا غلاماً مولداً من مولدى المدينة، أخذ الغناء عن
جماعة من أهلها، واشترى بعض ولد على بن يقطين، وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق
وآبن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيد ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات في أيامه

(١) جمع زَلَّةٍ وهي البساط . (٢) في الأغاني عشرة آلاف .

وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهاني حكاية عنه أحببت أن أذكرها في هذا الموضع ، وهي ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخزازي ، قال حدثني معبد الصغير المغني مولى علي بن يقطين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أحدثهم وألازمهم ، فبينما أنا ذات يوم في منزلي إذ أتاني آت فدق بابي ، فخرج غلامي ثم رجع إلي فقال لي : على الباب فتى ظاهر المروءة يستأذن عليك ، فاذنت له ، فدخل شاب ما رأيت أحسن وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زيا منه من رجل ديف عليه آثار السقم [ظاهرة] ، فقال لي : إني أحاول لقاءك منذ مدة ولا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لي حاجة ، فقلت : وما هي ؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع في يديتين قلتهما لحنا تغنني به ، فقلت : هاتهما ، فأنشدني

والله يا طرفي الجاني على بدني * لتطفن بدمي لوعة الحزن
أولاً بوح حتى يحببوا سكني * فلا أراه وقد أدرجت في كفني

قال : فصنعت فيه لحنا ثم غنيته إياه ، وأغني عليه حتى ظننته قد مات ، ثم أفاق فقال : أعد ، فديتُك ! فناشدته الله في نفسه وقلت : أخشى أن تموت ، فقال : هيهات ! أنا أشقى من ذلك ، وما زال يخضع لي ويتضرع حتى أعدته فصعق صعقة أشد من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت ، فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعها بين يديه ، وقلت : يا هذا ، خذ دنانيرك وأنصرف عني قد قضيت حاجتك وبلغت وطرا مما أردته ، وإست أحب أن أشرك في ذلك ، فقال : [يا هذا] لا حاجة لي في الدنانير ، وهذه مثلك ، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي وقال : أعد الصوت على مرة أخرى وحل لك دمي ! فشرهت نفسي في الدنانير ،

(١) زيادة في الأغاني . (٢) كذا في الأغاني ، وفي الأصل : «أولاً بوح» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط، قال : وما هي ؟ قلت :
أولاهن أن تقيم عندي وتحتزم بطعامي ، والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ ^(١) تطيب
قلبك وتسكن ما بك ، والثالثة أن تحدثني بقصصك ، قال : أفعل ما تريد ، فأخذت الدنانير
ودعوتُ بطعام فأصاب منه إصابة مُعَدَّر، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا ، وغنيته
بشعر غيره في معناه وهو يشرب ويبكي ، ثم قال : الشرط أعزك الله ! فغنيته صوته
بفعل يبكي أحرُّ بكاءٍ وبنيشج أشدَّ تشييح ويتحب ، فلما رأيت ما به قد خفَّ عما
كان يلحقه ، ورأيت النبيذ قد شدَّ قلبه كررت عليه صوته مرارا ، ثم قلت : حدثني
حديثك ، فقال : أنا رجل من أهل المدينة خرجت متزَّها في ظاهرها وقد سال العقيق
في فية من أقراني وأخذاني ، فبصُرنا بفتيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له ، فجلسن
حجرة منا ، وبصُرنا منهن بفتاة كأنها قضيب قد طله الندى ، تنظر بعينين ما أرتد
طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما ، فأطلنا وأطلن حتى تفرَّق الناس ، وأنصرفن
وأنصرفنا وقد أبت بقلبي جرحا بطيئا أندماله ، فعدت إلى منزلي وأنا وقيد ، وخرجت
من الغد إلى العقيق وليس به أحد فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا ، ثم جعلت أتبعها
في طرق المدينة وأسواقها ، وكانت الأرض أضمرت فلم أحس لها بعين ولا أثر ، وسقمت
حتى أيس مني أهلي ، وخلت بي ظئري فاستعلمتني حالي وضمنت لي كتابها والسعي
فيما أحبه منها ، فأخبرتها بقصتي ، فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع وهي سنة
خضب وأنواء وليس يبعد عنك المطر ، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك
فإن النسوة سيجئن ، فإذا فعلن ورأيتهن أتبعها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك
وبينها وأسعي لك في تزويجها ، فكانت نفسي آطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت
إليه ، فقويت وطمعت وتراجعت إلى نفسي ، وجاء مطر يعقب ذلك وسال العقيق

(١) في الأغاني : تشد . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغاني ، وفي الأصل : طريق .

ونخرج الناس ونخرجت مع إخواني إليه ، فجلسنا مجلسنا الأول بعينه ، فما كنا والنسوة إلا كفرنسي رهان ، فأومأت إلى ظئري بفلسفتي ، وأقبلت على إخواني فقلت : لقد أحسن القائل

رمثني بسهم أقصد القلب وأنثت * وقد غادرت جرحاً به وندوبا

فأقبلت على صواحبها وقالت : أحسن والله القائل ، وأحسن من أجابه حيث يقول

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا * نرى فرجاً يشفى السقام قريباً

فسكت عن الجواب خوفاً من أن يظهر مني ما يفضحني وإياها ، وعرفت ما أرادت ، ثم تفرق الناس وأنصرفنا ، وتبعته ظئري حتى عرفت منزلها ، وصارت إلى فأخذت بيدي ومضينا إليها ، فلم نزل نتألف حتى وصلت إليها ، فتلاقينا وتزاورنا على حال خالصة ومراقبة ، حتى شاع حديثي وحديثها وظهر ما بيني وبينها ، فحجبا أهلها وسدوا أبوابها ، فما زلت أجهد في لقاءها فلا أقدر عليه ، وشكوت ذلك إلى أبي لشدة ما نالني وسألته خطبتها لي ، فمضى أبي ومشيخة أهلي إلى أبيها فخطبوها ، فقال : لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضحها ويشهرها لأسعفته بما آلتس ، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقق قول الناس فيها بترويجها وإياها ، فأنصرفت على يأس منها ومن نفسي .

قال معبد : فسألته أن ينزل بجواري ، وصارت بيننا عشرة ، ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته ، فكان أول صوت غنيته صوتي في شعر الفتى ، فشرب وطرب عليه طرباً شديداً ، وقال : ويحك ! إن لهذا الصوت حديثاً فإهو ؟ فحدثته ، فأمر بإحضار الفتى فأحضر من وقته ، وأستعاده الحديث فأعاده ، فقال : هي في ذمتي حتى أزوجهك إياها ، فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح ، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدثه الحديث فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعاً فأحضرنا ، وأمر بأن أغني الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفقي، فأمر من وقته بكتاب إلى عامل المحجاز
بإشخاص الرجل وأبنته وجميع أهله إلى حضرته، فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى
أحضرُوا، فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأحضر، وخطب إليه الجارية للفتى
وأقسم عليه ألا يخالف أمره، فأجابه وزوجها إياه، وحمل الرشيد إليه ألف دينار
لجهازها وألف دينار لنفقة طريقه، وأمر للفتى بألف دينار ولى بألف دينار، وأمر
جعفرُ لى وللفتى بألف دينار. وكان المديني بعد ذلك من ندماء جعفر بن يحيى .

ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بنى تميم كوفي المولد والمنشأ، والرف لقب غلب عليه،
وكان مُغنياً ضارباً صالح الصنعة مليح النادرة، وكان أسرع خلق الله أخذاً للغناء
وأصحهم أداءً له وأذكاهم، وكان إذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثاً أذاه لا يكون بينه
وبين من أخذه عنه فرق فيه، وكان متعصباً على ابن جامع مائلاً إلى إبراهيم الموصلي
وأبنته إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدمانه يأخذان له الصلات من الخلفاء، وكانت
فيه عريضة إذا سكر، فعربد بحضرة الرشيد مرة فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول
إليه وجفاه وتناساه . قال أبو الفرج : وأحسبه مات في خلافته أو خلافة الأمين .
ومن أخباره في جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال :

غنى ابن جامع يوماً بحضرة الرشيد

جسورٌ على هجرى جبانٍ عن الوصل * كدوبٌ عِداتٍ يتبعُ الوعدَ بالمطل
مُقدِّمٌ رجلٌ في الوصال مؤخَّرٌ * لأخرى يشوبُ الحدَّ في ذلك بالهزل
يهمُّ بنا حتى إذا قلت قد دنا * وجاذبني عطفاه مالَ إلى البخل
يزيدُ امتناعاً كلما زدتُ صَبوةً * وأزدادُ حرصاً كلما ضنَّ بالبذل

فأحسن فيه ما شاء وأجمل ، فغمزت عليه محمد الرف وفطن لما أردت ،
 وأستحسنه الرشيد وشرب عليه وأستعاده مرتين أو ثلاثا ، ثم قُت إلى الصلاة
 وغمرت الرف بخافى ، وأومات إلى مُحَارِقِ وعلويه وعقيد بخافى ، فأمرته بإعادة
 الصوت فأعاده وأذاه كأنه لم يزل يرويه ، ولم يزل يكرّره على الجماعة حتى غنّوه ، ثم
 عدت إلى المجلس ، فلما انتهى الدور إلى آبتدأت فغنّيته قبل كل شىء غنّيته ، فنظر
 إلى ابن جامع محددا طرفه ، وأقبل على الرشيد وقال : أكنت تروى هذا الصوت ؟
 قلت : نعم ياسيدى ، فقال ابن جامع : كذب والله ما أخذه إلا منى الساعة ،
 فقلت : هذا صوت أرويه قديما ، وما فيمن حضر [أحد] ^(١) إلا وقد أخذه منى ، وأقبلت
 عليهم فقلت لهم : غنّوه ، فغناه علويه ثم عقيد ثم مُحَارِق ، فوشب ابن جامع بغلس
 بين يديه خلف بحياته وبطلاق أمر أنه أن اللحن صنعه منذ ثلاث ليال وما سمع به
 قبل ذلك الوقت ، فأقبل الرشيد على وقال : بحياتى أصدقنى عن القصة ، فصدقته
 بفعل يضحك ويصقّ ويقول : لكل شىء آفة وآفة ابن جامع الرف .

قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمد الرف أروى خلق الله تعالى للغناء وأسرعهم
 أخذا لما سمعه ، ليست عليه في ذلك كلفة إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه ،
 وكما معه في بلاء إذا حضر فكان كل من غنى منا صوتا فسأله عدوله أو صديق بأن
 يلقيه عليه فبخل ومنعه إياه وسأل محمد الرف أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرة
 واحدة حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبى يره ويصله ويُجِدِّيه من
 كل جائزة وفائدة تصل إليه . وكان محمد الرف مُغَرِّى بآبن جامع خاصة من بين
 المغنّين لبخله ، وكان لا يفتح آبن جامع فاه بصوت إلا وضع عينه عليه وصنى

(١) زيادة من الأغاني .

(٢) كذا في الأغاني ، وفي الأصل : وكل من غنى الخ

بسمعه إليه حتى يحكيه، وكان في آبن جامع بخل شديد لا يقدر معه على أن يسعفه
ببر ورقد، وساق نحو ما تقدم إلا أنه قال : إن الرف أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه
على إسحاق فأخذه عنه في ثلاث مرار . قال حماد : وللف صنة يسيرة ، وذكر
منها أصواتا .

ذكر أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمد بن الأشعث القرشي ثم الزهرّي كاتباً، وكان من
فتيان أهل الكوفة وطرفائهم، وكان يقول الشعر ويعني فيه، فن ذلك قوله في سلامة
زرقاء آبن رامين

أمسى لسلامة الزرقاء في كبدى * صدع يقيم طوال الدهر والأبد
لا يستطيع صناع القوم يشعبه * وكيف يشعب صدع الحب في الكبد
إلا بوصل التي من حُبها أنصدعت * تلك الصدوع من الأسقام والكبد

وكان ملازماً لآبن رامين ولجاريته سلامة الزرقاء، فشير بذلك فلامه قومه
في فعله فلم يحفل بمقالتهم، وطال ذلك منه ومنهم حتى رأى بعض ما يكره في منزل
آبن رامين، فقال إلى سحيفة جارية زريق آبن منيح مولى عيسى بن موسى، وكان
زريق شيخاً كريماً نبيلاً يجتمع إليه أشرف أهل الكوفة من كل حي، وكان
الغالب على منزله رجلاً من ولد القاسم بن عبد الغفار العجليّ كغلبة محمد بن الأشعث
على منزل آبن رامين، فتلازما على ملازمة زريق، وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث

يا بن رامين بحث بالصريح * في هواي سحيفة آبن منيح
قينة عفة ومولى كريم * ونديم من اللباب الصريح
ربيعي مهذب أزيحي * يشتري الحمد بالفعال الربيع

نحن منه في كل ما تشهى الأنفس من لذة وعيش تَجِيح
 عند قوم من هاشم في ذراها * وغنا من الغزال المليح
 في سرور وفي نعيم مُقيم * قد أمنا من كل أمر قبيح
 فاسأل عنا كما سلوناك إلى * غير سأل عن ذات نغبي وروحي
 حافظ منك كل ما كنت قد ضيعت مما عصيت فيه نصيحي
 فالقلى ما حيت متى لك الدهر * برؤد لمنيتى ممنوج
 يابن رامين فالزمن مسجد الحى * بطول الصلاة والتسبيح

قال عمر بن نوفل وهو راوى هذه الأبيات : فلم يدع ابن رامين شريفا بالكوفة
 إلا تحمل به على ابن الأشعث وهو أبى أن يرضى عنه وأن يعاود زيارته ، حتى تحمل عليه
 بالبحوانى ، وهو محمد بن بشر بن بجوان الأسدى وكان يومئذ على الكوفة ، فكلّمه
 فريضى عنه وعاد إلى زيارته ، ولم يقطع منزل زريق . وقال فى سحيفة

سحيفة أنت واحدة القيان * فما لك مشيه فيهن ثانى
 فضلت على القيان بفضل حديق * فخرت على المدى قصص الرهان
 سجدن لك القيان مكفراي * كما سجد المحوس لمزربان
 ولا سيما إذا غنت بصوت * وحركت المثلث والمثنان
 شربت النمر حتى حلت أتي * أبو قابوس أو عبد المدان
 فإعمال اليسار على الملاوى * ومن ينالك ترجمة البيان

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غناء ، منها

رَجُبْتُ بلادك يا أمانة * وسلمت ما سمعت حمامة
 وسقى ديارك كلما * حنت إلى السقيا غمامة

إني وإن أقصيتني * شفيقٌ أحبُّ لكِ الكرامة^(١)
وأرى أمورك طاعة * مفروضة حتى القيامة
وله غير ذلك من الأصوات .

ذكر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهاني : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف ،
وكان أبوه صاحب ديوان ووجهًا من وُجوه الكُتّاب ، ونسب إلى أمه ، وكان مغنياً
مُحسنًا وشاعراً صالح الشعر ، وصنّعه صنعةً متوسطةً ، وكان مرتجلاً . قال : وكتابه
في الأغاني أصل من الأصول . وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء ،
ويخالف إسحاق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بنفسه ، وهو معدود
في نُدماء الخلفاء ومغنيّهم على ما كان به من الوضوح ، وفيه يقول الشاعر
أقولُ لعمرو وقد مرّ بي * فسلم تسليمًا جافيه^{١٠}
لئن فضّلوك بفضلِ الغنا * فقد فضّل الله بالعافية

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسنَ الحكاية لمن أخذ عنه الغناء حتى كان
من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو^(٢)] لم يشك في أنه هو الذي أخذ عنه لحسن
حكايته ، وكان محظوظاً ممن يعلمه ، ما علم أحداً قط إلا نخرج نادراً مبرّزاً . وله
أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه ، منهم المتوكل على الله . رحمه الله

(١) في الأغاني : سفها .

(٢) زيادة في الأغاني .

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعي

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع ، والربيع ، على ما يتدعيه
أهله ، ابن يونس بن أبي فروة ، وآل أبي فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لقيط وجد
منبوذاً كَفَلَه يونس ، فلما خدم المنصور آذعَى إليه . قال أبو الفرج الأصفهاني :
وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً محسناً جيد الصنعة نادرها . قال : وهو أول من غنى
بالكنكة في الإسلام .

وكان سبب دخوله في الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال : كان سبب
دخولي في الغناء وتعلّمي إياه أني كنت أهوى جارية لعمتي رُقِيّة بنت الفضل
ابن الربيع ، وكنت لا أقدر على ملازمتها والجلوس معها خوفاً من أن يظهر
مالها عندي فيكون ذلك سبباً منعي منها ، فأظهرت لعمتي أني أشتي أن
أتعلم الغناء ويكون ذلك في سترٍ عن جدّي ، وكان جدّي وعمتي على حال من الرقة
على والمحبة لي لا نهاية وراءها ، لأن أبي توفّي في حياة جدّي الفضل ، فقالت :
يا بُنَيّ وما دعائك إلى ذلك ؟ فقلت : شهوة غلبت على قلبي إن مُنِعْتُ منها مُتَّ
غماً ، قال : وكان لي في الغناء طبعٌ قوى ، فقالت لي : أنت أعلم وما تختاره ،
والله ما أحبّ منعك من شيء ، وإني كارهة أن تحذق في ذلك وتُشهر فتسقط
ويفتضح أبوك وجَدُّك ، فقلت : لا تخاف من ذلك ، فإنما آخذ منه مقدار ما أهوى به ،
ولازمت الجارية لاحتجتي بإياها بعلة الغناء ، فكنت آخذ عنها وعن صواحباتها حتى
تقدّمت الجماعة حذفاً وأقربت لي بذلك ، وبلغت ما كنت أريد من الجارية ، وصرت
ألازم مجلس جدّي ، ثم لم يكن يمرّ لإسحاق ولا لابن جامع ولا للزبير بن دحمان
ولا لغيرهم صوت إلا أخذته ، ولنت سريع الاخذ إنما كنت أسمع مرتين أو ثلاثاً

وقد صمّ لي، وأحسست في نفسي قوّة في الصناعة ، فصنعت أوّل صوت صنعته في شعر العربيّ

أما طلت كساء الخبز عن حُروجيها * وأدنت على الخدين بُرداً مهلهلاً
ثم صنعتُ

أقفر من بعد خَلّةٍ شَرَف * فالدُّمَحْنَى فالعقيقُ فالجُرُفُ

٥

وعمرضتهما على الجارية التي كنت أهواها، وسألتهما عما عندها فيهما، فقالت : لا يجوز أن يكون في الصّنعَة فوق هذا ؛ وكان جوارى الحارث بن بشخير وجوارى أبيه يدخلن إلى دارنا فيطرحن على جوارى عمّتي وجوارى جدّي ويأخذن أيضاً ما ليس عندهن، فأخذنهما مني، وسألن الجارية عنهما فأخبرتني أنهما من صَنعتي، ثم أَشْهَرَا حتى غَنَى الرّشيدُ بهما يوماً فاستظرفهما، وسأل إسحاق : هل تعرفهما؟

١٠

فقال : لا، وإنهما لمن أحسن الصّنعَة وجيّدتها ومُتَقَنّا، ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفاً من عمّتي وحذراً أن يبلغ جدّي أنها ذكرتني، فأتتهما الرّشيد فأخبرته القصّة، فوجّه من وقته فدعا بجدّي فقال له : يا فضل، أيكون لك أبن يغني ثم يبلغ في الغناء المبلغ الذي يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين ويتداولهما جوارى القيان فلا تُعلمني بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدْمَتِي في هذا

١٥

الشأن ! فقال له جدّي : وحق ولأئك يا أمير المؤمنين ونعمتيك وإلا فأنا برىء من بيعتك وعلى العهد والميثاق والعِتق والطلاق إن كنت علمت بشيء من هذا قط إلا منك الساعة، [فمن هذا من ولدي؟ قال : عبد الله بن العباس هو، فأحضرنيهِ الساعة] ، بغاء جدّي وهو يكاد أن ينشق غيظاً، فدعاني فلما خرجت إليه شمتني وقال : [يا كلب] بلغ من أمرك أنك تجسّر على أن تتعلم الغناء بغير إذني ثم زاد

٢٠

(١) كذا في الاغانى وفي الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : هو عبد الله بن العباس .

(٣) زيادة في الأغاني .

ذلك حتى صنعت ، ولم تقنع بهذا حتى ألفتَ صَنَعْتَكَ على الجوارى فى دارى ،
ثم تَجَاوَزَهْنَ إلى جوارى الحارث بن بشخير فاشتهرتَ وبلغ أمير المؤمنين فتتكرلى
ولامنى ، وفضحت أباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنين ، فبكيتُ مما جرى
على وعلمت أنه صدقنى ، فرحمنى وضمنى إليه وقال : قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك

مصيبتين : إحداهما به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بجياتى ،

ومصيبة باقية العار على وعلى أهلى بعدى ، وبكى وقال : عزّ على- يا بُنَى أنى أراك
أبدا ما بقيت على غير ما أحبّ ، وليست لى فى هذا الأمر حيلة لإنه أمر قد خرج
عن يدى ، وقال : جئنى بعود حتى أسمعك وأنظر كيف أنت ، فإن كنت تصلح
للخدمة فى هذه الفضيحة وإلا جئت بك منفردا وعرفتته خبرك وأستعفيته لك ،

فأتيته بعود وغنيته غناء قديما ، فقال : لا ، بل صوتيك اللذين صنعتهما ، فغنيته

إياهما فاستحسنهما وبكى ، ثم قال : بَطَلْتَ والله يا بُنَى وخاب أملى فىك ، فواحرنا

عليك وعلى أبيك ! قللت : ليتنى مُتَّ قبل ما أنكرته أو أحرست ! وما لى حيلة !

لكنى وحياتك يا سيّدى - وإلا فعلى عهد الله وميثاقه والعنق والطلاق وكلّ يمين

يخلف بها [حالف] لازمة [لى] - لا غنيّت أبدا إلا الخليفة أو ولى عهد ، فقال :

قد أحسنت فيما نَبَّهت عليه من هذا ، فركب وأمر بى فأحضرتُ ، ووقفّت بين يدى

الرشيّد وأنا أرعد ، فاستدعانى وأستدنانى حتى صرت أقرب الجماعة إليه ، ومازحنى

وأقبل على وسكّن منى ، وأمر جدّى بالانصراف ، وأوما إلى الجماعة لخذثونى

وسُقيتُ أفداحا وغنى المغنون جميعا ، وأوما إلى إسحاق بعينه أن أبدا فغنّ إذا بلغت

(١) فى الأغانى : مصبده ، ولعاه : مصيبتك . (٢) زيادة فى الأغانى .

(٣) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : وأقبل على الجماعة وشكرنى الخ .

(٤) فى الأغانى : وسقيت الجماعة وغنى الخ .

التوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك ليكون ذلك أملح وأجل بك ، فلما جاءت التوبة إلى أخذت عودا من كان إلى جنبي وقت قائما وأستأذنت في الغناء ، فضحك الرشيد وقال : غن جالسا ، فغنت لحني الأول ، فطرب واستعاده ثلاث مرات وشرب عليه ثلاثة أنصاف ، ثم غنيت الثاني فكانت هذه حاله ، فسكر ودعا بمسرور وقال : أحمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابي وعيبة مملوءة طيبا ، فحمل ذلك كله معي . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولي عهد أن يعلم من الخليفة بعد الخليفة هو أم غيره دعاني وأمرني أن أغني ، فأعرفه يميني فيستأذن الخليفة في ذلك ، فإن أذن لي في الغناء علم أنه ولي عهد وإلا عرف أنه غيره ، حتى كان آخرهم الوائق فدعاني في أيام المعتمم وسأله أن يأذن لي في الغناء ، فأذن لي ثم دعاني من الغد فقال : ما كان غناؤك إلا سببا لظهور سري وأسرار الخلفاء قبلي ، والله لقد هممت أن أمر بضرب رقبتك ! لا يبلغني أنك أمتعت من الغناء عند أحد ، فوالله لئن أمتعت لأضرب عنقك ! فأعق من كنت تملكه يوم حلفت ، وطلق من كان عندك يومئذ ، وأرحنا من يمينك هذه المشنومة ، فقممت وأنا لا أعقل جزعا منه ، فأعتقت جميع ما كان بقى عندي من ممالكي الذين حلفت يومئذ وهم في ملكي ثم تصدقت بجملة ، وأستفيت في يميني أبا يوسف القاضي حتى خرجت منها ، وغنيت بعد ذلك إخواني جميعا حتى أشتر أمرى ، وبلغ المعتمم خبري فتخلصت منه .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصولي عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله ابن العباس : إنه بلغني لك خبر مع الرشيد أول ما شيرت بالغناء فحدثني به ، فقال : نعم أول صوت صنعته

أتاني يؤمرني في الصبو * حج ليلا فقلت له غادها

فلما دارألى وضربت عليه بالكنكلة عرضته على جارية^(٢) لنا يقال لها راحة ،
 فاستحسنته وأخذته عنى ، وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلى فسمعها يوما تغنيه
 وتناغى به جارية من جواريه ، فاستعادها إياه فأعادته ، فقال : لمن هذا الصوت ؟
 قالت : صوتٌ قديم ، قال : كذبت ، لو كانت قديما لعرفتُه ، وما زال يداريها
 ويتقاضب عليها حتى أعرفت له أنه من صنعى ، فعجِب من ذلك ، ثم غناه يوما
 بحضرة الرشيد ليُغرب به على المغنين ، فاستحسنته الرشيدُ فقال له : لمن هذا يا إبراهيم ؟
 فأمسك عن الجواب وخشى أن يكذبه فينمى إليه الخبرُ من غيره ، وخاف من جدى
 إن يصدقه ، فقال له : مالك لا تجيبنى ؟ قال : ما يمكنى يا أمير المؤمنين ، فاستراب
 بالقصة ، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعترفه عقوبة تُوجعه ، وتوهم أنه لعلية بنت
 المهديّ أو لبعض حُرَمه فاستطير غضبا ، فلما رأى إبراهيم الحِدْ منه صدقه فيما بينه
 وبينه سرا ، فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناء يرويه الناس
 ولا تعترفنى ! فجزع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرف ذلك قط ولا سمع به إلا فى
 وقته ذلك ، وساق باقى الخبر نحو ما تقدم .

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين
 يديه أغنيه وقد استعادنى صوتا فأعدته ، فاستحسنته عبد الملك [وقال : ^(٣)] هذا والله
 يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصفائك إليه ، فقال : أجل ، هذا والله
 مولائى وأبن موالئ لا يعرفون غير ذلك ، فقال : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين
 مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُجَمَل بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظُرفٍ وأدب

(١) فى الأغانى : تأتى ل . (٢) كذا فى الاغانى وفى الاصل : جارة .

(٣) كذا فى الاغانى ، وفى الاصل : تغانى .

(٤) زيادة نراها لازمة .

وصحة عقل وفضل علم وجودة شعر، فقال له : صدقت يا محمد . فلما كان من الغد
جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن محضره، فقلت في أضعاف كلامي : وأفروط
الوزير، أعزّه الله تعالى، في وصفى وتقرىبطى بكل شيء حتى وصفنى بجودة الشعر،
وليس ذلك عندى وإنما أعبت بالبيتين والثلاثة، ولو كان عندى أيضا شيء من
ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ويحكىه في هذا المجلس الرفيع المشهور، فقال : والله
يا أنحى لو عرفت مقدار قولك

يا شادنا رام إذ مـ*ـتر في الشعائين قتلي^(١)
يقول لى : كيف أصبحـ*ـت؟ كيف أصبح مثلي

لما قلت هذا القول، والله لو لم يكن لك شعر في عرك إلا قولك : ”كيف
يصبح مثلي“ لكنك شاعرا مجيدا . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس في نصراينة
كان يهودا ولا يصل إليها إلا إذا خرجت إلى البيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها
أصوات، منها قوله

إن في القلب من الظبي كلوم * فدع اللوم فإن اللوم لوم
حبذا يوم الشعائين وما * نلت فيه من نعيم لو يدوم
إن أكن أعظم أن هممت به * فالذى تركب من عدلى عظيم
لم أكن أول من سن الهوى * فدع العدل فدا داء قديم

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جبير قال : تكا عند أبي عيسى بن الرشيد
في زمن ربيع وعندنا محارق وعلويہ وعبد الله بن العباس الربيعيّ وعبد الله بن
الحارث بن بشخير ونحن مصطبجون في طارمة مضروبة على بستانه وقد تفتح فيه
ورد وياسمين وشقائق السماء متغيمة غيا مطبقا وقد بدأت ترش رشا ساكبا ،

(١) الشعائين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

فنحن في أكل نشاط وأحسن يوم إذ خرجت قِمةُ دار أبي عيسى فقالت : ياسيدى
قد جاءت عساليج، قال : تخرج إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه، قال : نخرجت
إلينا جارية شِكْلة حُلوة حسنة العقل والهيئة والأدب في يدها عُود فسلمت، وأمرها
أبو عيسى بالجلوس فجلس، وغنى القوم حتى آتتهى الدور إليها وظننا أنها لا تصنع
شيئا وخفنا أن تهابنا فتَحَصَّر، فغنت غناءً حسناً مطرباً مُتَقَناً، لم تدع أحداً من حضر
إلا غنت صوتاً من صَنَعته فأذته على غاية الإحكام، فطربنا وأستحسننا غناءها
وخاطبناها بالاستحسان، وألحَّ عبد الله بن العباس من بيننا بالاقتراح عليها والمزاح
معها والنظر إليها، فقال أبو عيسى : عشقتها وحياتي يا عبد الله، فقال : لا والله
ياسيدى، وحياتك ما عشقتها، ولكن آستملحت كل ما شاهدته منها من منظر وشكل
وعقل وعشرة وغناء، فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه، ورُبَّ جدِّ
جره اللعب ؛ قال : وشربنا ، فلما غلب النبيذ على عبد الله غنى أهرجاء قديمة
وحديثة، وغنى فيما يلبسها هزجاً في شعر قاله فيها لوقته، فما فطن له إلا أبو عيسى، وهو

نطق المكتوم متى فبدا * كم ترى المكتوم متى لا يضح
سحر عَيْنِكَ إذا ما رتَّنا * لم يدع ذا صَبْوَةٍ أو يفتضح^(١)
ملكْتُ قلباً فأمسى غَلِقاً * عندها صباها لم يسترح^(٢)
بجمالٍ وغناءٍ حَسَبٍ * جلَّ عن أن ينتقيه المقترح
أورث القلبَ هموماً ولقد * كنتُ مسروراً برأه فروح
ولكم مُغْتَبِي هَمًّا وقد * باكر اللهو بْكُور المصطَبِخ

(١) كذا في الأغاني، وفي الأصل :

ملكْتُ قسِي وأمسى علِقاً * عندنا صباها لم يسترح

(٢) كذا في الأغاني، وفي الأصل : ينتقيه .

فقال له أبو عيسى : فعلتم والله يا عبد الله ، صمّ والله قولى لك فى عسالىج وأنت تكابر حتى فضحك السكر ، فبُحّد وقال : هذا غناء كنت أرويه ، خلف أبو عيسى أنه ما قاله ولا غناه إلا فى يومه ، وقال له : آحلف بحياتى أن الأمر ليس هو كذلك ، فلم يفعل ، فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتها لك ، ولكنها لآل يحيى آبن معاذ ، والله إن باعوها لأملكك إياها ولو بكل ما أملك ، ووحياى لتتصرف قبلك إلى منزلك ، ثم دعا بحافظتها وخادما من خدمه فوجّه بها معهما إلى منزله ، وآلتوى عبد الله قليلا وتجلّد ثم أنصرف ، وآتصل الأمر بينهما بعد ذلك فأشترتها عمته رقية بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ ، وكانت عندهم حتى ماتت . قال : وقالت بذلّ الكبيرة لعبد الله بن العباس : قد بلغنى أنك عشقت جارية آسمها عسالىج فأعرضها علىّ فإما أن عذرتك أو عذلتك ، فوجّه إليها فحضرت ، وقال لبذلّ هذه هى يا سيدتى فآسمعى وآنظرى ثم مرينى بما شئت أطلعك ، فأقبلت عليه عسالىج وقالت : يا عبد الله آتساور فىّ ! فوالله ما شاورت فىك لما صحبتك ، فقالت بذلّ : أحسنت والله يا صبية ولو لم تُحسنى شيئا وكانت فىك خصلة تُحدّ لوجب أن تُعشقى لهذه الكلمة ؛ ثم قالت لعبد الله : ما ضيّعت ، آحتفظ بصاحبك هذه . وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوما على عبد الله بن العباس الربيعى وخادم له يسقيه ، ويده عود وهو يغنى

إذا أصطبحتُ ثلاثا * وكان عودى ندى
والكأس تضحك ضحكا^(١) * من كف طي رخم
فا على طريق * لطارقات الهوم

فما رأيت أحسنَ مما حكى حاله في غنائه ولا سمعت أحسنَ مما غنى . ومن
صنعتة وشعره قوله

صدَّعَ البينُ الفؤادا * إذ به الصائحُ نادى
بينما الأحبابُ مجمو * عون إذ صاروا فرَادى
فأتى بعضُ بلاداً * وأتى بعضُ بلادا
كُلُّها قلت تناهى * حَدَثَاتُ^(١) الدهر زاد

ذكر أخبار وجه القرعة

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصير الوصيف مولى المنصور ويلقب وجه القرعة ،
أحد المغنيين الحداثا الضراب الرواة ، أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلي وطبقته ، وكان
حسن الأداء طيب الصوت لا علة فيه ، إلا أنه كان إذا غنى الهزج خاصة خرج
لا لسبب يُعرف إلا أنه [إن]^(٢) تعرّض للحنين في جنس من الأجناس فلا يصح له
البتة .

وروى أبو الفرج بسنده عن محمد الهاشمي أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلي
عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مُصعب ، قال : فأتانا محمد بن
حمزة وجه القرعة ، وكان شيرس الأخلاق أبي النفس ، وكان إذا سُئل الغناء أباه
فإذا أمسك عنه كان هو المبتدئ به ، فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأُتي به فغنى
مرّبي سربُ طباء * رائحاتٍ من قباء

(١) هذه رواية الأغاني ، وفي الأصل :

كلها قلت تناهت * حادثات الدهر زاد

(٢) زيادة في الاغانى .

زَمَرًا نَحْوَ الْمُصَلَّى * يَتَشَيَّبُ حِذَائِي
فَتَجَاسَرْتُ وَأَلْقَيْتُ سَرَابِيلَ الْحَيَاءِ
وَقَدِيمًا كَانَ لَهْوِي * وَفَنَوْنِي بِالنِّسَاءِ

قال : وكان يُحسِّنه ويحيده ، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال ، ثم قال : أحسنت يا غلام ، هذا الغناء لى وأنت نتقدمنى فيه ! ولا يخلق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

وقال أيضا : كذا فى البستان المعروف ببستان خالص النصارى ببغداد ، ومعنا محمد ابن حمزة وجه القرعة وهو يغنىنا

يَا دَارُ أَقْفَرِ رَشْتِهَا * بَيْنَ الْمُحَصَّبِ وَالْمُجُونِ
يَا بَشْرُ إِنِّى فَأَعْلَمِى * وَاللهِ مَجْتَمِدًا يَمِينِى
مَا إِنْ صَرَمْتُ حِبَالَكُمْ * فَصَلِّى حِبَالِى أَوْ ذَرِينِى

فإذا برجل راكب على حمار يؤمنا وهو يصيح : أحسنت والله ! فقلنا : أصعد إلينا كأننا من كنت ، فصعد وقال : لو منعتمونى من الصعود لما أمتعت ، ثم سقر اللثام عن وجهه فإذا هو مخارق ، فقال : يا أبا جعفر أعذ على صوتك فأعاده ، وشرب رطلا من شرابنا وقال : لولا أنى مدعو الخليفة لأقمت عندكم وأستمعت هذا الغناء الذى هو أحسن من الزهة غب المطر .

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصنعة ، وكفاه ذلك فضلا فى صناعته .

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بشخير

(١٤)

قال أبو الفرج الأصفهاني : هو من أهل الرّيّ مولى المنصور من ولد بهرام شويين مرزبان الرّيّ . قال : وهو مرتجل قليل الصّنع حسن الغناء والنغم بقوة وشجاء وأقدار شديد على الغناء، وكان في زمانه أحد المعدودين في حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الرّيّ والآلة، وكان عظيم التّيه رفيع الهمة ، وكانت له منزلة عند المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنّين، فجلس يوما والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا، فغنى المغنّون جميعا وغنّيت هزجا لإسماعيل بن جامع، فبعث إلى المأمون بأصل شاهشفرم وقد أُنّف أصله بمنديل حرير، فجاءني به الغلام وقال : أعد الصوت، فأخذته وشممته ووثبت فأعدّته قائما، ووضعت الأصل بين يديّ وشربت رطلا . وقلت للمغنّين : حكم لي أمير المؤمنين بالحذق والغناء ، فقالوا وكيف ؟ قلت : دفع إلى لواء الغناء من بينكم، فقالوا : ليس كما ذكرت ولكن حيّاك إذ أطربته، والرسول قائم فأنصرف بالخبر، فما لبث أن رجع إلى فقال : هو كما ذكرت .

قال أبو العنيس بن حمدون : كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارة إذا غنّى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجا في هذا الشعر] ^(١)
 أَمْسَيْتُ عَبْدًا مُسْتَرَقًّا * أَبْكَى الْأُولَى سَكَنُوا دِمَشْقًا
 أَعْطَيْتُهُمْ قَلْبِي قَرْنًا * يَبْقَى بِلَا قَلْبٍ فَأَبْقَى !

وطرحه على المسدود الطنبوريّ فوق له موقعا حسنا، وأستحسنه محمد منه فقال : أتحب أن أهبه لك ؟ قال : نعم، قال : قد فعلت، فكان المسدود يغنيه ويدعيه، وإنما هو لمحمد بن الحارث .

قال محمد : لما قَدِم المامون من خراسان لم يَشْتَقْ مغنيًا بمدينة السلام غيرى ، فبعث إلى فكنت أناديه سرًا ، ولم يظهر للندماء حتى ظفر بإبراهيم بن المهدي فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر منه قوله

ومن ظنَّ أنَّ التَّيَّه من فضيلِ قَدْرِهِ ^(١) * فَإِنِّي رَأَيْتُ التَّيَّهَ من صِغَرِ الْقَدْرِ
ولو كانت ذا عَزٍّ ونَفْسٍ أَيْبَةٍ * لَفَضَّ الغنى منه وعَزَّ عن الفقرِ
رأى نَفْسَهُ لا تَسْتَقِيلُ بِحَقِّهَا * فَتَاهَ لِنَقِصِ النَفْسِ أو قَلَّةِ الشَّكْرِ

ذكر أخبار أحمد بن صدقة

قال أبو الفرج الأصفهاني : هو أحمد بن صدقة بن أبي صدقة ، كان أبوه حجازيًا مغنيًا قَدِم على الرشيد وغنى له ، وقد ذكرنا أخباره في النوادر من كتابنا هذا فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طُبورياً مُحسباً مُقدِّماً حاذِقاً حَسَنَ الغناء مُحكِّمَ الصَّنعَةِ . قال : وله غناء كثير في الأرمال والأهزاج وما يجري مجراها من غناء الطُّبُوريِّين . وكان ينزل الشَّامَ . ووُصِفَ للتوكل فأمر بإحضاره ، فقَدِمَ عليه فغناه ، فاستحسن غناه وأجزل صلته . واشتهاه الناس وكثُر من يدعوه ، فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافاً .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اجتزت بخالد بن يزيد الكاتب فقلت له : أنشدني بيتين من شعرك حتى أغنى فيهما ، فقال : وأى حَظَّ لى في ذلك ، تأخذ أنت الجائزة وأحصل أنا على الإثم ! خلعت أنى إن أخذت بشعره فائدة

(١) في الأصل : قدره .

جعلت له فيها حظاً وأذكرتُ به الخليفة وسألته فيه ، فقال : أماً الحظ من جهتك
فأنت أنذل من ذلك ، ولكن عسى أن تُفْلِحَ في مسألة الخليفة ، وأنشدني
تقول : سَلا ، فَمِنْ المَدْنَفِ * وَمَنْ عَيْنُهُ أَبَدًا تَذْرِفُ ؟
وَمَنْ قَلْبُهُ قَلَقٌ خَافِقٌ * عَلَيْكَ وَأَحْشَاؤُهُ تَرْجَفُ ؟

٥ فلما جلس المأمون للشرب دعاني ، وكان قد غضب على حَظِيَّةٍ له فحضرتُ مع المغنيين ،
فلما طابت نفسه وجَّهْتُ إليه بِتُفَاحَةٍ من عنبر عليها مكتوب بالذهب : « يا سيدي
سلوت » ، وما علم الله أني عرفت شيئاً من خبرهما ، وآنهتِ الدُّور إلى فَغْنِيَتِ البَيْتَيْنِ ،
فأَحْمَرَّ وجه المأمون وأتَقَلَّبَ عِناهُ وقال : يا بنِ الفاعلة ، لك علىّ وعلى حُرْمِي صاحب
١٠ خبر ؟ فوثبت وقلت : يا سيدي ما السبب ؟ قال : من أين عرفت قِصَّتِي مع جاري
حتى غَنَيْتُ في معنى ما بيننا ؟ خلعت أني لم أعرف شيئاً من ذلك ، وحدثته بجديتي
مع خالد ، فلما آنهت إلى قوله « أنت أنذل من ذلك » ضحك وقال : صدق ، وعجب
من هذا الاتِّفَاق ، وأمر لي بخمسة آلاف درهم وخالد بمنلها .

وروى عنه أيضاً قال : دخلت على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون
وصيفةً جَلَبَتْ روميَّات مُزَنَّرَاتٍ قد تزيّن بالديباج الروميّ وعلّقن في أعناقهنّ صُلبانا
١٥ من الذهب وفي أيديهنّ الخوص والزيتون ، فقال لي المأمون : ويلك يا أحمد !
قد قلتُ في هؤلاء أبياتا فغنّ بها ، ثم أنشدني

طِبَاءُ كَالدَّانِيرِ * مِلَاحٌ فِي المَقَاصِيرِ
جَلَاهُنَّ الشَّعَائِينُ * عَلَيْنَا فِي الزَّانِيرِ
وقد زَرَقْنَ أَصْدَاغًا * كَأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ
وأَقْبَلْنَ بِأَوْسَاطٍ * كَأَوْسَاطِ الزَّانِيرِ

٢٠

(١) زَرَقْنَ صدغيه : جعلهما كالزَّانِيرَيْنِ ، وهو الحلقة .

حففظته وغنيته ، فلم يزل يشرب والوصائف يرقصن بين يديه بأنواع الرقص من
الدستبندا إلى الايلي حتى سكر ، وأمر لى بألف دينار وأمر بأن يُنثر على الجوارى
ثلاثة آلاف دينار ، فقبضت الألف ونثرت ثلاثة آلاف الدينار فأنتهتها معهن .
قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنَيَّة له بالشأم ، فشخص نحو منزله
ونخرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

ذكر أخبار أبي حشيشة

قال أبو الفرج : أبو حشيشة لقب غلب عليه ، وهو محمد بن أبي أمية ويكنى أبا جعفر .
وكان أهله جميعا متصليين بإبراهيم بن المهدي ، وكان هو من بينهم يفتي بالطنبور أحسن
الناس غناء ، وخدم جماعة من الخلفاء أولهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد . قال : وكان
أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد بن الرشيد أيام حياته ، وكان أبوه وجدّه وأخواله ثكّابا .
قال أحمد بن جعفر بحظّة في ترجمة أبي حشيشة : وكان له صنعة تقدّم فيها
كل طنبوري لا أحاشى أحدا في ذلك ، قال : فنها

كأن هموم الناس في الأرض كلّها * على وقلي بينهم قلب واحد
ولى شاهدا عدل : سهاد وعبرة * وكم مدّع للحب من غير شاهد
قال بحظّة : ورأيت بين يدي المعتمد على الله وقد غناه من شعر على بن محمد
ابن نصر

حُرِمْتُ بَدَلْ نَوَالِك * وَأَسَوَّأَ مِنْ فَعَالِك !
لَمَّا مَلَكْتَ وَصَالِي * آيَسْتَنِي مِنْ وَصَالِك

فوهب له مائتي دينار . قال : وغنى يوما عند ابن المدبر بحضرة عريب ، فقالت
له : أحسنت يا أبا جعفر ، ولو عاش الشيخان ما قلت لهما هذا ، تعنى علويّه ومُحَارِق .

وقال أبو الفرج : إن أبا حشيشة ألف كتابا جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء ؛ قال : وهو كتاب مشهور ، قال : أول من سمعني من الخلفاء المأمون ، وصفني له محارق فأمر بإشخاصي إليه وأمر لي بألف درهم أتجهز بها ، فلما وصلت إليه أدنانى وأعجب بى ، وقال للعصم : هذا أثر خدمك وخدم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق . وذكر ما كان يشتهيه عليه كل خليفة ، فقال : كان المأمون يشتهى من غنائى

كان ينهى فنهى حتى [سلا] * وأنجلت عنه غبايات الصبا
خلع اللهو وأضحى مسيلا * للنهى فضل قبيص وردا
قال : وكان المعتصم يشتهى على

أسرفت فى سوء الصنيع * وفكت بى فتك الخليع
ولعت بى متمردا * والعذر فى طرق الولوع
صيرت حبك شافعا * فأثبت من قبل الشفيع

قال : وكان الواثق يختار من غنائى

يا تاركى متلذذ السعدال جذلان الفرات

انظر إلى بعين را * فى نظرة قبل المات
حلتى بين الوعيدوين ألسنة الوشاة !
ماذا يرجى بالحيا * مة مذكس روح الحياة !

قال : وكان المتوكل يحبى ويستخفى ، وكانت أغانيه التى يشتهىها على كثيرة ، منها
أطعت الهوى وخلعت العذارا * وباكرت بعد المراح العقارا

(١) آخر الشطر الأول من البيت مفقود من الأصل . ولم يوفق اليه حين التصحيح . فلعن الكلمة التى وضعناها تكون قريبة من الأصل .

ونازعك الكأس من هاشم * كريمٌ يُحِبُّ عليها الوَاقرا
فَتَى فَرَّقَ الحَمْدُ أَمْوَالَهُ * يُجْرُ القَمِيصَ وَيُرِنِي الإِزارا
رَأَى اللهُ جَعْفَرَ خَيْرَ الأَنَامِ * فَلَمَّكَه وَوَقَاهُ الحِذارا

قال : وكان المستعين يشتهي على

وما أَنَسَ لَأَنَسَ منها الخُشُوعَ * وفيَضَ الدَّمُوعَ وَغَمَزَ اليَدِ
وَخَذَى مِضَافٌ إِلَى خَدَّهَا * قِيَامًا إِلَى الصُّبْحِ لَمْ نَرْقُدِ

قال : وآشتهى على المعتمد

قَلْبِي يُحِبُّكَ يَا مَنِ * قَلْبِي ، وَيُبْغِضُ مَنْ يُحِبُّكَ
لَا كُونَ فَرْدًا فِي هَوَا * لِكَ ، فَلَيْتَ شَعْرَى كَيْفَ قَلْبُكَ ؟

قال بحظوة : وكانت وفاة أبي حشيشة بُسْرَ مَنْ رَأَى ، وسببها أنه أصطحب عند قَلَمِ
غلام الفضل بن كائش في يوم بارد فقال له : أنا لا أكل إلا طعاما حارًا فأثا
بفجأة باردة وقال : تساعدني وتأكل معي ، فأكل منها فحمد قلبه فمات .

ذكر أخبار القيات

وأول من غنى من النساء ومن أشتهر بالغناء منهن في الإسلام

قالوا : أول من غنى الغناء العربي جرادتا ابن جُدعان . قال أبو الفرج الأصفهاني :

قال ابن الكلبي : كان لابن جُدعان أمتان يُسمَّيان الجرادتين يُغَنِّيَانِ فِي الجَاهِلِيَّةِ
وسمَّاهما جرادتي عباد ، وهبهما عبدُ الله بن جُدعان لأُمِّية بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِيَّ ،
وكان قد أمتدحه . وابن جُدعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد
ابن تميم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَي بن غالب ، كان سيِّدا جوادا ، فرأى أُمِّية ينظر

إلى الجرادتين وهو عنده فأعطاه إياهما . وقد قيل في سبب إعطائه إياهما : إن أُمّية
 ابن أبي الصلت قدم عليه فقال له عبد الله : أمرُ ما أتى بك ؟ فقال أُمّية : كلاب
 غرما قد نجحتي ونهشتني ، فقال له عبد الله : قدمت عليّ وأنا عليل وحقوق لحقتني
 ولزمتني ، فأَنْظِرني قليلا وقد ضمنتُ قضاء دينك فلا أسألك عن مبلغه ، قال : فأقام
 أُمّية أياما ثم أتاه فقال

أذكر حاجتي أم قد كفاني * حيائك إن شيتك الحياءُ
 وعلمك بالأموارِ وأنت قرّم * لك الحسبُ المهدّبُ والسَّناءُ
 كريمٌ لا يُغيّره صباحٌ * عن الخلقِ الكريمِ ولا مساءُ
 تُباري الريحَ مكرمةً ومجدًا * إذا ما الكلبُ أبجّره الشتاءُ
 إذا أتني عليك المرءُ يومًا * كفاه من تعرضك الشَّاءُ^(١)
 إذا خلفت عبدَ الله فاعلم * بأن القومَ ليس لهم جزاءُ
 فأَرْضُك كلَّ مكرمةٍ بثَّها * بنو تيمٍ وأنت لهم سماءُ
 وهل تخفى السماءُ على بصيرٍ ! * وهل بالشمسِ طالعةٌ خفاءُ !

فلما أُنشدته أُمّية هذا الشعر كانت عنده قينتان ، فقال لأُمّية : خذ أيتهما شئت ،
 فأخذ إحداهما وأنصرف^(٢) ، فر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها ، وقالوا
 له : لقد ألفتَه عيلا فلورددتها عليه ! فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها فكان ذلك أقرب
 لك عنده وأكثر من كلّ حقٍّ ضيّنه ، فوقع الكلام من أُمّية موقعا ونِدم ، فرجع إليه
 ليردها عليه ، فلم أتاه بها قال ابن جُدعان : لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك

(١) في الأُغانى : تعرّضه .

(٢) كذا بالأُغانى ، وفي الأصل : قال لأُمّية : خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وأنصرف الخ .

على أخذها ، وذكر لأمية ما قال القوم ، فقال أمية : والله ما أخطأت يا أبا زهير ، قال : فما الذى قلت فى ذلك؟ فقال

(١٧)

عطاؤك زين لأمري إن حبوته * ببذل وما كل العطاء يزير
وليس بشين لأمري بذل وجهه * إليك كما بعض السؤال يشير

فقال عبد الله لأمية : خذ الأخرى ، فأخذهما جميعا وخرج ، فلما أن صار إلى القوم بهما أنشأ يقول

ومالى لا أحييه وعندى * مواهب قد طلعن من النجاد
لأبيض من بنى عمرو بن تميم * وهم كالمشرفيات الحداد
لكل قبيلة هاد ورأس * وأنت الرأس تقدم كل هاد
عماد الخيف قد علمت معد * وإن البيت يرفع بالعماد
له دايع بمكة مشمعل * وآخر فوق دارته ينادى
إلى رديج من الشيزى ملاء * لباب البر يلبك بالشهاد

١٠

وكان سبب قول أمية بن أبى الصلت هذا الشعر أن عبد الله بن جُدعان وفد على كسرى فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ف قيل له : هذا الفالوذ ، قال : وبم يصنع ؟ قيل : لباب البر يلبك مع غسل النحل ، قال : أبغونى غلاما يصنعه ، فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه ، ثم قدم به مكة فأمره أن يصنع الفالوذ ففعل ، ثم وضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا من أراد الفالوذ فليحضر ، فحضره الناس ، وكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا

ذكر ابن جُدعان بخي * رُكبا ذكر الكرام
من لا يخون ولا يعق * ولا يخله الأنام
يهب النجبة والتجيب له الرحالة والزمام *

٢٠

وَأَبْنُ جُدْعَانَ مَنِ تَرَكَ شَرْبَ الْخَمْرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَهَجَاهُ دُرَيْدُ بْنُ الصَّخْمَةِ بِشِعْرٍ ، فَلَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بِسُوقِ عُكَاظَ ، فَيَّاهُ وَقَالَ : هَلْ تَعْرِفُنِي يَا دُرَيْدُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَلِمَ هَجَوْتَنِي ؟ قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ ، قَالَ هَجَوْتِكَ لِأَنَّكَ كُنْتَ أَثَرًا كَرِيمًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَضْعَ شِعْرِي مَوْضِعَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : لَئِنْ كُنْتَ هَجَوْتَ لَقَدْ مَدَحْتَ ، وَكَسَاهُ وَحَمَلَهُ عَلَى نَاقَةٍ بَرَحَلَهَا ، فَقَالَ دُرَيْدُ

إِلَيْكَ ابْنُ جُدْعَانَ أَعْمَلْتُهَا بِمُخَفَّفَةٍ لِلْسُرَى وَالنَّصَبِ

فَلَا خَفَضَ حَتَّى تَلَاقَى أَمْرًا * جَوَادَ الرِّضَى وَحَلِيمَ الْغَضَبِ

وَجَلَدًا إِذَا الْحَرْبُ مَرَّتْ بِهِ * يُعِينُ عَلَيْهَا بِحَزْلِ الْحَطَبِ

وَجَأَتْ الْبِلَادَ فَمَا إِنْ أَرَى * شَبِيهَ ابْنِ جُدْعَانَ وَسَطَ الْعَرَبِ

سَوَى مَلِكٍ شَاخٍ مُلْكُهُ * لَهُ الْبَحْرُ يُجْرِي وَعَيْنُ الذَّهَبِ

وَأَخْبَارُ ابْنِ جُدْعَانَ كَثِيرَةٌ وَسَيَادَتُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَشْهُورَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ إيرادِهَا ، وَإِنَّمَا أوردنا مَا أوردنا مِنْهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِطْرَادِ ، فَالْشَيْءُ بِالْشَيْءِ يَذْكَرُ . فَلَنَرْجِعْ إِلَى أَخْبَارِ الْقِيَانِ .

ذَكَرَ أَخْبَارَ جَمِيلَةٍ

هِيَ جَمِيلَةُ مَوْلَاةِ بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مَوْلَاةُ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو هِزْزٍ ، وَكَانَ لَهَا زَوْجٌ مِنْ مَوَالِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ ، وَكَانَ يَنْزِلُ فِيهِمْ فَعُغِبَ عَلَيْهَا وَلَأُ زَوْجُهَا فَقِيلَ لَهَا مَوْلَاةُ الْأَنْصَارِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَنْزِلُ بِالسَّنْحِ ، وَقِيلَ : كَانَتْ مَوْلَاةَ الْحِجَابِ بْنِ عَلَاطِ السَّلَمِيِّ . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ : وَهِيَ أَصْلُ مِنَ أَصُولِ الْغَنَاءِ ، أَخَذَ عَنْهَا مَعْبَدُ وَأَبْنُ عَائِشَةَ وَحَبَّابَةُ وَسَلَامَةُ وَعَقِيلَةُ وَالْعَتِيقَةُ وَغَيْرُهُمْ . وَفِيهَا يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَرْطَاةَ

إِنَّ الدَّلَالَ وَحُسْنَ الغِنَا * وَسَطَ بَيُوتِ بَنِي الْحَزْرَجِ
وَتِلْكَ جَمِيلَةُ زَيْنُ النِّسَاءِ * إِذَا هِيَ تَرْدَانُ لِلْمَخْرَجِ
إِذَا جِئْتَهَا بِذَلِكَ وَدَّهَا * بَوَّحَ مُنِيرٍ لَهَا أَبْلَحَ

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة
وفورعه نحن ، ولولا جميلة لم تكن نحن مغنين . قال : وسئلت جميلة : أتى لك هذا الغناء ؟
قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكن أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا وكنت أسمعه
يغنى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات وبنيت عليها غنائى بفجات
أجود من تأليف ذلك الغناء ، فَعَلِمْتُ وأَلْقَيْتُ ، فسمعتنى مَوَلِيَّاتِي يوما وأنا أغنى سرّاً
ففهِمْنِي ودخلن على وقلن : قد علمنا ما تكتمين وأقسمن على ، فرفعت صوتي
وغنيتن بشعر زهير بن أبي سلمى

وما ذكرك إلا يَحْتِ لى طَرَباً * إِنَّ الْحُبَّ يَبْعُضُ الْأَمْرَ مَعْذُوراً
ليس المحب كمن إن شطَّ غيَّره * هجر الحبيب ، وفي الهجران تغيير

فحينئذ شاع أمرى وظهر ذكرى وقصدنى الناس وجلست للتعليم فكان الجوارى
يكثرن عندى ، وربما آنصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً سوى ما سمعننى أطارح غيرهن ،
وقد كسبت لموالى ما لم يخطر لهم ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت . وقد أقرت لجميلة
كل مكي ومدنى من المغنين . قال : ولما قدم ابن سريج والغريص وابن مسجع
وسلم بن محرز المدينة واجتمعوا هم ومعبد وابن عائشة حكواها بينهم ، واجتمعوا عندها
وصنع كل منهم صوتاً وغناءً بحضرتها ، وقد ذكر الأصفهاني الأصوات ، فلما سمعت
الأصوات قالت : كلكم محسن مجيد فى غنائه ومذهبه ؛ قال ابن عائشة : ليس هذا
بمقنع ، قالت : أما أنت يا أبا يحيى فتضحك الشكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوس ،
(١) كذا فى الأغاني ، وفى الأصل : شيئاً مما سمعتنى . (٢) كذا فى الأغاني ، وفى الأصل : وأصل .

وأما أنت يا أبا عبادة فَنَسِيحٌ وَحِدُهُ بِتَالِيكَ وَحَسَنَ نَظْمِكَ وَعَذُوبَةُ غَنَائِكَ ، وَأما أنت يا أبا عُثْمَانَ فَلَكَ أَوْلِيَّةٌ هَذَا الْأَمْرُ وَفَضْلُهُ ، وَأما أنت يا أبا جَعْفَرَ فَمَعَ الْخُلَفَاءُ تَصْلُحُ ، وَأما أنت يا أبا الْخَطَّابِ فَلَوْ قَدِمْتُ أَحَدًا عَلَى نَفْسِي لَقَدِمْتُكَ ، وَأما أنت يا مَوْلَى الْعَبَلَاتِ فَلَوْ أَبْتَدَأْتَ قَدِمْتُكَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ سَأَلُوهَا جَمِيعًا أَنْ تَغْنِيَهُمْ لِحَنَّا كَمَا غَنَوْا فَغَنَّتَهُمْ ، فَكَلَّمَهُمْ أَقْرَبُوا لَهَا وَفَضَّلُوهَا .

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنى أحدا إلا في منزلها ، فكان عبد الله بن جعفر يأتيها في مجلسها فيجلس عندها وتغنيه ، فأرادت أن تكفر عن يمينها وتأتيه فتغنيه في بيته ، فقال : لا أكلفك ذلك .

وروى الأصفهاني أن أبا عتيق وآبن أبي ربيعة والأخوص بن محمد الأنصاري أتوا منزل جميلة واستأذنوا عليها فأذنت لهم ، فلما جلسوا سألت عن عمر ، فقال لها : إني قصدتك من مكة للسلام عليك ، فقالت : أهل الفضل أنت ، قال : وقد أحببت أن تُفَرِّغِي لَنَا نَفْسَكَ الْيَوْمَ وَتُخْلِي مَجْلِسَكَ ، قالت : أفعل ، فقال لها الأخوص : أحب ألا تغنى إلا بما نسالك ، فقالت : ليس المجلس لك ، القوم شركاؤك ، فقال : أجل ، قال عمر : إني أرى أن نجعل الخیار إلهيا ، قال آبن أبي عتيق : وفقك الله ، فدعت بعود فغنت

تَمِشِي الْمُوَيْخِي إِذَا مَشَتْ فُضْلًا * مَشَى التَّرِيفِ الْمَخْمُورِ فِي الصُّعْدِ
تَظَلُّ مِنْ بَعْدِ بَيْتِ جَارَتِهَا * وَاضْمَعَةَ كَفِّهَا عَلَى الْكَفِّدِ
يَا مَنْ لِقَلْبٍ مُتَمِّمٍ سَدِيمٍ * عَائِنِ رَهِينٍ مُكَلِّمٍ كَمَدِ
أَرْجُرُهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَرْجِرٍ * عِنْدَ بَطْرِفٍ مُكْحَلِ السَّهْدِ

قال راوى هذه الحكاية : فلقد سمعتُ للبيت زلزلةً وللدار ههمةً ، فقال عمر : لله درك يا جميلة ! ماذا أعطيت ! أنت أولُ الغناء وآخره ! ثم سكنت ساعة وأخذت

العود فغنت ، فطرب القوم وصفقوا بأيديهم وخصّصوا بأرجلهم وحرّكوا رؤوسهم ، وقالوا :
نحن فداؤك من المكروه ، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت ! وأحضر الغداء فتغدى
القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه ، ثم دعت بأنواع الأشربة ، فقال عمر :
لا أشرب ، وقال ابن أبي عتيق مثل ذلك ، فقال الأحوص : لكنّي أشرب ، وما جزاء
جميلة أن يُمتنع من شربها ! فقال عمر : ليس ذلك كما ظننت ، فقالت جميلة : من شاء
أن يحلّي نفسه ويخاط روحه بروحى فعل ، ومن أبى ذلك عذّرناه ، ولم يمنعه ذلك
عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنس بمحادثته ، قال ابن أبي عتيق : ما يحسن بنا
إلا مساعدتك ، فقال عمر : إني لا أكون أخسكم ، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعا مطيعا ،
فشرب القوم أجمع فغنت بشعر ابن أبي ربيعة

ولقد قالت بلحارٍ لها * كلمهـى يلعـبن في محـجرتها
حُذِنَ عني الظلّ لا يتبعـنى * ومضت تسعى إلى قُبـها
لم تُعلّق رجلا فيما مضى * طفلة غـداء في حـلتها
لم يطش قط لها سـهم ومن * تـرمـه لا ينج من رـميتها

فصاح عمر ثم شق جيب قميصه إلى أسفله ، ثم ثاب إليه عقله فندم واعتذر وقال :
لم أملك من نفسي شيئا ، وقال القوم : قد أصابنا الذي أصابك وأغـمى علينا غير أننا
قد فارقناك في تحريق الثياب ، فدعت جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبلها ولبسها ،
وأنصرف القوم إلى منازلهم ، وكان عمر نازلا على ابن أبي عتيق ، فوجه إلى جميلة
بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معه فقبلتها جميلة ، وأنصرف عمر إلى مكة
جدلان مسرورا .

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والوزير بن بكّار عن عمه
مُصعب قالوا : حجّت جميلة فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم

- جماعة ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنين هنب وطويس والدلال ومعبد ومالك بن أبي السّمح وآبن عائشة ونافع الخير ونافع بن طنبورة وغير هؤلاء ممن ذكرهم ، ومن النساء المغنيات جماعة ذكرهن ، منهن الفرّهة وعزّة المليء وحباية وسلامة وخليفة وعقيلة والشماسية وفرعة ونيلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء ، ومن غير المغنين من الأشراف ابن أبي عتيق والأحوص وكثير عزّة ونصيب ، وجماعة من الأشراف الرجال والنساء . وحجّ معها من القيّان مشيعات لها ومعظّمات لقدرها نحسون قينةً وجه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقات وحملوهنّ على الإبل في الهوادج والقباب وغير ذلك ، فابت جميلة أن تُنفق واحدةً منهنّ درهما فما فوقه حتى يرجعن . قال : وتخير من خرج معها في اتّخاذ أنواع اللباس العجيب والهوادج والقباب . قال : ولما قاربوا مكة تلقاهم سعيد بن مسجع وابن سريج والغريص وآبن مُحَرِّز والهدليّون وجماعة من المغنين من أهل مكة وقيان كثير ، ومن غير المغنين عمر بن أبي ربيعة والحارث ابن خالد المخزومي والعرجي وجماعة من الأشراف ، فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنّ حاذق ولا مغنية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف [ممن سمينا وغيرهم من الرجال والنساء ، وخرج أبناء أهل مكة من] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيتهم ، فلما قضت حجها سألتها المكيّون أن تجعل لهم مجلسا ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ فقالوا : لها جميعا ، قالت : ما كنت لأخطِ جدا بهزل ، وأبت أن تجلس للغناء ، فقال عمر بن أبي ربيعة : أقسمتُ على من كان في قلبه حُبّ لسماح غنائها إلا أخرج معها إلى المدينة فإنّي خارج معها ، فخرجت في جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة ، فلما قدمت المدينة تلقاها الناس والأشراف من الرجال والنساء فدخلت بأحسن مما خرجت منها ، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على

(١) في الاغانى : وقيان كثيرة لم يُسمّن الخ (٢) زيادة من الأغاني .

أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعها وإلى القادمين معها، فلما دخلت إلى منزلها وتفرق الناس إلى منازلهم ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم أتاها الناس مُسَلِّمين، وما استنكف من ذلك صغير ولا كبير، فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء. وقالت لعمر بن أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابك، فإذا شئت فعد الناس، فغصت

الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وأبتدأت جميلة فغنت بشعر لعمر بن أبي ربيعة

هيهات من أمة الرحمن منزلاً^(١) * إذا حللنا بسيف البحر من عدن

وأحتلَّ أهلك أجياداً فليس لنا^(٢) * إلا التذكر أو حظ من الحزب^(٣)

لو أنها أبصرت بالجزع عبرته * وقد تفرَّد قُرى على فن

إذا رأث غير ما ظننت بصاحبها * وأيقنت أن نجماً ليس من وطني

ما أنس لا أنس يوم الحيف موقوفها * وموقفي وكلانا ثم ذو شجر

وقولها للثريا وهي باكية * والدمع منها على الخدين ذو سن:

بأنه قولي له من غير معتبة: * ماذا أردت بطول المكث في اليمن؟

إن كنت حاولت ديناً أو ظفرت به * فما أصبت بترك الحج من يمن

فكلهم استحسن الغناء، وضح القوم لحسن ما سمعوا، وبكى عمر حتى جرت دموعه

على ثيابه ولحيته، ثم أقبلت على ابن سريج فقالت: هات، فغنى صوته بشعر لعمر

أليست بالتي قالت * لمولاة لها ظهراً:

أشيرى بالسلام له * إذا ما نحونا نظراً

وقولي في ملاطفة * لزينب نولي عمراً

وهذا يحرك النسوا * ن قد خبرني الخبراً

(١) كذا في الأغاني وديوان عمر بن أبي ربيعة، وفي الأصل: منزلها.

(٢) كذا في الأغاني والديوان، وفي الأصل: لهم. (٣) كذا في الأغاني والديوان، وفي الأصل: هم.

ثم قالت لسعيد بن مسجع : هاتِ يا أبا عثمان ، فاندفع فغنى ! ثم قالت : يا معبد هاتِ ، فاندفع فغنى فاستحسنته ؛ ثم قالت : هاتِ يا بن مُحَرِّزِ فإنى لم أوترك لحساسة بك ولا جهلاً بالذى يجب فى الصناعة ، ولكنى رأيتك تُحب من الأمور كلها أوسطها وأعدّها لجعلتك حيث تحب واسطة بين المكيين والمدنيين ، فغنى ؛ ثم قالت للغريز : هاتِ يا مولى العبلات ، فغنى بشعر عمرو بن شأس الأبيات ، وفى آخرها ٥
أرادت عراراً بالهوان ومن يُردُّ عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم

فقالت : أحسن عمرو بن شأس ولم تُحسن ، إذ أفسدت غناءك بالتعريض ، والله ما وضعناك إلا موضعك ولا نقصناك من حَقِّك ، فهاذا أهناك ؟ ثم أقبلت على الجماعة فقالت : يا هؤلاء اصدقوه وعرفوه نفسه ليقنع بكانه ، فأقبل القوم عليه وقالوا : يا أبا يزيد ، قد أخطأت إن كنت عرَضت ، فقال : قد كان ذلك ولست بعائد ، وقام ١٠
إلى جميلة فقبل طرف ثوبها وآعترد ، فقبلت عُذره وقالت : لا تعد ، وأقبلت على ابن عائشة فقالت : يا أبا جعفر هات ، فغنى . فقالت : حسن ما قلت ، ثم أقبلت على نافع وبُدَيْع فقالت : أحب أن تُغنيا جميعاً بصوت ولحن واحد ، فغنيا ؛ ثم أقبلت على الهذليين الثلاثة فقالت : غنوا صوتاً واحداً ، فاندفعوا فغنوا ؛ ثم أقبلت على نافع بن طنبورة فقالت : هاتِ يا نقش الغضارة يا حسن اللسان ، فاندفع فغنى ، فقالت : حسن والله ؛ ١٥
ثم قالت : يا مالك هاتِ ، فإنى لم أوترك لأنك فى طبقة آخرهم ، ولكن أردت أن أخيم بك يومنا تبرئاً بك وكى يكون أول مجلسنا كآثره ووسطه كطرفه ، فإنك عندى ومعبد فى طريقة واحدة ومذهب واحد ، لا يدفع ذلك إلا ظالم ولا يُنكره إلا عاضل للقى ، والحق أقول فمن شاء أن ينكر ، فسكت القوم كلهم إقراراً بما قالت ، فاندفع فغنى
عدو لمن عادت وسلم لسلماها * ومن قزبت سلمى أحب وقرباً ٢٠

(١) كذا بالأغنى ، وفى الأصل : من (٢) كذا فى الأغنى ، وفى الأصل : ليقع .

هَيِّنِي أَمْرًا إِمَّا بَرِيئًا ظَلَمْتِهِ * وَإِمَّا مُسِيئًا تَابَ بَعْدُ وَأَعْتَبَا
أَقُولُ التَّمَّاسُ الْعَذْرِبَةُ ظَلَمْتَنِي * وَحَمَلْتَنِي ذَنْبًا وَمَا كُنْتُ مُذْنِبًا
لِيُنِكَ إِشْمَاتُ الْعَدُوِّ بِهِجْرَانَا * وَقَطَعْتَ حَبْلَ الْوَدِّ حَتَّى تَقْصِبَا
فَقَالَتْ جَمِيلَةٌ : يَا مَالِكُ، لَيْتَ صَوْتِكَ قَدْ دَامَ لَنَا وَدُمْنَا لَهُ ! وَقَطَعْتَ الْمَجْلِسَ
وَأَنْصَرَفَ عَامَّةُ النَّاسِ وَبَقِيَ خَوَاصُّهُمْ . قَالَ : وَلِمَا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي حَضَرَ الْقَوْمَ
جَمِيعًا، فَقَالَتْ لَطُوفُ بْنُ هَابٍ يَا أَبَا عَبْدِ النِّعَمِ، فَغَنَى

قَدْ طَالَ لَيْلِي وَعَادَنِي طَرَبِي * مِنْ حُبِّ خَوْدِ كَرِيمَةِ الْحَسَبِ
غَرَاءً مِثْلَ الْمَلَالِ آنِسَةٍ * أَوْ مِثْلَ تِمْنَالِ صُورَةِ الذَّهَبِ
صَادَتْ فُؤَادِي بِجَيْدِ مُغْزَلَةٍ * تَرَعَى رِيَاضًا مُلْتَقَّةَ الْعُشْبِ
فَقَالَتْ جَمِيلَةٌ : حَسَنٌ وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ النِّعَمِ، ثُمَّ قَالَتْ لِلدَّلَالِ : هَاتِ يَا أَبَا يَزِيدَ،
فَغَنَى . فَاسْتَحْسَنَتْ غَنَاءَهُ، ثُمَّ قَالَتْ لِهَنْبٍ : إِنَّا نَجْلُكَ الْيَوْمَ لِكِبَرِ سِنِّكَ وَرِقَّةِ عَظْمِكَ،
فَقَالَ : أَجَلٌ ، ثُمَّ قَالَتْ لِبَرْدِ الْفُؤَادِ وَنَوْمَةِ الضُّحَى هَاتِيَا جَمِيعًا لِحَنَا وَاحِدًا، فَغَنَّتَا،
فَقَالَتْ : أَحْسَنَتُمَا، ثُمَّ قَالَتْ : لَفَنَدُ وَزَجَّةٌ وَهَبَةُ اللَّهِ : هَاتُوا جَمِيعًا صَوْتًا وَاحِدًا إِنَّا نَكُمُ
مُتَّفِقُونَ فِي الْأَصْوَاتِ، فَاذْدَفُوا فَغَنُوا، ثُمَّ غَنَّتْ جَمِيلَةٌ بِشَعْرِ الْأَعْشَى

بَانَتْ سَعَادُ وَأَمْسَى حُبْلُهَا أَتَقَطَعَا * وَأَحْتَلَّتِ الْغُورَ فَالْجَدَيْنِ فَالْفَرَعَا
وَأَسْتَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ * مِنَ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبُ وَالصَّلَعَا
تَقُولُ بَنَتِي وَقَدْ قَرَبْتُ مَرْتَبَلًا * يَارَبُّ جَنِبِ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعَا
وَكَانَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ فَعْيَرُهُ * دَهْرٌ مُلِحٌّ عَلَى تَفْسِيرِي مَا جَمَعَا
قَالَ : فَلَمْ يُسْمَعْ شَيْءٌ أَحْسَنَ مِنْ آبَتْدَائِهَا بِالْأَمْسِ وَخَتَمَهَا فِي الْيَوْمِ، وَقَطَعْتَ الْمَجْلِسَ

وَأَنْصَرَفَ قَوْمٌ وَأَقَامَ آخَرُونَ . فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَجْتَمَعَ النَّاسُ فَضَرَبَتْ سِتَارَةُ
(١) فِي الْأَغَانِي قَدْ . (٢) فِي الْأَغَانِي : رَحْمَةُ .

وأجلست الجوارى ، فضرِبْنَ كُلَّهُنَّ ، وضربت هى فضربت على خمسين وتراً فزُلِزِلَت
الدار ، ثم غنّت على عودها وهنّ يضرِبْنَ على ضربها

فإن خَفِيتَ كانت لعينِكَ قُوَّةٌ * وإن تبدُ يوماً لم يُعمَمَكِ عارُها
من الخَفِرَاتِ البَيضِ لم ترَ غَلْظَةً * وفى الحَسَبِ الضَّخِيمِ الرَفِيعِ نِجارُها
فما رَوْضَةٌ بالخَزَنِ طَيِّبَةُ النَّرى * يُمِجُّ النَّدَا جَنَاجِئُهَا وَعَرَارُها
بأطيبِ مَنْ فِيهَا إذا جِئْتَ مَوْهِنًا * وقد أوقَدْتَ بالمندَلِ الرُّطْبَ نارُها

فدمعتُ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلّوا ثيابهم وتنفسوا الصَّعْدَاءَ وقالوا : بأنفسنا
أنتِ يا جميلة ! ثم قالت للجوارى : آكففن ، فكففن ، وقالت : يا عَزَّ غَنَّى ، فغنّت
بشعر لعمر

١٠ تذكّرتَ هِنْدًا وأعصارَها * ولم تقضِ نفسُك أوطارَها
تذكّرتِ النفسُ ما قد مَصَى * وهاجَتْ على العينِ عَوَارَها
لتنمَحَ رامةٌ مِنَ الهَوَى * وترعى لرامةٍ أسرارَها
إذا لم تُزْرِها حِذارِ العدا * حسدنا على الزُّورِ زُوارَها

فقلت جميلة : يا عَزَّ ، إنك اباقية على الدهر ، فنهيتُ لك حسنُ هذا الصوت مع جَوْدَةِ
هذا الغناء ، ثم قالت لحبابة وسلامة : هاتيا لحما واحدا ، فغَنَّا فَأَسْتَحْسِنَ غَنَّاؤَهُمَا ،
ثم أقبلت على خُلَيْدَةَ فقالت : بنفسى أنت ، غَنَّى فغنّت ، فَأَسْتَحْسِنَ منها ما غنّت .
ثم قالت لعَقِيلَةَ وَالشَّامِسيَّةَ : هاتيا ، فغَنَّا ، ثم قالت لفرعة ونَيْلَةَ وَنَدِيمَةَ وَلَذَّةَ الْعَيْشِ
هَاتَيْنِ ، فغَنَيْنِ ، فقالت : أحسنْتين ، وقالت لسعيدة والزرقاء : غَنِّيَا ، فغَنَّا ، ثم قالت
للجماعة فغَنَّوْا ، وأنفضى المجلس وعاد كلُّ إنسان إلى وطنه . فما رُئِيَ مجلسٌ ولا جُمُعٌ
أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غنّى به كل واحد منهم فأوردنا
٢٠

بعضه وتركنا بعضه اختصارا . وأخبار جميلة كثيرة قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهاني
جُمْلَةً تَدُلُّ على أنها كانت مُبَجَّلَةً عند الأشراف معظمة عند المغنّين ، يأخذون عنها
ويأتَمرون بأمرها ويسعون إليها وينطقون إذا استنطقتهم ويكفون إذا استكفتهم ،
وفيا قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

ذكر أخبار عَزَّة المَيْلَاء

قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عَزَّة مولاة للأَنْصار ومسكنها المدينة ، وهي
أقدم من غَنَى الغناء المَوْقَع من نساء الحجاز ، وماتت قبل جميلة . قال : وقد أخذ عنها
مَعْبَدٌ ومالك بن أبي السَّمْح وآبن مُحَرِّز وغيرهم من المكيين والمدنّيين ، وكانت من
أجمل النساء وجهًا وأحسنهنّ جسمًا ، وسُمّيت المَيْلَاء لتمايلها في مشيتها .

وقال مَعْبَد : كانت من أحسن النساء صوتًا بَعُود ، مطبوعةً على الغناء لا يُعَيِّها
أداؤه ولا صَنَعته ولا تَأْلُفُه ، وكانت تَغْنِي أغاني القِيَانِ القدماء مثل شِيرِينَ وَزُرْيَاب
وَحَوَلَةَ والرَّباب وسلمى ورائعة ، وكانت رائعةً أستاذتها ؛ فلما قَدِمَ نَشِيطُ وسائب خاثر
المدينة غَنَّا أغاني الفارسية ، فأخذت عَزَّةُ عنهما نَغْمًا وألقت عليهما أَلحانًا عَجِيبَةً ،
فهى أَوَّلُ من فتن أهل المدينة بالغناء وحرّض رجالهم ونساءهم عليه .

وقال الزُّبَيْرِي : وجدت مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عَزَّة قالوا : لله دَرَّها !
ما كان أحسنَ غِناءها وأَطْلَ صوتها وأندى حَلَقها وأحسنَ ضربها بالمزاهر والمعارف
وسائر الملاهي ، وأجملَ وجهها وأظرفَ لسانها وأقربَ مجاسمها وأكرمَ خُلُقها وأسنى
نفسها وأحسنَ مُساعدتها ! وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

(١) في الأغاني : من القدائم . (٢) في الأغاني : وألقت عليها الخ .

وكان ابن سريج في حداثته سنة يأتي المدينة فيأخذ عنها ويتعلم منها؛ وكان بها معجبا، وكان إذا سئل: من أحسن الناس غناء؟ قال: مولاة الأنصار المتفصلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء.

وكان ابن مُحَرِّز يقيم بمكة ثلاثة أشهر ثم يأتي المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عزة، وكان يأخذ عنها. وقد تقدم ذلك في أخباره.

وكان طويس أكثر ما يوى إلى منزل عزة، وكان في جوارها، وكان إذا ذكرها يقول: هي سيِّدة من غنى من النساء مع جمالٍ بارع وخلقٍ فاضل وإسلامٍ لا يشوبه دَنَسٌ، تأمر بالخير وهي من أهله، وتنهى عن الشر وهي تجانبه، فناهيك بها! ما كان أنبلها وأنبل مجلسها! ثم قال: كانت إذا جلست جلوسا عافا فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها فمن تكلم أو تحرك نقر رأسه.

وقال صالح بن حسان الأنصاري: كانت عزة مولاة لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها فغشيتهم. وغنت عمر بن أبي ربيعة لحنا لها في شيء من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صرعى معها، فلما أفاق قال له القوم: لغيرك الجهل يا أبا الخطاب، قال: إني سمعت والله ما لم أملك معه نفسي ولا عقلي.

وكان حسان بن ثابت معجبا بها، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة. وقد ذكرنا خبرها مع الثَّمان بن بَشِير وحسان بن ثابت، وأن كل واحد منهما سمع غناها فبكى حسان بن ثابت وأستعاد الثَّمان بن بَشِير صوتها مرارا، وتقدم أيضا من أخبارها في خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يستغنى عن إعادته في هذا الموضع. فلندكر من سواها.

ذكر أخبار سلامة القسّ

كانت سلامة القسّ هذه مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت ، وأخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السّمح ومن دونهم فمهرت فيه . وإنما سُميت سلامة القسّ لأن رجلا يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار بن جُشَم بن معاوية — وكان منزله بمكة ، وهو من قُراء أهل المدينة كان يلقب بالقسّ لعبادته — شَغِف بها وشهِر بحبّها ، وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تعمّدٍ منه فبلغ منه كلّ مبلغ ، فراه مولاهما فقال : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ فأبى ، فقال له مولاهما : أنا أقعدُها حيث تسمع غناءها ولا تراها ، فلم يزل به حتى دخل ، فأسمعه غناءها فأعجبه ، فقال : هل لك أن أخرجها إليك ؟ قال : لا ، فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدُها بين يديه ، فغنت فشَغِف بها وشَغِفَتْ به وعرف ذلك أهل مكة ؛ فقالت له يوما : أنا والله أُحِبُّك ؛ فقال : وأنا والله الذى لا إله إلا هو أُحِبُّك ؛ فقالت : والله أشتهى أن أعانقَكَ وأُقَبِّلَكَ ؛ فقال : والله وأنا أشتهى مثل ذلك ؛ قالت : وأشتهى والله أن أضاجعَكَ وأضع بطنى على بطنكَ وصدرى على صدرك ؛ قال : وأنا والله كذلك ؛ قالت : فما يمنعكَ من ذلك ؟ والله إن المكان لخال ؛ قال : يمنعنى منه قولُ الله عزَّ وجلَّ (الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) ، فانا أكره أن نُحوِّلَ مودتى إليكَ عداوةً يوم القيامة ؛ ثم قام وأنصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُسك ، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُسَبِّحُ بَعْطاءً ابنَ أبي رَباح . وله فيها أشعارٌ كثيرةٌ منها قوله

إن اتى طرقتك بين ركائب * تمشى مِزْهَرِها وأنت حرامُ
لِصَيْدِ قَلْبِكَ أو جزاء مودة * إن التزيقَ له عليك ذِمَامُ
بانت تُعَلِّلنا وتحسب أننا * فى ذلك أيقاظٌ ونحن نيامُ

حتى إذا سطع الضياء لناظري * فإذا وذلك بيننا أحلام^(١)
قد كنت أعدل في السفاهة أهلها * فاعجب لما أتى به الأيام
فاليوم أعدرهم وأعلم أنما * سبل الضلالة والهدى أقسام
وقوله أيضا فيها

٥ ألم ترها - لا يُعِد الله دارها - * إذا رجعت في صوتها كيف تصنع!
تمد نظام القول ثم تردّه * إلى صاصل من صوتها يرجع
وقوله فيها

ألا قل لهذا القلب: هل أنت مبصر؟ * وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر؟
ألا ليت أني حيث صارت بي النوى * جليس لسلمى كلما عجز مزهر

١٠ وله من قصيدة طويلة أولها

(٢٣)

سلام هل لي منكم ناصر * أم هل لقلبي منكم زاجر؟
قد سمع الناس بوجدى بكم * فمنهم اللائم والعاذر

في أشعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأخوص أيضا بشعر كثير .
وقال فيها أيضا ابن قيس الرقيات .

١٥ وروى أبو الفرج الأصفهاني قال : كانت سلامة وريا أختين ، وكانتا من أجمل
النساء وأحسنهن غناء . فاجتمع الأخوص وابن قيس الرقيات عندهما ، فقال لهما
ابن قيس الرقيات : إني أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدق فيها ولا أكذب^(٢) ، فإن أنما
غيتماي بذلك وإلا هجوتكما ولم أقربكما أبدا ، قالتا : فما قلت ؟ قال : قلت
لقد قنت ريا وسلامة القسا . فلم يتركا للقس عقلا ولا نفسا

(١) كذا في الأصل ، ولعلها : فاذا بذلك .

(٢) كذا بالأعاني ، وفي الأصل : فأصدق فيها وأكذب .

فَتَانِ أَمَا مِنْهُمَا فَشَبِيهُهُ الْيَلَالِ وَأُخْرَى مِنْهُمَا تُشَبِّهُ الشَّمْسَا
تَكُنَّ أَبْشَارَا رِقَاقًا وَأَوْجُهًا * عِتَاقَا وَأَطْرَافَا مُحْضَبَةً مُلْسَا
فَغَنَّتْهُ سَلَامَةً فَاسْتَحْسَنَهُ . وَقَالَ ابْنُ قَيْسٍ الرُّقَيَاتِ لِلْأُحُوصِ : يَا أَخَا الْأَنْصَارِ ،
مَا قُلْتَ ؟ قَالَ : قُلْتُ

سَلَامٌ هَلْ لِمُتِمِّ تَنْوِيلُ * أَمْ قَدَصَرَمْتِ وَغَالِ وَذَكِّ غُولُ ؟
لَا تَضْرِبِي عَنِّي وَلَوْلَاكَ إِنَّهُ * حَسَنٌ لَدَىَّ وَإِنْ بَخَلْتِ جَمِيلُ
أَزْعَمْتِ أَنْ مَوَدَّتِي وَصَبَابِي * كَذِبٌ وَأَنْ زِيَارَتِي تَعْلِيلُ^(١)

فَغَنَّتِ الدُّبَيَاتِ ، فَقَالَ ابْنُ قَيْسٍ الرُّقَيَاتِ : أَحْسَنَتِ وَاللَّهِ ، مَا أَظْنُكَ إِلَّا عَاشِقَةً
لِهَذَا الْخُلْفِ ، فَقَالَ لَهُ الْأُحُوصُ : وَمَا الَّذِي أَخْرَجَكَ إِلَى هَذَا ؟ قَالَ : حَسَنُ غَنَائِهَا
بِشَعْرِكَ ، فَلَوْلَا أَنْ لَكَ فِي قَلْبِهَا حُبَّةٌ مُفْرِطَةٌ مَا جَاءَ هَذَا حَسَنًا عَلَى هَذِهِ الْبَدِيهِ ، فَقَالَ
الْأُحُوصُ : عَلَى قَدَرِ حُسْنِ شَعْرِي عَلَى شَعْرِكَ هَكَذَا حَسَنُ الْغَنَائِ بِهِ ، وَمَا هَذَا [مِنْكَ]^(٢)
إِلَّا حَسَدٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَا حَسَدْتَ عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ سَلَامَةُ : لَوْلَا أَنْ الدَّخُولَ بَيْنَكُمَا
يُوجِبُ بَغْضَةً أَيْكُتُ بَيْنَكُمَا حُكُومَةٌ لَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ ، قَالَ الْأُحُوصُ : فَأَنْتِ [مِنْ ذَلِكَ]^(٢)
آمَنَةٌ ، قَالَ ابْنُ قَيْسٍ الرُّقَيَاتِ : كَلَّا ! قَدْ أُمِنْتُ أَنْ تَكُونَ الْحُكُومَةُ عَلَيْكَ ، فَلِذَلِكَ
سَبَقْتُ بِالْأَمَانِ لَهَا ، فَفَرَقَا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ مَشَى ابْنُ قَيْسٍ الرُّقَيَاتِ إِلَى الْأُحُوصِ
فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ عُذْرَهُ ، وَمِنْ شَعْرِ الْأُحُوصِ فِيهَا

سَلَامٌ إِنَّكَ قَدِمْلَكْتِ فَأَنْحِيحِي * قَدْ يَمْلِكُ الْحُرُّ الْكَرِيمُ فَيُسْجِحُ
مَنْ عَلَى عَائِلٍ أَطْلَتِ عَنَاءَهُ * فِي الْغُلِّ عِنْدَكَ وَالْعُنَاةُ تُسْرِحُ
إِنِّي لَا نَصَحْتُكُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ * سَيَانِ عِنْدَكَ مَنْ يَغْشُو وَيَنْصَحُ
وَإِذَا شَكُوتُ إِلَى سَلَامَةٍ حُبَّهَا * قَالَتْ : أَجِدُّ مِنْكَ ذَا أَمٍ تَمْرُحُ

(١) كَذَا فِي الْأَغَانِي ، وَفِي الْأَصْلِ : تَقَابِلُ . (٢) زِيَادَةٌ مِنَ الْأَغَانِي .

وحكى أبو الفرج قال : لما قدم عثمان بن حيان المُرَى المدينة واليا عليها قال له قوم من وجوه الناس : إنك قد وليت المدينة على كثرة الفساد، فإن كنت تريد أن تُصالح فطهرها من الغناء والزناء ، فصاح في ذلك وأجل أهله ثلاثا يخرجون فيها من المدينة، وكان ابن أبي عتيق غائبا وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح، فلما كان آخر ليلة من الأجل قدم فقال : لا أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس، فدخل عليها فقال : ما دخلت منزلي حتى جئتكم لأسلم عليكم، فقالوا : ما أغفلك عن امرنا! وأخبروه الخبر، فقال : اصبروا على الليلة، فقالوا : نخاف ألا يُمكنك شيء، قال : إن خفتم شيئا فخرجوا في السحر، ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيان فأذن له ، فسلم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضى حقه ، ثم جزاه خيرا على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزناء ، وقال : أرجو ألا تكون [عملت] عملا هو خير لك من ذلك ، قال عثمان : قد فعلت ذلك وأشار على به أصحابك ، فقال : قد أصبت ، ولكن ما تقول في امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تُكره على ذلك ، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير؟ وأنا رسولها إليك تقول : أتوجه إليك وأعوذ بك أن تُخرجني من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ، قال قال : فإنى أدعها لك ولكلامك ، فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنتظر إليها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغي أن يُترك تركتها ، قال : نعم ، فجاء بها ، وقال : احمل معك سُبحة وتخشعي ففعلت ، فلما دخلت على عثمان سلمت عليه وجلست وحدثته ، فإذا هي من أعلم الناس بأمور الناس فأعجب بها ، وحدثته عن آبائه وأمورهم فمكث لذلك . فقال ابن أبي عتيق : آفرئى للأُمير، فقرأت ، فقال لها : آخذى ، ففعلت . وكثر عجبها منها ، فقال : كيف لو سمعتم في صناعتها ! فلم يزل يُزله شيئا فشيئا حتى

أمرها بالغناء فغنته، فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها، ثم قال : لا والله ما مثل هذه تخرج، فقال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس تُقرّ سلامة وتُخرج غيرها، قال : فدعّوهم جميعا، فتركهم جميعا وأصبح الناس يتحدثون بذلك .

ثم اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة، وكانت لمُصعب بن سُهَيْل الزُهري، وقيل : لسُهَيْل بن عبد الرحمن بن عَوْف، وكانت حَبَابَة حارية آل لَاحِق فاشتراها جميعا، فاشترى سلامة بعشرين ألف درهم، وتسلمها رُسُل يزيد فخرجوا بها وشيعها الناس، فلما نزلت سقاية سليمان بن عبد الملك قالت للزسل : إن لي قوما كانوا يغشَوْنِي ويُسلمون عليّ، ولا بد لي من وداعهم والسلام عليهم، فأذن للناس أليها، فأتوا حتى ملأوا رَحبة القصر والفناء، ووقفت هي بينهم بارزةً ومعها العود فغنت

فَارْقُونِي وَقَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا * مَا لِمَنْ ذَاقَ مَيْتَةً مِنْ إِيَابِ

إِنْ أَهْلَ الْخُضَابِ قَدَّرَكُونِي * مُوزَعًا مُوَلَّعًا بِأَهْلِ الْخُضَابِ

أَهْلَ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلنَّيَا * مَا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ

كَمْ بِذَلِكَ الْحُجُوجِ مِنْ حَيِّ صَدِيقٍ * مِنْ كُھُولٍ أَعَفَةٍ وَشَبَابِ

سَكَنُوا الْحَزْنَ حَزَّ بَيْتِ أَبِي مُو * سَى إِلَى النِّخْلِ مِنْ صُفَى السَّبَابِ

فَلَيْ الْوَيْلُ بَعْدَهُمْ وَعَلَيْهِمْ * صَرْتُ فَرْدًا وَمَلَّتْ أَصْحَابِي

قال : فلم تزل تردّد هذا الصوت حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما شئت أن ترى باكيًا نبيلًا إلا رأيته .

قالوا : وكانت حَبَابَة عند يزيد متقدمة على سلامة، وكانت حبابة تنظر إلى سلامة بتلك العين الجليلة المتقدمة وتعرف فضلها عليها، فلما رأت أثره يزيد لها ومحبتة إياها استخفت بها، فقالت لها سلامة : أَى أُخِيَّة، نسيت فضلي عليك ! ويلك ! أين تأديب الغناء ؟ أين حقّ التعليم ؟ أنسيت قول جميلة لك وهي تطارحنا : خذى إحكام

- ما أطارحك من أختك سلامة، فلا تزالين بخير ما بقيت لك وكان أمركما مؤثلاً ! فقالت :
صدقته والله لا عدتُ لشيء تكرهينه أبداً . وماتت حَبَابَة وعاشت سلامة بعدها دهراً .
ولما مات يزيد أحضرها ابنه الوليد وأمرها بالغناء فتغنصت من ذلك وبكت
ثم غنته ، فقال : رحم الله أبي وأطال عمرى وأمتعني بحسن غناك ؛ يا سلامة ، بم كان
أبي يقدم حَبَابَة عليك ؟ قالت لا أدري والله ، قال : لكنني أدري ذلك ، بما قسم الله عزَّ
وجلَّ لها ، قالت : يا سيدي أجل . وهي لأحدى من أتهم بهن الوليد من جوارى أبيه .

ذكر أخبار حَبَابَة

- (١)
كانت حَبَابَة جارية مؤلدة من مولدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بابن دبابة ،
وقيل : بل كانت لآل لآحق المكيين ، وقيل : كانت لرجل يعرف بابن مينا .
وكانت تسمى الغالية فسماها يزيد بن عبد الملك لما اشتراها حَبَابَة . وكانت حُلوة
جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء طيبة الصوت ضاربة بالعود ، أخذت الغناء عن
ابن سُرَيْج وابن مُحَرِّز ومالك بن أبي السَّمْح ومعبد وعن جميلة وعزة الميلاء .
وكان يزيد بن عبد الملك يقول : ما تَقَرَّ عيني بما أوتيت من الخلافة حتى
أشترى سلامة جارية مُصْعَب ابن سُلَيْم وحَبَابَة جارية ابن لآحق المكية ، فأرسل
فأشترى بيته ، فلما أجمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال الأول

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّهَا النَّوَى * كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

(٢٥)

- وكان يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان قد قدم المدينة فترجَّع سُعدة
بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ورُبَيْعَة بنت محمد بن علي
ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك ، وأشترى الغالية بأربعة آلاف
(١) في الأغاني : بابن رمانة . (٢) في الأغاني طبع بولاق وفي الطبري طبع ألمانيا : العالية .
(٣) كذا في الأغاني ، وفي الأصل : لم يقرعني ما أوتيت الخ .

دينار، فبلغ ذلك سليمان فقال: لأحجرت عليه، فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حَبَابَة،
ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل أفريقية . فلما ولي يزيد اشتريتها سَعْدَة أَمْرَاتِه
وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها ، فلما حصلت عندها قالت له : هل بقي عليك
شئ من الدنيا لم تنله ؟ قال : نعم ، الغالية . قالت : أَوْرَأَيْتَهَا ؟ قال : نعم ، قالت :
أَفْعَرَفَهَا ؟ قال : نعم ، فرفعت السّتر فراها ، فقالت : هذه هي ؟ قال : نعم ، قالت :
هي لك ، وخرجت عنهما ، فسماها حَبَابَة وعَظُمَ قدر سَعْدَة عنده . ويقال : إنها
أخذت عليها قبل أن تهبها له أن تُوطىء لأبنا عنده في ولاية العهد .

قال : وارتفع قدر حَبَابَة عند يزيد وتمكّن حبّها من قلبه تمكّنا عظيما ، وكان أول
ذلك أنه أقبل يوما إلى البيت الذي هي فيه فقام من وراء السّتر فسمعها تترنّم وتُغني
كان لي يا يزيدُ حبُّك حينًا * كاد يَقْضِي على لَمّا التَّقِينَا

فَرَفَعَ السّتر فَوَجَدَهَا مضطجعةً مقبلة على الحِدار ، فعلم أنها لم تعلم به ولم يكن ذلك
لمكانه ، فألقى نفسه عليها وحركت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبهه بعمر بن عبد العزيز وقال : بماذا
صار عُمر أَرْجى لربه مني ؟ وقيل : بل لأمه مَسْلَمَة بن عبد الملك على الإلحاح على
الغناء والشرب ، وقال له : إنك وَلَيْتَ بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغل
بهذه الإماء عن النظر في الأمور ، والوفود ببابك وأصحاب الظّلامات يصيحون وأنت
غافل ! قال : صدقت والله ، وهم أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حَبَابَة أياما ،
فشق ذلك عليها فأرسلت إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، فقال

أَلَا لَا تُؤْمُهُ الْيَوْمَ ابْنَ يَتَبَلَّدَا * فَقَدْ غُلِبَ الْحَزُونُ أَنْ يَتَجَلَّدَا
بَكَيْتُ الصَّبَا جُهْدِي فَمِنْ شَاءَ لَأَمْنِي * وَمِنْ شَاءَ آسَى فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا

وَإِنِّي وَإِنْ فُتِدْتُ فِي طَلَبِ الصَّبَا * لَا أَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ فِي الْحُبِّ أَوْحَدًا
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشُقْ وَلَمْ تَذِرْ مَا الْمَوَى * فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَمَدًا
 فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَذَّ وَتَشْتَهَى * وَإِنْ لَأَمْ فِيهِ ذُو الشَّانِ وَفَنَدًا

قال : فلما كان في يوم الجمعة تعرضت له حَبَابَة عند خروجه إلى الصَّلَاة ، فلقيته والعودُ في يدها فننت البيت الأول ، ففظى وجهه وقال : مَهْ لَا تَفْعَلِي ، ثُمَّ غَنَّت
 « وما العيش إلا ما تَلَذَّ وتشتهى » فعدل إليها وقال : صدقت ، قَبَّحَ الله من لامنِي
 فيكِ ، يا غلام ، مُرْ مُسَلِّمَةً فَلْيُصَلِّ بالناس ، وأقام معها يشرب وهي تغنيهِ وعاد إلى
 حاله ، وقال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأُحوص ، فاستدعاه وأستَشْدَه
 الشعر فأنشده الأبيات ، ثم أنشده قصيدته التي أولها

يَا مُوقِدَ النَّارِ بِالْعِلْيَاءِ مِنْ إَضْمٍ * أَوْفِدْ فَقْدِهَيْتَ شَوْقًا غَيْرَ مُنْصَرِّمٍ

وهي قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : أرفع حوائجك ، فكتب إليه في نحو أربعين
 ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل في أمر هذه الأبيات : إن حَبَابَة
 لما بعثت إلى الأُحوص في عمل الشعر قالت له : إن رددتَ أمير المؤمنين عن رأيه
 فلك ألف دينار ، فدخل الأُحوص عليه وأستأذنه في الإنشاد ، فقال : ليس هذا
 وقتك ، فلم يزل به حتى أذن له فأنشده الأبيات ، فلما سمعها وثب حتى دخل على
 حَبَابَة وهو يتمتل

وما العيشُ إِلَّا مَا تَلَذَّ وَتَشْتَهَى * وَإِنْ لَأَمْ فِيهِ ذُو الشَّانِ وَفَنَدًا

قالت : ما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أبيات أنشدنيها الأُحوص ، فسلي
 ما شئت ، قالت ألف دينار تعطيها للأُحوص ، فأعطاه ألف دينار .

قال : وقال يزيد يوما لسلامة وحبابة : أَيْتَا غَنَّتِي مَا فِي نَفْسِي فَلَهَا حُكْمُهَا ،
فَغَنَّتْ سَلَامَةً فَلَمْ تُصَبِّ مَا فِي نَفْسِهِ ، وَغَنَّتْ حَبَابَةٌ بِشَعْرِ ابْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ
حَلَقٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حَوْلِي * بِفِلَسْطِينَ يُسْرِعُونَ الرُّكُوبَا
جَزَعْتُ أَنْ رَأَيْتُ مِشْيِي عِمْرَسِي * لَا تَلُومِي ذَوَائِي أَنْ تَشِيْبَ

٥٩

فأصابته ما في نفسه ، فقال : آحتكى ، قالت : تَهَبْ لِي سَلَامَةً وَمَالَهَا ، قال :
أَطْلُبِي غَيْرَهَا ، فَأَبَتْ غَيْرَهَا ، فقال : أَنْتِ أَوْلَى بِهَا وَمَالَهَا ، فَلَقِيتْ سَلَامَةً مِنْ ذَلِكَ
أَمْرًا عَظِيمًا ، فَقَالَتْ حَبَابَةٌ : لَا تَرَيْنَ إِلَّا خَيْرًا ، بِجَاءَهَا يَزِيدٌ فَسَأَلَهَا أَنْ تَبْعِيَهُ إِبَاهَا
بِحُكْمِهَا ، فَقَالَتْ : أَشْهَدُكَ الْآنَ أَنَّهَا حُرَّةٌ فَاحْطُ بِهَا الْآنَ أَرْوِّجُكَ مَوْلَاتِي .

قال : وَغَنَّتْ حَبَابَةٌ يَوْمًا يَزِيدُ
مَا أَحْسَنَ الْحَيْدَ مِنْ مُلِكَةٍ وَالسَّلْبَاتِ إِذْ زَانَهَا تَرَانُهَا
يَا لَيْتَنِي لَيْلَةً - إِذَا هَجَعَ النَّاسُ وَنَامَ الْكَلَابُ - صَاحِبُهَا
فِي لَيْلَةٍ لَا يُرَى بِهَا أَحَدٌ * يَسْعَى عَلَيْنَا إِلَّا كَوَاكِبُهَا

فطرب يزيد وقال : هل رأيت قط أطرب مني؟ قالت : نعم ، ابن الطيار معاوية
ابن عبد الرحمن بن جعفر ، فكتب يزيد إلى عبد الرحمن بن الضحاك فعمله إليه ،
فلما قدم أرسلت إليه حبابة : إِنْمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ لَكَذَا وَكَذَا وَأَخْبَرْتُهُ بِالْقِصَّةِ ، فَإِذَا
أَدْخَلْتُ عَلَيْهِ وَتَقَبَّلْتُ فَلَا تُظْهِرَنَّ طَرَبًا حَتَّى أَغْنَى الصَّوْتِ الَّذِي غَنَيْتُهُ ، فقال : سَوْءَةٌ
عَلَى كَبَرِ السِّنِّ ! فدعاه يزيد وهو على طنفسة خروضع لمعاوية مثلها ، وجاءوا بجاميين
فيهما مسك ، فوضع أحدهما بين يدي يزيد والآخر بين يدي معاوية ، قال معاوية :
فلم أدر كيف أصنع ، فقلت : أَنْظِرْ كَيْفَ يَصْنَعُ فَأَصْنَعُ مِثْلَهُ ، فَكَانَ يَقْبَلُهُ فَتَفْجُحُ
رِيحُهُ وَأَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جِئَ بِحَبَابَةٍ وَغَنَّتْ ، فَلَمَّا غَنَّتْ ذَلِكَ الصَّوْتِ أَخَذَ

معاوية الوِسادة فوضعها على رأسه وقام يدور ويقول: الدُّخْنُ بالثَّوْيِ يعنى اللُّوْبِيَا!
وامر له يزيدُ بِصَلَاتٍ فِي دَفَعَاتٍ مَبْلُغُهَا ثَمَانِيَةُ آلَافٍ دِينَارٍ .

وحكى أيضا أنها غنّت يوما يزيدَ فطِرِبَ، ثم قال لها : هل رأيتِ أَطْرَبَ مِنِّي ؟
قالت : نعم ، مولاي الذى باعنى ، فعاظه ذلك فكتب في حمله مقيّدا ، فلما وصل
أمر يزيدُ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ فَأَدْخَلَ يَرْسُفَ فِي قِيوده ، وأمر يزيدَ حَبَابَةَ أَنْ تَغْنَى فغنّت
تَسْتَطُبُّ بِنَا دَارُ جِيرَانِنَا * وَلَلدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ

فوثب حتى ألقي نفسه على الشَّمْعَةِ فاحترقت لحيته ، وجعل يصيح : الحريق
يا أولاد الزنا ! فضحك يزيدُ وقال : لَعَمْرِي إِنْ مِثْلَ هَذَا يُطْرِبُ النَّاسَ ، وأمر بِحُلِّ
قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابَةَ ، وردّه إلى المدينة .

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى غانم الأزدى قال : نزل يزيدُ بن عبد الملك
بيت رأس بالشَّام ومعه حَبَابَةُ فقال : زعموا أنه لا يصفو لأحد يوما عيشُهُ إلى الليل
لا يُكَدِّرُهُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ، وسأجرب ذلك ، ثم قال لمن معه : إِذَا كَانَ غَدٌ لَا تُخَيِّرُونِي
بشَيْءٍ وَلَا تَأْتُونِي بِكَلْبٍ ، وَخَلَا هُوَ وَحَبَابَةُ ، فَأَتَيَا بِمَا يَأْكُلَانِ ، فَأَكَلَتْ رُقْمَانَةً فَشَرِقَتْ
بَحْبَةً مِنْهَا فَمَاتَتْ ، فَأَقَامَ لَا يَدْفِنُهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَغْيِرَتْ وَأَنْتَذَتْ وَهُوَ يَشْمُهَا وَيَرْشِفُهَا ،
فَعَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ دَوُوهُ وَأَقْرَبَاؤُهُ وَصَدِيقُهُ وَعَابُوا عَلَيْهِ مَا يَصْنَعُ ، وَقَالُوا : قَدْ صَارَتْ
جِيْفَةً بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَإِذِنْ لَهِمْ فِي غَسْلِهَا وَدَفْنِهَا ، فَأَنْحَرَجَتْ فِي نِطْعٍ وَخَرَجَ مَعَهَا لَا يَتَكَلَّمُ
حَتَّى جَلَسَ عَلَى قَبْرِهَا ، فَلَمَّا دُفِنَتْ قَالَ : أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ كُنَيْزٌ

فَإِنْ تَسَلَّ عَنْكَ النَّفْسُ أَوْ تَدَّعِ الْهَوَى * فَبِالْيَاسِ تَسْلُو عَنْكَ لَا بِالْجَلْدِ
وَكُلُّ خَلِيلٍ رَأَى نِيَّ فَهُوَ قَائِلٌ * مِنْ آجَلِكِ هَذَا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ

فما بقي إلا خمس عشرة ليلة ومات فدُفِنَ إلى جنبها . وروى أيضا عن مَسْلَمَةَ بن
عبد الملك قال : لما ماتت حَبَابَةُ جَزَعَ عَلَيْهَا يَزِيدُ بِفَعْلَةٍ أُسْكِنَهُ وَأَعَزَّيَهُ وَهُوَ ضَارِبٌ

بَذَنَهُ عَلَى صدره ما يَكْمُنُ حَتَّى دَفَنَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى بَابِهِ انْفَتَحَ إِلَيْهِ وَقَالَ : فَإِنْ تَسَلُّ عَنْكَ النَّفْسُ ... الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ فَكَلَّمَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ هَلَكَ .

قال : وروى المدائني أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه بإيها ، فقال : لا بُدَّ أَنْ تُنَبِّشَ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهَا ، فَنُبِّشَتْ وَكُشِفَ لَهُ عَنْ وَجْهِهَا وَقَدْ تَغَيَّرَتْ تَغْيَرًا قَبِيحًا ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَقِي اللَّهَ تَعَالَى ! أَلَا تَرَاهَا كَيْفَ صَارَتْ ! فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، أَخْرِجُوهَا ، بَغَاءَ مَسْلَمَةٍ وَوَجْهَ أَهْلِهِ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أزالوه عَنْ ذَلِكَ ، وَدَفَنُوهَا وَأَنْصَرَفَ ، وَكَيْدَ كَمَدًا شَدِيدًا حَتَّى مَاتَ دَفْنًا إِلَى جَانِبِهَا .

وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ أَبِي إِلَى الشَّامِ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا مَاتَ حَبَابَةَ وَأُخْرِجَتْ لَمْ يَسْتَطِعْ يَزِيدُ الرُّكُوبَ مِنَ الْحَزَنِ وَلَا الْمَشْيَ ، فَخُجِّلَ عَلَى مَنِيرٍ عَلَى رِقَابِ الرِّجَالِ ، فَلَمَّا دُفِنَتْ قَالَ : لَمْ أَصَلَّ عَلَيْهَا أَنْبَشُوا عَنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ : نَشُدُّكَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا هِيَ أُمَةٌ مِنَ الْإِمَاءِ وَقَدْ وَارَاهَا الثَّرَى . فَلَمْ يَأْذَنْ لِلنَّاسِ بَعْدَ حَبَابَةَ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَسْتَمْتُ دُخُولَ النَّاسِ حَتَّى قَالَ الْحَاجِبُ : أَخْرِجُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ . وَلَمْ يَنْشَبْ يَزِيدُ أَنْ مَاتَ كَمَدًا .

ذكر أخبار خُلَيْدَةَ الْمَكِّيَّةِ

قال أبو الفرج : هِيَ مَوْلَاةٌ لِأَبْنِ شِمَاسٍ كَانَتْ هِيَ وَعَقِيلَةُ وَرُبَيْعَةُ يُعْرِفْنَ بِالنَّمَائِسِيَّاتِ ، وَقَدْ أَخَذَتْ الْغَنَاءَ عَنْ أَبْنِ سُرَيْجٍ وَمَالِكٍ وَمَعْبَدٍ .

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضل بن الربيع أنه قال : مَا رَأَيْتُ ابْنَ جَامِعٍ يَطْرَبُ لِلْغَنَاءِ كَمَا يَطْرَبُ لِغَنَاءِ خُلَيْدَةَ الْمَكِّيَّةِ . وَكَانَتْ سُودَاءَ ، وَفِيهَا يَقُولُ الشَّاعِرُ
فَتَنَّتْ كَاتِبَ الْأَمِيرِ رَبَّاجٍ * يَا لَقَوِي خُلَيْدَةَ الْمَكِّيَّةِ

- وغنت هشام بن عروة يوما فلما سمعها قال: آكُتبي على صدرك (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وبين يديك الموعودتين لا تصيبك العين. وقال عمر بن شبة: بلغني أن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان أرسل إلى خُلَيْدَةَ المَكِّيَّةِ أبا عَوْنٍ مولاه يخطبها عليه، فاستأذن فأذنت له وعليها ثياب رِفاق لا تسترها، ثم وثبت فقالت: إنما ظننتك بعض سفهائنا، ولكني ألبس لك ثياب مثلك ففعلت، وقال: قد أرسلني إليك مولاي وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفان ومن علي، وهو ابن عم أمير المؤمنين يخطبك؛ قالت: قد نسبت فأبلغت، فسمع نسبي أنا بأبي [أنت] إن أبي بيع على غير عقد الإسلام ولا عهده فعاش عبدا ومات في رجله قَيْدٌ وفي عنقه سِلْسِلَةٌ على الإباق والسَّرْقَةِ، ولدتني أمي على غير رَشْدٍ وماتت وهي آفَقَةٌ، فأنا من تعلم، فإن أراد صاحبك نكاحا مباحا أوزنا صراحا فهمم البنا فنحن له، فقال: ١٠ إنه لا يدخل في الحرام، فقالت: لا ينبغي أن يستحي من الحلال، فأما نكاح السر فلا والله لا فعلته ولا كُت عارا على القيان، قال: فأنت محمد فآخبرته، فقال: ويحك! أتزوجها مغنية وعندي بنت طلحة بن عبيد الله! لا! ولكن أرجع إليها فقل لها: تخلف إلى أردد بصرى فيها لعل أسلو. فرجعت إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت: أما هذا فنعم، لسنا نمنعه.

١٥

ذكر أخبار مُتَمِّمِ الهاشمية

- قال أبو الفرج: كانت مُتَمِّمٌ مولدة صفراء من مولدات البصرة وبها نشأت وتدرت ^(٢) وغنت، وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتيها من المغنين، وكانت من نخرج بذل وتعليمها، واشتراها على بن هشام بعد ذلك فأزاداد أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنين، وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناءً وأدبا، وكانت تقول ٢٠
- (١) زيادة من الأغاني . (٢) في الأغاني: تأدبت .

الشعر ليس مما يستجد ولكنه يستحسن من مثلها. وحظيت عند علي بن هشام خطوة شديدة وتقدمت جواريه أجمع عنده، وهي أم ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند علي بن هشام برذون أشهب قرطاسي في نهاية الحسن والفراة وكان به معجبا، وكان إسحاق بن إبراهيم يشبهه شهوة شديدة ويعرض لعل مرارا في طلبه فلم يسمح به، فصار إسحاق إلى علي يوما وقد صنعت مقيم فلا زان حسري طلعاً، لم حملها * إلى بلد ناء قليل الأصدق؟

فاحتبس علي وبعث إلى مقيم يأمرها أن تجعل صوتها في صدر غنائها ففعلت، فأطربت إسحاق إطرابا شديدا، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيد في طربه وهو يصني إليه ويفقهه حتى صح له، ثم قال لعل : ما فعل البرذون الأشهب؟ قال : علي ما عهدت من حسنه وفراسته، قال : اختر الآن مني خلة من آنتين : إما أن طببت لي نفسا [به] وحمائني عليه، وإما أن أبيت فأدعي والله هذا الصوت [لي] وقد أخذته، أفتراك تقول : إنه لمقيم وأقول : إنه لي، فيؤخذ قولك ويترك قولي؟ فقال : لا والله ما أظن هذا ولا أراه، يا غلام قد البرذون إلى منزل إسحاق، لا بارك الله لك فيه .

وحكى أنب علي بن هشام مولاها كلمها بشيء فأجابته جوابا لم يرضه، فدفع في صدرها ففضضت ونهضت وشاقلت عن الخروج إليه، فكتب إليها فليت يدي بانت غداة مددتها * إليك ولم ترجع بكف وساعد فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا * فلست إلى يوم التكاثر بعاث

قال : وعبت عليه مرة فتمادى عتبا فترضاها فلم ترض، فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الملل، ورب هجر دعا إلى صبر، وإنما سمي القلب قلبا لتقلبه، وقد صدق عندي العباس بن الأحنف حيث يقول

ما أَرَانِي إِلَّا سَاهِجًا مِنْ لَيْسَ يَرَانِي أَقْوَى عَلَى الْمَجْرَانِ

مَلَّنِي وَاتَّقَا بِحَسَنِ وَفَائِي * مَا أَضَرَ الْوَفَاءَ بِالْإِنْسَانِ !

قال : فخرجت إليه من وقتها ورضيت .

وَرَوَى عَنْ يَحْيَى الْمَكِّيَّ قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ هِشَامٍ : لَمَّا قَدِمْتُ جَدَّتِي شَاهِكَ

- ٥ من خُرَاسَانَ قَالَتْ : اعْرِضْ جَوَارِيكَ عَلَيَّ ، فَعَرَضْتُهُنَّ عَلَيْهَا ، ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى الشَّرَابِ وَغَنَّتْنَا مُتَمِّمٌ ، فَأُطَالَتْ جَدَّتِي الْجُلُوسَ فَلَمْ أَنْبَسُطْ إِلَى جَوَارِيٍّ كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ ، فَقُلْتُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ

أَتَبَقُ عَلَى هَذَا وَأَنْتِ قَرِيبَةٌ * وَقَدْ مَنَعَ الزَّوَارُ بَعْضَ التَّكَلُّمِ

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا سَلَامَ مُودِّعٍ * وَلَكِنْ سَلَامٌ مِنْ جَبِيْبٍ مُتَمِّمٍ

- ١٠ وَكُنْتُ بَهُمَا فِي رُقْعَةٍ وَرَمَيْتُهُمَا إِلَى مُتَمِّمٍ فَأَخَذَتْهُمَا وَنَهَضَتْ لَصَلَاةِ الظُّهْرِ ، ثُمَّ عَادَتْ وَقَدْ صَنَعَتْ فِيهِ لَحْنًا فَفَتَّهُ ، فَقَالَتْ شَاهِكُ : مَا أَرَانَا إِلَّا قَدْ تَقَلْنَا عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، وَأَمَرْتُ الْجَوَارِيَّ فَعَمَلُوا مَحْفَتَهَا ، وَأَمَرْتُ لِلْجَوَارِيِّ بِجَوَائِزٍ سَاوَتْ يَنْهَنَ ، وَأَمَرْتُ لِمُتَمِّمٍ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

قال : وَمَرَّتْ مُتَمِّمٌ فِي نِسْوَةٍ وَهِيَ مَتَخَنِيَةٌ بِقَصْرِ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ

- ١٥ الْمَأْمُونُ ، فَلَمَّا رَأَتْ أَبَاهُ مُعْلَقًا لَا أُنَيْسَ بِهِ وَقَدْ عُلَاهُ التُّرَابُ وَالْفِصْرَةُ وَطُرِحَتْ فِي أَفْنِيَّتِهِ الْمَزَابِلَ وَقَفَتْ عَلَيْهِ وَتَمَثَّلَتْ

يَا مَنْزِلًا لَمْ تَبَلْ أَطْلَالُهُ * حَاشَى لِأَطْلَالِكَ أَنْ تَبَلَّ

لَمْ أَبْكِ أَطْلَالَكَ لِكُنْيَ * بَكَيتُ عَيْشِي فَيْكَ إِذْ وَلَّى

قَدْ كَانَ لِي فَيْكَ هَوًى مَرَّةً * غِيْبَهُ التُّرْبُ وَمَا مُلَّا

- ٢٠ فَصَرْتُ أَبْكِي بَعْدَهُ جَاهِدًا * عِنْدَ آدْكَارِي حَيْثُ قَدْ حَلَّا

وَالْعَيْشُ أَوْلَى مَا بَكَاهُ الْفَتَى * لَا بُدَّ لِلْحَزَنِ أَنْ يَسْلَى

قال : ثم بكيت حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها ^(١) [ويقولن] :
الله الله في نفسك ! فإنك الآن تؤخذين ، فبعد لأيي ما احتملت تهادى بين أمرأتين
حتى جاوزت الموضع .

وحكى عنها قالت : بعث إلى المعتصم بعد قدومه بغداد ، فلما دخلت أمر بالعود
فوضع في حجرى وأمرنى بالغناء فغنيتُ
هل مُسْعِدٌ لُبْكَائى * بَعْبَرَةٌ أَوْ دِمَاءُ ؟
وذاك شَيْءٌ قَلِيلٌ * لِسَادَتِ النَّجَبَاءِ

وهذا الشعر لمراد جارية على بن هشام ترثيه ، فقال : اعدلى عن هذا الصوت ،
فغنيتُ

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبت عني *

فدمعت عيناه وقال : غنى غير هذا ، فغنيت
أولئك قومي بعد عزٍّ وثروة ^(٢) * تفانواً فإلا تَذْرِفُ العينُ أَكْمَدَ
فبكى بكاءً شديداً ، ثم قال : ويحك ! لا تُغْنِي في هذا المعنى شيئاً ، فغنيتها
لا تَأْمِنُ المَوْتَ في حَلٍّ وفي حَرَمٍ : إن المنايا بجنبي ^(٣) كل إنسانٍ
وأسلك طريقك هوناً غير مكثرٍ * فسوف يأتيك ما يمتنى لك الماسي

فقال : والله إنى لأعلم أنك إنما أردت بما غنيت ما في قلبك لصاحبك ^(١) [وأنت]
لم تريدني ، ولو أعلم أنك تريدني لقتلتك ، ولكن خذوها ، فأخذوا بيدي فأخرجت .

(١) زيادة في الأغاني .

(٢) في الأغاني : ومنعة .

(٣) في الأغاني : تعشَى .

وهذه مِثْمَ هي التي كان يهواها عبد الصمد بن المعدّل، وأظنّ ذلك قبل اتّصالها بعليّ بن هشام، وهي إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال : وكانت لا تخرج إلّا متنقّبة فحكي المبرد وغيره أنها قدّمت يوماً إلى ابن عبّيد الله ابن الحسين العنبريّ القاضي، فاحتاج إلى أن يُشَهِد عليها فأمر بها أن تَسِفِر ففعلت ؛ فقيل لعبد الصمد : لو رأيت مِثْمَ وقد أسفّرها القاضي لرأيت شيئاً عجيباً ! فقال

ولما سَرَتْ عنها الفِئاعُ مِثْمُ * تروح منها العنبريّ مِثْمَا
رأى ابنُ عبّيد الله وهو محمَّمٌ * عليها لها طرفاً عليه محمَّمَا
وكان قديماً كالح الوجّه عابِساً * فلما رأى منها السّفورَ تَبَسَّما
فإن صبَّبْ قلبُ العنبريّ فقبله * صَبَاباً يَتَامَى قلبُ يحيى بنِ أكرمّا

فبلغ قوله يحيى بن أكرم فكتب إليه : عليك لعنة الله ! أيّ شيء أردت مني حتى أتاني شرك من البصرة ؟ فقال لرسوله : قل له : مِثْمُ أَعَدَّتْكَ على طريق القافية .

ذكر أخبار ساجي جارية عبّيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجي إحدى المحسنات المبرّزات المتقدّمات، وهي تخريج . ولاها عبّيد الله ، وكان مهما صنع من الغناء نسبه إليها ، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفع عن ذكره ويكره أن يُنسب إليه .

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر بحظّة قال : كتب المنة ضد إلى عبّيد الله بن عبد الله «بُثْمُ» أن يأمر جاريته ساجي بزيارته ففعل ؛ قال بحظّة : لحَدَّثني من حضر ذلك المجلس من المغنّيات قالت : دخلت علينا وما فينا إلّا من تَرُفَل في الحُرّي والحُلّال وهي في أثواب ليست كأثوابنا فاحتقرناها، فلما غنّت احتقرنا أنفسنا، ولم تزل تلك

حالتنا حتى صارت في أعيننا كالجلجل وصِرنا كَلَّا شَيْءَ ، ولما آنصرفت أمرها المعتضد
بمال وكسوة ، ودخلت إلى مولاهما فجعل يسألها عن خبرها وما رأت مما استظرفت
وسمعت وأستغربت ، فقالت : ما أستحسن ذلك شيئا ولا أستغربته من غناء
ولا غيره إلا عودا من عود محفورا فإني استظرفته ، قال بحظة : فما قولك فيمن
تدخل إلى دار الخليفة ولا تتمدّ عينها إلى شيء تستظرفه وتستحسنه إلا عودا ؟

قالوا : وكان المعتضد إذا استحسن شيئا بعث به إلى ساجي فُتِنِّي فيه ، وكانت
صنعتها في عصره تسمّى غناء الدار . وماتت ساجي في حياة مولاهما وكان عليلا فرناها
ببيتين فقال

يَمِينًا يَقِينًا لَوْ بُلِيْتُ بِفَقْدِهَا * وَبِي نَبْضُ عِرْقٍ لِلْحَيَاةِ وَلِلنَّكَيْسِ
لَأَوْشَكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

ذكر أخبار دُقاق

قال أبو الفرج : كانت دُقاق مُغَنِّيَّةً مُحْسِنَةً مُتَقِنَةً الأداء والصَّنعَة جميلة الوجه ،
أخذت الغناء عن أكابر مُغَنِّي الدَّولة العباسيَّة ، وكانت ليحيى بن الربيع فولدت له
أبْنُه أحمد ، ومات يحيى فترَوَّجت بعده بَعْدَة من القَوَادِ والكُتَّاب فمَاتُوا وورَثَهُمْ ،
ثم آنقطعت إلى حَمْدُونَة بنت الرشيد ثم إلى غَضِيض ، وكانت مشهورة بالطَّرْفِ
والمُجُون .

قال هبة الله بن إبراهيم بن المهدي : وكانت تواصل جماعة كانوا يميلون إليها
وتُرى كُلَّ واحد منهم أنها تهواه ، وكانت أحسن أهل عصرها وجها وأشأمهم على
من تزوجها أو رابطها ، فقال فيها إبراهيم بن المهدي

عَدِمْتُكَ يَا صَدِيقَةَ كُلِّ خَلْقٍ * أَكُلَّ النَّاسِ وَنَحِكَ تَعَشِقِينَ

وَكَيْفَ إِذَا خَلَطْتَ الْغَتَّ مِنْهُمْ * بِلَحْمٍ سَمِينِهِمْ لَا تَبْشَعِينَ

قال أبو هفان: خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحي وترك جاريته دُقاق في داره فعملت [بعده] (١) الأوابد؛ فقال موسى الأعمى (٢) [فيه] *

قُلْ لِيَحْيَى نَعَمْ صَبَرْتُ عَلَى الْمَوْتِ * وَلَمْ تَحْشَ رَبِّ سَهْمِ الْمُنُونِ

كَيْفَ قُلْتُ لِي أَطَقْتُ وَنَحِكَ يَا يَحْيَى عَلَى الضَّعْفِ مِنْكَ حَمْلَ الْقُرُونِ

يشير بقوله «سهم ريب المنون» إلى سُومها .

ذكر أخبار قلم الصالحية

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت قلم الصالحية مؤلدة صفراء حلوة حسنة الغناء والضرب حاذقة، قد أخذت عن إبراهيم وأبنة إسحاق ويحيى المكيّ وزُيِّر بن دحمان .
وكانت لصالح بن عبد الوهاب [أخي أحمد بن عبد الوهاب] كاتب صالح بن الرشيد، وقيل: بل كانت لأبنة . قال: وكانت لها صنعة يسيرة نحو عشرين صوتاً، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار .

قال أحمد بن الحسين بن هشام: كانت قلم إحدى المغنيات المحسنات المتقدمات، فغنى بين يدي الواثق لحن لها في شعر محمد بن ثخاسة، وهو

فِي آنْبَاضٍ وَحُشْمَةٍ فَإِذَا * صَادَقْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ

أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَحَابَةٍ * وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

فسأل: لمن الصنعة؟ فقيل: لقلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب، فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأحضره وسأله: من صالح بن عبد الوهاب؟ فأخبره،

قال : وأين هو؟ قال : ببغداد؛ قال : ابعث وَأَخْضِضْهُ وَلِيُخْضِرَ مَعَهُ جَارِيَتَهُ قَلَمٌ ،
فَكَتَبَ فِي إِشْتَخَاصِهِمَا ، فَقَدِمَا عَلَى الْوَائِقِ ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَأَمَرَهَا بِالْجُلُوسِ وَالْغَنَاءِ ، فَغَنَّتْ
فَاسْتَحْسِنَ غِنَاءُهَا وَأَمَرَ بِإِتِّبَاعِهَا ، فَقَالَ صَالِحٌ : أُبَيْعُهَا بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَوِلَايَةِ
مِصْرَ ، فَغَضِبَ الْوَائِقُ مِنْ ذَلِكَ وَرَدَّهَا إِلَيْهِ ؛ ثُمَّ غَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ زُرْزَرَ الْكَبِيرِ فِي مَجْلِسِ
الْوَائِقِ بِشِعْرِ الْغِنَاءِ فِيهِ لَهَا ، فَقَالَ الْوَائِقُ : لِمَنْ هَذَا الْغِنَاءُ ؟ فَقَالَ : لِقَلَمِ الصَّالِحِيَّةِ ،
فَبَعَثَ إِلَى ابْنِ الزِّيَّاتِ بِإِشْتَخَاصِهَا فَفَعَلَ ، فَدَخَلَتْ عَلَى الْوَائِقِ فَأَمَرَهَا بِالْغَنَاءِ ، فَغَنَّتْهُ
مِنْ صَنَعَتِهَا فَأَعْجَبَهُ غِنَاؤُهَا ، وَبَعَثَ إِلَى صَالِحٍ فَأَحْضَرَهُ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ
فِي هَذِهِ الْجَارِيَةِ فَاسْتَمْتُ فِي ثَمَنِهَا سَوْمًا يَجُوزُ أَنْ تُعْطَاهُ ، فَقَالَ : أَمَا إِذَا وَقَعَتِ الرِّغْبَةُ فِيهَا
مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا يَجُوزُ أَنْ أَمْلِكُ شَيْئًا لَهُ فِيهِ رَغْبَةٌ ، وَقَدْ أَهْدَيْتُهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
إِنْ مِنْ حَقِّهَا عَلَيَّ إِذَا تَنَاهَيْتُ فِي قَضَائِهِ أَنْ أَصِيرَها مِلْكًا ، فَبَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا ، فَقَالَ
الْوَائِقُ : قَدْ قَبِلْتُهَا ، وَأَمَرَ ابْنَ الزِّيَّاتِ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، وَسَمَّاها أَعْتَبَاطًا ،
فَلَمْ يُعْطِهِ ابْنُ الزِّيَّاتِ الْمَالَ وَمَطَّلَهُ بِهِ ، فَوَجَّهَ إِلَى قَلَمٍ مِنْ أَعْلَمِهَا بِذَلِكَ ، فَغَنَّتْ الْوَائِقُ
صَوْتًا وَقَدْ أَصْطَبَحَ ؛ فَقَالَ لَهَا : بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي مَنْ رَبَّكَ ، فَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي
وَمَا نَفَعُ مِنْ رَبَّانِي مَتَى إِلَّا التَّعَبُ وَالْغَرَمُ وَالْخُرُوجُ مَتَى صِفْرًا ؟ فَقَالَ : أَوَلَمْ نَأْمُرْ لَهُ
بِخَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : بَلَى ! وَلَكِنْ ابْنُ الزِّيَّاتِ لَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا ، فَدَعَا بِخَادِمٍ مِنْ
خَاصَّةِ الْخُدَمِ وَوَقَّعَ إِلَى ابْنِ الزِّيَّاتِ بِجَمْلِ خَمْسَةِ آلَافِ الدِّينَارِ إِلَيْهِ وَبِخَمْسَةِ آلَافِ
أُخْرَى مَعَهَا ؛ قَالَ صَالِحٌ : فَصَرْتُ مَعَ الْخَادِمِ إِلَيْهِ فَقَرَّبَنِي وَقَالَ : أَمَا خَمْسَةُ آلَافِ
الْأُولَى فَقَدْ حَضَرْتُ ، وَخَمْسَةُ آلَافِ الْآخَرَى أَنَا أَدْفَعُهَا إِلَيْكَ بَعْدَ جَمْعَةِ ، قَالَ :
فَقَمْتُ ، ثُمَّ تَنَاسَى كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنِي ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ أَقْتَضِيهِ ، فَبَعَثَتْ إِلَى : اكْتُبْ لِي
قَبْضًا بِهَا وَخُذْهَا بَعْدَ جَمْعَةِ ، فَكَرِهَتْ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ قَبْضًا فَلَا يَحْصِلُ لِي شَيْءٌ ،

قال : فاستترت في منزل صديق لي ؛ فلما بلغه آستتاري خاف أن أشكوه إلى
الوائق ، فبعث إلىّ بالمال وأخذ كتابي بالقبض ؛ قال : فابتعت بالمال ضيعةً
وتعلقت بها وجعلتها معاشي ، وقعدتُ عن عمل السلطان فما تعرّضتُ لشيء بعدها .

ذكر أخبار بصبص جارية ابن نفيس -

- ٥ قال أبو الفرج : كانت جارية من مَوْلِدَاتِ المدينة حُلوة الوجه حَسَنَةُ الغناء ،
قد أخذت عن الطبقة الأولى من المغنّين ؛ وكان يحيى بن نفيس مولاهما صاحب
قيان يغشاه الأشراف ويسمعون غناء جواريه ؛ ثم اشتريت للمهدى وهو ولي عهد
بسبعة عشر ألف دينار ؛ وقيل : إنها ولدت له عُلَيَّة بنت المهدي ، وقيل : أم عليّة
غيرها . قال : وكان عبد الله بن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْر يأتيها فيسمع
منها ، وكان يأتيها فتيان قريش فيسمعون منها . فقال عبد الله بن مصعب حين قدم
١٠ المنصور مُنْصَرِفًا إلى الحج ومرّ بالمدينة يذكر بصبص

أراحل أنت أبا جَعْفَرٍ * من قبل أن تسمع من بَصْبَصَا
هيمات أن تسمع منها إذا * جاوزت العيس بك الأعوصَا
نُفِدَ عليها مجاسي لَذَّةٍ * ومجلسًا من قبل أن تشخصَا
أحلف بالله يمينًا ومن * يحلف بالله فقد أخلصَا
١٥ لو أنها تدعو إلى بيعَةٍ * بايعتها ثم شققت العَصَا

فبلغ الشعرُ أبا جعفر المنصور فغضب ودعاه ، ثم قال : أما إنكم يا آل الزُّبَيْر
قديمًا ما قادتكم النساء ^(١) وشققتم معهنّ العصا ، حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع
المغنّيات ! فدوّنكم يا آل الزُّبَيْر هذا المرتع الوخيم .

وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو ابن ذى الزوائد فيها
بَصْبُصُ أَنْتِ الشَّمْسُ مُزْدَانَةٌ * فَإِنْ تَبَدَّلَتْ فَأَنْتِ الْهِلَالُ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ مَا هَكَذَا * فِيمَا مَضَى كَانَتْ يَكُونُ الْجَمَالُ
إِذَا دَعَتْ بِالْعُودِ فِي مَشْهَدٍ * وَعَاوَنْتِ يَمْنَى يَدَيْهَا الشِّمَالُ
غَنَّتْ غَنَاءً يَسْتَفِزُّ الْقَتَى * حَذَقًا وَزَانَ الْحَذَقُ مِنْهَا الدَّلَالُ

٥

قال : وهوى محمد بن عيسى الجعفرى بَصْبُصُ فهمام بها وطال ذلك عليه ، فقال
لصديق له : قد شغلتنى هذه عن صنعتى وكل أمرى ، وقد وجدت مَسَّ السُّلُوعِهَا ،
فاذهب بنا إليها حتى أكاشفها ذلك وأستريح ، فأتياها ، فلما غنّتهما قال لها محمد
ابن عيسى : أَتَغْنَيْنِ

وَكُنْتُ أُحِبُّكُمْ فَسَلَوْتُ عَنْكُمْ * عَلَيْكُمْ فِي دِيَارِكُمُ السَّلَامُ

١٠

فَقَالَتْ : لَا ، وَلَكِنِّي أُغْنَى

تَحْمِلُ أَهْلَهَا عَنْهَا فَبَانُوا * عَلَى آثَارٍ مِنْ ذَهَبِ الْعَفَاءِ

قال : فاستحيا وأزداد بها كلفاً ولها عِشْقاً ، فأطرق ساعة ثم قال لها : أَتَغْنَيْنِ
وَأَخْضَعُ بِالْعَبْيِ إِذَا كُنْتُ مُدْنِيًا * وَإِنْ أَذْنِبْتُ كُنْتُ الَّذِي أَتَتَّصِلُ

قَالَتْ : نَعَمْ ، وَأَغْنَى أَحْسَنَ مِنْهُ

١٥

فَإِنْ تُقْبِلُوا بِالْوَدِّ تُقْبِلُ بِمَثَلِهِ * وَتُنْزِلُكُمْ مِنَّا بِأَقْرَبِ مَثَرِ

فَتَقَاطَعَا فِي بَيْتَيْنِ وَتَوَاصَلَا فِي بَيْتَيْنِ ، وَمَا شَعَرَ بِهِمَا أَحَدٌ .

(٣٢)

قال : وحضر أبو السائب المخزومى مجلساً فيه بَصْبُصُ فغنت
قَلْبِي حَيِّسٌ عَلَيْكَ مَوْقُوفٌ * وَالْعَيْنُ عَبْرَى وَالدَّمْعُ مَذْرُوفُ
وَالنَّفْسُ فِي حَسْرَةٍ بَغْصَتَهَا * قَدْ شَفَّ أَرْجَاءُهَا التَّسَاوِيفُ

٢٠

إِنْ كُنْتُ بِالْحُسْنِ قَدْ وُصِفْتُ لَنَا * فَأَتَى بِالْهَوَى لَمْ وَصُوفُ
يَا حَسْرَتَا حَسْرَةً أَمُوتُ بِهَا * إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي إِلَيْكَ مَعْرُوفُ

قال : فطرب أبو السائب ونعر وقال : لا عَرَفَ اللهُ مَنْ لا يعرف لك معروفك ،
ثم أخذ قِنَاعَهَا عن رَأْسِهَا ووضعه على رَأْسِهِ ، وجعل يبكي ويلطم ويقول لها :
بأبي أنت ! والله إني لأرجو أن تكوني عند الله أفضل من الشهداء لما تُولِينَاهُ من
السرور، وجعل يصيح : وَأَعُونَاهُ ! يَا لَلَّهِ مَا يَلْقَى الْعَاشِقُونَ !

وقال عثمان بن محمد اللثي : كنت يوما في منزل ابن نفيس فخرجت إلينا جاريته
بضَبَصٍ ، وكان في القوم فتى يحبها ، فسألته حاجة فقام ليأتيتها بها ، فنسي أن يلبس
نَعْلَهُ ومضى حافيا ، فقالت له : يا فلان ، نسيت نعلك ، فرجع فلبسها وقال : أنا والله
كما قال الأول

وَحُبُّكَ يُنْسِينِي عَنِ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيَسْغُلُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحَاوِلُهُ

فأجابته فقالت

وَبِ مِثْلِ مَا تَشْكُوهُ مِنِّي وَإِنِّي * لَأَشْفِقُ مِنْ حُبِّ لَدَاكَ تَرَايِلُهُ

ذكر أخبار جوارى ابن رامين

وهن سلامة الزرقاء ، ورُبَيْعَة ، وسُعدَة

قال أبو الفرج : وآبن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر
ابن مروان ، وكان له جَوَارٍ مَغْنِيَّاتٌ مُجِيدَاتٌ ، وهن سلامة الزرقاء ورُبَيْعَة وسُعدَة ،
وفيهن يقول إسماعيل بن عمار قصيدته التي أولها

هَلْ مِنْ شِفَاءٍ لِقَلْبٍ بَلَغَ مَحْزُونٍ * صَبَا وَصَبَّ إِلَى رَثَمِ ابْنِ رَامِينَ

إِلَى رُبَيْحَةَ ابْنِ اللَّهِ فَضَّلَهَا * مُحْسِنَهَا وَسَمَّاعَ ذِي أَمَانِينَ
نَعَمْ شِفَاؤُكَ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ لَهَا : * قَتَلْتَنِي يَوْمَ دَيْرِ اللَّحِّ فَاجِئْنِي
أَنْتِ الطَّبِيبُ لِدَاءٍ قَدْ تَلَبَّسَ بِي * مِنَ الْحَوَى فَانْفُثِي فِيَّ وَأَرْفِئِي
نَفْسِي تَأْبَى لَكُمْ إِلَّا طَوَاعِيَةً * وَأَنْتِ تَحْمِيْنُ أَفْأُ أَنْ تُطْعِمَنِي

ومنها

لَمْ أُنْسَ سُعْدَةَ وَالزَّرْقَاءَ يَوْمَهُمَا * بِاللَّحِّ شَرْقِيَهُ فَوْقَ الدَّكَائِينَ
يُعْنِيَانِ ابْنَ رَامِينَ صُحَّاءَهُمَا * بِالْمَسْجَحِيِّ وَتَشْيِبِ الْمُحْبَبِينَ
فَمَا دَعَوْتَ بِهِ فِي عَيْشِ مَمْلَكَةٍ * وَلَمْ نَعِشْ يَوْمَنَا عَيْشَ الْمَسَاكِينِ

وهي أبيات طويلة، وله فيهن غيرها . قال : وأشتري جعفر بن سليمان بن علي
سلامة الزرقاء بثمانين ألف درهم ؛ وقيل : إنه اشترى رُبَيْحَةَ بمائة ألف درهم ، والأوّل
أصح ؛ وقيل : إن الذي اشترى رُبَيْحَةَ محمد بن سليمان ، وأشتري صالح بن علي سُعْدَةَ
بتسعين ألف درهم ؛ وقيل : أشتري معن بن زائدة إحداهن . قال : وكانت سلامة
الزرقاء عاقلة شَكَلَةً . قال : ولما اشترأها جعفر ومضت لها مدّة عنده سألها يوما :
هل ظفّر منك أحدٌ قطّ ممن كان يهواك بِخَلْوَةٍ أَوْ قُبْلَةٍ ؟ فخشيتُ أن يبلغه شيء كانت
فعلته بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شيء ، فقالت : لا والله إلا يزيد بن عَوْفٍ
العبادي الصيرفي ، فإنه قبّلني قُبْلَةً وقذف في في ثَوْبَةٍ بعثها بثلاثين ألف درهم ، فلم
يزل جعفر بن سليمان يَحْتَالُ له حتى وقع به فضربه بالسياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في خبر يزيد بن عَوْفٍ هذا بسند رفعه إلى
عبد الرحمن بن مقرون أنه أجمع هو ورواح بن حاتم عند ابن رامين ، وأن الزرقاء
خرجت عليهم في إزارٍ ورداءٍ [قَهْوِيْن] ^(١) موزدين كأن الشمس طالعة بين رأسها

وكعبها ، قال : فغتننا ساعة ، ثم جاء الخادم الذى كان يأذن لها ، وكان الإذن عليها دون مولاهما ، فقام على الباب وهى تغنى ، حتى إذا قطعت الغناء نظرت إليه فقالت : مه ، قال : يزيد بن عون العبادى الصيرفى الملقب بالماجن على الباب ، قالت : ائذن له ، فلما استقبلها طفر ثم ألقى بين يديها ، فوجدت والله له ، ورأيتُ أمر ذلك ، وتوقت تنوفاً^(١) خلاف ما كانت تفعل بنا ، فأدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال : انظري يا زرقاء ، جُعِلَتْ فداك ! ثم حلف أنه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، قالت : فما أصنع بك ؟ قال : أردت أن تعلمي ، فغنت صوتاً ثم قالت : يا ماجنُ هبهما لى ، قال : إن شئت والله فعلت ، قالت : قد شئت ، قال : فاليمن آلتى حلفتُ بها لازمة [لى] إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتي ، فقال ابن رامين للغلام : ضعى لى ماءً ثم اخرج عنا ، فقالت : هاتهما ، فمضى على ركبتيه وكفيه وهما بين شفتيه وقال : هاك ، فلما ذهب تناولهما جعل يصُدُّ عنها يميناً وشمالاً ليستكثر منها ، فغمزت جاريته على رأسها ، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه ، فلما دنا وذهب ليروغ دفعت منكبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فيه ورشع جبينها عرقاً حياً مناً ، ثم تجللت علينا فأقبلت عليه وقالت : المغبون فى آسته بُود ، فقال : فاما أنا فلا أبالى ، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة فى أنفى وفى ما حييت .

قال : واجتمع عند ابن رامين معن بن زائدة وروح بن حاتم وابن المقفع ، فلما تغنت الزرقاء وسعدت بمعن بن جفى ببدرة فصبتها بين يديها ، وبعث روح بن جفى ببدرة فصبتها بين يديها ، ولم تكن عند ابن المقفع دراهم ، فبعث بخاء بصك ضيعة

(١) تنوفاً فى ملبسه : تجود وبالغ .

(٢) زيادة فى الأغاني .

(٣) كذا فى الأغاني وفى الأصل " عليها " .

وقال : هذه عُهْدَةٌ ضَيَّعْتُ خُذِيهَا ، فأما الدراهم فما عندى منها شيء ؛ وشربت زرقاء دواء فاهدى لها ابن المقفع ألف درّاجة .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان رَوْحُ بن حاتم بن المهلب كثير الغشيان لمزل ابن رامين ، وكان يختلف إلى الزرقاء ، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه فقال لها : إن رَوْحُ بن حاتم قد ثَقُلَ علينا ، قالت : فما أصنع وقد غمّر مولاي بيرة ؟ قال : احتالى له ، فبات عندهم رَوْحُ ليلةً فأخذت سراويله وهو نائم فغسلته ، فلما أصبح سأله عنه ، فقالت : غسلناه ، فظن أنه أحدث فيه فاحتيج إلى غسله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم ؛ وخلا وجهها لابن جميل .

ذكر أخبار عَنَّان جارية الناطقى

قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عَنَّان مُوَلَّدة من مَوْلِدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدبت ، وأستردا النطاف وربّاهما ، وكانت صفراء جميلة الوجه شِكْلَةً مليحة الأدب والشعر سريعة البديهة ، وكان خول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم ؛ ولها مع أبي نُوَاس الحسن بن هانئ وغيره من الشعراء والفضلاء مُعَاناةٌ ومراجعات نذكر منها طرفاً .

قال أبو حَبَش : قال لى الناطقى : لو جئت إلى عَنَّان فطارتحتها ! فزمت على الغدوّ إليها ، وبثّ لىلى أحوك بيتين ، ثم غدوت عليها فأنشدتها

أَحَبُّ المِلاحِ اليبصُّ قلبي وربّما * أَحَبُّ المِلاحِ الصُّفْرُ من وَلَدِ الحَبَشِ
بكيتُ على صفراءٍ منهنّ مرّةً * بكاءً أَصابَ العَيْنَ مِنّى بالعمشِ

فقالت عَنَّان

بَكَيْتُ عليها إِنَّ قلبي يُحِبُّها * وإنْ فُوَادى كالجَنَاحَيْنِ دُورَ عَشِ
تَعَنَيْتِنَا بالشَّعرِ لما أَتَيْتِنَا * فدُونَكَ خُذْ مُحْكَمًا يَا أَبَا حَبَشِ

وقال مروان بن أبي حفصة : لقيني الناطفي فدعاني إلى عنان ، فانطلقت معه ،
 فدخل إليها قبلي فقال : جئتُك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة ، فوجدها عليه
 فقالت : إني عن مروان لفي شغل ، فأهوى إليها بسوط فضربها ، وقال لي : ادخل ،
 فدخلت وهي تبكي ، فرأيت الدموع تتحدر من عينيها ، فقلت
 بكّت عنان بفَرَى دمعها * كالذّر إذ يسقُ من خيطه
 فقالت مُسرعةً

فليت من يضربها ظالمًا * تَبْسُ يُنْهَاهُ عَلَى سَوَاطِئِهِ
 قال مروان : فقلت : أعتق ما أملك إن كان في الجن والإنس أشعرُ منها .
 وقال أحمد بن معاوية : قال لي رجل : تصفحتُ كُتُبًا فوجدت فيها بيتًا جهدت
 جهدي أن أجِد من يُجيزه فلم أجِد ، فقال لي صديق لي : عليك بعنان جارية الناطفي ،
 فأتيتها فأنشدتها البيت وهو
 وما زال يشكو الحب حتى رأيته * تتفّس من أحشائه وتكلّمًا
 فلم تلبث أن قالت

ويشكي فإبكي رحمةً لبكائه ، * إذا ما بكى دمعًا بكيتُ له دَمًا
 وقال موسى بن عبد الله التميمي : دخل أبو نؤاس على الناطفي وعنان جالسةً تبكي ،
 وقد كان الناطفي ضربه ، فأومأ إلى أبي نؤاس أن حرّكها بشيء ، فقال أبو نؤاس
 عنان لو جُدت لي فلّتي من * عُمَرَى في (أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا)^(١)
 فقالت

فإن تَمَادَى ولا تَمَادَيْتَ في * فَطَعِكَ حَبْلِي أَكُنْ كَن حَتَا

(١) لعله يريد من اقتباس هذه الآية ، وهي آخر آية في سورة البقرة ، أن يدل على أنه في آخر مرحلة من
 مدى حياته وأنه لم يبق من عمره إلا بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة .

فقال أبو نواس

عَلَّقْتُ مِنْ لَوْ أُنِّي عَلَى أَنْفُسِ السَّامِضِينَ وَالْفَائِزِينَ مَا نَدَمَا

فقلت

لَوْ نَظَرْتُ عَنْهَا إِلَى حَجَرٍ * وَلَدَّ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمًا

وقال أبو جعفر النخعي: كان العباس بن الأحنف يهوى عنان جارية النطاف،
بغافنى يوما فقال لى : امض بنا إلى عنان، فصرنا إليها فرأيتها كالمهاجرة له، بفسلنا
قليلا ثم آبتدا العباس فقال

قال عباس وقد أجهَّد من وجدٍ شديد:

ليس لى صبرٌ على المهجَرِ ولا لَدَعِ الصُّدُودِ

لا ولا يصبر للهَجَرِ فُوَادٌ من حَدِيدِ

فقلت عنان

مَنْ تَرَاهُ كَانَ أَغْنَى * مِنْكَ عَنْ هَذَا الصُّدُودِ

بعدَ وَصَلٍ لَكَ مِنِّي * فِيهِ إِرْغَامُ الْحَسُودِ!

فَاتَّخَذَ لِلْهَجَرِ إِنْ شِئْتَ فُوَادًا مِنْ حَدِيدِ

مَا رَأَيْتُكَ عَلَى مَا * كُنْتَ تَتَجَنَّى بِحَلِيدِ

فقال عباس

لَوْ تَجَوَّدِينَ لَصَبَّ * رَاحَ ذَا وَجَدٍ شَدِيدِ

وَأَنْحَى جَهْلٍ بِمَا قَدْ * كَانَ يَحْنَى بِالصُّدُودِ

لَيْسَ مَنْ أَحْدَثَ هَجْرًا * لَصَدِيقٍ بِسَدِيدِ

لَيْسَ مِنْهُ الْمَوْتُ إِنْ لَمْ * تَصْلِيهِ بِبَعِيدِ



قال : قلتُ للعبّاس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جنيتُ على نفسي
بتأنيبي عليها ، فلم أبرح حتى ترَضَّيْتُها له .

وقال الأصمعيّ بعثتُ إلى أمّ جعفر أن أمير المؤمنين قد لَسِجَ بذكر هذه الحارِية
عنان ، فإن صرفته عنها فلك حُكُّك ، قال : فكنت أُرَبِّعُ لأن أجد للقول فيها موضعاً
فلا أجده ولا أقدم عليه هيبةً له ، إذ دخلتُ يوماً فرأيتُ في وجهه أثر الغضبِ
فانخزلت ، فقال : مالك يا أصمعيّ ؟ قلت : رأيتُ في وجه أمير المؤمنين أثر الغضب ،
فلعن الله من أغضبه ! فقال : هذا الناطفيّ ، والله لولا أني لم أجزُ في حُكِّمٍ قط متعمداً
لجعلت على كل جبل منه قطعة ! ومالي في جاريته من أرب غير الشعر ، قال الأصمعيّ :
فذكرت رسالة أمّ جعفر فقلت : أجل ، والله ما فيها غير الشعر ، أفسرَ أمير المؤمنين
أن يجامع الفرزدق ! فضحك حتى استلقى ، وارتصل قولي بأمّ جعفر فأجزلتُ
لى الحائِرة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشيد من الناطفيّ جاريته ، فأبى أن يبيعها
بأقل من مائة ألف دينار ، فقال الرشيد : أعطيك مائة ألف دينار على أن تأخذ الدينار
بسبعة دراهم ، فامتنع عليه ، فأمر أن تحمل إليه ، فذكروا أنها دخات مجلسه في هيئتها ،
فقال لها الرشيد : ويلك ! إن هذا قد اعتاص عليّ في أمرك ، فقالت : ما منعك
أن تُوفيه وتُرَضِّيه ؟ فقال : ليس يقنع بما أعطيه ، وأمرها بالانصراف ، فتصدّق
الناطفیّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم ، فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات
مولاها ، فلما مات بعث الرشيدُ مسروراً الخادم فأخرجها إلى باب الكرخ وأقامها
على سريره وعليها رداء سنديّ قد جَلَّها ، فنودى عليها فيمن يزيدُ بعد أن شاوَر الفقهاء
فيها فقالوا : هذه كبد رطبة وعلى الرجل دين ، فأشاروا ببيعها ، وكانت تقول وهي على

المصطبة : أهان الله من أهانتى وأرذل من أرذلنى ! فوكرها مسرور بيده ، وبلغ بها مسرور مائتى ألف درهم ، فجاء رجل فقال : على زيادة خمسة وعشرين ألف درهم ، فوكّره مسرور وقال : أتزيد على أمير المؤمنين ! فبلغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها . قال : ولم يكن فيها عيبٌ يُعَابُ فطلبوا لها عيبا لا تُصيبها العينُ ، فأوقعوا بخنصر رجلها فى ظفره شيئا ، قال : وأولدها الرجل الذى اشتراها ولدين ، ثم خرج بها إلى نخراسان فمات هناك وماتت بعده .

ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدي

قال أبو الفرج : كانت شارية مؤلدة من مولدات البصرة ، يقال : إن أباه كان من بنى سامة بن لؤى المعروفين ببنى ناجية ، وإنه جدها ، وكانت أمها أمة فدخلت فى الرّق ، وقيل : إن أمها كانت تدعى أنها بنت محمد بن زيد من بنى سامة بن لؤى ، وقيل : إنها كانت تدعى أنها من بنى زهرة ، وقيل : بل سُرقت فبيعت ، فاشتريتها امرأة من بنى هاشم فأدبتها وعلمتها الغناء ، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي فأخذت عنه غناءه كله أو أكثره ، وبذلك يحتج من يُقدّمها على عريب ويقول : إن إبراهيم نخرجها ، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعرفة ما يأخذها به ، ولم تلق عريب ذلك ، لأن المراكبة لم يكن يقارب إبراهيم فى العلم ولا يقاس به فى بعضه فضلا عن سائر . قال : ولما عرضتها مولاتها الهاشمية للبيع ببغداد عرضت على إسحاق ابن إبراهيم الموصلى فأعطى فيها ثلاثمائة دينار ، ثم استغلاها بذلك ولم يُردّها ، فجىء بها إلى إبراهيم بن المهدي فساوم بها ، فقالت له مولاتها : إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلاثمائة دينار وأنت أحقّ بها ، فقال : زنوا لها ما قالت فوزن لها ، ثم دعا بقيّته فقال : خذى هذه الجارية ولا تُزيّاها سنة ، وقولى للجوارى يطرحن عليها ، فلما كان

بعد سنة أُتْرِجَتْ إليه ، فنظر إليها وسمع منها ، فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم ، فلما أراه إياها وأسمعه غناها ، وقال : هذه جارية تباع ، فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحاق : آخذها بثلاثة آلاف دينار وهي رخيصة بها ، فقال له إبراهيم : أتعرفها ؟ قال : لا ، قال : هذه الجارية التي عرضتها الهاشمية بثلاثمائة دينار فلم تقبلها ، فعجب إسحاق من حالها وما صارت إليه .

وقد حكي عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدي أنها عُرِضَتْ ببغداد على إبراهيم فَأُعْجِبَ بها إعجابا كبيرا ، [فلم يزل يُعْطِي بها حتى] بلغت ثمانية آلاف درهم ، قال : ولم يكن عند أبي درهم ولا داني ، فقال لي : ويحك ! قد والله أعجبتني هذه الجارية إعجابا شديدا وليس عندنا شيء ، فقلت له : بَعْ ما تملكه حتى الخنزف وتجمع ثمنها ، فقال لي : [قد تَذَكَّرْتُ في شيء] ، اذهب إلى علي بن هشام فأقرئه مني السلام ، وقل له : قد عُرِضَتْ عليّ جارية وقد أخذتُ بِجَمَاعِ قَلْبِي ، وليس عندى شيء ، فَأُحِبُّ أَنْ تُقْرِضَنِي عشرة آلاف درهم ، فقلت : إن ثمنها ثمانية آلاف درهم ، فلم نُكْثِرْ على الرجل بعشرة آلاف درهم ؟ فقال : إذا اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بُدٌّ من أن نكسوها ونُقيمَ لها ما تحتاج إليه ، قال : فَصِرْتُ إلى علي بن هشام وأبلغته الرسالة ، فدعا بوكيل له وقال : ادفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا لا أصلك ، ولكن هي لك حلال في الدنيا والآخرة ، قال : فصرت إلى أبي بالدرهم ، فلو طلعت عليه بالخلافة لم تكن تعيدل عنده تلك الدراهم ، قال : وكانت أمها خبيثة ، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيم أبنتها ما تستهي ذهبَتْ إلى عبد الوهاب بن علي ، ودفعت إليه رُقْعَةً يُوصِلُها إلى المعتصم تسأله أن يأخذ أبنتها من إبراهيم .

- وَحِكِي عَنْ يَوْسُفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيِّ صَاحِبِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَجَّهَ بِهِ إِلَى عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ فِي حَاجَةٍ كَانَتْ لَهُ ، قَالَ : فَلَقِيْتَهُ وَأَنْصَرَفْتَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ دِهْلِيزِ عَبْدِ الْوَهَّابِ حَتَّى اسْتَقْبَلْتَنِي أَمْرَأَةٌ ، فَلَمَّا نَظَرْتُ فِي وَجْهِهِ سَتَرْتُ وَجْهَهَا ، فَأَخْبَرَنِي شَاكِرٌ أَنَّ الْمَرْأَةَ أُمُّ شَارِيَةِ جَارِيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، فَبَادَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي رَأَيْتُ أُمَّ شَارِيَةِ فِي دَارِ عَبْدِ الْوَهَّابِ ، وَهِيَ مِنْ تَعْلَمُ ، وَمَا يَفْجُوكَ إِلَّا حِيلَةً قَدْ أَوْقَعْتَهَا ، فَقَالَ لِي : أَشْهَدُكَ أَنْ جَارِيَتِي شَارِيَةَ صَدَقَتْ عَلَى مَيْمُونَةَ بِنْتِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ ، ثُمَّ أَشْهَدُ أَبْنَةَ هَبَةَ اللَّهِ عَلَى مِثْلِ مَا أَشْهَدُنِي ، وَأَمَرَنِي بِالرُّكُوبِ إِلَى ابْنِ أَبِي دَوَّادٍ وَإِحْضَارِ مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّهُودِ الْمُعَدِّلِينَ عِنْدَهُ ، فَأَحْضَرَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ شَاهِدًا ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِ شَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ ، فَقَالَ لَهَا : اسْتُرِي وَجْهَكَ ، فَخِزَعْتُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَعْلَمَهَا أَنَّمَا أَمْرُهَا بِذَلِكَ خَيْرٌ يَرِيدُهُ لَهَا فَفَعَلْتُ ، فَقَالَ لَهَا : تَسْمَعِي ، فَقَالَتْ : أَا أَمْتُكَ ، فَقَالَ لَهَا : تَأْمَلُوا وَجْهَهَا ففَعَلُوا ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنَّهَا حُرَّةٌ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنِّي قَدْ تَزَوَّجْتُهَا وَأَصْدَقْتُهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، يَا شَارِيَةَ أَرْضَيْتِ ؟
- قَالَتْ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ، قَدْ رَضِيتُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ ، فَأَمَرَدَا بِالْدُخُولِ ، وَأَطْعَمَ الشُّهُودَ وَطَيَّبَهُمْ وَأَنْصَرَفُوا ، قَالَ : فَمَا أَحْسَبُهُمْ تَجَاوَزُوا دَارَ ابْنِ أَبِي دَوَّادٍ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَلِيٍّ ، فَأَقْرَأَ عَمَّهُ سَلَامَ الْمُعْتَصِمِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : مِنَ الْمَفْتَرِضِ عَلَى طَاعَتِكَ وَصِيَانَتِكَ عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُكَ ، إِذْ كُنْتَ عَمِّي وَصِنْتُ أَبِي ، وَقَدْ رَفَعْتَ إِلَى قِصَّةِ ذِكْرِ فِيهَا أَنَّ شَارِيَةَ أَبْنَتَهَا ، وَأَنَّهَا أَمْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ ، وَأَحْتَجَّتْ بِأَنَّهُ لَا تَكُونُ بِنْتُ أَمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ أُمَّةً ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ صَادِقَةً فِي أَنَّ شَارِيَةَ بِنْتُهَا ، وَأَنَّهَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ فَنَحَالُ أَنْ تَكُونَ شَارِيَةَ أُمَّةً ، وَالْأَشْبَهُ بِكَ وَالْأَصْلَحُ إِخْرَاجُ شَارِيَةِ مِنْ دَارِكَ وَتَصْيِيرُهَا عِنْدَ مَنْ تَتَّقُ بِهِ

(١) كذا وردت هذه الجملة بالأصل ولنعل يد الناسخ تصرفت فيها هذا التصرف فغيرتها فلقه كما ترى ، ولعل أصلها «وقد رفعت الى امرأة قصة ذكرت فيها أن شارية ابنتها وأنها من قريش الخ» .

من أهلك، حتى يُكشَف عما قالته هذه المرأة، فإن ثبت ذلك أمرت من جعلتها عنده بإطلاقها، وكان في ذلك الخطُّ لك في دينك ومُروءتك، وإن لم يصحَّ ذلك أُعيدت الجارية إليك وقد زال عنك القول الذي لا يليق بك ولا يحسن؛ فقال إبراهيم: فديتك، هَبْ شارية بنت زُهرة بن كلاب، ^(١) أُنكرُ على [أبن] العباس بن عبد المطلب أن يكون بعلاها؟ فقال عبد الوهاب: لا، فقال: أبلغ أمير المؤمنين، أبقاه الله، والسلام، وأخبره أن شارية حرة، وأنى قد تزوجتها بشهادة جماعة من العدول؛ وقد كان الشهود أعلموا أبن أبي دؤاد بالقصة، فركب إلى المعتصم وحدثه بالحديث معجبا له منه، فقال: ضلَّ سَعْيُ عبد الوهاب؛ ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم، فلما رآه يمشى في صحن الدار سدَّ المعتصم أنفه وقال: يا عبد الوهاب، أنا أُنتم رائحة صُوف مُحرق، وأحسب عَمَى لم يُقنعه ردُّك على أذنك صُوفَةً حتى أحرَقها، فشممتُ رائحتها منك، فقال: الأمر على ما طرُق أمير المؤمنين وأسمع؛ قال: ثم آتباع إبراهيم من بنته مميونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها، فكان عتقه إياها وهي في ملك غيره، ثم آتباعها من مميونة خَلَّتْ له، فكان يطؤها بملك اليمين وهي لتوهم أنها زوجته، فلما توفَّى طلبت شارية مشاركة أم محمد بنت خالد زوجة إبراهيم في الثمن، فأظهرت خبرها، فأمر المعتصم بآتباعها من مميونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار ^{١٥} فحوَّلت إلى داره، وكانت في ملكه حتى توفَّى. وقال أبن المعتز: وقد قيل: إن المعتصم آتباعها بثلاثمائة دينار، وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربَّأها تربية الولد.

قال: وحدثت شارية أنها كانت مع إبراهيم في حُرَاقَة قد توسط بها دجلة في ليلة مُقَمِّرة، فأندفعت فغنت

٢٠ لقد حثوا الجمالَ لِيَمَّـرُـبُوا مِنَّا فلم يَنَلُوا

(١) زيادة في الأغانى.

فوثب إليها فأمسكها فقال : أنت والله أحسن من الغريص وجهها وغناء ، فما يؤمِّنني عليك ! أمسكى .

ويقال : إنها لم تضرب بالعود إلا في أيام المتوكل لما اتصل الشر بينهما وبين عريب ، فصارت تقعد بها عند الضرب ، فضربت بعد ذلك .

قال ابن المعتز : وحدث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول ، وكان قاضي الكتّاب في زمانه ، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقة ، قال : أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار ، فامتنع من بيعها ، قال : فعاتبته على ذلك ، فلم يجبن بشيء ، ثم دعاني بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة ، فأحضر الغلام سقودا فيه ثلاثة قراريح ، فرمى إلى بواحدة فأكلتها وأكل اثنتين ، ثم شرب رطلا وسقاني ، ثم أتني بسقود آخر ففعل كما فعل وشرب [كما شرب ^(١)] وسقاني ، ثم ضرب ستر^(٢) إلى جانبه فسمعت حركة العيدان ، ثم قل : يا شارية تنغي ، فسمعت شيئا ذهب بعقلي ، فقال : يا سهل ، هي التي عاتبني في أن أبيعها بسبعين ألف دينار ، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

وحكى عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرني المعتز بالله ذات يوم بالمقام عنده فأقمت ، ومُدت الستارة وخرج من كان يغني وراءها وفيه شارية ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فاستحسنْتُ ما سمعت منها ، وقال لي المعتز : يا عبيد الله ، كيف ما تسمع منها عندك ؟ فقلت : حظَّ العجب من هذا الغناء أكثر من حظَّ الطرب ، فاستحسن ذلك ، وأخبرها به فاستحسنته .

قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غناء منذ نُوفِيَ المعتصم إلى آخر خلافة الواثق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدي لم يظأ شارية ، وإن الذي آفتظها المعتصم .

وكان إبراهيم يسمي شارية بنتي .

وقال يعقوب بن بيان: كانت شارية لصالح بن وصيف، فلما بلغه رحيل موسى ابن بغا من الجبل يريد به بسبب قتل المعتز أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك، فلما أوقع موسى بصالح استترت شارية عند هارون بن شعيب العكبري^(١)، وكان أنظف خلق الله طعاماً وأسراهم مائده، وأوسخهم كل شيء بعد ذلك، وكان له بُسرٌ من رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسميه أبي، وتزوره في منزله فتحمل معها كل شيء تحتاج إليه حتى الحصى تقعد عليه. وكانت من أكرم الناس، عاشرها أبو الحسن علي بن الحسين عند هارون هذا، ثم ضاق في وقت فأقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبت به بردها.

قال يعقوب بن بيان: وكان الناس بُسرٌ من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه في هؤلاء، وكان [أبو الصقر] إسماعيل بن بلبل عريبياً، فدعا علي بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجوارها، فاتصل الخبر بشارية فبعثت بجوارها^(٢) إلى علي بن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهن - قال: وما أدري [من] هي؟ مهرجاً أم مطرباً^(٣) أم قريّة، إلا أنها إحدى الثلاث - أن تغنيّه

لَا تُعَوِّدَنَّ بَعْدَهَا * فترى كيف أَصْنَعُ

فلما سمع الغناء ضحك، وقال: لست أعود



قال: وكان المعتمد قد وثق بشارية فلم يكن يأكل إلا طعامها، فمكثت دهرًا تُعِدُّ له كل يوم جَوْثَيْنِ، فكان طعامه منهما في أيام المتوكل

وقال أبو الفرج: حدثني بحظّة قال: كنت عند المعتمد يوما ففتت شارية بشعر مولاها إبراهيم بن المهديّ ولحنه

يا طوّل علة قلبي المعتاد * إلّف الكرام ومحبّة الأجماد
مازلت ألّف كلّ قرم ماجد * متقدّم الآباء والأجداد

فقال لها: أحسنت والله! فقالت: هذا غنائى وأنا عارية، فكيف لو كنت كاسية! فأمر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصة، فحُمل ذلك إليها؛ فقال لى على بن الحسين بن يحيى المنجم: اجعل أنصرفك معى، ففعلت؛ فقال لى: هل بلغك أن خليفة أمر لمغنية بمثل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية؟ قلت: لا، فأمر بإخراج سير الخلفاء، فأقبل بها الغلمان فى دفاتر عظام تصفحناها كلّها فما وجدنا أحدا قبله فعل مثل ذلك. انقضت أخبار شارية.

ذكر أخبار بذل

قال أبو الفرج: كانت بذل صفراء مولدة من مولدات المدينة وريت بالبصرة، وهى إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية، يقال: إنها كانت تغنى ثلاثين ألف صوت. قال: ولها كتاب فى الأغانى منسوب الأصوات [غير مجتمس] (١) يشتمل على اثنى عشر ألف صوت، يقال: إنها عملته لعلّى بن هشام. قال: وكانت حلوة الوجه نظيفة ضاربة متقدمة؛ وأبتاعها جعفر بن موسى الهادى فأخذها منه محمد الأمين وأعطاه مالا جزيلا. وأخذت بذل عن أبى سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وآبن جامع وإبراهيم وطبقتهم.

(١) زيادة فى الأغانى.

وقال محمطة عن أبي حشيشة : وكانت أحسن الناس غناءً في دهرها ، وكانت أستاذة كلِّ مُحَسِّن ومحسنة ، وكانت أَرْوَى خلق الله للغناء ، وكانت لجعفر بن موسى الهادى ، فوصفت لمحمد الأمين ، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزِيره إِيَّاهَا فأبى ، فاتاه الأمين إلى منزله فسمع مالم يسمع مثله قطُّ ، فقال لجعفر : يا أحنى ، بَعْنِي هذه الجارية ، فقال له : يا سيدي ، مثلي لا يبيع جاريةً ، قال : هَبْها لى ، قال : هى مُدَبَّرَةٌ ، فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذَل إلى الحَرَاقَةِ وأنصرف بها ، فلما أفاق جعفر سأل عنها ، فأخبر بالخبر فسكت ، فبعث إليه محمد من الغد ، فجاء وبَذَل جالسةً فلم يقل شيئاً ، فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أوقروا حَرَاقَةَ ابن عمى دراهم فأوقرت ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين إلى أن قُتِل ثم خرجت ، فكان ولد جعفر وولد الأمين يدعون ولأهأا ، فلما ماتت ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وهبها من الجوهر ما لم يملك أحد مثله ، فسلم لها بعد مقتل الأمين ، فكانت تتبع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم ، فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة . قال : ورغب إليها وجوه القواد والكُتَّاب والهاشميين فى الترويج فأبته ، وأقامت على حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال : كنت يوماً عند بذل وأنا غلام ، وذلك فى أيام المأمون وهو ببغداد ، وهى فى طارمة لها ثَمَثَشَطٌ ، فخرجتُ إلى الباب فرأيت الموكب فظننت أن الخليفة يمر على ذلك الموضع ، فرجعت إليها فقلت : يا سيدي ، الخليفة يمر على بابك ، فقالت : انظر أى شىء هذا ، إذ دخل بوابها فقال : على بن هشام بالباب ، فقالت : وما أصنع به ؟ فقامت إليها جارتها وشيك ، وكانت ترسلها إلى الخليفة

وغيره في حوايجها ، فاكَّبت على رجلها وقالت : الله ! الله ! أحتججين على عليّ بن هشام ! فدعت بمندبل فطرحته على رأسها ولم تقم إليه ؛ فقال : إني جئتُك بأمر سيّدی أمير المؤمنين ، وذلك أنه سألني عنك فقلت له : لم أرها منذ أيام ؛ فقال : هي عليك غَضْبَى ، فبحياتي لا تدخل منزلك حتى تدخل إليها فتسترضيها ! فقالت : إن كنت

﴿٢٩﴾

جئتُها بأمر الخليفة فأنا أقوم ، فقامت فقبّلت رأسه ويديه ، وقعدت ساعة وأنصرفت ؛ فقالت : يا وِشيك ، هاتي الدواة وقرطاساً ففعلت ، فجعلت تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت اثني عشر ألف صوت ، وقيل : سبعة آلاف صوت ، ثم كتبت إليه : يا عليّ بن هشام ، تقول : استغنيْتُ عن بَذَل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها ! وقد كتبت هذا وأنا صَجِرة ، فكيف لو فرغتُ لك قلبي كلّه ! وختمت الكتاب وقالت لها : امضي به إليه ؛ فما كان أسرع من أن جاء رسوله — خادم أسود يقال له مُحَارَ — بالجواب يقول فيه : ياسيّدتي ، لا والله ما قلتُ الذي بلغك ، ولقد كُذِب عليّ عندك ، إنما قلت : لا ينبغي أن يكون في الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت ، وقد بعثتُ إلى بديوان لا أودّي شركك عليه أبداً ؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم ونُحِوت فيها بَرٌّ ووشى ^(١) ومُلِح وتَحَنَّن مطبّقاً فيه أنواع الطّيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهديّ كان يعظّمها ، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفسه ؛ فصارت إليه ، فدعت بعود فغنت في طريقة واحدة وأنقطع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً ، ثم وضعت العود وأنصرفت ، ولم تدخل داره حتى طال طلبه لها وتضرّعه إليها في الرجوع إليه .

وقال أحمد بن سعيد المالكيّ : إن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ خالف بَذَلًا في نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون ، فأمسكت عنه ساعة ثم غنّت ثلاثة أصوات في الثقليل

الثاني واحداً بعد واحد ، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه ؛ فقالت للآمون :
 هي والله لأبيه أخذتها من فيه ، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء
 غيره ! فاشتد ذلك على إسحاق حتى رُئِيَ ذلك فيه .

وقال حماد بن إسحاق غَتَّ بَذَلْ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي

إِنْ تَرَبَّيْ نَاحِلَ الْبَسَدِ * فَلَقُولِ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ

كَانَ مَا أَحْشَى بَوَاحِدَتِي * لَيْتَهُ وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ

قال : فطرب أبي طرباً شديداً وشرب رطلاً وقال لها : أحسنت يا أبتى ،
 والله لا تغمنين صوتاً إلا شربت عليه رطلا .
 انتهت أخبار بذل .

١٠ ذكر أخبار ذات الخال

قال أبو الفرج الأصبهاني : وأسم ذات الخال خشف ، وكانت لابي الخطّاب
 النحاس المعروف بقرين مولى العباسة بنت المهدي ، وكانت ذات الخال من أجمل
 النساء وأكهن ، وكان لها خال فوق شفتها العليا ، وقيل : على خدها . وكان إبراهيم
 الموصلي يتعشّقها ، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولها ويغنيّ فيها حتى شهّرها بشعره
 وغنائها ؛ وأتصل خبرها بالرشيد فاشتراها بسبعين ألف درهم ؛ فقال لها ذات يوم :
 أسألك عن شيء ، فإن صدقتني وإلا صدقتني غيرك وكذبتك ؛ قالت : أصدقك ؛ قال :
 هل كان يدك وبين إبراهيم الموصلي قط شيء ؟ وأنا أحلفه أن يصدقني ؛ قال :
 فسكنت ساعة ثم قالت : نعم مرة واحدة ، فأبغضها ؛ وقال يوماً في مجلسه : أيكم
 لا يبالي أن يكون كَشْحَنَا^(١) حتى أهبة ذات الخال ؟ فبدر حمويه الوصيف فقال : أنا ،

❦

فوهبها له ؛ ثم اشتاقها الرشيد يوما فقال : ويلك يا حوييه ! وهبنا لك الجارية على أن
تسمع غناءها وحدك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، مُرّ فيها بأمرك ؛ قال : نحن عندك
غدا ؛ فمضى فاستعدّ لذلك وأستعار لها من بعض الجوهرين ^(١) بدنة وعقودا ثمّها
اثنا عشر ألف دينار ، فأخرجها إلى الرشيد وهي عليها ، فلما رآه أنكره وقال : ويلك
يا حوييه ! من أين لك هذا ؟ ما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني
هذا القدر ! فصدّقه عن أمره ، فبعت الرشيد إلى أصحاب الجوهر ، فأحضرهم
وأشترى الجوهر منهم ووهبه لها ، وحلف ألاّ تسأله في يومه ذلك حاجة إلاّ قضاها ،
فسأله أن يؤتّى حوييه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل ذلك وكتب له
عهده بذلك ، وشرط على وليّ العهد أن يتمّها له إن لم تتمّ في حياته .

قال الأصفهاني : ولا إبراهيم الموصليّ في ذات الخال شعر كثير غنى فيه ، فمنه قوله

أذات الخال قد طال * بمن أسقمته الوجع
وليس إلى سواكم في الآذي يلقى له فزع
أما يمنعك الإسلا * م من قتلي ولا الورع ؟
وما ينفك لي فيك * هوى تغتره خدع

ومنها

جزى الله خيرا من كلّفت بحبه * وليس به إلاّ التّوه من حبّي
وقالوا : قلوب الغانيات رقيقة ، * فما بال ذات الخال قاسية القلب
وقالوا لها : هذا بحبك مُعْرِضا * فقالت لهم : إعراضه أيسر الخطب
فأ هي إلاّ نظرة بتسليم * فتأنّس رجلاه ويسقط للجنب

وله فيها أشعار كثيرة غير ما أوردناه .

ذكر أخبار دنائير البرمكية

قال أبو الفرج: كانت دنائير مولاة يحيى بن خالد البرمكى، وكانت صفراء مولدة، من أحسن الناس وجها وأظرفهم وأكلهم أدباً وأكثرهم رواية للغناء والشعر، ولها كتاب مجزء فى الأغانى مشهور. وكان آتئادها فى غنائها على ما أخذته من بئذ، وهى نرأجتها، وقد أخذت أفضا عن الأكابر الذين أخذت بئذ عنهم مثل فليح وإبراهيم وأبن جامع وإسحاق ونظرائهم. وكانت تغنى غناء إبراهيم فتجكيه فيه حتى لا يكون بينهما فرق، فكان يقول ليحيى: متى فقدتني ودنائير باقية فما فقدتني.

وقال أحمد بن المكي: كانت دنائير لرجل من أهل المدينة، كان قد نرأجها وأدبها، وكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحظة، فلما رآها يحيى وقعت من قلبه موقعا فاشتراها، وشغف بها الرشيد حتى كان يصير إلى منزل مولاه فيسمعها، فألفها وأشدت إعجابه بها، ووهب لها هبات سنية، منها أنه وهب لها فى ليلة عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار، فردنه عليه فى مصادرة البرامكة بعد ذلك، وعرفت أم جعفر الخبر فشكته إلى عمومتها وأهلها، فصاروا جميعا إليه فعاتبوه، فقال: ما فى هذه الجارية أرب فى نفسها، وإنما أربى فى غنائها، فاسمعوها فإن استحققت أن تؤلف لغنائها وإلا فقلوا ما شئتم، فلما سمعوها عذروه، وعادوا إلى أم جعفر وأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها، فقبلت ذلك، وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهن أم المامون وأم المعتصم وأم صالح.

وقال عمر بن شبة: إن دنائير أصابتها العلة الكلبية فكانت لا تصبر عن الطعام ساعة واحدة، وكان يحيى يتصدق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه وبقيت عند البرامكة مدة طويلة.

وقال إسحاق وأحمد بن الطيّب : إن الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة فأمرها أن تغنى ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إني آليتُ ألا أغنى بعد سيدي أبداً ، فغضب وأمر بصفها فصفعت ، وأقيمت على رجلها وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى أحر بكاءً ، وأندفعت فغنت

يَا دَارَ سَلَمَىٰ بِنَازِحِ السَّنَدِ * مِنَ الثَّنَا وَمَسْقَطِ اللَّبَدِ
لَمَّا رَأَيْتُ الدِّيَارَ قَدْ دَرَسَتْ * أَيقَنْتُ أَنَّ النِّعَمَ لَمْ يَعِدْ

قال : فرق لها الرشيد ، وأمر بإطلاقها فانصرفت

وقال أبو عبد الله بن حمدون : إن عقيداً مولى صالح بن الرشيد خطب دنانير وشغف بها فردته ، فاستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وببذل الحسن بن محرز فلم تُجب ، وأقامت على الوفاء لمولاه ، فكتب إليها عقيد

يَا دَنَانِيرُ قَدْ تَنَكَّرَ عَقْلِي * وَتَحَيَّرْتُ بَيْنَ وَعْدٍ وَمَظِلِّ
شَغَفَنِي شَافِعِي إِلَيْكَ وَإِلَا * فَاقْتُلِينِي إِنْ كُنْتَ تَهْوِينَ قَتْلِي
أَنَا بِاللَّهِ وَالْأَمِيرِ وَمَا آ * مُلٌّ مِنْ مَوْعِدِ الْحُسَيْنِ وَبَذَلِ
مَا أَحَبَّ الْحَيَاةَ يَاحِبُّ إِنْ لَمْ * يَجْمَعْ اللَّهُ عَاجِلًا بِكَ شَمْلِي

فلم يعطفها ذلك عليه ، ولم تزل على حالها حتى ماتت . ولعقيد هذا فيها أشعارٌ فيها غناء ، وكان عقيد حسن الغناء ، وله فيها أصوات منها قوله

هَذِي دَنَانِيرُ تَنَسَّانِي وَأَذْكُرُهَا * وَكَيْفَ تَنْسَى مُحِبًّا لَيْسَ يَنْسَاهَا
أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هِجْرَانٍ جَارِيَةٍ * أَصْبَحْتُ مِنْ حُبِّهَا أَهْذِي بِذِكْرَاهَا
قَدْ أَكَلِ الْحُسْنُ فِي تَرْكِيبِ صُورَتِهَا * فَارْتَجَّ أَسْفَلُهَا وَأَهْتَرَّ أَعْلَاهَا
قَامَتْ لَتَمِثِّي فَلَيْتَ اللَّهُ صَوْرَتِي * ذَاكَ التُّرَابَ الَّذِي مَسَّتْهُ رِجْلَاهَا
وَاللَّهُ وَاللَّهُ لَوْ كَانَتْ ، إِذَا بَرَزَتْ ، * نَفْسُ الْمُتِمِّمِ فِي كَفِّهِ أَلْقَاهَا

ذكر أخبار عريب المأمونية^(١)

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عريب مغنيةً مُحسنة، وشاعرةً صالحة الشعر، وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهايةً في الحسن والجمال والطَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصَّنعَة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر، لم يتعلَّق بها أحد من نظرائها، ولا رُئي في النساء — بعد القِيَّات المجازيات مثل

جميلة وعزّة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن جرى مجراهاً على قلة عددهن — نظيرُ لها . قال : وكان فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لمن مما يكون في مثلها من جوارى الخلفاء ومن نساء في قصور الخلفاء وعُذَى بريق العيش الذي لا يدانيه عيش الحجاز والمنشأ بين العامة والعرب الجُفَاء ؛ قال : وقد شهد لها من لا تحتاج مع شهادته إلى غيره، فروى عن حماد بن إسحاق قال : قال أبي : ما رأيتُ امرأةً أُضربَ من

عريب ، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا ، ولا أخفَّ رُوحًا ، ولا أحسنَ خطابًا بارعًا ، ولا أسرعَ جوابًا ، ولا أَلعبَ بالشَّطرنج والنرد ، ولا أجمعَ لخصلة حسنة لم أرها في امرأةٍ غيرها قط ؛ قال حماد : فذكرت ذلك ليحيى بن أكرم ، فقال : صدق أبو محمد ، هي كذلك ؛ قلت أفسمعتُها ؟ قال : نعم هناك . يعني في دار المأمون ؛ قلت :

أفكانت كما ذكر أبو محمد في الحديق ؟ قال يحيى : هذه مسألة الجواب فيها على أبيك .

(١) ضبطنا هذا الآدم حيناً كان يرد بما مضى من هذا الجزء، بضم أوله وفتح ثانيه معتمدين في ذلك على أن رأيناه مضبوذاً بهذا الضبط في الأغانى ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن وفي المحاسن والأصداد لم نحفظ ص ١٩٧ طبع ليدن . ولكن رأينا في الأغانى م الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح أوله وكسر ثانيه ؛ ومن هذا الشعر

لقد ظلموك يا مظلوم لما * أقاموك الرقيب على عريب

ولو أولوك إنصافاً وعدلاً * لما أخلوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضاً

فلينبه لهذا

فاتل الله عريباً * فعلت فعلاً عجيباً

هو أعلم متى بها ، فأخبرت أبى بذلك فضحك ثم قال : أما استحييت من قاضى
القضاة أن تسأله عن مثل هذا ؟

وقال إسحاق ابن إبراهيم الموصلى : استدعانى المأمون يوماً فدخلت عليه ، فسألنى
عن صوت وقال لى : أتدرى لمن هو ؟ فقلت : أسمعته ثم أخبر أمير المؤمنين إن
شاء الله بذلك ، فأمر جارية من وراء الستارة أن تُغنيّه ، فضربت فإذا هى قد شبهته
بالقديم ، فقلت : زدنى معها عوداً آخر ، فإنه أثبت لى ، فزادنى عوداً آخر ، فقلت :
يا أمير المؤمنين ، هذا صوتٌ محدثٌ لامرأة ضاربة ، قال : من أين قلت ذلك ؟
فقلت إنى لما سمعت ليلته عرفت أنه محدث من غناء النساء ، ولما رأيت جودة
مقاطعه علمت أن صاحبه ضاربة حفظت مقاطعه وأجزاءه ، ثم طلبت عوداً آخر
فلم أشك ، قال : صدقت ، الغناء لعريب . ١٠

وقال ابن المعتز : قال على بن يحيى : أمرنى المعتمد على الله أن أجمع غناء عرب
الذى صنعتّه ، فأخذت منها دفاترها وصحفها التى كانت قد جمعت فيها غناها ، فكتبته
فكان ألف صوت ، وقد قيل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهاني
وأطنب في وصفها وتفضيلها ، وآستدل على ذلك وبسط القول فيه .

وأما ما قيل في نسبها ونسبها وكيف تنقلت بها الحال إلى أن اتصلت بالمأمون ، فقد
روى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها ابنة جعفر بن يحيى ، وأن البرامكة
لما نُهبوا سُرقت وهى صغيرة فبيعت . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي :
إن أم عريب كانت تسمى فاطمة وكانت يتيمة ، فترجها جعفر بن يحيى بن خالد ،
فأنكر عليه أبوه ، وقال له : تتزوج بمن لا يُعرف لها أم ولا أب ! اشتر مكانها ألف
جارية ، فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سراً من أبيه ، ووكل ١٥
٢٠

بها من يحفظها، وكان يتردد إليها فولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة، وكانت سنوها إلى أن ماتت ستاً وتسعين سنة . قال : وماتت أم عريب في حياة جعفر ، فدفعها إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها ، فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعها من سنبس النخاس ، فباعها من المراكبي .

- ٥ قال ابن المعتز : وأخبرني يوسف بن يعقوب قال : كنت إذا نظرتُ قديمي عريب شبهتهما بقدمي جعفر بن يحيى ؛ قال : وسمعت من يحكى أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض الكتاب . فقال : وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيى ؟ هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج في نسبها .

- وأما أخبارها مع من ملكها وكيف تنقلت بها الحال ، فقد حكى ابن المعتز عن المشامي أن مولاهما خرج بها إلى البصرة فأدبها وخرّجها وعلمها الخط والحو والشعر والغناء ، فبرعت في ذلك أجمع . وتزايدت حتى قالت الشعر ؛ وكان لمولاهما صديق يقال له : حاتم بن عدي من قواد نرسان . وقد قيل : إنه كان يكتب لعجيف على ديوان العرض ، فكان مولاهما يدعوه كثيراً ويخالطه ، فركبه دين فاستتر عنده ، فمد عينه إلى عريب وكتبها فأجابته . ودامت المواصلات بينهما وعشقه ، ثم أنتقل من منزل مولاهما فلم تزل تحتال حتى اتخذت سُلماً من سَقَب ^(١) ، وقيل : من خيوط غِلاظ ، وكان قد اتخذ لها موطئاً ، ثم لقت ثيابها وجعلتها في فراشها بالليل ودثرتها بدثارها ، ثم تسوّرت الحائط وهربت وأتته فمكثت عنده ، ومولاهما لا يهتم بشيء من أمرها ؛ فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبي يهجو أباه ويُعيرها بها وكان كثيراً ما يهجو

(٤٣)

قاتل الله عربيا * فعلت فعلا عجبيا
 ركبته والليل داج * مَرَبَّجًا صَعْبًا مَهِيَا
 فارتقت متصلا بالنجم أو منه قريبا
 صبرت حتى إذا ما * أَقْصَدَ النُّومُ الرَقِيبَا
 مثلت بين حشايا * ها، لَكَيْ لَا تَسْتَرِيَا
 حَلَقًا مِنْهَا إِذَا نَوَى * دَى لَمْ يَلَفْ مُجِيبَا
 ومضت يمحلهما الخو * فُ قَضِيَا وَكثِيَا
 حُجَّةٌ لَوْ حُرِّكَتْ خَفَّتْ عَلَيْهَا أَنْ تَدُوبَا
 فتدأت المحب * فتلقاها حبيبا
 جَذَلًا قَدْ نَالَ فِي الدُّنْيَا * مِنَ الدُّنْيَا نَصِيْبَا
 أَيُّهَا الظُّبَى الَّذِي تَسْتَحِرُّ عَيْنَاهُ الْقُلُوبَا
 وَالَّذِي يَا كُلَّ بَعْضَا * بَعْضُهُ حُسْنًا وَطِيْبَا
 كُنْتَ نَهْبًا لَذَائِبِ * فَلَقَدْ أَطْمَعْتَ ذِيْبَا
 وَكَذَا الشَّاةُ إِذَا لَمْ * يَكُ رَاعِيَهَا لَبِيْبَا
 لَا يُبَالِي وَبَا الْمَرْءِ * عَى إِذَا كَانَ خَصِيْبَا
 وَلَقَدْ أَصْبَحَ عَبْدُ اللَّهِ * كَشَحَّانَا حَرِيْبَا
 قَدْ لَعَمَرِي لَطَمَ الْخَدَّ * وَقَدْ شَقَّ الْجُوبَا
 وَجَرَتْ مِنْهُ دُمُوعٌ * بَلَّتِ الدَّقْنَ الْخَضِيْبَا

٥

١٠

١٥

قال ابن المعتز : وحدثنى محمد بن موسى بن يونس أنها ملته بعد ذلك فهربت منه ، فكانت تغني عنده أقوام عرفتهم ببغداد وهي مسترة متخفية ، فلما كان يوم

٢٠

من الأيام آجتاز ابن أنحى المراكبى بئستان كانت فيه مع قوم تغنى ، فسمع غناها
 فعرفه ، فبعث إلى عمه وأقام هو مكانه ، فلم يبرح حتى جاء عمه وكبسها ، فأخذها
 وضربها مائة مِقرعة وهى تصيح : يا هذا ، لم تقتلنى ! لستُ أصبر عليك ، أنا امرأة
 حرة فإن كنت مملوكة فبعنى ، است أصبر على الضيق ، فلما كان من الغد ندم على
 فعله وصار إليها فقبل رأسها ويدها ورجلها ووهب لها عشرة آلاف درهم ، ثم بلغ
 محمدا الأمين خبرها فأخذها . قال : وكان الأمين فى حياة أبيه طلبها منه فلم يجبه إلى
 ذلك ، فلما أفضت إليه الخلافة جاء المراكبى ومحمد راكبٌ يُقبل يده فأمر بمنعه
 ودفعه ، ففعل ذلك الشاكرى^(١) ، فضربه المراكبى وقال : أتمنعى من تقبيل يد مولاي !
 بغاء الشاكرى لما نزل محمد الأمين فشكاه ، فأمر بإحضار المراكبى فأمر بضرب
 عنقه ، فسئل فى أمره فعفا عنه وحبس ، وطالبه بخمسة ألف درهم مما أقتطعه من
 نفقات الكراع . وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدم كانوا له ، فلما قُتل محمد
 الأمين هربت عريب إلى المراكبى فكانت عنده . قال ابن المعتز : وأما رواية
 إسماعيل بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا ، وذكر أنها إنما هربت من دار
 مولاها المراكبى إلى محمد بن حامد الخاقانى المعروف بالحسين أحد قواد نجراسان ،
 وكان أشقر أصهب أزرق العين ، وفيه تقول عريب ولها فيه غناء

بأبى كل أصهب : أزرِقِ العينِ أشقرِ .
 جُنْ قلبى به وليشس جُنُونى يُمْنَكِرِ

وقال إسحاق بن إبراهيم : لما ننى إلى الأمين خبر عريب بعث فى إحضارها
 وإحضار مولاها فأحضرا ، فغنت بحضرة إبراهيم بن المهدي فطرب الأمين
 واستعادها ، وقال لإبراهيم : كيف سمعت ؟ قال : سمعت يا سيدي حسنا ، وإن

(١) فى القاموس : الشاكرى الأجير والمستخدم وهو مغرب جاكرو .

تطاولت بها الأيام وسكنى روعها آزداد غناؤها حسنا وطيبا؛ فقال للفضل بن الربيع :
 خذها إليك وساوم بها ففعل ، فاشتط مولاها في السوم ثم أوجبه له بمائة ألف درهم ؛
 وانتقض أمر الأمين وشغل عنها فلم يأمر لمولاها بشئ حتى قتل بعد أن أقتضها ؛
 فرجعت إلى مولاها ثم هربت منه إلى ابن حامد ، فلم تزل عنده حتى قدم المأمون
 بغداد ، فنظّم المراكبي من محمد بن حامد فأمر المأمون بإحضاره وسئل عنها فأنكرها ،
 فقال له المأمون : كذبت ، وقد سقط إلى خبرك ، وأمر صاحب الشرط أن يحزره
 في مجلس الشرط ويضع عليه السباط حتى يردها فأخذه ، فبلغها الخبر فركبت حمار
 مكّار وجاءت وقد جرد ليضرب ، وهي مكشوفة الوجه وهي تصيح : إن كنت
 مملوكة فليعني ، وإن كنت حرة فلا سبيل عليّ ، فرفع خبرها إلى المأمون فأمر
 بتعديلها عند قتيبة بن زياد القاضي فعدلت عنده ؛ وتقدم إليه المراكبي مطالبا بها ،
 فسأله البينة على ملكه إياها ، فعاد منتظما إلى المأمون وقال : قد طوّبت بما لم
 يطالب به أحد في رقيق ، وتظلمت زبيدة أبة جعفر إليه وقالت : من أغلظ
 ما جرى عليّ بعد قتل أبي هجوم المراكبي على داره وأخذ عريب منها ؛ فقال المراكبي :
 إنما أخذت ملكي ، لأنه لم يتقدني الثمن ، فأمر المأمون بدفعها إلى محمد بن عمر الواقدي ،
 وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرق ، فأخذها من قتيبة بن زياد وأمر ببيعها
 ساذجة ، فأشترها المأمون بخمسين ألف درهم ، وقيل : أشترها بخمسة آلاف درهم ،
 ودعا عبدالله بن إسماعيل وقال له : لولا أني حلفت ألا أشتري مملوكا بأكثر من هذا
 لزدتك ، ولكنني سأؤتيك عملا تكسب فيه أضعاف هذا الثمن ، ورمى إليه بخاتمين
 من ياقوت أحمر قيمتهما ألف دينار ، وخلع عليه خلعا سنّية ؛ فقال يا أمير المؤمنين ،
 إنما ينتفع بهذا الأحياء ، وأما أنا فإني لا محالة ميت لأن هذه الجارية كانت
 حياتي ؛ وخرج فاخلط وتغير عقله ومات بعد أربعين يوما . وذهب بالمأمون كل

مذهب ميلاً إليها ومحبة لها، حتى قيل : إن المأمون قبل رجلها في بعض الأيام وإنما قالت إثر ذلك : والله يا أمير المؤمنين ، لولا ما شرفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعتمها ! ولكن لله على ألا أغسلها لغير وضوء أو طهر إلا بماء الورد ما عشت ، فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

- وحكى علي بن يحيى المنتجم أن المأمون لما مات بيعت في ميراثه ، ولم يُبَّعْ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرها ، فاشترها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته . وقيل : إنه لما مات محمد الأمين تدلت عريب من قصر الخلد بجبل إلى الطريق وهربت إلى حاتم بن عدي .

- وحكى إبراهيم بن رباح قال : كنت أتولّى نفقات المأمون ، فوصف له إسحاق ابن إبراهيم الموصلي عريب ، فأمره أن يشتريها له ، فاشترها بمائة ألف درهم ، فأمرني المأمون بحملها ، وأن أحمل إلى إسحاق مائة ألف درهم ، ففعلت ذلك ؛ فلم أدر كيف أثبتتها ، فكتبت في الديوان أن مائة الألف خرجت في ثمن جوهرة ، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها ؛ بخاء الفضل بن مروان إلى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره ، وسألني عنه فقلت : نعم ، هو ما رأيت ، فسأل المأمون عن ذلك فقال : وهبت لدلال وصائغ مائة ألف درهم ! وغلظ القصة ، فانكرها المأمون ، ودعاني فدنوت وأخبرته أن المال الذي خرج في ثمن عريب وصلة إسحاق ، وقلت : أيما أصوب يا أمير المؤمنين : ما فعلت ، أم أثبت في الديوان أنها خرجت ثمن مغنية وصلة مغن ؟ فضحك المأمون وقال : الذي فعلت أصوب ؛ ثم قال للفضل ابن مروان : يا نبطي ، لا تعترض على كاتبني هذا في شيء .

- ٢٠ ولعريب أخبار قد بسط أبو الفرج الأصبهاني القول بها في كتابه الذي ترجمه "تحف الوسائد في أخبار الولايد" ، وذكر أيضا تتفا من أخبارها في كتابه المترجم

”بالأغاني“، منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بابن الحنّين ، وأخبارها مع المأمون ، وأخبار مع صالح المنذرى الخادم ، وإبراهيم بن المدبر ، وغير ذلك من أخبارها . وقد رأينا أن ثبت لهما مع ذلك .



- ٥ أما أخبارها مع محمد بن حامد ، وهو أحد من كانت تشقه وتهواه وتحاطر بنفسها في الأجتماع به ، فنها ما روى عن ابن عبد الملك الضرير أنها لما صارت في دار المأمون آحتالت حتى وصلت إليه ، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حلت منه وولدت بنتا ، فبلغ ذلك المأمون فزوجه إياها . وقال محمد بن موسى : اصطحب المأمون يوما ومعه ندماء وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنيين وعريب معه على مصلاة ، فأومأ إليها محمد بن حامد بقبلة فاندفعت فغنت ابتداء
- ١٠ رمى صرع ناب فاستمرت بطعنة * ككاشية البرد اليماني المسمم

تريد بغنائها جواب محمد بن حامد بأن تقول له : طعنة ، فقال المأمون للندماء : أيكم أوما إلى عريب بقبلة ؟ والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه ! فقال محمد بن حامد : أنا يا أمير المؤمنين أومات إليها ، والعفو أقرب للتقوى ؛ فقال : قد عفوت عنك ؛ فقال : كيف أستدل أمير المؤمنين على ذلك ؟ فقال : ابتدأت صوتا ، وهي لاتغني ابتداء إلا لمعني ، فعلمت أنها لم تبتدئ هذا الصوت إلا لشيء أومئ إليها به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماء بقبلة ، فعلمت أنها أجابته بطعنة . وقد حكي أن المأمون قال في هذه الواقعة عن محمد بن حامد : نُكشِخنه قبل أن يُكشِخِننا ^(١) ، فزوجه إياها وأشترط عليه أن يُحضرها إلى مجلسه في أوقات عتيها له المأمون .

(١) كشخنه وكشخه : شتمه بالكشخنة وهي الدبابة وعدم الغيرة .

وقال حدون: كنت ليلة في مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاء الآخرة في ليلة ظلماء ذات رُعُود وبرُوق، فقال لي المأمون: اركب الساعة فرس النوبة وسر إلى عسكر أبي إسحاق، يعني المنصم، فأدّ إليّ رسالتي وهي كيت وكيت، فركبت فلم تثبت معي شمعة، وسمعت وقع حافر دابة فرهبتُ ذلك فبعلت أتوقاه حتى صكّ ركابي تلك الدابة، وبرقت بارقة فأبصرت وجه الراكب فإذا عريب، فقلت: عريب؟
 قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم؛ ثم قلت لها: من أين أقبلت في هذا الوقت؟
 قالت: من عند محمد بن حامد؛ قلت: وما صنعت عنده؟ قالت: يا نكس، عريبٌ تجيء في هذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجة من مَضْرِب الخليفة راجعة إليه تقول لها: أي شيء عملت معه! صليت معه التراويح، أو قرأت عليه أجزاء من القرآن، أو دارسته شيئاً من الفقه! يا أحمق، تجادنا وتعاتبنا وأصطلحنا ولعبنا وشربنا وغَيَبنا وأنصرفنا؛ قال: فأخجلتني وغازتني وأفترقنا؛ ومضيت فأذيت الرسالة؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشدنا الأشعار، فهَمَمْتُ أن أحدثه بحديثها ثم هَبْتُه، فقلت: أقدم قبل ذلك تعريضا بشيء من الشعر فأنشدته

أَلَا حَيَّ أَطْلَالَ لِقَاطِعَةِ الْحَبْلِ * أَلَوْفٍ تُسَاوِي صَالِحَ الْقَوْمِ بِالرِّذْلِ

١٥ فلو أن ما أمسى بجانب تَلْعَةٍ :: إلى جَبَلِي طَيِّئٍ فساقطة الحبْلِ
 جُلُوسٌ إلى أن يقصر الظِّلُّ عندها * لراحوها وكلّ القوم منها على وصلِ

فقال لي المأمون: اخفض صوتك لا تسمع عريب فتغضب وتظنّ أنا في حديثها، فامسكتُ عما أردتُ أن أخبره به، وخار الله لي في ذلك .

وقال محمد بن عيسى الواثق: قال لي محمد بن حامد ليلة: أحب أن تُقرِّغ لي

٢٠ مَضْرِبك، فإني أريد أن أجيئك فأقيم عندك، ففعلت وأتاني؛ فلما جلس جاءت

عَرِيبٌ فَدَخَلْتُ وَجَلَسْنَا ، بِفَعْلٍ مُحَمَّدٌ يَعَاتِبُهَا وَيَقُولُ : فَعَلْتَ كَذَا وَفَعَلْتَ كَذَا !
فَقَالَتْ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا عِنْدَكَ رَأَى ؟ ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ : يَا عَاجِزُ ، خُذْ بِنَا فِيَا
نَحْنُ فِيهِ ، وَاجْعَلْ سِرَاوِيلَ مِخْنَقَتِي وَأَلْصِقْ خَلْخَالِي بِقُرْطِي ، فَإِذَا كَانَ غَدًا فَارْكَتِبْ
بِعَتَابِكَ فِي طُومَارٍ حَتَّى أَكْتُبَ إِلَيْكَ بَعْدُزِي فِي مِثْلِهِ ، وَدَعِ عَنْكَ هَذَا الْفُضُولَ ، فَقَدْ
قَالَ الشَّاعِرُ .

دَعَى عَدَّ الذُّنُوبِ إِذَا اتَّفَقْنَا * بَعَالَى لَا نَعُدُّ وَلَا تَعُدِّي
فَأَقْسَمُ لَوْ هَمَمْتُ بِمَدِّ شَعْرِي * إِلَى بَابِ الْجَحِيمِ لَقُلْتُ : مَدِّي^(١)

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَمْدُونَ : وَقَعَ بَيْنَ عَرِيبٍ وَبَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ حَامِدٍ شَرٌّ حَتَّى كَادَا يَخْرُجَانِ
إِلَى الْقَطِيعَةِ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِمَا أَكْثَرُ مِمَّا فِي قَلْبِهِ مِنْهَا ، فَلَقِيَتْهُ يَوْمًا فَقَالَتْ : كَيْفَ
قَلْبُكَ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : أَشَقِي مَا كَانَ وَأَقْرَحُهُ ، فَقَالَتْ : اسْتَبْدِلْ تَسْلُ ، فَقَالَ لَهَا :
لَوْ كَانَتِ الْبُلُوبُ بِاخْتِيَارٍ لَفَعَلْتُ ! فَقَالَتْ : لَقَدْ طَالَ إِذَا تَبَعْتُكَ ، فَقَالَ : وَمَا يَكُونُ !
أَصْبِرْ مُكْرَهًا ! أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ .

تَعَبٌ يَطُولُ مَعَ الرَّجَاءِ لِذِي الْهَوَى * خَيْرٌ لَهُ مِنْ رَاحَةٍ فِي الْيَاسِ
لَوْلَا كَرَامَتُكُمْ لَمَّا عَاتَبْتُكُمْ * وَلَكِنَّمُ عِنْدِي كِبَعُضُ النَّاسِ

قَالَ : فَذَرَفَتْ عَيْنَاهَا ، وَاعْتَذَرَتْ إِلَيْهِ وَاعْتَقَتْهُ وَأَصْطَلَحَا وَعَادَا إِلَى مَا كَانَا
عَلَيْهِ .

وَحَكَى أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ حَامِدٍ قَالَ : لَمَّا تَوَقَّيْ عَمِّي مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدٍ صَارَ جَدِّي
إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَنَظَرَ إِلَى تَرْكَتِهِ وَجَعَلَ يَقْلِبُ مَا خَلْفَ ، وَيُخْرِجُ إِلَيْهِ مِنْهَا الشَّيْءَ بَعْدَ
الشَّيْءِ إِلَى أَنْ أُتْرِجَ إِلَيْهِ سَقَطٌ مَخْتُومٌ ، فَفَضَّ انْطَامَ وَفَتْحَهُ فَإِذَا فِيهِ رِقَاعُ عَرِيبٍ

إليه ، فجعل يتصفحها ويتسم ، ف وقعت في يده رُقعة فقرأها ووضعها بين يديه ، وقام
ل حاجته فقرأتها فإذا فيها

وَيْلِيَّ عَلَيْكَ وَمِنْكَ ! * أَوْقَعْتَ فِي الْحَقِّ شَكَا
زَعَمْتَ أَنِّي خَوْوٌ * جَوْرًا عَلَى وَإِفْكَ
إِنْ كَانَ مَا قَلْتَ حَقًّا * أَوْ كُنْتُ أَزْمَعْتُ تَرَكَا
فَأَبْدَلِ اللَّهَ مَا بِي * مِنْ ذِلَّةِ الْحُبِّ نُسْكََا

قال : وهذا الشعر لعريب .

✱
✱

وأما أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها ، قال صالح
أبن علي بن الرشيد المعروف بزعفرانة : تمارى خالي أبو علي والمأمون في صوت ،
فقال المأمون : أين عريب ؟ بقات وهي محجومة ، فسألها عن الصوت ، فقالت
فيه بعلمها ، فقال لها : غنّيه ، فولّت لتجىء بالعود ، فقال : غنّيه بلا عود ، فاعتمدت
من الخمي على الحائط وغنّت ، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدها مرتين
أو ثلاثا فالتحت يدها ولا سكنت حتى فرغت من الصوت ، ثم سقطت وقد
غشى عليها .

قال عثمان بن العلاء عن أبيه : عتب المأمون على عريب فهجرها أياما ، ثم آعتلت
فعادها فقال : كيف وجدت طعم المهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ، لولا مرارة
المهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج
المأمون إلى جلسائه فخذشهم بالقصة ، ثم قال : أترى لو كان هذا من كلام النظام
لم يكن كثيرا ؟

وقال أحمد بن أبي دؤاد : جرى بين المأمون وبين عريب كلام، فكَلَبَهَا المأمون بشيء غضبت منه فهجرتَه أيَّاماً، فدخلتُ على المأمون فقال: يا أحمد، اقبض بيننا، فقالت عريب : لا حاجة لي في قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول ونخلط الهجرَ بالوصالِ ولا * ^(١) يدخل في الصلح بيننا أحدٌ وكانت قد تمكنت من المأمون وأخذت يجامع قلبه، وذهب به حباً كل مذهب؛ وقد قدّمنا أنه قبلَ رجلها .

وكانت عريب تهوى أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون ، وكان المشل يضرب بحسنه وحسن غناؤه ، وكانت تزعم أنها ما عشقت أحداً من بني هاشم وأصفتَه من الخلفاء وأولادهم سواه . ولم تزل عريب مُبَجَّلَةً عند الخلفاء محبوبة اليهم مكرّمة لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والوائق وأنحرفا عنها، وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتاباً إلى العباس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : أقتل أنت العِلجَ حتى أقتل أنا الاعور اللَّيلى هُنا ، تعنى الواثق ، وكانت المعتصم استخلفه ببغداد . ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحتمل من الأولاد والإخوة فكيف من أمة مغنّية! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لما أبقوها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطّوية . وكانت عريب تكايد الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في ذلك الشعر تغنيّه لحنا فيكون أجود من لحنه .

قال : وكانت عريب تتعشّق صالحا المنذرى الخادم فترجّته سرا؛ فحكي عنها أن بعض الجوارى دخلت عليها يوماً ، فقالت لها عريب : ويحك ! تعالى إلى ! بغاءت ، فقالت ، قبلَ هذا الموضع مني ، فإنك تجدين ريح الجنة ، وأومات إلى سالفتهما ، ففعلت ثم قالت لها : ما السبب في هذا؟ قالت قبلني الساعة صالح المنذرى في هذا الموضع . قال : ووجهه المتوكّل إلى مكان بعيد في حاجة ، فقالت عريب فيه

(١) كذا في الأغاني، وفي الأصل : ولا يصلح .

أما الحبيبُ فقد مَضَى * بالرَّغْمِ مَنَى لا الرِّضَا
أَخْطَأْتُ فِي تَرْكِ لَيْلِنَ * لَمْ أَلَفْ عَنْهُ مُعْرِضَا

- وكانت عريب تهوى إبراهيم بن المدبر ويهاها ، ولها معه أخبار وحكايات ،
وبينهما أشعار وفكاهات ، فمن مكاتباتها إليه ما رُوي عن ابن المعتز قال : كتبتُ إليه
تدعوه في شهر رمضان : أفديك بسمعي وبصري ، وأهل الله عليك هذا الشهر بالئين
والمغفرة ، وأعانك على المفترض منه والمتنقل ، وبلغك مثله أعواما ، وفرج عنك
وعني فيه . ^(١) وكتبتُ في شيء بلغها عنه : وهب الله لنا بقاءك مُمتعا بالنعم ، ما زلتُ
أمس في ذكرك ، فمرة بمدحك ، ومرة بأكلك وبذكرك بما فيك لوأنا لونا ، اجمد
ذنبك الآن ، وهاتِ حُججَ الكُتَّاب ونفاقهم . فأنا خبرنا أمس فإننا شربنا من فضل
نبيذك على تذكارك رطلا ، وقد رفعنا حسابنا إليك ، فارفع حسابك إلينا ، وخبرنا
من زارك أمس وأهلك ؟ وأي شيء كانت القصّة على جهتها ؟ [ولا تخطف ^(٢)
فُتُوحنا إلى كشفك والبحث عليك وعن حالك] ، ^(٣) وقل الحق فمن صدق [نجا] ،
وما أحوجك إلى تأديب فإنك لا تحسن أن تؤد . [والحق أقول إنه يعتريك كُراز ^(٢)
شديد يجوز حدّ البرد ، وكفالك بهذا من قولي عقوبة ، وإن عُدت سمعت أكثر منه] ،
والسلام .

١٥

ولما نكّب عبد الله بن يحيى بن خاقان ابن المدبر وحبسّه ، كتبتُ إليه كتابا
نتشوقه ونُخبّه آستبحاشها له وآهتاماها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة في أمره فوعدها
ما تحب ، فأجابها عن كتابها ، وكتب في آخر الجواب

(١) في الأصل : فيك .

(٢) زيادة في الأمانى .

(٣) كذا في الأمانى ، وعبارة الأصل : « وما أحوجك إلى تأديب فإنك لا تحسن أن تؤد » .

٢٠

لَعَمْرُكَ مَا صَوْتُ بَدِيعٍ لِمَعْبِدٍ * بِأَحْسَنِ عِنْدِي مِنْ كِتَابِ عَرِيبٍ
تَأَمَّلْتُ فِي أَثْنَائِهِ خَطَّ كَاتِبٍ * وَرِقَّةَ مُشْتَقٍ وَلَفْظَ خَطِيبٍ
وَرَاجِعُنِي مِنْ وَضَلْهَا مَا آسْتَفْزَنِي * وَزَهْدُنِي فِي وَصَلِ كُلِّ حَبِيبٍ
فَصِرْتُ لَهَا عَبْدًا مُقْرَأً بِمَلِكِهَا * وَمُسْتَمْسِكًا مِنْ وَدْهَاتِ بَنْصِيبٍ

٥ وقال أبو عبد الله بن حمدون : اجتمعت أنا وإبراهيم بن المدبر وأبن ميادة والقاسم
أبن زرزري في بُسْتَانٍ بِالْمِطِيرَةِ فِي يَوْمِ غَيْمٍ وَرَذَاذٍ يَقْطُرُ أَحْسَنَ قَطَرٍ وَنَحْنُ فِي أَطْيَبِ
عَيْشٍ وَأَحْسَنِ يَوْمٍ ، فَلَمْ نَسْعُرْ إِلَّا بِعَرِيبٍ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ بَعِيدٍ ، فَوَثِبَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَيْنِنَا
نُفْرَجٍ حَافِيَا حَتَّى تَلْقَاهَا ، وَأَخَذَ بِرِكَابِهَا حَتَّى نَزَلَتْ ، وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَكَانَتْ
قَدْ هَجَرَتْهُ مُدَّةٌ لَشَيْءٍ أَنْكَرْتَهُ عَلَيْهِ ، فَبَاءَتْ وَجَلَسَتْ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ مَتَبَسِّمَةً ، ثُمَّ قَالَتْ :
١٠ إِنَّمَا جِئْتُ إِلَى مَنْ هُنَا لَا إِلَيْكَ ، فَاعْتَذِرْ وَشَفِّعْنَا لَهُ فَرَضِيَّتِ ، وَأَقَامَتْ عِنْدَنَا يَوْمَئِذٍ
وَبَاتَتْ ، وَأَصْطَبَحْنَا مِنْ غَدٍ وَأَقَامَتْ عِنْدَنَا ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ

يَا بِي مَنْ حَقَّقَ الظَّنَّ بِهِ * وَأَتَانَا زَائِرًا مُبْتَدِيَا
كَانَ كَالْغَيْثِ تَرَاحَى مُدَّةً * فَأَتَى بَعْدَ قُنُوطٍ مُرُويَا
طَلَبَ يَوْمَانٍ لَنَا فِي قُرْبِهِ * بَعْدَ شَهْرَيْنِ لِهَجْرٍ مَضِيَا
فَأَقَرَّ اللَّهُ عَيْنِي وَشَفَّى * سَقَمًا كَانَ لِحَسْمِي مُبْلِيَا

١٥

وقال فيها أيضا

أَلَا يَا عَرِيبُ وَقِيَّتِ الرَّدَى * وَجَنَّبِكَ اللَّهُ صَرْفَ الزَّمَنِ
فَإِنَّكَ أَصْبَحْتَ زَيْنَ النِّسَاءِ * وَوَاحِدَةَ النَّاسِ فِي كُلِّ قَنْ
فَقُرْبِكَ يُدْنِي لِذِيذِ الْحَيَاةِ * وَبُعْدُكَ يَتْنِي لِذِيذِ الْوَسَنِ
فَنِعَمَ الْأَنْيَسُ وَنِعَمَ الْجَلِيسُ * وَنِعَمَ السَّمِيرُ وَنِعَمَ السَّكْنُ

٢٠

وقال أيضا فيها وفي جارتها بذعة وثخفة

إِنْ عَرِيَا خُلِقْتَ وَحَدَّهَا * فِي كُلِّ مَا يُحْسِنُ مِنْ أَمْرِهَا
وَنِعْمَةً لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ * يُقَصِّرُ الْعَالَمُ فِي شُكْرِهَا
أَشْهَدُنِي جَارِيَتَاهَا عَلَى * أَنَّهُمَا مُحْسِنَتَا دَهْرِيهَا
فِيذَعَةٌ تُبْدِعُ فِي شَجْوَاهَا * وَثُخْفَةٌ تُخَفُّ فِي زَمْرِهَا
يَارَبِّ أَمْتَعَهَا بِمَا خُوِّلَتْ * وَأَمُدِّدْ لَهَا يَارَبِّ فِي عُمْرِهَا

٥

وقال علي بن العباس بن أبي طلحة الكاتب : كنت عند إبراهيم بن المدبر فزارته
بذعة وثخفة، وأخرجنا رُقعةً من عَرِيب، فقرأناها فإذا فيها : بنفسى أنت وسمعى
وبصرى، وقل ذلك لك، أصبح يومنا هذا طيباً، طيب الله عيشك، قد آحتجبت
سماؤه ورق هواؤه وتكامل صفاءه، وكأنه أنت في رقة شمالك وطيب محضرك
ومحبرك، لافقدت ذلك أبداً منك ! ولم يصادف حسنه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً
لأمور صدتني عن ذلك، أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها، وقد
بعثت إليك ببذعة وثخفة ليؤنسك وتسرّ بهما، سرّك الله وسرّني بك ! فكتب إليها
كيف السرور وأنت نازحة * عني ! وكيف يسوغ لي الطرب !

١٠

إِنْ غَبَتِ غَابَ الْعَيْشُ وَأَنْقَطَعَتْ * أَسْبَابُهُ وَأَلَحَّتِ الْكُرْبُ

١٥

وَأَبْتَدَأَ الْجَوَابُ، فلم تلبث أن جاءت على حمارٍ مصرية، فبادر إليها وتلقاها حافياً
حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطا الحمارُ يساطه وما عليه حتى أخذ يركبها فأجلسها
في مجلسه وجلس بين يديها، ثم قال

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ قَصَرَ اللَّهُ طَوْلَهُ * بِقُرْبِ عَرِيبٍ، حَبْدَاهُ مِنْ قُرْبٍ
بِهَا تَحْسُنُ الدُّنْيَا وَيَنْعَمُ عَيْشُهَا * وَتَجْتَمِعُ السَّرَاءُ لِلْعَيْنِ وَالْقَلْبِ

٢٠

وقال إبراهيم بن اليزيدى : كنت مع المأمون في بلد الروم ، فبينما أنا أسير في ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح وإلى جاني قبة ، إذ برقت برقَةٌ فإذا في القبة عَرِيبٌ ؛ فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدى ؛ فقلت : لبيك ! قالت : قل في هذا البرق أبيانا ملاحا لأعنى فيها ، فقلت

ماذا بقلبي من أليم الخَفَقِ * إذا رأيت لمعانَ البرقِ
من قِبَلِ الأُرْدُنِّ أودِمَشقِ * لأتَ مَنْ أهوى بِذاك الأُفُقِ
فارقتهُ وهو أعزُّ الخَلْقِ * على والزورِ خِلافَ الحقِّ
ذاك الذى يملكُ مِنِّي رِقِّي * ولستُ أبغى ما حَيَّيتُ عِتْقِي

فتنفستُ نفساً ظننتُهُ قد قطعَ حَيَازِيمَها ؛ فقلت : ويحك ! على مَنْ هذا التَّنَفُّسُ ؟ فضحكت ثم قالت : على الوطن ؛ فقلت : هيهات ! ليس هــ ذا كله على الوطن ؛ فقالت : وملك ! أظننتَ أَنَّك تستَفِرِّزُنِي ؟ والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً في مجلسِ فادعاها أكثرُ من ثلاثين رئيساً ، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت .

وقال العَبَّيسُ بن حمدون : غَضِبْتُ عَرِيبَ على بعض جوارِها ، فبُغْتُ إليها وسألتها أن تعفوَ عنها ؛ فقالت في بعض ما نقوله مما يعتدُّ به عليها من ذنوبها : يا أبا العباس ، إن كنتَ تشتهى أن ترى زِنائى وصَفاقةَ وجهى وجُرائى على كُلِّ عَظيمةٍ أيامَ شبابى ، فأنظر إليها وأعرِف أخبارَها ؛ قال : وكانت في شبابها يُقَدِّم إليها البرذون فتطفر عليه بلا رِكاب . وقال أبو العباس بن الفُرات : حَدَّثَتْنِي بِدعةٍ جاريةٍ عَرِيبَ أن عَرِيبَ كانت تجد في رأسها بَرْدًا وكانت تغلِّفُ رأسها بِسِتِّينَ مِثقالاً مِسكاً وعَنبراً ، وتغسله من جمعة إلى جمعة فإذا غسلته جَدَّدَتْ غيره ، وتقتسم الجوارى غُسلَ رأسها .

وقال على بن المنجَم : دخلت يوماً على عَرِيبَ مُسَلِّماً عليها ، فلما جلستُ هطلت السماء بمطر عظيم ، فقالت : أقيمْ عندى اليوم حتى أغنِّيك أنا وجوارى ، وأبعث إلى من

أَحْبَبْتُ مِنْ إِخْوَانِكَ، فَأَمَرْتُ بِدَوَابِّي فُرِّدَتْ، وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ، فَسَأَلَنِي عَنْ خَبْرِنَا بِالْأُمْسِ فِي مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ وَمَنْ كَانَ يَغْنِيْنَا، وَأَيَّ شَيْءٍ اسْتَحْسَنَاهُ مِنَ الْغِنَاءِ؛ فَأَخْبَرْتُهَا أَنَّ صَوْتَ الْخَلِيفَةِ كَانَ لَحْنًا صَنَعَهُ بَنَانُ مِنَ الْمَخَاوِرِيِّ؛ فَقَالَتْ : وَمَا هُوَ؟ فَقُلْتُ

نَجَافِي ثُمَّ تَنْطَلِقُ * جُفُونُ حَشْوُهَا الْأَرْقُ

وَذِي كَلَفٍ بَكِيٍّ جَزَعًا * وَسَفَرُ الْقَوْمِ مَنْطَلِقُ

بِهِ قَلَقٌ يَمْلِكُهُ * وَكَانَ وَمَا بِهِ قَلَقٌ

جَوَانِحُهُ عَلَى خَطَرٍ * بِنَارِ الشَّوْقِ تَحْتَرِقُ

فَوَجَّهْتُ رَسُولًا إِلَى بَنَانٍ، فَحَضَرَ وَقَدْ بَلَّغَهُ السَّمَاءَ، فَأَمَرْتُ بِجَلْعِ فَاخِرَةٍ فُجِّلِعَتْ عَلَيْهِ، وَقُدِّمَ لَهُ طَعَامٌ فَأَكَلَ، وَجَلَسَ يَشْرَبُ مَعَنَا، فَسَأَلَنِي عَنِ الصَّوْتِ فَعَنَّاها إِيَّاهُ، فَأَخَذَتْ دَوَاةَ وَرُقْعَةٍ وَكَتَبَتْ

أَجَابَ الْوَابِلَ الْغَدِيقُ * وَصَاحَ النَّرْجِسُ الْغَرَقُ

وَقَدْ غَنَّى بَنَانُ لَنَا : * ”جُفُونُ حَشْوُهَا الْأَرْقُ“

فَهَاكَ الْكَأْسُ مُتَرَعَّةٌ * كَأَنَّ خِتَامَهَا حَدَقُ

قَالَ : فَمَا شَرَبْنَا بَقِيَّةَ يَوْمِنَا إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ .

وَأَخْبَارُ عَرِيبٍ كَثِيرَةٍ، قَدْ وَضَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ فِيهَا دِيوانًا . وَفِيما أوردناه من ١٥
أَخْبَارِها كَفَايَةً لَا تَحْتَمِلُ الْمُخْتَصِرَاتُ أَكْثَرَ مِنْهَا . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

ذِكْرُ أَخْبَارِ مَحْبُوبَةٍ

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : كَانَتْ مَوْلِدَةً مِنْ مَوْلِدَاتِ الْبَصْرَةِ، شَاعِرَةٌ، سَرِيعَةُ الْخَاطِرِ، مَطْبُوعَةٌ لِاتِّكَادِ فَضْلِ الشَّاعِرَةِ الْيَمَانِيَّةِ تُتَقَدَّمُهَا، وَكَانَتْ أَجْمَلَ مِنْ فَضْلِ وَأَعَفَّ، وَكَانَتْ تَغَنِّيْ غِنَاءً غَيْرَ فَاخِرٍ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ : كَانَتْ مَحْبُوبَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ٢٠

أهداها إلى المتوكل في جملة أربعائة جارية، وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب، مغنية محسنة، فخطبت عند المتوكل حتى كان يُجلسها خلف الستارة وراء ظهره إذا جالس للشرب، فيدخل رأسه إليها فيراها ويحدثها في كل ساعة . وقال علي بن يحيى المنتجم : كان علي بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جدا فلا يكتمه شيئا من سره مع حرمة وأحاديث خلواته، فقال له يوما : إني دخلت على قبيحة فوجدتها قد كتبت اسمي على خدها بغالية ، فلا والله ما رأيت شيئا أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد، فقل في هذا شيئا، قال : وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة، فدعا علي بن الجهم بدواة، فإلى أن أتى بها وأبتدأ يفكر قالت محبوبة على البديهة من غير فكرة ولا روية

وكتبت في الخد بالمسك جعفرًا * بنفسى مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرًا بكفها * لقد أودعت قلبي من الحب أسطرًا
فيا من مملوك للملك يمينه * مطيع له فيما أسر وأظهرًا !
ويا من هواها في السرية جعفر * سقى الله من سقى ثياك جعفرًا

قال : فبقى علي بن الجهم واجئا لا ينطق بحرف، وأمر المتوكل بالأبيات فُبِعثت إلى عريب وأمرها أن تغني فيها ، قال علي بن الجهم : فتحيرت والله وتقلبّت خواطري، فوالله ما قدرت على حرف واحد أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكل يوما محبوبة وهجرها ومنع جوارها جميعا من كلامها، ثم نازعته نفسه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العزة منها وأمتنع من ابتدائها، وأمتنعت من ابتدائه دلا لا عليه لتحللها منه ، قال علي : فبكرت إليه يوما، فقال لي : يا علي ، إني رأيت البارحة في نومي كأني صالحت محبوبة ، فقلت : أقتر الله عينك يا أمير المؤمنين

وأنا مَك على خير وأيقظك على سرور! أرجو أن يكون هذا الصلح في اليَقَظَة ؛ فينا هو يحدثني وأحدثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرت إليه شيئا ، فقال : أندري ما أسرت إلى هذه ؟ قلت : لا ، قال : حدثني أنها اجتازت بمحبة الساعة وهي في محجرتها تغني ، أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مغاضبها وهي متهاونة بذلك ، لا تبدؤني بصلح ثم لا ترضى حتى تغني في محجرتها ، فقم بنا حتى نسمع ما تغني ، ثم قام وتبعته ٥ حتى انتهى إلى محجرتها ، وإذا هي تغني

أدور في القصر لا أرى أحدا * أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأتى أتيت معصية * ليست لها توبة تُخلصني
فهل لنا شافع إلى ملك * قد زارني في الكرى وصالحي
حتى إذا ما الصباح لاح لنا * عاد إلى هجره فصارمني ١٠

فغضب المتوكل ، وأحسّت بمكانه فأمرت بخدمها فخرجوا وتحتيا ، وخرجت إليه فحدثته أنها رأتَه في منامها فانتهت وقالت هذه الأبيات وغنت فيها ، فحدثها هو أيضا رؤياه وأصطلحا . فلما قتل المتوكل سلاه جميع جواريه غيرها ، فإنها لم تزل حزينة هاجرة لكل لذة حتى ماتت ، ولما فيه مرّاث .

حكى أبو الفرج أن وصيفا بعد قتل المتوكل أحضرها يوما وأحضر الجوارى ، ١٥ بغثن وعليهن الثياب الملونة المذهبة والحلي وفد تزين وتعطرن ، وجاءت محبوبة وعليها ثياب بيض غير فاحرة حزنا على المتوكل ، فغنى الجوارى جميعا وشربن ، وطرب وصيف وشرب ، ثم قال : يا محبوبة غني ، فأخذت العود وغنت وهي تبكي

أى عيش يطيب لى * لا أرى فيه جعفرا ؟
ملكاً قد رآته عيني قتيلاً معقراً
كل من كان ذا هيا * لم وحزن فقد برا ٢٠

غير محبوبة التي * لوترى الموت يُستَرى
لأشترته بـئلكها * كلُّ هذا يُقْبَرَا
إن موت الكثير أصْلَحَ مِنْ أن يَعْمَرَ

فاشئت ذلك على وصيف وأمر بقتلها؛ فأستوهبها بغاً منه فوهبها له، فأعتقها وأمر
بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد، فخرجت إلى بغداد من سرّ من رأى،
وأخلت ذكرها طول عمرها؛ وما طمع فيها أحد . رحمها الله تعالى .

ذكر أخبار عُبيدة الطنبورية

قال أبو الفرج الأصفهاني : كانت عُبيدة الطنبورية من المحسنات المتقدّمات
في الصّنع والأدب، شهد لها بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال : وحسبها
بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يُعظّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذية، وكانت
من أحسن الناس وجها وأطيبهم صوتا، وكانت لا تخلو من عشق . قال : ولم يُعرف
في الدنيا امرأة أعظم صنعة منها في الطنبور؛ وكانت لها صنعة عجبية، فمنها في الرّمْل
كُنْ لي شفيعاً إليك * إن خَفَ ذاك عليك
وأعفني من سُؤالي * سواك ما في يديك
يا مَنْ أَعَزَّ وأهوى * مَالِي أَهْوَى لَدَيْكَ!

قال : وحضرت يوما عند علي بن الهيثم اليزيديّ وعنده عمرو بن مسعدة
وهارون بن أحمد بن هشام، بغاه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأخبره خبرهم، فقال له
إسحاق : إني كنت آسئى أن أسمع عُبيدة، ولكنّها إن عرفتني وسألتوني أن أغني
بحضرتها أنقطعت ولم تصنع شيئا، فدعوها على جيلتها^(١)، فوافقوه على ذلك، ودخل
وكنتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحاق، وقُدّم النبيذ فغنت لحناً لها

(١) كذا في الأغاني، وفي الأصل : فدعوها على حملتها .

قَرِيبٌ غَيْرُ مُقْتَرَبٍ * وَمُؤْتَلَفٌ كَمُجَنَّبٍ
 لَهُ وَدَى وَلِيٍّ مِنْهُ * دَوَاعِيُ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ
 أَوَّاصِلُهُ عَلَى سَبَبٍ * وَيَهْجُرُنِي بِلَا سَبَبٍ
 وَيُظْلِمُنِي عَلَى نِقَمَةٍ * بَارَتْ إِلَيْهِ مُنْقَلَبِي .

٥١

- قال : فطرب إسحاق وشرب نصفًا ، ثم تغتت وشرب حتى وإلى بين عشرة
 أنصاف ، قال علي بن الهيثم : وشربنا معه ، وقام إسحاق ليصلي فقال لها هارون :
 ويحك يا عبيدة ! ما تبالين والله متى ميت ! قالت : ولم ؟ قال أتدري من المستحسن
 غناءك والشارب عليه ما شرب ؟ قالت : لا والله ، قال : إسحاق بن إبراهيم ، فلا
 تعرفه أنك قد عرفتيه ، فلما جاء إسحاق ابتدأت تغني فلحقها هبة له واختلاط ،
 فنقصت نقصانا بينا ، قال : أعرتتموها من أنا ؟ فقلت : نعم ، عرفها هارون ، فقال
 إسحاق : تقوم إذا فننصرف ، فإنه لا خير في عشرتك الليلة ولا فائدة لي ولا لكم ،
 وقام فانصرف .

- وقال ملاحظ غلام أبي العباس : أجمع الطنبوريون عند أبي العباس ابن الرشيد
 يومًا وفيهم المسدود وعبيدة ، فقالوا للسدود : غن ، فقال : لا والله ، لا تقدمت
 على عبيدة وهي الأستاذ ، فما غني حتى غنت . وقال محمد بن عبد الله ابن مالك
 الخراعي : سمعت إسحاق يقول : الطنبور إذا تجاوز عبيدة هديان .

✦ ✦

- هذا ما أمكن إيراد في هذا الباب من أخبار من اشتهر بالغناء ، وأخبار القيان ،
 وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهاني رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بالأغاني
 من أخبارهم ، ولم نأتم استيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء ، وذكرنا من
 أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

الباب السابع

من القسم الثالث من الفن الثاني

فيما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته، وما قيل في الغناء،

وما وصفت به القيان، ووصف آلات الطرب

ذكر ما يحتاج إليه المغني ويضطر إلى معرفته وما قيل

في الغناء والقيان من جيد الشعر

قال مالك بن أبي السمع : سألت ابن أبي إسرائيل عن المحسن المصيب من المغنين ، فقال : هو الذي يشيع الألحان ، ويملاء الأنفاس ، ويعدل الأوزان ، ويفتح الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواضع النبرات ، ويستوفي ما يشاء كلها من النقرات ؛ فعرضت ما قال علي معبد ، فاستحسنه وقال : ما يقال فيه أكثر من هذا . وقد رويت هذه المقالة عن ابن سريج . وقال إبراهيم الموصلي : الغناء على ثلاثة أضرب : فضرب موله مطرب يحرك ويستخف ، وضرب ثان له شجى ورقة ، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة ؛ وقال : كان هذا كله مجموعا في غناء ابن سريج . وقال أبو عثمان الناجم : بمجوعة الحلق الطيب تشبه مريض الأجفان الفاترة



وأما ما قيل في الغناء وما وصفت به القيان .

حكى أن بعض المحدثين سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ما هو غير أنه شوقه لشجاء وحسنه ، فقال في ذلك ، وقيل إنه لأبي تمام

حَدَّثَكَ لَيْلَةً شُرُفَتْ وَطَابَتْ * أَقَامَ سُهَادُهَا وَمَضَى كَرَاهَا
 سَمِعْتُ بِهَا غِنَاءً كَانَ أَوَّلَى * بَانَ يَقْتَادَ نَفْسِي مِنْ عَنَاهَا
 وَوُسْمَعَةٍ يَحَارُ السَّمْعُ فِيهَا * وَلَمْ تُضْمِمْهُ لَا يُضْمِمْ صَدَاهَا
 مَرَّتْ أَوْتَارَهَا فَشَقَّتْ وَشَاقَتْ * فَلَوْ يَسْطِيعُ حَاسِدُهَا فِدَاهَا
 وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ * وَرَتْ كِيدِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
 فَكُنْتُ كَأَنِّي أَعْمَى مُعْنَى * يُحِبُّ الْغَانِيَاتِ وَمَا رَاهَا

٥٢

وقال كشاجم في بُحَّة حلق المغنى

أَشْتَهَى فِي الْغِنَاءِ بُحَّةَ حَلْقِي * نَاعِمِ الصَّوْتِ مُتَعَبٍ مَكْدُودِ
 كَأَنِّي الْمَحَبَّ أَضْعَفُهُ السَّوْ * قَ فُضَاهِي بِهِ أَتَيْنَ الْعُودِ
 لَا أَحِبُّ الْأَوْتَارَ تَعْلُو كَمَا لَا * أَشْتَهَى الضَّرْبَ لَا زِمًا لِلْعُمُودِ
 وَأَحِبُّ الْمَحْنَبَاتِ كَحَيِّ^(١) * لِلْبَادِي مَوْصُولَةً بِالنَّشِيدِ
 كَهُبُوبِ الصَّبَا تَوْسَطُ حَالًا * بَيْنَ حَالَيْنِ : شِدَّةٍ وَرُكُودِ

وقال الناجم

شَدُّوْ أَلَذَّ مِنْ آبَتَدَا * ء الْعَيْنِ فِي إِغْفَانِهَا
 أَحْلَى وَأَشْمَى مِنْ مَنَى * نَفْسٍ وَصِدْقِ رَجَائِهَا

وقال محمد بن بشير

وَصَوْتُ لَبْنِي الْأَحْرَا * رِ أَهْلِ السَّيْرِ الْحُسْنَى
 شَيْخٌ يَسْتَغْرِقُ الْأَوْتَا * رَحَتِي كُلُّهَا تَفْنَى
 فَمَا أَدْرَى الْيَدُ الْيُسْرَى * بِهِ أَشْفَى أَمْ الْيُمْنَى؟

(١) في ديوان كشاجم طبع بيروت : « وأحب المحنبات لحبي » .

وقلنا لمغنيه * وقد غنى على المثنى :
 ألا يا ليت هذا الصو * تَ حَتَّى الصُّبْحِ لَا يَفْنَى
 فقد أيقظت اللذا * تُ عَيْنًا لَمْ تَزَلْ وَسْنَى
 وما أفهم ما يعنى * مُغْنِيهِ إِذَا غَنَى
 ولكنى من حُبى * له أَسْتَحْسِنُ الْمَعْنَى

وقال النعماني

غناؤك يهزمُ حبسَ الكُروبِ * وعيناك للناسِ عُذْرُ الذُّنُوبِ
 فويلُ القلوبِ إِذَا مَارَنَوْتَ * وإِذَا شَدَوْتَ فَوَيْلُ الْجُيُوبِ

وقال أيضا

وسائلةٌ تُسأَلُ عَنْكَ قُلْنَا * لها في وصفك العَجَبَ الْعَجِيبَا
 رَنَا ظَبِيًّا وَغَنَى عَنَدَلِيَا * وَلَاحَ شَفَائِقَا وَمَتْنَى قَضِيَا

وقال عكاشة يصف قينة

من كَفَّ جاريةً كَأَنَّ بَنَانَهَا * من فِضَّةٍ قَدْ طَرَّقَتْ عُنَابَا
 وَكَأَنَّ يَمْنَاهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ * تُلْقَى عَلَى يَدِهَا الشَّمَالِ حِسَابَا

وقال آبن الرومي

وقيانٌ كأنها أُمّهاتُ * عاطفاتٌ على بَنِيهَا حَوَانِي
 مَطْفِلاتٌ وَمَا حَمَلْنَ جَنِينَا * مُرَضِعَاتٌ وَلَسْنَ ذَاتَ لَبَانِ
 كُلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَتَّى * بَيْنَ عُودٍ وَمِرْهَرٍ وَكِرَانِ
 أُمُّهُ دَهْرَهَا تُتَرَجِّمُ عَنْهُ * وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْجُمَانِ

وقال أيضا

كأنا رِقَّةٌ مسموعها * رِقَّةٌ شَكْوَى سبقت دَمَعَهُ
غنت فلم تَحْتَجْ إلى زامٍ * هل تُحَوِّجُ الشَّمْسُ إلى شَمْعَةٍ
كأنما غنت لشمس الضحى * فالبستها حُسْنَهَا خَلَعَهُ.

٥

وقال التاجم

ما صدحت عاتبٌ ومزهرها * إلا وثقنا باللهو والفراج
لها غناء كالبئر في جسدٍ .. أضناه طول السقام والترج
تعبدها الراح فهي ما صدحت * إبريقنا ساجدٌ على القدح

وقال أيضا

١٠

ما تننت إلا تكشف همٌ * عن فؤادٍ وأقشعت أحزانُ
تفضلُ المُسمِّعينَ طيباً وحُسناً * مثل ما يفضلُ السَّماعَ العيانُ

وقال أبو عبادة البُحْترى



وأشارت على الغناء بالحا * ظمِراض، من التصابي صحاح
فطربنا لمن قبلَ المثاني * وسكرنا لمن قبل الراح

١٥

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود

أفدى آتى أهدت لنا * شمس الضحى والليل حالِك
ملوكَةٌ جلت فليس تفي بقيمتها الممالك
عرضت فاعطت عُودَهَا * ضرباً يعرضُ للهِالك
وتبعها فتصرفت * بالضرب في كل المسالك

ويئست من إدراكها * فجعلت صَوْتِي عند ذلك :

قَصُرَتْ يَدِي عَنْكَ الْغَدَا * ة، فكيف لي بيدٍ تالِك

وقال أيضا

بدت في نسوةٍ مثل السَّمِّهِاءِ أَذْمَجِبَ إِدْمَاجَا

يُجَادِبَنَّ مِنَ الْأَرْدَا * فِي كُثْبَانًا وَأَمْوَاجَا

ويسترن من الأَبْشَا * رِي الدِّيَاجِ دِيَّاجَا

وَقُضْبَانًا مِنَ الْفِضَّةِ قَدْ أَثْمَرَتِ الْعَاجَا

وقد لانت من الكُور * على مَقْرِقِهَا تَاجَا

فلما طُفِرَ بِالْمَجْلَسِ أَفْرَادًا وَأَزْوَاجَا

تَجَاوَبَنَ فَغَنَيْنَاكَ أَرْمَالًا وَأَهْزَاجَا

وَحَرَّكَنَ مِنَ الْأَوْتَا * رَامَسَاكَ وَإِدْمَاجَا

فَلَا لَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ إِنْ هُيَّجَ فَاهْتَجَا

وقال علي بن عبد الرحمن بن يونس المنجم في عَوَادَة

غَنَّتْ فَأَخْفَتْ صَوْتَهَا فِي عُودِهَا * فَكَأَنَّ الصَّوْتَانِ صَوْتُ الْعُودِ

غِيْدَاءُ تَأْمُرُ عُودَهَا فَيُطِيعُهَا * أَبَدًا وَيَتَّبِعُهَا أَتْبَاعَ وَرُودِ

أَنْذَى مِنَ النَّوَارِ صُبْحًا صَوْتُهَا * وَأَرْقُ مِنَ نَشْرِ الثَّنَا الْمَعْهُودِ

فَكَأَنَّ الصَّوْتَانِ حِينَ تَمَازَجَا * مَاءَ الْغَامَةِ وَأَبْنَةُ الْعُنُقُودِ

وقال أبو عَوْن الكاتب

تَشْدُو فَيُرْقِصُ بِالرَّو * سَ لَهَا وَيُزَمُّ بِالْكُؤُوسِ

وقال الناجم

طَفِقْتُ تَغْنِيًّا نَحِلْنَا أَنَّهَا * لَسُرُّوْنَا بَغْنَائِهَا تَغْنِيْنَا

وقال أبو هلال العسكري

وَهَيَّجَتْ لِي مَنْ يَتَجَيَّوْ مِنْ قَرَجٍ * أَيْدٍ نَثَرَتْ عَلَى الْأَوْتَارِ عُنَابَا
لَاعِيبَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا خَوْفَ غَيْبَتِكُمْ، * إِنْ السُّرُورَ إِذَا مَا غَبْتُمُو غَابَا

وقال هارون بن عليّ المنتجم

غَضِنْتُ عَلَى دِعَاصٍ نَقًّا مُنْهَالٍ * سَعَى بِكَأْسٍ مِثْلَ لَمْعِ الْآلِ
وَفَاتَاتِ الطَّرْفِ وَالذَّلَالِ * هَيْفَ الْخُصُورِ رُجَّ الْأَكْفَالِ
يَأْخُذُنْ مِنْ طَرَائِفِ الْأَرْمَالِ * وَمُحْكَمِ الْخِفافِ وَالثَّقَالِ
تَجْرِي مَعَ النَّاسِ بِلَا أَنْفَصَالٍ * مِثْلُ أَخْطَاطِ الْخَمْرِ بِالزُّلَالِ
تَدْعُو إِلَى الصَّبْوَةِ كُلِّ سَالٍ * تَصْرَعُ كُلَّ فَاتِكٍ بَطَالٍ
بَيْنَ حَرَامِ اللَّهِوِ وَالْحَلَالِ * أَكْرَمَ مِنْ مَصَارِعِ الْأَبْطَالِ

وقال شاعر يذمُّ مُغْنِيًّا

وَمُغْنٍ بَارِدِ النَّفْسِ * مُخْتَلِ الْيَدَيْنِ
مَا رَأَاهُ أَحَدٌ فِي * دَارِ قَوْمٍ مَرَّتَيْنِ
صَوْتُهُ أَقْطَعُ لِلذَّاتِ مِنْ سَطْوَةٍ بَيْنِ

وقال ابن الرومي

فَظَلْتُ أَشْرَبُ بِالْأَرْطَالِ لَا طَرَبًا * عَلَيْهِ بَلْ طَلَبًا لِلشُّكْرِ وَالنَّوْمِ



ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب

فمن ذلك ما وصف به العود ؛ نظم أبو الفتح محمود المعروف بكشاجم قول الحكماء : إن العود مركب على الطبائع الأربع ، فقال

شَدَتْ بَحَلَّتْ أَسْمَاعَنَا بِجُفَيْفٍ * يُحَدِّثُهَا عَنْ سِرِّهَا وَتُحَدِّثُهُ
مُشَاكَلَةً أَوْتَارُهُ فِي طِبَاعِهَا * عَنَاصِرَ مِنْهَا أَحَدُثَ الْخَلْقَ مُحَدِّثُهُ
فَلِنَارٍ مِنْهُ الزَّيْرُ وَالْهَمُّ أَرْضُهُ * وَلِلرَّيْحِ مِثْنَاهُ وَلِلْأَيِّ مِثْلُثُهُ
وَكُلُّ أَمْرٍ يُرَاحُ مِنْهُ لِنَغْمَةٍ * عَلَى حَسَبِ الطَّبَعِ الَّذِي مِنْهُ يَبْعَثُهُ
شَكَازُ صَرْبٍ يُبْنَاهَا فَظَلَّتْ يَسَارُهَا * تُطَوِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرْعِشُهُ
فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى أَرْتَبَا مُحَارِقًا * يُجَاوِبُهُ فِي أَحْسَنِ النَّقْرِ عُنُوشُهُ
وَحَقٌّ حَسِبْتُ الْبَابِلِيِّينَ الْقَيَّامَ * عَلَى لَفِظِهَا السَّحَرِ الَّذِي فِيهِ تَنْفُثُهُ

٥

١٠

وقال آخر

جَاءَتْ بَعُودٌ تُتَاغِيهِ فَيُسْعِدُهَا * انْظُرْ بِدَائِعِ مَا تَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ
غَنَّتْ عَلَى عُودِهِ الْأَطْيَارُ مِنْ طَرِبٍ * رَطْبًا ، فَلَمَّا دَوَّى غَنَّتْ بِهِ الْبَشَرُ
فَلَا يَزَالُ عَلَيْهِ أَوْ يَهْ طَرِبٌ * يَهْبِجُهُ الْأَعْيَانُ : الطَّيْرُ وَالْوَتَرُ

وقال آخر

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا أَنْبَتَتْ عُودَكَ الَّذِي * ذَكَتْ مِنْهُ أَنْفَاسٌ وَطَابَتْ مَغَارِسُ
تَغَنَّتْ عَلَيْهِ الْوُرُوقُ وَالْعُودُ أَخْضَرُ * وَغَنَّتْ عَلَيْهِ الْغَيْدُ وَالْعُودُ يَابِسُ

١٥

وقال آخر

لَا تَحْسِبِ الْعُودَ إِنْ غَنَّتْكَ شَادَنُهُ * جَاءَتْكَ بِالطَّبِيفِ فِيهِ نَعْمَةُ الْوَتَرِ
وَأَتَمَّ الطَّيْرِ أَلْقَتْ عِنْدَهُ خَبْرًا * فَعَدَّوْهُ فَمِ الْعُودُ بِالْخَبَرِ

٢٠

وقال أنثر

فكأنه في حجرها ولد لها * ضمته بين ترائب ولبان
طورا تدغدغ بطنه فإذا هفا * عركت له أذنا من الآذان

وقال الناجم

إذا احتضنت عودها عابث * وناغته أحسن أن يعربا
تدغدغ في مهل بطنه * فيسمعنا مضجعا معجبا

وقال الحمدوني

واناطي بلسان لاضميره * كأنه خذ نيط إلى قدم
يبدى ضمير سواه في الحديث كما * يبدى ضمير سواه الخط بالقلم

وقال كشاجم

جاءت بعود كأن نعمته * صوت فتاة تشكو فراق قتي
مخفف خفت النفوس به * كأنما الزهر حوله تبتا
دارت ملاويه فيه واختلفت * مثل اختلاف الكفين شباك
لو حر كته وراء منزيم * على بريد لعاج وألقتا
ياحسن صوتيهما كأنهما * أختان في صنعة ترأسنا
وهو على ذانيوب إن سكتت * عنها ، وعنه تنوب إن سكتا

وقال أيضا

وجارية مثل شمس النهار * أو البدر بين النجوم الدراري
أنتك تميمس بقد القضيبي * وترنو بعين مهة الفقار

وترُفِّلُ في مُضْمَتِ أبيض * تلون من خدّها جُلَّتَارِي
وتجملُ عودًا فصيحَ الجَوَابِ * يشارك أرواحنا في التجَارِي
له عُنُقُ كذراع الفتاة * ودُستانُهُ بمكان السَّوَارِ
بِغَادَتٍ عليه وجادت له * بَعَسُفِ اليَمِينِ ولُطْفِ اليسَارِ
فما أمهلتُهُ ولا نَهَنَّتُهُ * من الظهر حتى تَقْضَى النَّهَارِ
ولما تَغَنَّتْ غناءَ الوداع * بكيتُ وقلتُ لبعض الجَوَارِي:
لئن عِشْتُ عند هزار اللّقاء * لقد مُتَّ عند هزار الإزارِ

وقال أيضا

وكثيرة النِّعَمَاتِ تحسبها * في كلِّ عُضْوٍ أُوتِيَتْ حلَقا
غَنَّتْ فَظَلَّتْ إِحْأَلْنِي طِرْبًا * أَسْمُو إِلَى الْأَمْلاكِ أَوْ أَرُقِ
وتكَلَّمْتُ أوتارها فأنَا * فِيهَا أَخْبَرُ بِالَّذِي أَلْقَى
بحكي أَنِينِي وهى شاكِيَةٌ * مِمَّا أَجِنْتُ وَتَشْتَكِي عِشْقَا
وترى لها عودًا تُعَانِقُهُ * وَكَلَامَهُ وَكَلَامَهَا وَفَقَا
لو لم تُحَرِّكْهُ أَنَامِلُهَا * كَانَ الْهَوَاءُ يُفِيدُهُ نُطْقَا
جَسَدُهُ عَالِمَةٌ بِحَالَتِهِ * جَسَدُ الطَّيِّبِ لِمُدْنَفِ عِرْقَا
فحَسِبْتُ يَمْنَاهَا تُحَرِّكُهُ * رَعْدًا ، وَخَلَّتْ يَسَارَهَا بَرْقَا

وقال أيضا

تَمِيسُ مِنَ الْوُشْيِ فِي حُلَّةٍ * تُجَزَّرُ مِنْ فَضْلِ أَذْيَالِهَا
وتجملُ عودًا فصيحَ الجَوَابِ * يَضَاهِي اللَّحُونَ بِأَشْكَالِهَا

له عُنُقٌ مِثْلُ سَاقِ الْفَتَاةِ * وَدُسْتَانُهُ مِثْلُ خَلْجَالِهَا
فَظَلْتُ تُطَارِحُ أَوْتَارَهُ * بِأَهْزَاجِهَا وَبَارْمَالِهَا
وَتَعْمَلُ جَسًّا لِحَسِّ الْعُرُوقِ * وَتَلْوِي الْمَلَاوِي بِأَمْثَالِهَا
وقال آخر يصف الطنبور

مُخْطَفُ الْخَضِرِ أَجْوَفُ * جِيْدُهُ نَصْفُ سَائِرِهِ
أَنْطَقَتْهُ يَدَا قَتَى * فَاتَرِ اللَّحْظِ سَاحِرِهِ
بَحَلًّا عَنْ ضَمِيرِهِ * مَا حَوَى فِي خَوَاطِرِهِ

وقال سيف الدين المشد في دُفٍّ

وِطَارِيَّةٍ قَرَعَتْ طَارَهَا * وَغَنَّتْ عَلَيْهِ بِصَوْتٍ عَجِيبٍ
فَعَايَنْتُ شَمْسَ الضَّحَى أَقْبَلْتُ * وَبَدَرٌ تَقَدَّمَهَا عَنْ قَرِيبٍ

وقال أيضا يصف شبابة

وَعَارِيَّةٍ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، حَبِيبَةٍ - إِلَى كُلِّ قَلْبٍ بَاتَ بِالْبَيْنِ مَجْرُوحَا
لَهَا جَسَدٌ مَيِّتٌ يَعِيشُ بِنَفْخَةٍ * مَتَى دَاخَلَتْهُ الرِّيحُ صَارَتْ بِهِ رُوحَا
تُعِيدُ الَّذِي يُلْقَى عَلَيْهَا بِسَلْدَةٍ * تَزِيدُ فُؤَادَ الصَّبِّ وَجْدًا وَتَبْرِيحَا
وَتَنْطِقُ بِالسَّحَرِ الْحَلَالِ عَنِ الْهَوَى * وَتُوحِي إِلَى الْأَسْتِمَاعِ أَطْيَبَ مَا يُوحَى

القسم الرابع من الفن الثاني

في التهانى والبشائر والمرائى والنوادر والزهد والتوكل والأدعية

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم في التهانى والبشائر

٥

والتهانى تنقسم إلى قسمين وتحتاز في جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلق بالرجل من منصبٍ يليه ، ونعمةٍ تُؤَالِيه ، وولدٍ رُزِقَه ، وشفاء من مرض أقلقَه وأزقَه ، وقدم من سفر ، وزواج قضى به الأرب والوطر . والعموم هو ما يتعلق بالجمهور ، ويتساوى فيه الملك والمملوك والأمر والمأمور : من أنصاب غيث عم الربا والوهاد ، وجرّان نيل شمل بريّه البلاد وآمن العباد ، وهزيمة عدوّ زاد فى عدوانه وتمادى فى طغيانه ، وفتوح حصن أمن أهله بتشيد أركانه وإتقان بُنيانه .

١٠

ذكر شىء مما هنئ به ولاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئةً بخلافة فقال : أما بعد فإن أولى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتّام ، وأجدرها بالخلود ، وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسّلامة على نُوب الأيّام وتصاريف الأحداث ، نعمةٌ نشأت بفنائها ، وسكنت دُراها ، فحِمدتْ مثواها ، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسة الحانى الشّفيق ، وكفلوها كفالة الحديب الرقيق ، فتمت وتمت ، وخصت وعمت ، ثم أعترضها من ريب

١٥

الزمان ما هاج سَوَاكِنَهَا، وأزعج كَوَامِنَهَا، وأصارها إلى الوَحْشَةِ بعد الأَثْسِ، والنَّفَرَةِ بعد الإلْفِ، لتقلقل تقلقل العَوَادِي، وتشرُدُ شُرُودَ الضَّوَالِ، لافظة لها الأَفْطَارُ، ونابية بها الحال، إلى أن أعادها الله تعالى بلطفه إلى مَعْنَاهَا المعروف، ورَبْعَهَا المألوف، وآسَقَرَتْ بعد الأَضْطِرَابِ، وفاءت بعد الأَغْتِرَابِ، وتلك نعمة الله عند سَيِّدِنَا أمير المؤمنين، لما جَدَّدَ له من كرامته، وأَصْطَفَاهُ له من خِلافته، وطَوَّقَهُ إِيَّاهُ من إمامته، وردَّه إليه من تدبير الملك، وأَعْتَمَدَ عليه من سياسة الأنَامِ، فأَحْيَا به السَّنَنَ القاصِرة، وأزال به الرسوم الجائرة، ونَهَجَ به سبيل العدل، وأقام به منار الفضل.

وقال طَرْيَحُ بن إسماعيل الثقفي في المنصور لما أفضت الخلافة إليه

لَمَّا أَتَى النَّاسَ أَنَّ مُلْكَهُمْ * إِلَيْكَ قَدِ صَارَ أَمْرُهُ، سَجَدُوا
وَأَسْتَبَشَرُوا بِالرَّضَا تَبَاشَرَهُمْ * بِالْخُلْدِ لَوْ قِيلَ: إِنَّهُمْ خَلَدُوا
كَتُّ أَرَى أَنَّ مَا وَجَدْتُ مِنَ الْقَرِّ * حَسَةً لَمْ يَلَقَ مِثْلَهُ أَحَدٌ
حَتَّى رَأَيْتَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ * قَدْ وَجَدُوا فِيكَ مِثْلَ مَا أَجَدُ
قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغَتْ فَمَا * نَالُوا وَلَا قَارَبُوا وَلَا جَاهَدُوا
يَرْفُوعُكَ اللَّهُ بِالتَّكْرَمِ * وَالتَّقْوَى فَتَعْلُو وَأَنْتَ تَقْتَصِدُ

وقال زيد السَّندِيُّ يَهْيَى الوَازِرَ يَعْقُوبَ بنِ كَلَسٍ بوزارة العزيز بمصر

إِنَّ الْوَزَارَةَ لَمْ تَزَلْ بِكَ صَبَّةً * تَهْوَاكَ لَمْ يَخْطُرْ سِوَاكَ بِهَا
خُطِبْتُ فَلَمْ تُعْطِ الْقِيَادَ لَطَالِبٍ * وَأَبْتُ عَلَى طُلَابِهَا بِوَصَالِهَا

وقال آبن بشر الصَّقَلِيُّ الكاتب يَهْيَى الحَسَنَ بنِ إِبْرَاهِيمَ التُّسْتَرِيَّ بوزارة مصر،

وقد وَزَرَ لِمُسْتَنْصَرٍ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعًا

بيومك طارت في البلاد البشائرُ * وطابت بمرجوع الحديث المحاضرُ
وأصبحت الأمصارُ أمنًا وغبطةً * أسرَّتْها مهترَّةٌ والمنابرُ
وقام خطيبُ الحمد في كلِّ موقفٍ * يُعَدِّد ما تُملئ عليه المآثرُ

ومنها

لقد عاشرتُ منك الوزارةُ ماجدًا * له كَنَفٌ لا يَحْتَوِيهِ المُعَاشِرُ
فسيح أمتداد الظلِّ بين رَجَائِهِ * وبين المعالي أهل الرِّيعِ عامرُ
فألقَتْ عصاها وأستقرَّ بها النوى * كما قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المسافرُ
وما زلتَ ملحوظًا لها ومؤهلًا * لِذَا الأمرِ مَدَشُدَّتْ عليك المآزرُ

(٥٧)

وقال آخر

كُتِبَ رَمْتُ أَنْ أَهْنَيْكَ وَقْتًا * بِحُلٍّ مِنَ الْعُلَا تَرْتَقِيهِ
صَبْتُ مَقْدَارَكَ الَّذِي أَعْجَزَ الْو * أَصَفَ أَعْلَى مِنَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ

١٠

وكتب الحمدوني أخو صاحب التذكرة يهنئ بالسلامة من حريق وقع في دار
الخلافة : الدنيا — أعزَّ الله أنصار الخدمة الشريفة — دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز
الابتلاء والاعتبار، والله فيما نزله فيها إلى عباده من نِعَمِهِ، وتحوُّلهم من مواهبهِ وقِسَمِهِ
عاداتٍ يقتضيها بالغُ حِكْمَتِهِ، وماضٍ إرادته ومشيئته، ليستيقظ الدَّاهِلُ، ويعترف
الجاهل، ويزداد العالم اللبيب اعتبارًا، ويستفيد العاقل الأريب تفكرًا وأستبصارًا،
فلا يُفْعَلُ عن واجب الشكر، إذا سِيَقَتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن أستدعاء المزيد منها
بالاعتراف إذا أُسْبِغَتْ عليه، وهو أن الباري سبحانه إذا تابع آلاءَهُ إلى عبد ووالاهَا،
[وجرَّدها] له من الشوائب وأخلاها، وأماط عن مَشَارِبِهَا أكَدَارَ الدنيا المطبوعة على

١٥

(١)

الكَدَرِ، وغمرَ مساربها بالأثمن من طوارق الغير، خيف عليها الانتقاض والزوال، وتوقع لها الانتهاء والانتقال؛ ومن ذلك الخبر المروى: أنه لما أنزل الله تعالى (اليوم أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) آتبعه الصحابة رضى الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإنه بكى، فقالوا: ما يبكيك وقد أكل الله لنا ديننا برحمته، وأتم لنا ما سألنا من نعمته؟ فقال: يبكي أنى أنه ماتم أمرٌ إلا بدا نقصه؛ فقيض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريب. وإذا كانت مشوبةً برائع يتخلل صفوها، وطارق يجهد في بعض الأوقات عفوها، كان ذلك صارفاً عنها عين الكمال، مؤذناً بطول الآجال، حاكماً لها بترأخى عُمر البقاء، دالاً على الصعود بها إلى درج المكث الطويل والأرتقاء به وحكمه حكم المرض الذى تصح به الأجساد، ومُخصّص ذنوب من يُسلط عليه من العباد

١٠

فلا يهبج الأعداء سوء ظنونهم * فله صنع في الذى ساء ظاهره
فكم طالب شيئاً به الشر كما من * وكم كارهٍ أمراً به الخير وأفر

١٥

فله الحمد الذى جعل ماجرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهره، الوجل لوقعه ناظره، لعنايته جلت عظمته عنواناً، وعلى دوام نعمته دليلاً واضحاً وبرهاناً، وإليه الرغبة في أن يجعل الديار وساكنيها، والناس في أقاصى الدنيا وأدانيها لشريف الحوزة التى بها صلاح العالم فداء، وعنهما للمكروه وقاء؛ فكلّ حادث مع دولم هذه الأيام الزاهرة جَلَل، وكلّ غمر من نوائب الدهر مادافع لطف الله عنها وشَل.

٢٠

وقال أبو عبادة البُخترى يهتئ الفتح بن خاقان بسلامته من الفرق
بعدوك الحدّث الجليل الواقع * ولمن يكأيذك الحام الفاجع
قلنا: لعلّ ما عثرت ولا تزل * نوب اللبالي وهى عنك رواجع

(١) الغمر: الماء الكثير، وفى الأصل: وكل غم وهو تحريف لأنه يريد المقابلة بينه وبين «وشل» بعده.

ولربما عثر الجواد وشأوه * متقدّم ونبا الحسام القاطع
 لن تظفر الأعداء منك بزلة^(١) * والله دونك حاجز ومُدافع
 إحدى الحوادث شارفتك فردّها * صُنِعَ الإله ولطفه المتتابع
 حتى برزت لنا وجأشك ساكن * من نجدة، وضياء وجهك ساطع
 ماحل لوّن عند ذاك ولا هفا * عزّم ولا راع الجوانح رائع

وقال المتنبي يبنى بعافية

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم * وزال عنك إلى أعدائك الألم
 وما أخصصك في برء^(٢) بهنئة * إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

٥٨

ومما هنيئ به من أتصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصاله وأدب؛
 وقَلَّما تقع التهنية بذلك إلا بين صديقين صحّ بينهما الائتنام، وسقطت بينهما مشونة
 الاحتشام، وتساويا في الرتبة، واتّحدا في الصّحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامري إلى بعض إخوانه وقد آبى بأهل :
 بأيمن طائر وأتمّ سعيد * يكون من الكريمين اجتماع

أما إنه المجد اليقاع ، والحسن المطاع ، تعارفت الطباع ، فالتأمت الأنفس
 الشعاع ؛ كما آلتى الثّريّان ، وآقترن النّيران ؛ كما حاصر الرّئم الصّيفم ، وهاصر اللّسيم
 الغصن المنعم ؛ كما راق فوق المعطف الصّارم العضب ، كما آلتقت الصّهباء والبارد
 العذب ؛ بل كما فازت القيداح ، ونظّم الوشاح ؛ وآعنتق سنّ طبّقه ، وآعنتق الرّوض
 عبّقه ؛ فحبذا النّسب شابكه الصّهر ، والحسب عاقده الثّقيّ والبرّ ؛ على حين جرّت
 الأيامن ، وآكتنّف الحرّم الآمن ؛ وبالبنين والرفاء ، والنعم والصّفاء ، والثّروة والثّماء

(١) كذا في ديوان البحري وفي الأصل : إن تظفر .

(٢) كذا في ديوان المتنبي ، وفي الأصل : وما أخصصك في قول .

والزمن الوهد والعزة القعساء السماء ، على الوفاق ، والوئام والاتساق ؛ والحظوظ
والجدود ، والفُسْطاط الممدود ، وهضر العيش الأملود ، والالتئام وتنبُع البشرى
بالفارس المولود ؛ ومالى تأودتُ أعطافا ، وتأثقتُ أوصافا ؛ وتهلكتُ جذلا ، وبسطت
في الدعاء مذلا ؟ أهتاني الأرب ، أم صفا لى المشرب ؟ وقد غبت عن اليوم المشهود ،
وعطّلت سُدة الإذن للوفود ؛ ولم أقم في السّماط ، سافرا عن وجه الاعتباط ؛ أتلقى
الوالج بمرور التّجيه ، وأفدى الخارج بحكم السرور والأريجيه ؛ وأتخدم رفع الوحي
والإيماء ، وأتقدم من المصافاة والموالاة في الغفير الجّاء ؛ كلاً ! ولا شهدت ليلة
الرّفاف ، وما حلت من محاسنها الأقواف ؛ حيث دارت المني سلافا ، وصارت العُلا
دوحة ألفافا ؛ وأبدى رونق السّيف جلاء ، وأبرز عقيلة الحى هداء ، هنالك حلت
النعماء ، ونهلت الأطماء ؛ فياله منظر ، ووعدا منتظرا ؛ لو ناجيته من كُشب ، وكرعتُ منه
في المنهل الأعذب ! بلى ! إنه وقع ، فشفى ونفع ؛ والزّكب سنح ، فنعّم مامنع ؛ أهداها
حملا ، فكأنما أسداها أملا ، أنلج الفؤاد ، وأورى الزّناد ، وفي بالنفس أوكاد ،
وفلت عن قره ، نفس جدلت بسراه ، وأرجت لذكراه ؛ ولله ما أحفظاه مقدّما ،
وأعلاه في الإحسان قدما ، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دما ؛ وقد كان في الحق
أن أهاجر ، وأعصى الناهى والزّاجر ؛ فأبسط لى عُذرا ، وأعدنى لك دُخرا ، وطب
مدى الدهر خبرا وخبرا .

ومما هتني به من رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعددا ؛ فمن ذلك ما كتب
به الأستاذ ابن العميد في فصل يهني عضد الدولة بن بويه وقد ولده آبنان توأمان :
وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبت النعمة بها أن تقع مُفردة ، وأمتنعت
العارفة فيها أن تسنح مُوحدة ، حتى تيسرت منحتان في وطن ، وآتظمت موهبتان

(١) في الأصل : «ان» وهو غير واضح . (٢) وردت هذه الكلمة هكذا بالأصل ؟

في قرْن، وطلع من النجيين أبي القاسم وأبي كاليبجار - أدام الله عزهما - طالعا مُلك،
ونجا سعد، وشهابا عز، وكوكبا مجد، فتأملت بهما رِباعُ الحُسن، ووطئت لهما
أكناف المكارم، وأستشرفت إليهما صدورُ الأُسرةِ والمنابر. وفهمته وشكرتُ الله
تعالى شكرَ من نادى الآمالَ فأجابته مُكْتَبَةٌ، ودعا الأمانى بخاتمه مُصْحَبَةٌ^(١)، وحمدته^(٢)
حمداً مكافئاً جسيماً ما أتاح وعظيماً ما أفاد؛ وأكتفنى من السرور ما فسح مناهج
الغبطة، وسهل موارد البهجة؛ وأشعث ما ورد إشاعةً شرحت صدور الأولياء^(٣)
بمسارها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مقارها؛ وسألت الله إتمام ما أذن به الأُميران
السيدان من سعادة لا يهتدى إليها الاختيارُ علواً، ولا ترتقى إليها الأفكارُ سمواً؛
وسلطان تضييق البحار عن اتساعه، وتخفض الأفلاك عن ارتفاعه؛ ويُبقيهما أفضل
ما تنقسمه السعود، وتعلو به الجُدد؛ حتى يستغرقا مع السابقين إخوتها مساعي
الفضل، ويَشِيدَا قواعدَ الفخر، ويرجما صُروفَ الدهر، ويضبطا أطراف الأرض،
وهو تعالى قريب محبب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجد الأندلسي : إن أحقَّ ما أنبسط
فيه للتهنئة لسان، وتصرف في ميادين معانيه بيان وبنان؛ أملٌ رُجى فتأبى زمانا،
وَأَسْتُدْعَى فلولي عِنانا؛ وطاردته الأمانى فأنعها حينا، وغالزته الهمم فأشعرها حينا؛
ثم طلع غير مُرتَقَب، وورد من حجة المناجح في عسكر لُحَب، وكان كالششير إلى
ما بعده من مواكب الآمال، والدليل على ما وراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُبح
أفترت عن أنوار الشمس مباسمه، والبرق تسابعت إثر ويميضه غمائمُه . وفي هذه الجملة

(١) في الأصل : « بخلته » .

(٢) مصحبة : منقادة .

(٣) في الأصل : ما أدنا .

مادلّ على المولود، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعف السُعود؛ فياله نجم سعادة،
 طلع في أفق سيادة؛ وغُصن سناء، تنزع عن دَوحة علاء؛ لقد تهلّت وجوه المحاسن
 باستهلاله . وأقبلت وفود الميامن لاستقباله؛ ونُظمت له قلائد التّائّم ، من جواهر
 المكارم، وخُصّ بالثديّ الحوافل . بلبان الفضائل ؛ وما كان منبت الشرف بإفراد
 تلك الأرومة الكريمة إلا مشعر الرّيا، مغبرّ الثرى ، متهافت أغصان الرّضا ؛
 فاما وقد أتهرّ في أنكة السّيادة فضيب ، وسأ من نبتة النّجاة نجيب ؛ فأخْلُق بذلك
 المبيت أن معاودة بصرتّه ، وترّف عليه حَبْرته ؛ ويراجعه رَوْقه وبهاؤه ، ونُضاحكه
 أرضه وسماؤه . فالحمد لله على ما أتاحه من أنشاء الأمل من حِجّاه . واختيال الجدّل
 في حَلبة غرّره وأوصاحه . وهو المسؤول أن يهنّك منه ضِعّاً يحسُن في مثله الحسد ،
 ويُتخّى لمضله السُّلّ والوَلد . بعزته .

١٠

وقال أبو هلال العسكريّ

قد زاد في عدد الكرام كريم * محض صريح في الكرام صميم
 عالي المحلة لا يزال كأنه . للفرّقدتين وللسمك نديم
 فلا مره التّميم كيف نصرفت * حالته ، ولشأنه الفّحيم
 فابشر فقد وافاك يوم رزقته * حظّ بخليد السرور زعيم
 فرع نكفل دهره بتمامه . حتى بكرّ الدهر وهو أروم
 إن الحلال يصير بدرًا كاملاً * ويهدّ سدّ الليل وهو بهيم
 وهو الوجيه إذا تبدى وجهه * وعدا إذا نزل العظم عظيم
 فلا هله شرف به متوطّد * ولهم به شرف أشمّ عيم

١٥

فأقرّ به عيناً فإنّ خِلالَه * تصفون وتسلّس أو يقال : نسيمٌ
ولجذه التّصميمُ حيثُ تلاحقتُ * أقرّاهُ ولشأوه التّقديمُ



ومن كلام الصّاحب بن عباد تهنة بنت : أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ؛
وجالبة الأصهار ، وأولاد الأطهار ؛ والمبشرة بإخوة يتنافسون ، ونجباء يتلاحقون
فلو كان النّساء كمثل هذى * لفصّلت النّساء على الرّجال
وما التّأنيثُ لاسم الشّمس عيبٌ * ولا التذكيرُ نحرٌ للهلالِ

فادّرع يا سيدي اغتباطاً ، وأسْتأنف تشاطاً ، فالدنيا مؤنّثة والرجال يخدمونها ،
والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنّثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرّية ؛ والسما
مؤنّثة وقد تزيّنت بالكواكب ، وحلّيت بالتّجم الثّاقب ؛ والنفس مؤنّثة وهى قوامُ
الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والجنة مؤنّثة وبها وعد المتّقون ، وفيها ينعم المرسلون ؛
فهينا هيناً ما أوّلت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ؛ وأطال بقاءك ما عيرف
النّسل والولد ، وما بقى الابد ، وكلما عمّر لبد .

ومن كلام أبى المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة : — هذا شُعيبُ النّبيِّ
بابنه صَفْوراء أسأجر موسى كليم الله ؛ وهذا سيّد المرسلين أبى الله بفاطمة أبنته
نسله إلى يوم الدين ؛ وهذه أم الكتاب سُميت الفاتحة ، وهى لأبواب مُناجاة الرّحمٰن
فاتحة ؛ وهذه مُحْكَمات القرآن ، بها ثبتت شرائع الإيمان ؛ وهذه سورة النّساء ومُتمّيت
بهنّ وهى من الطّوال ، ولا سورة من القصار سُميت بالرجال ؛ على أنّ الدنيا بأسرها
مؤنّثة والملوك من خُدّامها ، والشّمس مؤنّثة والضّياء والبهاء من تمامها ؛ والنفس
تؤنّث وبها فُصل النّاس ، والحياة تؤنّث وهى أساس الحوائس ؛ والعين تؤنّث وبها
يُتوسّل الى علم الدقائق ؛ واليد تؤنّث وهى المتصدّبة لتجدير الأشياء ، وألعُضد تؤنّث

وبها آستعانة سائر الأعضاء ، والسماء تؤثت وهي تُرْجى الأمطار ، والأرض تؤثت
وهي تجمع أطايب الثمار ، والجنة تؤثت وبها وعد الأبرار الأخيار ، والعين ، أغنى
الذهب ، تؤثت وبها يدفع الهلك ، والقوس تؤثت وبها عز الملك .

ومما هُنيئ به في المَوَاسِمِ والقُدومِ .

قال ابن الرومي تهنئة بعيد الفطر

قد مضى الصَّومُ صاحباً محموداً * وأتى الفِطْرُ صاحباً مودوداً
ذهب الصَّومُ وهو يحكيك نُسكا * وأتى الفِطْرُ وهو يحكيك جوداً

وقال آخر

رأى العيدُ وجهك عيداً له * وإن كنت زدت عليه جمالاً
وكبر حين رآك الهلال * كفعلك حين رأيت الهلالاً
رأى منك ما منه أنصرته * هلالاً أضاء ووجهاً تلالاً

وقال ابن الرومي يهني بعيد أضحى وهو يوم نوروز

عيدان : أضحى ونوروز كأنهما * يوماً فعالك من بُؤس وإنعام
كذاك يومك : يوم سببه ديم * على العفاة ، ويوم سيفه دأبي

وقال أبو إسحاق الصَّابِي

ياسيداً أضحى الزما * نُ بأُتْسِه منه ربيعاً
أيامُ دهرِكَ لم تَرَلْ * للنَّاسِ أعياداً جميعاً
حتى لأوشك بيئها * عيد الحقيقة أن يضيعا

وقال الشريف الرضي تهنئة بقدوم

﴿١١﴾

قَدِمَ السُّرُورُ بِقَدَمِهِ لَكَ بَشَّرْتَ * غَرَّرَ الْعُلَا وَعَوَالِي التَّيْجَانِ
فَلَقِيتُ ظُلْمًا الْأَسْيَافُ مِنْكَ بِفَرَحَةٍ * فَتَكَادُ تُنْهَضُهَا مِنْ الْأَجْفَانِ
فَدَكَانَ هَذَا الذَّهْرُ يَلْحَظُ جَانِبِي * عَنْ طَرَفٍ لَيْثٍ سَاغِبٍ ظَمَانِ
فَالْآنَ حِينَ قَدِمْتَ عُدْنَ صُرُوفُهُ * يَرْمُقَنِي بِنَوَاطِرِ الْغَزَلَانِ

٥

ومما قيل من شواذ التهاني وهي الجمع بين التهنئة والتعزية، والبشارة والتسليية؛ فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح الرشيد، وكان من يحسده قد قال للرشيد عنه إنه يُعَدُّ كلِّ مه، فأذكر الرشيد ذلك وقال: بل هو طبع؛ وجلس في بعض الأيام ودخل عبد الملك فقال الرشيد للفضل: قل له: وُلِدَ لأُمير المؤمنين في هذه الليلة أبنٌ ومات له آبن، فقال الفضل له ذلك، فدنا عبد الملك وقال: يا أُمير المؤمنين، سَرَّكَ اللهُ فيما ساءك، ولا ساءك فيما سَرَّكَ، وحملها واحدة بواحدة، ثواب الشاكر وأجر الصابر؛ فقال الرشيد: أهدأ الذي زعموا أنه يتصنع الكلام! ما رأى الناس أطلع من عبد الملك في الفصاحة.

١٠

ومن ذلك ما حكاه ثُمَامَةُ بْنُ أَبَرْشٍ قال: لما دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدَةُ ابْنَةُ جَعْفَرِ أُمِّ الْأَمِينِ، فجلست بين يديه وقالت: الحمد لله إن أَهْنَيْتُكَ بِالْخِلَافَةِ فَقَدْ هَنَأْتُ بِهَا نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَرَكَ، وإن كُنْتُ فَقَدْتُ أَبْنَا خَلِيفَةً لَقَدْ أَعْتَصَمْتُ أَبْنَا خَلِيفَةٍ، وما خَسِرَ من أَعْتَاضٍ مِثْلَكَ وَلَا نِكَلْتُ أُمَّ مَلَأَتْ عَيْنَهَا مِنْكَ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما وهب؛ فقال المأمون: ما تلد النساء مثل هذه، ما تراها أَبْقَتْ في الكلام لبلغاء الرجال!

١٥

وقال عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى يهتئ العزیز بخلافة مصر ويرثی
أباه المعز

قد أصبح الجوهر العلوى مُتَقَلَّا * فى خيرٍ من كان من خير الورى بدلاً
يامنحةً كملت فى حنّةٍ عَظُمَتْ . لولاك فى الدهر ما نال أمرؤُ أملاً
صُنع من الله فى خطابٍ أُتِيحَ لنا * عم البلاد وعم السهل والحبلا
كان الزمان بمن أنق ومن أخذت * صروفه مُذنب طوراً ومُستَصلاً
قام العزیز بما أفضى المعز به . إليه مضطجاً بالعبء مُحْتَمِلاً
فقام أحفظ مُستترجى رعى فكفى . من بعد خير إمام قوم الميلا
كالسيف مُتَصلاً والبحر مُندففاً . والبدر مؤتلفاً والغيث مُحْتَفِلاً

ومنها

فى طلعة البدر من شمس الضحى عَوْضٌ . وظلمة الليل يجلو جُججها ابن جلا
وما الأئمة إلا أنجُمٌ زُهرٌ . يبدو لما كوكبٌ إن كوكبٌ أَقَلَا
إن المعز الذى لا خلق يُشبهه * إلا العزیزُ ابنه إن قال أو فعلا
ملكٌ وجدنا التقي والعَدَلُ عَدَّتُهُ . إذا الملوكُ استعدوا الكيدَ والحِلا
سَمَتْ إلى العالم الثورى هُتَّةٌ . ففارق القَمَ الأرضى وآتَقلا
وراجعتْ نفسُهُ فى القدس عُنُصْرُها . ولم يزل بحبال الله مُتَصِلاً
لم يرضَ خلقاً من الدنيا يجاورُهُ . إلا الملائك فى الفردوس والرُسلَا
لولا زَارٌ وعينُ الله تحرُسُهُ * كَمَا يفقد مَعْدُ أُمَّةٍ هَمَلَا
فإن مضى كَافِلُ الدنيا وما صَحْنَتْ . فَمَا أَبْنُهُ كَافِلٌ عنه بما كَفَلَا

(١١)

(١) فى الأصل : "كامل الدنيا".

وإن هوى الجبل الرامى قدأ جبل * راس لنا بعده، أعظم به جبلا !
عمت خلافته الدنيا برؤفقتها * كأنه الشمس فيها حلت الحلا
ملك أغمر وأيام محجلة * ودولة كل وقت تقهر الدول
أصحت ملوك بنى الدنيا له حولا * وما حوت كل دار منهم نفلا
يا أيها الملك المأمول نائله * ومن هو الغاية القصوى لنا أملا
كان السرير سرير الملك منخفضا * حتى ارتقيت ذراه فارتقى وعلا

٥

ومن ذلك ما كتب به عامل إلى المصروف به : قد قلدت العمل بناحيتك ،
فهناك الله بتجدد ولايتك^(١) ، فأنفذت خليفى لخلافك ، فلا تحله من هدايتك ، إلى
أن يمن الله بزيارتك . فأجابه : ما انتقلت عني نعمة صارت إليك ، ولا خلوت
من كرامة اشتملت عليك ، وإني لأجد صرفي بك ولاية ثانية وصلة وافية ، لما
أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومجدود العاقبة ، والسلام .

١٠

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهني إبراهيم بن المدبر بال عزل عن عمل
ليهني أبا إسحاق أسباب نعمة * مجددة بالعزل ، والعزل أنبل
شهدت لقد متوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العزل أعلى وأفضل

آخر

١٥

إن الأمير هو الذى يُضحى أميرا عند عزله

إن زال سلطان الولا * ية فهو فى سلطان فضله

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى رجل زوج أمه : قد جعلك الله — وله الحمد —
من أهل التحصيل ، والرأى الأصيل ؛ وصحة الدين ، وخلق ذى اليقين ؛ فكما أنك

لا تَتَّبِعِ الشَّهْوَةَ فِي مَحْظُورِ نُحْلِهِ ، فَكَذَلِكَ لَا يُطِيعُ الْأَنْفَةَ فِي مُبَاحِ تَحْطَرُهِ . وَتَأْدَى إِلَى
 مِنْ أَتَّصَلَ الْوَالِدَةَ — يَسِّرَ اللَّهُ لَهَا فِي مُدَّتِكَ ، وَأَحْسِنَ بِالْبَقِيَّةِ مِنْهَا إِمْتَاعَكَ —
 بِأَبِي فَلَانٍ ، أَعَزَّهُ اللَّهُ ، مَا عَلِمْتُ فِيهِ أَنَّكَ بَيْنَ طَاعَةِ الدِّيَانَةِ تَوْحِيَّتَهَا ، وَمَشَقَّةِ تَجَسُّمَتَهَا ،
 وَأَنَّكَ جَادَعْتَ أَنْفَ الْغَيْرَةِ بِهَا ، وَأَضْرَعْتَ حَدَّ الْحِمِيَّةِ فِيهَا ، وَأَسْخَطْتَ نَفْسَكَ بِإِرْضَائِهَا ،
 وَعَصَيْتَ هَوَاكَ لِأَرْيَاها ، فَتَحْنُ نَهْنِيكَ بِعَزِيمَةِ صَبْرِكَ ، وَتُعَزِّيكَ عَنْ فَائِتٍ مُرَادِكَ ،
 وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْحَيِّرَةَ لَكَ فِيهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا أَبَدًا مَعَكَ فِيمَا شِئْتَ وَأَبَيْتَ ، وَتَجَنَّبْتَ
 وَأَتَيْتَ .

(١٣٦)

وَقَالَ كَاتِبُ مُتَقَدِّمٍ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : الرِّضَا بِمَا يُدِيحُهُ حُكْمُ اللَّهِ أَوْلَى مِنَ الْإِمْتِعَاضِ
 فِيمَا تَحْطَرُهِ أَنْفَةُ الْحِمِيَّةِ ، وَلَا قُبْحُ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ ، كَمَا لَا جَمَالَ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَعَزَّكَ اللَّهُ
 الْحَيِّرَةَ فِيمَا اخْتَارَتْهُ مِنْ طَهَارَةِ الْعَافِ وَنُبْلِ الْحَصَانَةِ ، وَعَظْفِكَ مِنْ رِيَّاهَا عَلَى مَا تُؤَدِّي
 بِهِ حَقَّقَهَا وَمَا لَزِمَكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ فِي مُصَاحِبَتِهَا .

وَكَتَبَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ تَهْنِئَةً بِزَوَاجِ أُمِّ وَتَعَزِيَّةً بِمَوْتِ أَبِي ، فَقَالَ : الْأَيَّامُ —
 أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ — تَجْرَى عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَشُعَبٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَأَحْكَامٍ مُتَفَاوِتٍ
 بَيْنَنَا بِمَا يَسُوءُ وَيُسِّرُ ، وَنِفْعٍ وَبُضْرٍ ، وَبَلْغَى مِنْ نَفْذِ قَضَاءِ اللَّهِ فِي شَيْخُكَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ ،
 مَا أَرْزَعْنِي ، وَأَبْهَمَ طُرُقَ السَّلَوةِ دُونِي ، وَإِنْ كَانَ مِنْ خَلْفِكَ غَيْرَ خَارِجٍ عَنْ مَرِيَّةِ
 الْأَحْيَاءِ ، وَلَا حَاصِلٍ فِي زُمَرَةِ الْأَمْوَاتِ ، وَاللَّهُ يَأْسُوكَ كَمَا يَأْسُوكَ ، وَيُسَدُّ ثَمْلَكَ ،
 وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ، أَنْ أُنَاحَ اللَّهُ لَكَ بَعْدَ أَبِيكَ أَبَا لَا يَقْصُرُ عَنْهُ شَفِيقَةٌ عَلَيْكَ وَخُتُوًا ،
 وَإِثَارًا لَكَ وَرِيًّا ، وَقَدْ لَعِمْرِي وَفَقَّتْ حِينَ وَصَلْتَ بِجَبْلِكَ جَبْلَهُ ، وَأَسْكَنْتَ الْكَبِيرَةَ —
 حَرَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى — ظِلَّهُ ، لِئَلَّا تَفْقِدَ مِنَ الْمَاضِي — عَفَا اللَّهُ عَنْهُ — إِلَّا شَخْصَةً ؛
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَشَدَكَ لِمَا يَعِيدُ الشَّمْلَ مُجْتَمِعًا بَعْدَ فِرَاقِهِ ، وَالْعَدَدَ مَوْفُورًا بَعْدَ

انتقاصه، حمداً يقضى لك بالمسرة، ويحسم دونك مراد الوحشة، وبلقيك ثواب ما قضيت من الحق، وتجلته فيه من الأوق^(١)؛ إنه فعال لما يريد .
فهذه نبذة كافية في التهانى الخاصة، فلنذكر العامة .

ذكر نبذة من التهانى العامة والبشائر التامة

ولنبداً من ذلك بما قيل في البشارة بوفاء النيل لما فيه من عموم المنافع الشاملة،
وتمول النعم الكاملة، والخصب الذى يتساوى في الانتفاع به الغنى والفقير، والمأمور
والأمير .

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل، الصدر الكبير الكامل، ذو المناقب والمآثر،
والفضائل والمفاخر، شهاب الدين محمود الحلبي : وسرته نبأ النيل الذى عمَّ نَيْلاً،
وجرَّ على وجه الأرض ملاءة ملاءته، فشمَّرَ المحلَّ للرحلة ذَيْلاً، وجرَّد على الجَدْب
سيفَ خضبه، فسال مُجرِّدُ دمه على وجه الصعيد سَيْلاً، وجرى وسرى فى ضياء
إشراقه وظلمةٍ تراكمه إلى الأرض التى بارك به حولها، بغلَّ من أجراه نهارا
وسبحان من أسرى به ليلاً . صدرت هذه المكتبة إليه، أعزّه الله تعالى، ونعم الله
قد عمّت، وآلاؤه مع تحقُّق المزيد قد تمت، وموادَّ فضله قد أمتت الأقطار فقامت
صلاة الصَّلات إذ أمتت، وكلمة الخصب قد تمت فى الآفاق، فوشَّتْ بمكنون حديثها
للأرض ونمتْ؛ والخصب قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل، وطوفان الرحمة
قد طبق الوهاد، فلم يُغنِ المحلَّ أن قال: ساوى منه إلى جبل؛ والسَّيل قد بلغ فى تبعُّع
بقايا القحط الرُّبى، والنَّيل قد عمَّ بَنَيْله الأرض حتى كلَّل مفارق الآكام وعمم رؤوس

- الرُّبَا ، وَحَمَى الْأَرْضَ مِنْ تَطَرُّقِ الْمُحُولِ إِلَيْهَا فَاصْبَحَتْ مِنْهُ فِي حَرَمٍ ، وَظَهَرَتْ بِهِ
عَجَائِبُ الْقُدْرَةِ وَمِنْهَا أَنْ آبَنَ السَّتَّةَ عَشْرَ بِلْغٍ إِلَى الْمَرْمِ ، وَبَتَّ جُودَهُ فِي الْوُجُودِ فَلَوْ
صَوَّرَ نَفْسَهُ لَمْ يَزِدْهَا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمٍ ، وَتَلَقَّتْ مِنْهُ النُّفُوسُ أَهْجَ مَحْبُوبٍ طَرَدَ مَمْقُوتًا ،
وَوَقِفَتْ مِنْ حُمْرَتِهِ بِالْغَيْ وَالْمُنَى إِذْ لَمْ تَدْرِ أَيَا قُوتًا تُشَاهِدُ مِنْهُ أَمْ قُوتًا ، وَجَرَى فِي الْوَفَاءِ
عَلَى أَكْلٍ مَا أَلِفَ مِنْ عَادَتِهِ ، وَظَهَرَ بِإِشْرَاقِهِ وَعُمُومِ نَفْعِهِ ظُهُورَ الشَّمْسِ فَالْتَقَى عَلَى
الْأَرْضِ أَشِعَّةُ سَعَادَتِهِ ، وَأَقْبَلَتْ بِهِ عَلَى الْخَلْقِ بَوَادِرُ الْإِقْبَالِ ، وَرَكِبَ النَّاسُ مِنْهُ
فِي سُفُنِ النَّجَاحِ وَالتَّجَاةِ فَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجِ كَلْبَالٍ ، وَتَلَقَّ اللَّهُ بِهِ الْمَنَافِعَ فَرَزَعَرَعَ
الشَّمَّ وَلَمْ يَتَجَامَرَ عَلَى الْجُسُورِ ، وَأَمِنَ النَّاسُ بِهِ طُرُوقَ الْحُلِّ الْمَطْرُودِ بِهِ عَنْهُمْ فَضِيرُ
بَيْنِهِمْ إِسُورٌ ، وَأَقْطَعَ الْخِصْبُ الْأَرْضَ كُلَّهَا فَلَهُ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِثَالُ مَرِيٍّ وَمَنْشُورٍ
مَنْشُورٌ ، وَبَعَثَ إِلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ سَرَايَا جُودِهِ عَارِضًا مُغْضِبًا عَلَى الْحُلِّ مَا يَخْطُرُ إِلَّا
وَسِيفُهُ مَشْهُورٌ ، وَأَوْدَعَ بَطْنَ الثَّرَى مَوَادَّ ثَرَاتِهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْوَرَى بِوَجْهِ مَا تَأَمَّلَهُ أَمْرُ
صَادِي الْجَوَانِحِ إِلَّا أَرْتَوَى مِنْ مَائِهِ ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ مِثَالَ مَا سَلَفَ مِنْ كَرَامَةِ أَصْفِيَانِهِ ،
إِذْ جَعَلَ تَحْتَ كُلِّ نَخْلَةٍ مِنْ سُرَاهِ سِرِّيًّا ، وَجَلَّاهُ عَنْ الْأُمَّةِ ظُلْمَ الْعُمَةِ إِذْ أَطْلَعَ مِنْهُ
فِي أَوَّلِ مَطَالَعِهِ الْمُرْتَقِبَةَ حُجْبًا بِدَرِيَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الْفَلَائِيَّ وَفَى النَّيْلُ
الْمُبَارَكُ سِتَّةَ عَشْرَ ذِرَاعًا ، وَمَدَّ بِحُسْنِ صُنْعِ اللَّهِ إِلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ يَدًا صَنَاعًا ، وَرَكِبْنَا إِلَى
الْمِيقَاسِ الَّذِي تُعَلَّمُ بِهِ مَوَاقِعُ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَتُهْدَى مِنْهُ وَارِدَاتُ السَّرُورِ إِلَى كُلِّ
قَوْمٍ ، وَوَقَفْنَا بِهِ لِابْسِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْسَنَ لِبَاسٍ ، آتِينَ مِنْ أَنْوَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ
الَّتِي أَزَالَتْ الْيَأْسَ وَأَذْهَبَتْ الْبَاسَ ، نَاطِرِينَ إِلَى أَمْرِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي أُحْيَتْ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَجَرَى الْأَمْرُ فِي التَّخْلِيقِ عَلَى أَجْمَلِ
عَادَاتِ الْبَدُورِ ، وَعُلِّقَتْ سِتَارَةُ الْمِيقَاسِ لَا لِلْإِخْفَاءِ عَلَى عَادَةِ الْأَسْتَارِ ، بَلْ لِلْإِشَاعَةِ

والظهور، واستقرَّ حُكْمُ الْمَسْرَةِ عَلَى السَّنَنِ الْمَعْهُودِ، وعاد للناس عيد سرورهم إذ ذاك
يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ . وركب مولانا السلطان إلى سُدِّ الْخَلِيجِ
والماء قد آسْتَطَالَ عليه، وَسَرَتْ سرابا أمواجه إليه ، وصدمه بقوة فاندفع مُنْكَسِرا
بين يديه ؛ فانجبرت القلوبُ بِكَسْرِهِ، واستوفت الأنفُسُ السُّرُورَ بِأَسْرِهِ ، وأيقن كلُّ
ذِي عُسْرٍ بِمَحْصُولِ يُسْرِهِ ؛ وساق الله به الماء إلى الأرضِ الْجُرْزُ فَأَحْيَاها وَحْيَاها ،
ورَقَّ لَوَجْهِها الْمُغْبَرَّ فَسَرَّ بِرَدَائِهِ الْحَمَرَّ صَفْحَةً مُحْيَاها . كلُّ ذلك وهو ، بحمد الله
تعالى ، أَخَذَ فِي الْإِزْدِيَادِ ، حَارِجًا عَلَى وَفْقِ الْمُرَادِ إِلَى حَدِّهِ الْمُتَعَدِّ ، سَالِكٌ بِبِلَاغِهِ
سَبِيلَ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ إِذْ يَسْمَعُونَ فِي كُلِّ وَادٍ ؛ وَها هو الآن يرتفع إلى كُلِّ رُبُوعٍ عَلَى
جَنَاحِ الْجَاحِ ، وَيُخَفِّفُ السَّيْلَ وَمَا عَلَيْهِ حَرَجٌ وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ ؛
فَلْيَأْخُذْ مولانا حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي عَمَّ بَشَرُها ، وَوَجِبَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ شُكْرُها ،
وَيَتَحَقَّقُ أَنَّ هَذِهِ بَوَادِرُ خَيْرٍ تَسْرِي إِلَيْهِ عَلَى رِكَاثِ السَّحَابِ ، وَطَلَائِعُ خُصْبٍ هِيَ
لَدَيْهِ أَقْرَبُ غَائِبٍ وَأَسْرَعُ آتٍ ؛ وَاللهُ تَعَالَى يُعِزُّ أَنْصَارَهُ ، وَيُوَالِي مَبَارِزَهُ ،
بِحَمْدِ وَآلِهِ .

٥

١٠

وكتب أيضا في مثل ذلك : ضاعف الله نعمة المجلس العالى، وبشّره بما أجرى
الأمة عليه من عوائد كرمه ، وسره بما يسره من خصوص برّه وعموم نِعَمِهِ ، وهَنَاهُ
بِمَا سَنَاهُ مِنْ هَرَبِ جَيْشِ الْمَحَلِّ بَعْدَ قِدَمِ وَثْبَانِهِ وَثَبَاتِ قَدَمِهِ ، وَأُورِدَ عَلَى سَمْعِهِ
مِنْ أَنْبَاءِ نُصْرَةِ الْخُصْبِ مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ أَنَّ لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ عِلْمٌ إِلَّا تَحْتَ عِلْمِهِ ،
وَأَنَّهُ ذَبَحَ الْجَنْدَبَ بِسَيْفِ مَدَدِهِ الَّذِي أَنْبَأَ بِمُخْرَةِ عَنَدَمِهِ عَنْ دَمِهِ ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ
فِي الْأَقْطَارِ عَلَى مُتُونِ الْقِطَارِ ، مُرْهِفًا عَلَى بَقَايَا الْمَحَلِّ سَيُوفَ بُرُوقِهِ وَنِيَالِ دِيَمِهِ ،

١٥

وَضَرَبَ قِيبَابَ مَوْجِهِ عَلَى الْمَسَالِكِ فَلَوْ هَبَّتْ بَيْنَهَا عَاصِفَةٌ جَذِبَتْ تَعَثَّرَتْ بِأَطْنَابِ
 خِيَمِهِ ، وَلَعِبَ عَلَى مَاشِخٍ مِنَ الرُّبَا ، فَعَجَبُ لَهُ مِنْ كَامِلٍ يَلْعَبُ وَقَدْ بَلَغَ إِلَى هَرَمِهِ !
 صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ تَقْصُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ، وَتُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ مَوَادِّ
 فَضْلِهِ مَا يَنْخُصُ الشَّامَ وَأَهْلَهُ مِنْهُ بِأَوْفَى الْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ الْحِصَصِ ، وَتَحْتُمُهُ عَلَى شُكْرِ اللَّهِ
 تَعَالَى الَّذِي بِهِ يَنْتَمِزُ مِنْ مَزِيدٍ بِهِ أَعْظَمُ الْحُطُوطِ وَأَفْضَلُ الْفُرُصِ ، وَتُعَلِّمُ أَنْ اللَّهَ
 ٥ نَصَرَ جَيْشَ الرَّحَا ، بِمَدِّ لُطْفِهِ عَلَى الْيَاسِ الَّذِي تَوَلَّى الشَّيْطَانُ أَمْرَهُ (فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ
 نَكَصَ) ، وَأَنْعَمَ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا أَرْخَصَتْهُ عِزَائِمُ كَرَمِهِ بِهِمْ ، فَوَجِبَ أَنْ تُقَابِلَ نِعْمَهُ بِعِزَائِمِ
 الشُّكْرِ دُونَ الرُّخْصِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَابَ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ ، وَأَفَاضَ بِهِ الْعَمِيمَ
 عَلَى الْغَنَى وَالْفَقِيرِ وَالْمُعْتَرِّ ، وَأَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَدَارَكَ بِرَحْمَتِهِ دُنْيَا
 الدَّهْمَاءِ بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَتْ عَلَى قُوَّتِهَا ، وَأَجْرَى الْخَلْقَ عَلَى عَوَائِدِ كَرَمِهِ ، وَأَجْرَى لَهُمْ بِقُدْرَتِهِ
 ١٠ مِنْ حُجُبِ الْغَيْبِ مَوَادِّ نِعْمَةٍ ، وَأَعْلَى لَدَيْهِمْ مَوَارِدَ نَيْلِهِمْ حَتَّى كَادَ مَا يَشْرَبُ بِعُرُوقِ
 سَاقِهِ يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ بَفَمِهِ ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَاقْبَلْ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ مِنَ الْأَمَدِ الْبَعِيدِ ، وَأَذِنَ لَهُ
 فِي التَّرْفَعِ مِنْ مَحَلِّهِ فَسَجَدَ عَلَى التُّرْبِ شُكْرًا وَتَيْمُّنًا الصَّعِيدِ وَإِنْ لَمْ يَبْقَ بِهِ الْآنَ عَلَى وَجْهِ
 الْأَرْضِ صَعِيدٌ ، وَأَسْرَى مِنْهُ رُكَائِبُ السَّرُورِ إِلَى الْأَقْطَارِ فَفِي كُلِّ نَادٍ مِنْ هَدِيدِهِ
 ١٥ حَادٌ ، وَفِي كُلِّ بَرٍّ مِنْ بُرُورِهِ بَرِيدٌ ، وَذَكَرَ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِحْيَاءَ أَمْوَاتِهَا ، (إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ، وَشَرَّ الْوَيْتَةِ عَلَى الثَّرَى
 لِأَهْلِ الْأَرْضِ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، (وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ
 رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) ، وَأَقْبَلَ بَعْدَ نَقْصِ عَامِهِ الْمَاضِي بِوَجْهِهِ عَلَيْهِ حُمْرَةُ الْمَخْجَلِ ،
 وَعَزَمَ سَبْقَ سَيْفِهِ إِلَى الْحُلِّ الْعَدَلِ بِلِ الْأَجَلِ ، وَحَزَمَ أَدْرَكَ الْجَدْبَ بِوَجْهِهِ قَبْلَ
 ٢٠ أَنْ يَقُولَ : سَاوَى إِلَى جَبَلٍ ، وَاسْتَظْهَارٍ عَلَى كُلِّ مَا عَلَا مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى إِنْ

الْهَرَمَيْنِ بَاتَا مِنْهُ عَلَى وَجَلٍ ؛ وَمَهَّدَ الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَرْقُبُهُ فَهُوَ لَهَا الْمُنْتَظَرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَوُطِئَ بطنُ الثَّرَى فَتَفَتْحَ الْخِصْبُ بَيْنَهُمَا وَذُبِجَ الْحُلُ فِي الْعَقِيقَةِ ، وَقَطَعَ الطَّرُقَ فَأَمْسَ بِذَلِكَ كُلُّ حَاضِرٍ وَبَادَ وَرَائِغٌ وَغَادَ ، وَأَتَّبَعَهُ الرَّيُّ لَا الرُّوْيَ حَتَّى أَضْحَى كَالشُّعْرَاءِ يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادٍ ؛ وَعَمَّتْ بَرَكَاتُهُ عَلَى الْأَرْضِ ” فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالْدَرَاهِمِ “ مِنْ الْخِصْبِ مَرْتَعًا ، وَأَرَبَى عَلَى رِيَّةٍ فِيهَا سَلَفٌ مِنَ السَّنِينَ ^(١) ، فَأَضْحَى كَهَوَى ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ” يَقِيسُ ذِرَاعًا كَمَا قَسَنَ لِمَصْبَعَا “ ؛ وَتَجَعَّدَ عَلَى الْآكَامِ نُحَيْلٌ لِلْعَيُونِ أَنَّهَا تَسِيلُ ، وَشَيْبٌ مَفَارِقُ الرُّبَا بِيَاضَ زَبَدِهِ ، وَعَادَةُ بِيَاضِ الشَّيْبِ أَنْ يُخَضَّبَ بَوْرَقِ النَّيْلِ ؛ وَكَأَنَّ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُلِّ قَدْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سَدًّا ، وَتَسْتَرُّ مِنْهُ وَرَأَاهُ وَهُوَ يُمَلِّي وَيَعْدِلُهُ عَدَا ؛ فَصَدَمَهُ بِقَلْبِهِ وَجَعَلَهُ دَكًّا إِذْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّهِ وَأَدْرَكَهُ وَمَلَكَهُ ، وَسَفَكَ دَمَهُ بِغُرَى مُسْتَطِيلَا إِذْ سَفَكَهُ ؛ وَوَقَّى بِمَا وَعَدَ مِنْ طَفَرِهِ ، وَأَتَى لِنُصْرَةِ الْخِصْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فَأَسْفَرَ عَنِ التُّجْحِ وَجْهَهُ سَفَرَهُ ، وَأَسْبَلَ عَلَى مِقْيَاسِهِ سِتْرَ السُّرُورِ لِإِخْفَارِهِ ذِمَّةَ الْجَدْبِ لَا لَخْفَرِهِ ، وَبَشَّرَ مَصْرَهُ بِنُصْرَةِ سَرَايَا السَّعَائِبِ فِي أَقْطَارِ الْمَمَالِكِ لِأَنَّهَا مِنْ أَشْيَاعِهِ وَنَفَرَهُ ؛ وَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الْفَلَاني عُلِّقَ السِّتْرُ وَخُلِقَ الْمُقْيَاسُ ، وَكُسِرَ الْخَلِيجُ فَكَانَ فِي كُسْرِهِ جَبْرٌ لِلْخَلِيقَةِ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَقَّى النَّيْلَ الْمُبَارَكَ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَصَرَفَ فِي مَصَالِحِ الْبِلَادِ يَدَا تِصْنٍ بِالْبَذْلِ نُحْرَفَا وَتَكَفَّى بِحَسَنِ التَّدْيِيرِ ضِيَاعًا ؛ [وَبَتْ فِي أَرْجَاءِ الْأَعْمَالِ بِحَارًا تَحْسِبُ بَتْلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ رُكَا وَبِمَضَاعِفَةِ الْفَجَاجِ سُرْعًا] ^(٢) ؛ وَهُوَ بِمَحْمَدِ اللَّهِ آخِذٌ فِي أَزْدِيَادِهِ إِلَى حُدِّهِ ، جَارٍ عَلَى

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَأَرَبَى عَلَى رِيَّةٍ مَا سَلَفَ مِنَ السَّنِينَ » وَظَاهِرُ أَنَّهُ عَيْرٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ « وَأَرَبَى رِيَّةً عَلَى مَا سَلَفَ » فَخُذْتُ فِيهِ تَقْدِيمَ وَتَأْخِيرَ مِنَ النَّاسِ .

(٢) وَرَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ هَكَذَا بِالْأَصْلِ ؟ ٢٠

أَعْتِيَادُهُ فِي الْمَشْيِ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى وَخَذَهُ بِتَتَبِ أَدْوَاءِ الْحِلِّ تَتَبِ طَبِيبِ خَيْرٍ. وَيَعْكَسُ
 بَيْتَ أَبِي الطَّيِّبِ فُتُمْسِي وَبُسْطُهَا تَرَابٌ ، وَبُصْبَحُهَا وَبُسْطُهَا حَرِيرٌ ، وَقَدْ وَثِقَتْ
 الْأَنْفُسُ بِفَضْلِ اللَّهِ الْعَمِيمِ ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ بَعْدَ قَطُوبِ الْيَاسِ تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ
 نَضْرَةَ النِّعَمِ ، تَيْمَنًا بِبَرَكَةِ آيَامِنَا الَّتِي أَعَادَتْ إِلَيْهِمُ الْمُجُوعَ ، وَأَعَادَتْهُمْ مَلَأَتْهُ بِهْ غَيْرُهُمْ
 مِنْ الْخُوفِ وَالْجُوعِ ، فَلَبَّأْ هَذَا الْمَجْلِسَ الْعَالِي حَطْلَهُ مِنْ هَذِهِ الْبَشْرَى الَّتِي خَصَّتْ
 وَعَمَتْ ، وَوُثِقَتْ النَّمُوسُ بِمَزِيدِ النِّعْمَةِ إِذْ قِيلَ : تَمَّتْ ، وَيَذِيعُهَا فِي الْأَفْطَارِ ، وَبِعَزْفِهِمْ
 قَدَرًا مَا مَحَّ اللَّهُ جِيُوشَ الْإِسْلَامِ مِنْ فَضْلِهِ الَّذِي يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ،
 وَيَسْتَقْبِلَ نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي سَيَسِمُ الْأَرْضَ وَسَمِيحًا وَبُولَى النِّعَمِ وَلِيَهَا ، وَيَأْتِي بِالْبَرَكَاتِ أَيْتِيهَا
 حَتَّى نَعَصَّ بِالنِّعَمِ لَكَ الرَّحَابَ ، وَيُظَنَّ لِعُمُومِ رِيَّ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ أَنْ نِيلَ مِصْرَ وَصَلَ
 إِلَيْهَا عَلَى السَّحَابِ ، وَيُفَيِّمَ مَارَ الْعَدَلِ الَّذِي هُوَ حَيْرٌ بِالْأَرْضِ مِنْ أَنْ تُثْمَرَ ، وَبُعْفَى
 ١٠ أَتَارَ الظُّلَمِ حَتَّى لَا تَكَادَ تَنْظُرُ .

وَمِمَّا قِيلَ فِي التَّهَانِي بِالْفَتْوحَاتِ ، وَهَزِيمَةِ جِيُوشِ الْأَعْدَاءِ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ إِلَى الْحَاجِّ بْنِ يُوسُفَ التَّنْفُذِيِّ فِي حَرْبِ
 الْأَزَارِقَةِ : أَمَّا بَعْدُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تَنْقُطُ مَوَادُّ نِعْمَتِهِ مِنْ حَلْفِهِ حَتَّى تَقْطَعَ مَوَادُّ
 الشُّكْرِ . وَإِنَّا وَعَدُونَا كَمَا عَلَى حَالَتَيْنِ : يَسِرُّنَا مِنْهُمْ أَكْثَرُ مَا يَسُوءُنَا ، وَيَسُوءُهُمْ مَا
 ١٥ أَكْثَرُ مَا يَسِرُّهُمْ ، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَزِيدُنَا وَيَنْقُصُهُمْ ، وَيُعَزِّزُنَا وَيُدْلِّهُمْ ، وَيُؤَيِّدُنَا
 وَيُخْذِلُهُمْ ، وَيُخَصِّنُنَا وَيُخَفِّقُهُمْ حَتَّى بَلَغَ الْكَتَابُ أَجْلَهُ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَكَتَبَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ حِينَ وَلِيَ الْعِرَاقَ مِنْ قِبَلِ عَبْدِ اللَّهِ
 ٢٠ ابْنِ الزَّيْزِرِ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ الْخَوَارِجِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا مَذْخَرَجْنَا نَوْمَ هَذَا الْعَدُوِّ

في نعم من الله متصلة علينا ، ونقمة من الله متتابعة عليهم ، تُقدِّم ويُجْتمعون ، ويُجَدِّد ويُرْحَلون ، إلى أن حللنا بسوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين .

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب ^(١) : أما بعد فإننا لقينا الأزارقة بِجَدِّ وَحَدِّ ، وكانت في الناس جولةً ثم تاب أهل الحِفاظ والصبر بِنِيَّاتٍ صادقة وأبدانٍ شديدة وسيوف حِداد ، فأعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دَرِيَّةَ رماحنا وَضَرِيَّةَ سيوفنا ، وقتل الله أميرهم آبن الماحوز ؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كَأَوَّلِهَا ، والسلام .

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل شمدا الأمين :
أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النَّسَبِ والثَّغْمَةِ ، لفد فرق الله بينهما في الولاية والحُرْمَةِ ؛ لمفارقته عصمة الدين ؛ وخروجه عن الأمر الجامع للساميين ؛ قال الله عزَّ وجلَّ : (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ، ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة في ذات الله . وكتبْتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِلَ المخلوع ورَّدَّاه الله رِداء نَكْبَةٍ ، وأحمدُ لأُمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده ، والحمد لله المتولَّى لأُمير المؤمنين بنعمته والراجع إليه بمعلوم حقه والكائد له من ختر عهده ونكث عقده ، حتى ردَّ له الألفه بعد تفريقها ، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها ، ومكَّن له في الأرض بعد شتات أهلها .

ولما فتح المعتصم عُمُورِيَّةَ أَكْثَرِ الشعراء من ذكر هذا الفتح ؛ فمن ذلك قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي من قصيدته التي يقول في أولها

(١) في الكامل للبَرْد طبع أوربا ص ٦٤٠ : أن هذا الكتاب من المهلب إلى الحارث .

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِبْنَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
 بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي * مَتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
 وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ * بَيْنَ الْحَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
 -
 جاء منها

فُتِحَ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ * نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ
 فُتِحَ فَتَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ * وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَنْوَاعِهَا الْقُشْبِ

ومنها

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضُهَا * كَسْرَى وَصَدَتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرَبٍ
 بِكَرٍّ فَمَا أَفْتَرَعَهَا كَفُّ حَادِثَةٍ * وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ الْوَيْبِ
 مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَدْ * شَابَتْ نَوَاصِي الْأَيْلَى وَهِيَ لَمْ تَسِبْ
 حَتَّى إِذَا مَخَضَ اللَّهُ السَّيْنَ لَهَا * مَخَضَ الْحَلِيبَةِ كَانَتْ زُبْدَةُ الْحَقَبِ
 أَنْتَهُمُ الْكُرْبَةُ السُّودَاءُ سَادِرَةٌ * مِنْهَا وَكَانَ أَسْمُهُمْ فَرَّاجَةُ الْكُرَبِ
 لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ * كَانَ الْخِرَابُ لَهَا أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ
 أَشَارَ فِي هَذَا الْبَيْتِ إِلَى فَتْحِ أَقْفَرَةٍ . ومنها

لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبْطَرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ * كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ

قيل : كانت الروم لما فتحت زِبْطَرْدَ صَاحَتْ أَمْرَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : وَامْجِدَاهُ !
 وَامْتَعْتَصَاهُ ! فَلَمَّا بَلَغَهُ الْخَبَرُ رَكِبَ لَوْقَهُ يَوْمَ الشَّامِ ، وَصَاحَ : لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ ! وَلَمْ يَرْجِعْ
 إِلَى أَنْ فَتَحَ أَقْفَرَةَ وَعُمُورِيَّةَ . ومنها

خَلِيفَةَ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ * جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر من رَحم . موصولةٍ أو ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضٍ
فبين أَيَّامِكَ الْآتِي نُصِرْتَ بها * وبين أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبُ النَّسَبِ

وكتب أبو عبيد الله البكري إلى المعتمد على الله المؤيد بنصر الله يهنته بالفتح
الذي كان في سنة سبع وسبعين وأربعمائة : أطال الله بقاء سيدي ومولاي
الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي العز، والنعم الزهر، وهناه ما منحه من
فتح ونصر، وأعتلاء وقهر؛ بطالع السعد يا مولاي أبت، وبسانح الأيمن عُدت،
وبكتف الحِرْز عُدت، وفي سبيل الطَّفَرِ سرت، وبقدم البرِّ سَعيت، وبجَنَةِ العِصمة
أَتيت، وبسهم السِّداد رَميت فأصميت؛ صَدَرَ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد،
وعودٌ بأجل ما ناله عائد وآب به وارد؛ فتوحٌ أَضْحَكَ مَبْسِمَ الدهر، وسَفَرَت عن
صَفْحَةِ البشر، وردت ماضِي العُمُر، وأَكْبَت وارى الكُفْر؛ وهزّت أعطاف الأيَّام
طَرَبًا، وسقت أقْداحَ السرور نَجَبًا، وثنت آمالَ الشُّرك كَذِبًا، وطوت أحشاء الطاغية
رَهَبًا؛ فذكرُها زادَ الراكب، وراحة اللاغب؛ ومُتعة الحاضر، ونقْلة المسافر
بها تُنْقَضُ الأحلاسُ في كُلِّ منزلٍ * وتُعْقَدُ أطرافُ الحبالِ وتُطْلَقُ

شملت النعمة، وجبرت الأئمة، وجَلَّتْ الغُمة؛ وشَقَّتْ المِلَّة، وبرَدَتِ العُلَّة،
وكشَفَتِ العِلَّة .

كان دَاءَ الإِشْرَاقِ سَيْفُكَ وَاسْتَدْتِ شَكَاةُ الْمُدَى وَكَانَ طَبِيبًا

فقد الدِّينُ جَدِيدًا، والإِسلامَ سَعِيدًا، والزَّمانَ حَمِيدًا، وعمود الدِّين قائمًا،
وكتابُ الله حاكمًا؛ ودعوة الإِيمان منصورَة . وعين الملك قريرة؛ فَهَذَا اللهُ مولانا

(١) أَكْبَت : جعلته لا يُورَى، وفي الأصل «أَكْبَت» ولعله تحريف من النسخ .

وَهَنَّا هَذِهِ الْمَنَحَ الْبَهِيَّةَ مَطَالِعُهَا، الشَّيْئَةَ مَوَاقِعُهَا، الْمَشْهُورَةَ آثَارُهَا، الْمَأْثُورَةَ أَخْبَارُهَا،
 وَنَصْرَ اللَّهِ أَعْلَامُهُ فِي الْبِرِّ تُحْلَى وَتُعْقَدُ، وَعَضْدُ حُسَامِهِ فَبِالْقِسْطِ يُسَلُّ وَيُعْمَدُ، وَآيِدُ
 مَذَاهِبِهِ فَبِالتَّحْزِمِ تُسَدَّى وَتُلْحَمُ، وَأَمْرُ كِتَابِهِ فِي اللَّهِ تُسْرَجُ وَتُلْجَمُ، فَكَمْ فَادِحِ
 خَطْبٍ كِفَاهٍ، وَظِلَامِ كَرْبٍ جَلَادٍ، وَمَيِّتٍ حَقِّ أَحْيَاءٍ، وَحَيٍّ بَاطِلِ أُرْدَاهِ، وَكَمْ جَاحِمِ
 ضَلَالَةٍ أَطْفَأَ نَارَهُ، وَنَاجِمِ فِتْنَةٍ قَلَمَ أَطْفَارِهِ، وَمَقْلُوبِ سُنَّةٍ أَرْهَفَ شِفَارِهِ، وَمُسْتَبَاحِ
 حُرْمَةٍ حَتَّى ذِمَارِهِ، فَهَذِهِ الْمَسَاعِي الْكَرِيمَةُ، وَالْمَنَازِعُ الْقَوِيْمَةُ، الْمَتَّبِجَةُ عَنْ مَيْمُونِ
 النَّبِيِّ وَمَحْمُودِ الْعَزِيْمَةِ، فَقَدْ تَمَثَّلَ بِهَا الْعَهْدُ الْأَوَّلُ وَالْقُرْنُ الْأَفْضَلُ الَّذِي أُتْرِجَ
 لِلنَّاسِ يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالَّذِي سَطَعَ هَذَا السَّرَاجُ، وَاتَّهَجَ هَذَا
 الْمَنَاهِجُ، فَلَا زَالَتِ الْفَتْوحُ تَتَوَالَى عَلَيْهِ، وَصَنَائِعُ اللَّهِ تَتَّصِلُ لَدَيْهِ، إِدَالَةٌ مِنْ مُشَاقِّهِ،
 وَإِذَالَةٌ لِلْحَارِبِيهِ، وَإِبَادَةٌ لِلْمَنَاوِثِيهِ، وَإِنْ أَجَلَ هَذِهِ الْعَمِّ فِي الصَّدُورِ، وَأَحَقَّهَا بِالشُّكْرِ
 الْمُفُورِ، مَا مِنْ اللَّهِ بِهِ مِنْ سَلَامَةٍ مَوْلَايَ الَّتِي هِيَ جَامِعَةُ لِعَزِّ الدِّينِ وَصَلَاحِ كَافَّةِ
 الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى مِنَ الْحَرْبِ نِيْرَانَهَا، فَكَانَ أَثْبَتَ أَرْكَامِهَا وَأَصْبَرَ أَقْرَانَهَا
 وَفَقَّتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِمَوَاقِفِ * كَأَنَّكَ فِي جَنِّ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
 تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلُّهُمْ هَزِيمَةً * وَوَجْهَكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرِكَ بِاسْمِ
 هِنِيئًا لَصَرْبِ الْهَامِ وَالْحَمْدِ وَالْعَلَا * وَوَجْهَكَ وَالْإِسْلَامِ أَنَّكَ سَالِمٌ
 فَهَذِهِ الْحَمْدُ وَالْإِبْدَاعُ وَالْإِلْهَامُ، وَلَهُ الْمُنَّةُ وَعَلَيْهَا مَنَابِعُ الشُّكْرِ وَالِدَوَامُ . وَقَدْ فَازَتْ
 الْكَفُّ الْكَلِيمُ، بِأَعْلَى قَدَاحِ الْمَكْلُومِ لَدَى الْمَقَامِ الْكَرِيمِ، وَإِنَّمَا لَهَا التَّالِيَةُ لِلْإَصْبَعِ
 الدَّامِيَةِ، فِي الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْعُلْيَا فَلَمْ تَرَهَا ^(١) تَنَالُ إِلَّا عَلَى جَسَرٍ مِنَ التَّعَبِ



ومن كلام القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانى جواب كتاب ورد عليه يُخبر فيه
 بانتصار المسلمين، ابتدأه بقوله عز وجل: (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَصْلٍ وَأَنَّ
 اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) وصات بُشْرَى المجلس السامى — أعلاه الله وشيده،
 وأسعده وأصعده، وشكر مشهده وأنجح مقصده، وملاً بالحسنات أمسه ويومه
 وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحسده، وأجتب بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده —
 بما من الله سبحانه من نُصرة المسلمين عند لقاء عدوهم ؛ وما وليهم الله من القوة
 والإظهار، وما قَدَف في قلوب الكفر من الخوف والحذار؛ وشرح القضية شرحاً
 شرح الصدور، وآستوى فيها الغيَاب مع الحضور، فكانت البشارة منه وكانت
 المبشرة له، وما كل من بَشَّرَ بأشْر، ولا كل من عار عاور؛ ولا كل من خبر عن
 السبوف لقيها بوجهه، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها بصدرة؛ ففعله الله
 بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتمّ النعمة عليه كما أتمها فيه، وتقبل جهاده الذى
 جلا فيه الكُرْبَات، وآبتغى فيه القُرْبَات؛ ويتوقع أن هان العدو في العيون، وظهر منه
 غير ما كان في الظنون، أن يكسر الله بكم مصافه ويفتح عليكم بلاده، ويُطهر بسيفكم
 الشام، ويسر بنصركم الإسلام، ويشرف بيوم نصركم الأيام . والخير يُقَتَّم إذا عُنَّتْ
 قُرْضه، ويُصاد إذا أمكن الصائد قرضه، والجهاد فرض على المطيع تقضيه عزائم
 ولا تقتضيه رخصه . وقد حضره المولى وحضر كل خير، وحضر من رأيه ما يكفى
 أمر العدو ولو لم يكن إلا رأيه لا غير، فكيف وفي يده من العُضْب، مثل ما في صدره
 من القلب، كلاهما حديد لا تكلل مضاربه، ولا تخوته ضرائبه، ولا تفى إذا عُدَّتْ
 عجائبه؛ فكلم له من يوم أغر محجل الأطراف، وليلة في سبيل الله دماء الأهوال
 بيضاء الأوصاف؛ والنفوس وائقة بأن الظفر على يده يجرى، والمبشر من جهته
 يسر ويسرى؛ والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

٥

١٠

١٥

٢٠

وكتب أيضا في مثل ذلك: ورد كتاب المجلس -- نصر الله عزَّمته، وشكرهَّمته، وأتمَّ عليه نعمته، وصرف به وعنه صرف كلِّ دهر ومُلمَّته ومُؤلمَّته، وأعان أوليائه على أن يؤدِّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذي يُحسِّن بين محبِّيه فسَّمته -- سافراً عن مثل الصباح السافر، متحدثاً عن روض أفعاله بلسان النسيم السَّحَرِيّ الساحر، حاملاً حديث يرضه وتُمره حديث السامر .
 وهذا بالفتح وهو المهنتا به، وكيف لا يهنتا بالفتح من هو فاتحه ! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلِّ صدرٍ وشارحه ! ولقد دعا له لسان كلِّ مسلم وساعدت لسانه جوارحه، وعلم أنه باشر الحرب وتولَّى كبرها، وأخذ جمرها، وألقى أقرانها، وآفترس فرسانها، وجبَّ شجاعتها، وشجَّع جبانها، وأنفق الكرميين على النفس والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرفين: القاتحة والمال . وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذي يبق بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذي في الأيدي منه مواريث، فالحازم من ورث ماله ولم يؤرثه لغیره . والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره . وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان الله كرائم المال بيديه . ولقد حلت نعمة الله في محلها لديه، وكان كفأها الكريم الذي أصدقها ما في كَفِّه .

هَذَا ثَنَائِي وَهَاتِيكُمْ مَنَافِقَكُمْ * يَا أَعْيُنَ النَّاسِ مَا أَبْعَدْتُ إِسْهَادِي
 (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، بل هو سبحانه يؤف عبادَه مَنَافِلَ الدَّر . وللصابرين عنده الأجر بغير حساب لجلالة قدر الصبر .
 . المجلس صبر نفسه على المشقات وأبشَّر بشوائها، وكثَر أعمال البرِّ فهو يدخل الجنة بفضل الله من جميع أبوابها . وكما يهنتا بالافتتاح فهو يهنتا بالخراج، ولا يغفل

ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح ، وكلُّ جُرحٍ إنما هو باب إلى الجنة مفتوح .
والحمد لله على أن أمتع الأمة بنفسه التي بذلها ، وقد باعها له وأبقاها لنا وقبلها ،
(وإن ربك لذو فضلٍ على الناسِ ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون) .

(١٦٩)

وكتب المرحوم علاء الدين على بن القاضي محي الدين بن الزكي إلى أخيه
بهاء الدين مُبَشِّراً بفتح صفد . وكان هذا الفتح في يوم الجمعة ثامن عشر شوال
سنة أربع وستين وستمائة على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك في أيام
الملك الظاهر ركن الدين بيبرس : يقبل اليد الكريمة ، ويث ما يعالجه من لوايح
الأشواق التي تركته بين الأصحاب مُدَلِّهاً ، وسلبت بُه فلا أعلم عليه من دَلِّها ،
ويُنْهَى أن المملوك فارق كريم جنباه وتوجه إلى صفد المحروسة فوصل إليها في تاريخ
كذا ، ووافاه والحِصْنُ قد ترعزعت أركانه ، والكفر قد أنهدم بُذائهُ ، وشمّر عن
ساق الخزيمة شيطانهُ ، وحمّة الحرب قد وقفت في مراكرها ، وكُتِّبَ الهيجاء قد
استعدت لأخذ فُرْصِ النصر ومنازعتها ، والرماح قد أهترت شوقاً إلى لقائهم ،
والسيوف قد آلت إنما لا توافق على مُقامهم ، والمجانق تزور حِمَاهم وتلك الزيارة
لشقائقهم ، وتُدَمِّرُ بحجارتها عليهم تدميراً ، وتُرِيهم من بأسها يوماً عبوساً قَطُوراً ، وتصير
بهم إلى الهلاك وتُعِدُّهم جهنم وساءت مصيرها ، والقَيْسِيُّ تُرْسٌ إليهم المنايا في أجنحة
السهم ، وقد أهدقت بهم كُتَّةُ الترك كأنها ظبَاءُ بأعلى الرقمتين قيام ، فَمِنْ نازِعٍ بقوسه
وهو لمُهْجِ الكافرين مُنازع ، ومن متدرِّعٍ بخره نحو المنايا يسارع ، ومن واردٍ منهلٍ
المنية وآخرفٍ إثره كارع ، ومن متدرِّعٍ وحاسرٍ علماً أن ليس لقضاء الله دافع ،
وما زادهم إلا آياتاً وتسلية ، وما سلك بهم إلا صراطاً مستقيماً ، وما آتت أنفسهم
وأموالهم إلا بالجنة وأعدّ لهم أجراً كريماً ، والسلطان ، عز نصره ، قد شَخَّذَ شَبَّوات

عزمه ، وفوق شديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه ، وهو يرتب عساكره ، ويهيئ ميامنه ومياسره ، ويُنفذ أوامره ويقدم أواخره ، ويحث صناديده ويثبت رعايده ، ويسير همة مساعره ، ويذكر نار الحرب في مجامره ، ويقابل الأبراج بروح يهدمونها ، ويكلل بالنقوب ثقباء يحفرونها ، ويعد للؤمنين مغنم كثيرة يأخذونها ، ويعد لكل مقام رجالا ، ويرتب لكل مقاتل من المسلمين قتالا ، ويسلط لهم بقتل الكافرين آمالا ، حتى قامت الحرب على ساق ، وضاق بأهل الشقاق الخناق ، وبلغت الأرواح منهم التراقي ، ودارت عليهم كئوس المنايا فانتشى المسقى والساق ، وأحدثت بهم الحيات تصهل ، وتخب القسي تهطل . وكواذب الآمال تعدهم وتمطل ، وتخرصوا لأنفسهم الفرح فكذبهم أسنة الخرصان ، ونظروا إلى الحياة بعين الطمع فكحلتهن بنات الحنية المرنان . فلما أشرب العجز نفوسهم ، وآستوى في الشورى مرءوسهم ، ورئيسهم ، ومؤا بالمنايا من كل جانب ، وسمح كل منهم بالمسال والذهب مذ علم أنه ذاهب ، وتحققوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه ، ولا معول بعد المعول إلا عليه ، وتيقنوا أن لا مقام لهم ولا مقر ، وقال الكافر يؤمئذ أين المقتز ، والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه ، ومبادرون أجل عدوهم يمزقون منه كل ما يرفعونه ، وإذا بصيحة كالصيحة التي تأخذهم وهم ينظرونها ، أو الصعقة التي ينتظرونها ، إذ أمرت السيوف على رقابهم وهم يئصرونها . فارتجت أرجاء الحصن بالاضطخاب ، ووقع الاختلاف بينهم والاضطراب . وقبل : إن الكافر قد طلب الأمان . وإنه ركب ظهر المذلة مذ ناوله الجزع العنان . وإن الكفر قد دل للإيمان ، وإن شيطانه قد نكص على عقبيه لما تراءت الفتنان ، فأمسكت المجانيق عن ضربها ، وكفت الحنايا

عن إرسال شُهبها ، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وثبها ، فما كان إلا هنيئة
وقد خرج رسول منهم حيث لا تتفع الرسائل ، وأخترق وشيخ القنا وشوك النصال
وطبأ المناصل ، ورأى كثرة هالته فكادت تنقذ تحت الذعر منه المفاصل ، ومشى إلى
السلطان خاضعا وأعيا على السماطين يقوم كلما عوجته الأفاكل

(٧٠)

وقبل كذا قبل الترب قبله * وكل كمي واقف متضائل

٥

وأدى الرسالة وإذا هي كما قال أبو الطيب دروع ، ورجع إلى أهله وفي قلبه
من جيش الإسلام — كثرة الله — صدوع

فأقبل من أصحابه وهو مرسل * وعاد إلى أصحابه وهو عاذل

فأبوا لنصيحته فبؤلا ، وقالوا : قاتلك الله رسولا ، لقد خرجت عن سنة إخوانك ،
وألقيت إلى المساهمين فاضل عنانك ، ولم ترقب رضا أقسائك^(١) ورهبانك ، والرغب
قد خرج به عن قومه وآله ، وهو ينشدهم الله في أموالهم وأنفسهم وينشدهم
بلسان حاله

١٠

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى * فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما استحكت مرة عصيانهم ، وأبوا إلا مغالاة في طغيانهم ، ولم يسمحوا بتسليم
ذلك الحصن الحصين ، وقالوا : إنه على حفظ أرواحنا لقوى أمين ، أرسلت عليهم من
المجانيق حجارة كالطمر ، إلا أنها ترى بشر كالقصر فهدم قصورا كالشر ، فزعزعت
منها بروجا وبُدنا ، وقالت : هذا جزاؤكم وإن عُدتم عُدنا ، ولتتبع بعدها آثاركم
ونقلع منكم قلاعا ومُدنا ، فلما أكذبهم الحصن في آمالهم ، وأراهم الله قرب آجالهم ؛

١٥

(١) لعله يريد القسوس ، ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة التي بأيدينا .

وكان ذلك في اليوم الآخر يوم الجمعة والفتح، سلكوا في التسليم عادة لم يسلكوها،
ورأوا من الجزع حُطَّةً ملكتهم ولم يملِكوها، فأجمعوا أمرهم وشركاهم إلا أنه كان
عليهم نعمة، وطبوا الدِّمَامَ ومن قبلها كانوا لا يرقبون في مؤمنٍ إلَّا ولا ذِمَّةً، فالتقوا
إلى الإسلام يومئذ السَّلم، ورأوا نور الله الظاهر أشهر من نار على علم، فخرجوا من
الحصن زرافاتٍ وأوزاعاً، مُهْطِعِينَ إلى الداعي كيوم يخرجون من الأجداثِ سِراعا؛
فلو تراهم نحو المنايا يركضون (كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ
ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) .

جرت الرياح على مقرِّديارهم * فكأما كانوا على ميعادٍ

- وصدق الله المؤمنين وعده، وكان بصدق وعده حقيقاً، (وَأُنْزِلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا) . فلما كان يوم السبت نادى فيهم السَّبَبُ بالرحيل . ولم يتزودوا من متاع
الدنيا إلا القليل . وقام النصر على منابر الهاماتِ خطيباً ، وكثر القتل فصار المهنَّد
الصقيل خَضِيماً . وأجرى أوديةً من دِمَائِهِمْ . ولم يغادر بقيةً من دِمَائِهِمْ ، وآستوى
العبيد منهم والأرباب . وصار فرسانهم فرانس الذئاب ، وآستمرعوا المرعى الوخيم
فرعاهم الدُّباب ، ووجدوا غِبَّ البغي عُلَيْنا ، وقلنا : (هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) ؛
وآب المسلمون بخير عميم . وفتح عظيم ، وأجر كريم ، وجعل الله الجنة جزاءً للساميين
منهم والذاهبين ، (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ
الْبَحْثَةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) . فلما أخذ حظَّه من هذه البشرى فإن لها من
النصر العزيز ما بعدها، ومن المغنم الكثيرة ما يُنجز للأمة المحمدية وعدها، ويشق بأن
له، إن شاء الله ، من ثواب هذه الغزوة أوفر نصيب ، وأن سهم عزمه في نحور

الأعداء، إن شاء الله، مصيب؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« إن بالمدينة قوماً ما سرتهم مَسِيرًا ولا قطعهم وادياً إلا كانوا معكم » . والله لا يُخلّيه
من أجزائها ، ولا يجرمه وافر برّها ، ويُخفّضه من مقربات التّهاني بما تكون له هذه
بمنزلة العنوان في الكتاب ، والآحاد في الحساب ، وركعة النافلة بالنسبة إلى الخمس ،
والفجر الأول قبل طلوع طلعة الشمس ، وأن يديم على الإسلام والمسلمين حياة
مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ، ويؤيده بالملائكة المقربين ، ما دامت
السموات والأرضين ، إن شاء الله تعالى .

ومن إنشاء المولى المرحوم محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن
السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين
كتاب السلطان الملك المنصور المسير إليه بالهناء بفتح طرابلس الشام : أعزّ الله نصرته
المقام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختها ، وكلّ تهنئة لا يُجلبها إلا هو لوقتها ،
وكلّ مُبهجةٍ يعجز البيان والبنان عن تبثها ونعتها ، وتبّلع فتودّ الدرر والدرارى لو زُفت
هذه إلى ترّاقبها وسَمّت هذه إلى سَمّتها ، وصبّحه منها بكلّ هاتفةٍ أسمع من هواتف
الحمام ، وبكلّ عارفةٍ أسرع من عوارف الزّهر عند عزائم النسائم ، وبكلّ عاطفةٍ أعتة
الإتحاف بالإيجاف الذي شكرت الصّفاح منه أعظم قادرٍ والصّحائف أكرمَ قادم ،
والغزو الذي لا تُحصّ تهامةٌ ببشره بل جميع التجود والتهائم ، وذوو الصوارم والصرائم ،
وأولو القوّى والقوائم ، وكلّ ثغرٍ عن آتجاج أهل الإسلام باسم ، وكلّ برٍّ برّ بتوصيل
ما ترتّب عليه من ملاحم ، وكلّ بحرٍ عدبٍ يُمؤنّ كلّ غازٍ لا يجبس عن جهاد الكفار
في عُقر الدار الشكائم ، وكلّ بحرٍ ملح كم تغيط من مجاورة أخيه لأهل الشرك
ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم . الملوك يحدّد خدمةً يقتضى فيها أثر والده ، ويجرى

- في تبليغها على أجل عوانده، ويستفتح فيها آستفناحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف محامده، ويصف ولأء قد جعله أجل عقوده وأكل عقائده، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميله أحسن وسائله وقلبه أزين وسائله، ويطلع العلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله في كل ما يعرض للمسلمين من نصر، ويفرض لهم من أجر غزؤكم قعد عنه ملك فيما مضى من عصر، أن يقدروا تلك النعمة حق قدرها ٥ من التحدث بنعمتها، والتنبيه لسماع نعمتها، وإرسال أئنة الأعلام في ميادين الطروس، وإدارة حرباء وصف خير حرب إلى مواجهة خير الشمس . ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد . خلد الله سلطانه . قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفه للنصر فكم جاءت هي والقدر على قدر . وقد صارت سيرها وسيرها هذه شدو الأسرار، وهذه حادثة يستطيب منها حسن الحدو السفار، فكم قاتلت من يليها من ١٠ الكفار، وكم جعلت من يواليها وهو منصورها منصوراً بالمهاجرين والأنصار . ولما أدل الله ببأسها طوائف التتار في أقاصى بلاد العجم، وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجع، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن اسودهم الأجم، وقصرت بهم همهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هم والظن إذا رجم ، وصارت رؤية الدماء تفرعهم فلو احتاح أحدهم لتقيص دم لمرض لأجنع من خوفه وما احتجم، ١٥ وأباد الله الأرمن فخل بالنيل منهم الويل . وما شمر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمر هو من الدل الذبل، ولا اثار الجياد من الخيل عثراً منعقداً إلا وظنوه مساءً قد أقبل أو ليل . وآتته نوبة القتل بهم والإسار إلى الكفورليفون ملك الأرمن الذي كان يحى سرحهم ويمز صرحهم، ويستنطق هتف التتار ويسترجع صدحهم ، وتعتز طرابأس الشام بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ٢٠

ووجه تديره السافر ، وطالم غرّ وأغرّى وجرّ وأجرى وضرّ وأضرى ، فلما توكل
 مولانا السلطان وعزم ، وعزم فتوكل ، وتحقق أن البلاء به قد نزل ، وما تشكك أن
 ذلك في ذهن القدر قد تصوّر وتشكّل ، وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه
 وأعظم منهما معاداة غده ، وأن نصر الله لن يُخلفه صادق موعده ، أكل يده ندامةً
 على ما فترط في جنب الله ، وساق الحنف لنفسه بيده فعمّر الله بروحه الخبيثة الدرك
 الأسفل من النار ، وسقاه الحنف كأسا بعد كأس لم يكن لها غير الهلك من نهمار ،
 وكاست طرابلس هي ضالة الإسلام الشريفة ، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة ، وكلما
 مرّت شمخت بأنفها ، وتأثقت في تحسين منازة منازها وتزيين ريجانها وعصفها ،
 ومرّت وهي لا تغازل ملكا بطرفها ، وكلّما تقادم عهدها تكثرت بالأنفاج والأفواج
 من بين يديها ومن خلفها ، إذ البحر لها جلباب والسحاب لها نهمار ، وليس بها من البرّ
 إلا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد آنحط ،
 أو ميل آستواء قد خرج عن الخط ، وما قصد أحد شطها بنكاية إلا شطّ وأشتط ،
 قدر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان ، وسبق جيشه إليها كلّ خير وليس
 الخبر كالعيان ، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد أحرسه عيونها وتلك المخاوف كلّهن
 أمان ، وقد آنخذ من إقدامه عليها خير حبال ومن مفاجاته لها أمدّ عنان ، وفي خدمته
 جنود لا تسبّعد ممّارة ، وكلّ راحت وغدث وفي نفوسها للأعداء حرّارة ، فامتطّوا
 بنحولهم من جبال لبّان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارض لا يرافق بها غير الرياح
 الهوج ، وأنحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل ، آنحطاط الأجادل ، وأندفعوا في تلك
 الأوعار آندفاع الأوعال ، ولم يحفل أحد منهم بسرّ لاصق ولا بجبل شاهق فقال :
 هذا منخفض أو عال ، وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصين ، وأبّناء كلّ

سُور أَمَامَ أَسْوَارِهَا مِنَ التَّدْيِيرِ الْحَسَنِ وَالرَّأْيِ الرَّصِينَ ، فَمَا لَبِثُوا إِلَّا مَقْدَارَ مَا قِيلَ لَهُمْ :
 دُونَكُمْ وَالْأَحْطَابِ ، وَنَقَلَ الْمَجَانِيقُ عَلَى الْخَيْلِ وَعَلَى الرِّقَابِ ، حَتَّى جَرُّوْهَا بِأَسْرَعٍ مِنْ جَرِّ
 النَّفْسِ ، وَأَجْرُوْهَا عَلَى الْأَرْضِ سَفَائِنَ وَكَمْ قَالُوا : السَّفِينَةُ لَا تَجْرِي عَلَى يَبَسٍ ، وَفِي الْحَالِ
 نَقَلْتَ إِلَيْهَا فِرَآؤًا مِنْ مُتَوَقِّلِهَا مِنْ يَمْشِي بِهَا عَلَى رَجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ،
 وَوَجَّهَتْ سَهَامُهَا وَجُوهَهَا إِلَى مَنَافِذِهَا فَمَا شَوَّهَتْ مِنْهَا عَيْنٌ إِلَّا وَكَانَ قُدَامَهَا مِنْهَا ٥
 إَصْبَعٌ ، وَأَلْقَيْتِ الْعِدَاؤَ بَيْنَ الْحِجَارَةِ مِنَ الْمَجَانِيقِ وَبَيْنَ الْحِجَارَةِ مِنَ الْأَسْوَارِ ، فَكَمْ نَقَبَتْ
 وَنَقَبَتْ مِنْ فِلَذَةٍ كَيْدَهَا عَنْ أَسْرَارِ ، وَأَوْقَدَتْ نِيرَانُ الْمَكَايِدِ ثُمَّ فَكَمْ حَوْلَهَا مِنْ صَافِنِ
 وَمِنْ صَافِرٍ ، وَكَمْ رَمَتْهُمْ بِشُرَرٍ كَالْقَصْرِ فَوْقَ الْحَافِرِ كَمَا يُقَالُ عَلَى الْحَافِرِ ، وَمَا بَرَحَتْ
 سُوقُ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي تَفَاقٍ عَلَى أَهْلِ التَّفَاقِ ، وَأَكْبَرَهُمْ تُسَاقُ أَرْوَاحُهُمُ الْخَبِيثَةُ إِلَى
 السِّيَاقِ ، وَكَانَ أَهْلُ عَكَّاءَ قَدْ أُنْجِدُوهُمْ مِنَ الْبَحْرِ بِكُلِّ بَرٍّ ، وَرَمَوْا الْإِسْلَامَ بِكُلِّ شَرٍّ ١٠
 وَكُلِّ شَرٍّ . فَكَانَ السَّهْمُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا لَا يَخْرُجُ إِلَّا مُقْتَرَنًا بِسَهَامٍ ، وَشُرُفَاتُ ذَلِكَ الثَّغْرِ
 كَالثَّنَائِيَا وَلَكِنَّهَا الْكَثْرَةُ مِنْهَا لَا تَفْتَرُّ عَنْ آبِتْسَامٍ ، وَمَا زَالَتْ جُنُودُ الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ ،
 وَمَوْلَانَا السَّاطِنُ لَا تَرَى جَمَاعَةً مُقَدِّمَةً وَلَا مُتَقَدِّمَةً إِلَّا وَهُوَ يُرَى بَيْنَ أُولَئِكَ . وَاسْتَمَرَ
 ذَلِكَ مِنْ مُسْتَهْلٍ شَهْرٍ رِبْعِ الْأَوَّلِ إِلَى يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ شَهْرِ رِبْعِ الْآخِرِ ، فَزَحَفَ عَلَيْهَا
 فِي بُكْرَةِ ذَلِكَ النَّهَارِ زَحْفًا يَقْتَحِمُ كُلَّ هَضْبَةٍ وَوَهْدَةٍ ، وَكُلَّ صُلْبَةٍ وَصَلْدَةٍ ، حَتَّى أَنْجَزَ اللَّهُ ١٥
 وَعَدَهُ ، وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ مَجَازًا وَفِي الْحَقِيقَةِ فَتَحَهَا وَحْدَهُ ، وَطَاعَتِ سَنَاجِقُ
 الْإِسْلَامِ الصُّفْرَ عَلَى أَسْوَارِهَا ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، وَجَاسَتْ الْكَسَابَةُ خِلَالَ
 دِيَارِهَا ، فَاحْتَازَهَا مَوْلَانَا السَّاطِنُ لِنَفْسِهِ مَذْكَأً ، وَمَا كَانَ يَكُونُ لَهُ فِي فَتْحِهَا شَرِيكَ
 وَقَدْ نَفَى عَنْهَا شُرَكَاءَ ، وَكَلَّمَا قِيلَ : هَذِهِ طَرَابُلُسُ فُتِحَتْ قَالَ النَّصْرُ بِنِ قَتْلِ فِيهَا مِنْ

التَّجْدُ الواصلة وأكثر عكاً وأهل عكاً، وأعاد الله قُوَّةَ الكُفْرِ بها أَنْكَاناً، وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة في يرم ثلاثاء، وأسْتَرِدَّتْ في يوم الثلاثاء . ولما عَمَّتْ هذه البشائر [و] وَكَلَّ بها مولانا السلطان إلى كَلٍّ من يستجلى حسان هذه العرائس، ويستحلى نفيس هذه النفائس، سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرَى ققعقع بها البريد، لُتْنَى بأمر مولانا على كَلٍّ من ألقى السمع وهو شهيد، وكما عم السرورُ بذلك كل قريب قصد أن يعمُ الهناء كل بعيد. وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجب بين يدي نجواها، ويتوثب بعد هذه المفاتيح لكل سائحة يحسن لدى المولى مستقرها ومثواها . لا برج المقام يستبشر لُكْمة الإسلام بكل فضل وبكل نُعمى، ويفرح لَسْرَحَ الكُفْرِ إذا آتَتْهُك ولسفع المُلْك إذا جُبِحى، ولسمع الشَّمَك إذا يُصَمَّ ولقلبه إذا يُضْمى .

وكتب المولى محي الدين أيضا عن نفسه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور
يهنئه بهذا الفتح

هُنَّتْ يَا مَلِكَ الْبَيْسِطَةِ * فَتَحًا بِهِ التَّعْمَى مُحِيطَهُ
وَبَقِيَتْ يَا خَيْرَ الْمَسْلُوكِ * لَكَ بِسَيْفِكَ الدُّنْيَا مُحُوْطَهُ

يَقْبَلُ الأرض وياتهل إلى دُعاءٍ صالح يقدِّمه بين يدي بُشْرِهِ وُبُشْرَاهُ، وكلَّ مقام محمود من الإجابة يحوله في سِرِّهِ ونجواه؛ وُيَهْنِئُ بهذا الفتح الذى كم مضى مَلِكُ قَلْبِهِ منه حَسْرَةٌ، وما آذَنَ الله إلّا لمولانا السلطان أجره ونَفْرَهُ . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين، والظفر الذى أعطاه الله إِيَّاهُ في شهر وقد أقامت جموعُ الكُفْرِ حتى حازت بعضَه في مُدَّةِ سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكُفْر من بعد قُوَّةِ أَنْكَاناً، وجعل أخذ مدينة طرابلس من الكُفَّار في يوم الثلاثاء وكان



أخذها من المسلمين في يوم الثلاثاء؛ وله المنة في رد هذه الأخذة، وجعلها بين يدي مولانا السلطان متبوضة؛ ثم المنة لله على أن سطر في سيرة مولانا السلطان هذه السنة، وجعلها ما بين نومة عين وانتباهتها في أقرب من سنة، ورد بإقفاها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائة سنة وستة وثمانين سنة، والله يالحق بها في الفتح أخواتها من المذنب. ولا يلبث إن شاء الله هاديا بها بعدها مثل عكا، وصور وصيدا حتى يراهن إلى قبضته قد عُدن، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرطاي عن الأمير بدر الدين بيدرا في ذلك :
 الملوك ينقضي بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتبته، وأشرقت الأرض بنور ربها آتيا جبا بما أمضاه الله منه وما سيُضيه . وبما سيعطيه حتى يُرضيه ؛ وذلك أن فتح طرابلس التي طالما تمحنت بأنفها على الملوك ،
 ١٠ وكم أبت على مستفتح ما قال لغيره إياؤها : لله أبوك . وآخر الله مدتها إلى خير الأزمان ، وفتحها على يدي سلطاننا الذي حقق الله به آمالا تنفذ إلا منه بساطنا ؛ فالحمد لله الذي عضد هذا الملك من مولانا بخير من دبره . وحماد منه بأقطع حسام جرده الله لنقض ما أمّره ، وما من فتوح ولا أمر مموح إلا ومولانا مُعضد عقوده ، ومجهز بريده ، ومطلع سعوده ؛ ورافع علمه ، ومُضي سيفه ومُرضى قومه . فأمنع الله الأمة من مولانا
 ١٥ السلطان بساطنا يسترد لهم الحقوق وينقاضي الديون . وأمتع الله سلطانها من مولانا بن آراؤه أفعال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيف الدين سار نائب الماطة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة النار بمرج الصفر في شهر رمضان سنة ثمانين وسبع مائة :

وبشّره بالفتح الذى أعاد الله به الأُمّة خَلَقًا جديدًا ، والنصر الذى أنزل الله فيه
 من الملائكة أنصارًا للملّة وجنودًا ، والظفر الذى أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن
 يَرْهَبُ نُحُودًا ، والغزوة التى زلزل الله بها جبال أهل الشرك وقد تدفقت على الأرض
 أمثال البحار عددا وعديدا . المملوك يقبل اليد العالية التى لها من هذه النُصرة وإن لم
 تبلغها أجر الرامى المسدّد سهمه ، المعجّل من التهانى غُنمه ، الموفّر من المحامد الجزيلة
 قِسْمه ، ويهتّى المولى بهذا الفتح الذى مدّ الله به على الأُمّة جناح رحمته وفضله ،
 ومنّ على أيامنا الزاهرة فيه بالشّأم وأهله ، وبرّز فيه الإسلامُ كلّه للشرك كلّّه ، والله الحمد
 الذى أعزّ دينه ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدوّ دينه بعد أن حصّره ، وأباد
 جيوشَ الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثال
 الرمال لا يُعدّون ، ويُنهى أن علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا العدو المخذول
 ودخوله إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكُتّابه وجُوعه وجُنوده من أشياع أهل الكفر
 وأحزاب الشرك . ولما نواصلت الأخبارُ بقرّبه ، وأسعداده بحزبه ، ومهاجمته البلاد ،
 وإيقاع الرّعب فى قلوب أهلها بالتنوّع فى الفساد ، ساق الرّكابُ الشريّف فى طلبه
 يَطْوِي المراحل ، ويقطّع فى كلّ يومٍ منزلتين بل منازل ، ولما حلّ الركابُ الشريّف
 بمرج الصّفَر على مَرحلة من دِمَشق المحروسة فى يوم السبت مستهلّ شهر رمضان
 المعظم زُيّنَت العساكرُ المنصورة لِقَاء حال وصولها ، وأسعدت للحرب دون تشاغُل
 بأسباب نُزولها ، فوافى العدو المخذول فى مائة ألفٍ من جيوش تسيل كالرمال ، وتعلو
 الجبال بأشدّ من الجبال ، وحين وصلوا حملوا على الميمنة بجملتهم ، وقصدوا إزاحتها
 عن موقفها بجملتهم ، فلقّتهم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدوّ
 الله وعدّوها ، ووثقت بما أعدّ الله لها من الجزاء فى رواحها فى سبيله وغدّوها ،

(٧٤)

وَصَدَمَتْهُمْ صَدْمَةٌ كَسَرَتْ حَدَّهْمَ ، وَأَوْهَنْتْ شِدَّتَهُمْ وَشَدَّهْمَ ، وَأَزَالَتْ طَمَعَهُمْ ، وَأَبَانَتْ
 ظَلَعَهُمْ ، وَسَالَتْ عَلَيْهِمُ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَحَمَيْتِ الْحَرْبُ بَيْنَ
 الْكَاتِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَبَيْنَ نَلِكِ الْكَاتِبِ ، وَدَخَلَ اللَّيْلُ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْنَعُ ، وَالْحَيَادُ
 مِنَ الْمَاجِرِ تَحْفَى وَبِالْجَمَاجِمِ تَتَعَلَّ بِفَاوُوا إِلَى جِبَالٍ اعْتَصَمُوا بِهَضَابِهَا ، وَاحْتَمَوْا بِتَوَعَّرِ
 مَسَالِكِهَا وَضَيْقِ عِقَابِهَا ، وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ حَوْسَهُمْ لَا لِحِفْظِهِمْ ،
 وَتَصَمُّ أَطْرَافُهُمْ لَا لِحُبِّهِمْ بَلْ لِبُغْضِهِمْ ، فَكَانُوا — بَعْدَ كَثْرَةِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ
 الْأُولَى أَوْ قَرْنَ أَوَّلِ اللَّيْلِ — جَمْعًا يَنَاهِزُ الْأَرْبَعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ ، فَأَصْبَحُوا يَعَاوِدُونَ
 الْقِتَالَ ، وَيَنْزِلُونَ إِلَى أَطْرَافِ الْجِبَالِ لِلتَّرَالِ بِالْجِيُوشِ الْمَنْصُورَةِ تَلَزَمُهُمْ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ ، وَتُحَكَّمُ فِي أَبْطَالِهِمُ الْقَنَا وَالْقَوَاصِبُ ، وَجَرَتْ فِي أَشْيَاءَ ذَلِكَ حَمَلَاتٌ ظَهَرَتْ فِي كُلِّ
 مِنْهَا خَسَارُهُمْ ، وَشَهِدَ عَدُوَّهُمْ بِمَا يُكَادُونَ قَتْلَهُمْ وَإِسَارَهُمْ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلُوا مِنْ جَانِبِ
 وَاحِدٍ يَطْلُبُونَ الْغِرَارَ ، وَيَتَوَقَّعُونَ الْقِتْلَ إِنْ نَعَدَرَ الْإِسَارَ ، فَسَاقَتْ حُلُمُهُمُ الْجِيُوشُ
 الْمَنْصُورَةُ تَحْطَفُهُمْ رِمَاحُهَا ، وَتَنْتَقِفُهُمْ صِنَاعُهَا ، وَتَقَاذَفَتْ بَيْنَ نَجَا مِنْهُمْ الْقَالَوَاتُ ،
 وَغَرَقَتْهُمْ أُمُوجُ السَّرَابِ قَبْلَ أُمُوجِ الْفُرَاتِ ، فَأَخَذُوا قَنْصًا بِالْيَدِ مِنْ بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ
 وَرُءُوسِ الشُّعَابِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الْغَنِيمَةِ نَالِإِيَابٍ ، وَقُتِلَ أَكْثَرُ مُقَدِّمِي
 التَّمَنَّاتِ وَفَرَكِيهِمْ وَأَثَى لَهُ الْغِرَارُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَآوِزٌ إِنْ سَلَكَ مِنْهَا تَاوَلَتْهُ بِأَرْمَاحِ
 مِنَ الْعَطَشِ الْقِفَارِ ، فَلَبَّأَخَذَ الْمَوْلَى حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي تُنْبِئُ عَنِ الْفَتْحِ الْعَظِيمِ

(١) فِي الْأَصْلِ «وَأَسَالَتْ» .

(٢) فِي الْأَصْلِ : لِحَرْبِهِمْ دَارَاهُ . وَالْحَوْسُ : الْقِتْلُ .

(٣) ١٥٠. فِي الْأَصْلِ وَلَدُهُ «وَأَسَالَتْ» .

(٤) فِي نَحْوِ الْأَصْلِ «بُشْرَى» .

والفضل العميم ، والنصرة التي حفظ الله بها على الإسلام البلاد والثغور والأموال
والحریم ، ويكتبُ إلى البلاد بمضمونها ، ويسرُّ قلوب أهل الثغور بمكنونها ،
ويستنهض المولى الأئمة لشكر الله عليها ، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك ! ويعرفهم مواقع
هذه النصرة التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك ، ويتقدّم أمره بضرب البشائر بكلِّ
مكان ، ويشهر في جميع الثغور أن عدوّ الله وعدوّ الإسلام دخل في خبر كان ، وأن
الله تعالى كسر جيوش التار كسراً لا يُجبر صدّعه ، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جمعه ،
والله تعالى يُسمعه من التهانى كلّ ما يسرُّ الإسلام وأهله ، ويشكر قوله في مصالح
الإسلام وفعله ، إن شاء الله تعالى .

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الثاني

في المرائي والنوادر

والمرائي إنما جعلت تسليّة لمن عصته النوايب بأنبيائها ، وفرت الحوادث بين
نفسه وأحبائها ، وتأسيّة لمن سبق إلى هذا المصراع ، ونهل من هذا المشرع ، ووُثوقاً
باللحاق بالماضي ، وعلماً أن حادثة الموت من الديون التي لا بد لها من التقاضي ، وأنه
لا سبيل إلى الخلود والبقاء ، ولا بد لكلِّ نفس من الذّهاب ولكلِّ جسد من الفناء ،
قال الله تعالى في مُحكم تنزيله مخاطبة لرسوله : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ
مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ،
فليُرِّضْ من فجع بخليله وشقيقه ، وصاحبه وصديقه ، وأهله وولده ، وجمعه وعدده ،

- وماله ومدده، نفسه الجاحمة في ميادين أسفها وبكائها، الجائحة إلى طلب دوائها من مظان أدوائها، بزمام الصبر الجميل، لينال الأجر الكريم والثواب الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قوم بقوله: (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ)؛ وقال تعالى إخباراً عن لقمان في وصيته لابنه: (وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)؛ وليسترجع من أصابته مصيبة، أنزلت به بليّة، وطرقته حادثه أو ألمت به رزية، لما جعل الله تعالى للمسترجع بفضله وميته، من صلاته عليه ورحمته؛ قال الله عز وجل:
- (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). وليتأس العاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليقتد بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بشواب الصابر، ويحوز أجر الشاكر.

- وباب الرثاء فهو باب فسيح الرحاب والنوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادى ذى القلب الصادى، متباين الأسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منه ما يُصمى القلوب بنباله، ومنه ما يُسَلِّبها بلطيف مناله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يصرفها عن موارد التلّف. وقد أكثر الشعراء القول في هذا الباب، وآرتقوا الذروة العلى من هذه المنضاب، ووجدوا مكان القول ذا سعة فقالوا، وأصابهم هجير اللوعة؛ قالوا إلى ظله وقالوا. قال الأصمعيّ: قلت لأعرابي: ما بال المرائي أشرف أشعاركم؟ قال: لأننا نقولها وقلوبنا محترقة. وعلى الجملة فالملوت هو المصيبة التي لا تدفع، والرزية التي لا ترد بكثرة الجموع ولا تمنع بالحادثة التي لا تصرف بالفداء وإن جلّ مقداره، والبالزة التي لا تناخر عن وقتها بالدعاء وإن عظمت في غيرها آثارها، وهو أحد الأربعة التي فروع منها، وضربت وجود المطامع عنها. وقد قالت

الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء . وقالوا : كل شيء يبدو صغيرا ثم يعظم
إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل ،
فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء . قال شاعر

فلئن بكيناه لحق لنا * ولئن تركنا ذاك للصبر
فلمثله جرت العيون دما * ولمثله جمدت فلم تجر

وقيل : مرّ الأحنف بامرأة تبكي ميتا ورجل ينهاها ، فقال : دعها فإنها تتدب
عهداً وسقرا بعيدا . قيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك ! قالت :
إن فقدت إياه آمنت كل فقدٍ سواه ، وإن مُصِبتى به هونت على المصائب بعده ،
ثم أنشأت تقول

كنت السواد لمُقلتي * فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر
ليت المنازل والديا * رحفائر ومقار
إنى وغيرى لامعا * لة حيث صرت لصائر

وقد نقل أبو المرحج الأصفهاني أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمد
ابن صولٍ يرثى أبنا له فقال

أنت السواد لمقلة * تبكى عليك وناظر
من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر

ولم يزد على هذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هاني معنى البيت الأول فقال

في الأمين

طوى الموت ما بيني وبين محمد * وليس لما تطوى المنية ناسر
وكنت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيء عليه أحذر
لئن عمّرت دور بمن لا يُجبه * لقد عمّرت ممن نُحِبُّ المقابر

وقيل : من أحسن ما قيل في التعازي أن أعرابياً مات له ثلاثة بنين في يوم
واحد فدفعهم وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد أحداً ، فلم على ذلك ،
فقال : ليسوا في الموت ببديع ، ولا أنا في المصيبة بأوحد ، ولا جدوى للجزع ، فعلام
تلموموني؟ وهذه ثلاثة الأقسام لأربع لها . وعزى أعرابي رجلاً فقال : لأراك
الله بعد مصيبتك ما يُنسيكها . وقيل : لما دفن علي بن أبي طالب رضى الله عنه
فاطمة رضى الله عنها تمثل على قبرها بهذين البيتين

١٠ لكل أجتاع من خليلين فرقة * وكل الذي دون المات قليل
وإن أفتقادي واحداً بعد واحد * دليل على ألا يدوم خليل

وعزى على بن أبي طالب رضى الله عنه الأشعث بن قيس عن ابنه فقال : إن
تخزن فقد استحققت ذلك منك الرحم ، وإن تصير ففي الله حلف من كل هالك ،
مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت ماجور ، وإن جزعرت جرى عليك القدر
وأنت موزور ، سرتك الله وهو بلاء وفنة ، وحرّك وهو نواب ورحمة .

١٥

وعزى أكرم بن صفيّ حكيم العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها
الملك ، إن أهل هذه الدار سفر لا يحلون عقد الرجال إلا في غيرها ، وقد أنك ما ليس
بمردود عك ، وأرتحل عك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيّطعن ويدعك ،
فما أحسن الشكر لنعم والتسليم للفادر ! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء

الفرع بعد أصله ! وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير مُعْطِيه، وشر من الشر فاعله .

وقال ابن السَّك : المصيبة واحدة، فإن كان فيها جَزَعٌ فهمي آتئنان. وقال أبو عليّ الرازيّ : صحبت الفضيل بن عياض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مُتَبَسِّمًا إلا يوم مات أبنته عليّ، فقلت له في ذلك ؛ فقال : إن الله أحبّ أمرا فأحببت ما أحبّ الله .
وقال صالح المرّيّ : إن تكن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشيةً فنعم المصيبة مصيبتك، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئست المصيبة مصيبتك .
وقال عليّ بن موسى للفضل بن سهل يعزّيه : التهنئة بأجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة . وعزّي الرشيد رجلٌ فقال : كان لك الأجر يا أمير المؤمنين لآبك، وكان العزاء لك لا عنك . أخذه الآخر فقال

كُنْ الْمُعَزَّى لَا الْمُعَزِّي بِهِ * إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْوَاحِدِ

وقال عمر بن عبد العزيز لابنته عبد الملك وقد آشتد به الألم : كيف تجدك يا بُنَيّ؟ قال : أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خيرٌ لك مني ؛ قال : والله يا بُنَيّ لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك ؛ قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحبُّ إليّ من أن يكون ما أُحِبُّ . وعزّي شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيه أبي العباس السَّقَّاح فقال : جعل الله ثواب ما رُزِيتَ لك أجرا، وأعقبك عليه صبرا، وختم لك بعافيةٍ تامة، ونعمة عاقمة، فثوابُ الله خيرٌ لك منه، وأحقُّ ما صُرِّ عليه ما ليس إلى تغييره سبيل .

ودخل البلاذريّ عليّ بن موسى الرضّيّ يعزّيه بابنه فقال : أنت تجلّ عن وصفنا، ونحن نقصّر عن عظمتك، وفي علمك ما كفالك، وفي ثواب الله ما عزّاك .

فهذه بُدَّة في التعازي كافية ، وَجُتة لمن تحصَّن بها من ذوى الفجائع واقية .
فلنذكر المراثي .

ذكر شىء من المراثي والنوادر

ولنبداً من ذلك بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبشئ مما قيل عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيالحق أولنا لحزننا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ، ولا تقول ما يُسيخِرُ الرِّبَّ » . ذكره الجَوَانِي النَّسَابَةُ في شجرة الأنساب ، وذكره غيره مختصراً .

ومنه ما روى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم .
وقالت

إِذَا فَقَدْنَاكَ فَقَدَ الْأَرْضَ وَأَبْلَاهَا * وَغَابَ مَذْغِبَتَنَا الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ
فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادَفَنَا - لَمَّا نُعِيَتْ وَحَالَتْ دُونَكَ الْكُتُبُ

ووقف على رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دُفِنَ وقال : إِنَّ الصَّبْرَ لِحِمْلٌ إِلَّا عَنكَ ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَفَيْحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الْمَصَابَ بَكَ لَحْلِيلٌ ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَحْلَلٌ . وقد ألم الشعراء بهذا المعنى ، فقال إبراهيم بن إسماعيل في على ابن أبي موسى الرضى

إِنَّ الرِّزْيَةَ يَا بْنَ مُوسَى لَمْ تَدْعُ - فِي الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْمَصَائِبِ مَدْمَعَا
وَالصَّبْرُ يُنَحِّدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا - وَالصَّبْرُ أَنْ نَبْكِيَ عَلَيْكَ وَنَجْزِعَا

ووقف أعرابي على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قَلْتَ قَتَلْنَا ، وَأَمَرْتَ خَفِظْنَا ، وَقَلْتَ عَنْ رَبِّكَ فَسَمِعْنَا (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا ، فما بقيت عينٌ إلا سالت

ودخل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضى الله عنهما فى مرض موته ، فقال : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كلفت القوم بعدك تعبًا ، ووليتهم نصبًا ، فهيهات من شقِّ غبارك ! وكيف بالحق بك !

وقالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يغمض
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثم قال اليتامى عصمة للأرامل

فنظر إليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أغشى عليه ، فقالت
لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى * إذا حشرت يومًا وضاقت بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) ب ثم قال : آنظروا ملأى فاعسلوها وكفّفوني فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الحديد من الميت . ووقفت رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نصر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنتَ للدنيا مُذِلًّا بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُزْءك ، وأعظمُ المصائب بعده فقدك إِنْ كُتِبَ لِعَبْدٍ بِحُسْنِ الصَّبْرِ فِيكِ وحسن العِوضِ منك ، فإنّا لتنتجِزَ موعود الله بحسن العزاء عليك ، وأستعِضه منك بالاستغفار لك ؛ أَمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قتَ بأمر الدين حين وهى

شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه؛ فعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لك، ولا زارية على القضاء فيك . ثم آنصرفت .

- ولما قبض رضى الله عنه سُجِّي عليه بالثوب فارتجت المدينة بالبكاء ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وجاء على بن أبي طالب رضى الله عنه بايًّا مُسرعا مُسترجعا حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمتك الله أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدهم يقينا، وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقًا وفضلا وهديًا وسمتًا . فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس، وواسيته حين يخلوا . وقتت معه حين فقدوا، وأسماكت الله في كتابه صديقا فقال : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)، يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا، لم تغفل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجن نفسك . كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا فى بدنك، قويا فى أمر الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله . جليلا فى الأرض ، كبيرا عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هَوادة، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له . فلا حرمت الله أجرك، ولا أضلنا بعدك . فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب ، وتأمل هذا النمط الغريب الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها، وإصابة المعانى وإعجازها . ولا يُستكثر على من أنزل القرآن بلغتهم، أن يكون هذا القول من بديهيته .

ولنذكر لمعةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولمحةً من أشعار الأدباء والشعراء؛ فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجعد، إلى الوزير الفقيه أبي القاسم المهوريني يعزيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال

لأُبَدَّ مِنْ فَقِيدٍ وَمِنْ فَاقِدٍ * هِيَهَاتَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خَالِدٍ
كُنَّ الْمَعْزَى لَا الْمَعْزَى بِهِ * إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْوَاحِدِ

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام، وتشتُّت النِّظام، وأنصداع تَمَثُّل الكرام، فمن الاتفاق السعيد والقدر الحيد أن يرث أعمار البينة الكريمة مُشِيدَ علاها، وتسلم من القلادة وُسْطَاهَا، فمدار الكانة على معلَّاهَا، ونغار الحلية بحُرْز مداها؛ وفي هذه النبذة إشارة إلى من فرط من الإخوة النبلاء، ودرج من السادة النجباء؛ فإنهم وإن كانوا في رتبة الفضل صُدُورًا، وغدوا في سماء النبل بدورًا؛ فإن شمس علائك أبهر أضواءً وأزهى أنوارًا، وظل جنابك على بنينهم ومُخْلِفيهم أُنْدَى أَصَالًا وأَبْرَدُ أَسْحَارًا. يُنْبِئُنِي إِلَى — أَوْشَكَ اللَّهُ سَلَوَانِكَ، وَلَا أَخْلِي مِنْ شَخْصِكَ الْكَرِيمِ مَكَانَكَ ! — الْوَزِيرُ أَبُو فَلَان، بِرَدِّ اللَّهِ ثَرَاه، وَكَرَّمَ مَنَوَاه، فَكَأْتَمَّا طَعَنَ نَاعِيَهُ فِي كَيْدِي، وَطَعَنَ بَاكِيَهُ بِذَخِيرَةِ جَلْدِي؛ لَا جَرَمَ أَنِّي دُفِعْتُ إِلَى غَمْرَةٍ مِنَ التَّلَدُّدِ لَوْ صُدِمَ بِهَا النُّجْمُ لَحَارَ، أَوْ دُهِمَ بِهَا الْحَزْمُ لَحَارَ؛ ثُمَّ ثَابِتٌ إِلَيَّ نَفْسِي وَقَدْ وَقَّذَهَا الْجَزَعُ، وَعَضَهَا الْوَجَعُ؛ فَأَطْلُتُ الِاسْتِرْجَاعَ، وَجَمَعْتُ الْجَلْدَ الشَّعَاعَ؛ وَهَا أَنَا عِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُهُ جِمَاعَ فُضَائِلَ، وَجَمَالَ مُحَافِلَ؛ وَحَدِيقَةَ مَكَارِمَ صَوَحَّتْ، وَصَحِيفَةَ مُحَاسِنَ دَرَسَتْ وَأَتَمَحَّتْ. وَمَا أَقْتَصَرْتُ مِنْ رَسْمِ التَّعْزِيَةِ الْمَأْلُوفِ، عَلَى الْقَلِيلِ الْمَحْذُوفِ؛ إِلَّا لَعَلَّمَنِي أَنَّ الْمَعْزَى لَا يُورَدُ عَلَيْكَ غَرِيبًا، وَلَا يُسْمَعُكَ مِنْ مَوَاعِظِهِ عَجِيبًا؛ فَبِكَ يَقْتَدِي الْآدِيبُ، وَعَلَى مِثَالِكَ يَحْتَذِي الْأَدِيبُ، وَإِلَى غَرَضِكَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ يُوفِي الْمُصِيبُ^(١)؛ وَفِي تَجَافِي الْأَقْدَارِ عَنْ حَوْبَائِكَ،

(١) كذا بالأصول : ولعله محذوف عن « يرمي » .

وسقوطها دون فئاتك ، ما يدعو إلى حسن التعزية ؛ لا صدع الله جمعك ، ولا قرع
بثأته المكروه سمعك .

(٧٩)

ومن إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني : ورد الخبر بمصرع فلان الذي
عزّ على المعالي ، وعزّيت به الليالي ؛ وسقط به نجم الشرف وهوى ، وجفّ به روض
الكرم ودوى ؛ ونقصت الأرض من أطرافها ، ورجفت الجبال من أعرافها ؛ وبكت
عليه السماء فإن يده كانت من شحها ، وتناثرت له النجوم فإن عزمه كان من شهبها ؛
وأظلمت في عيني الدنيا الظالمة ، وتجرعت منها كأساً لا تُسيفها النفس كاظمة ،
وتقسّمت الأيام فريقين في مودتي وعداوتي ، فأها على السالفة ولا مرحباً بالقادمة ؛
وأصبحت أخوض الماء وأحشائي لتقطع غليلاً ، وأرى الناس كثيراً بعيني وبقلبي
قليلاً

وما الناس في عينيّ إلا حجارة * لبيّنك والأعراسُ إلا مآثمُ

فلقد استوحشت الدنيا لفقدته ، وآرتابت بنفسها من بعده ، وعلمت حلاوة قربه
بمرارة بعده ؛ وأنصرف ذوو الأبواب عن بابه ، واجتنبت الآمال مغنى جنبابه ،
وبكت الرياض على آثار سحابه

فإن يُمسّ وحشاً بأبه فلربما * تناطح أفواجا عليه المواكبُ

ومن إنشائه أيضاً رحمه الله تعالى : ما شككتُ — أطل الله بقاءك — حين
ورد النعي بالمصائب التي قصمت الظهور بمكروهما ، وحسرت فيها الحسرات عن
وجوهها ؛ أن السماء على الأرض قد أنطبقت ، وأن الأيام ما أبقت والسعادة قد
أبقت ؛ والحياة لم يبق في طولها طائل ، والصبر بهجير اللوعة ظلّ منسوخ زائل ؛
وشمس الفضائل قد غربت وكيف بطولوعها ، ونفس المكارم قد نزعّت من بين

ضلوعها؛ وغاب الإسلام قد غاب منه أى لَيْثٌ ، ورياض الآمال قد أُلْقِىَ عن سُفْيَاهَا
 أى - غِيثٌ ؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون رَضًا بحكمه ، وتجلدًا على مارمى به الحادث من
 سهمه ، وطبًا للقلوب على مَضَضِ البلاء وكَلَمِهِ ، وفِرَارًا من الجمع بين مصيبة الفاقِدِ
 وإيمه ؛ وسقى الله ذلك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحاب كصوب يديه ، ورحمه
 ٥ رَحْمَةً تُخَفِّ بِجَانِبِهِ ، وَأَهَّا لِلْأَلَمِ الْعَذْبِ كَيْفَ آرْتَشَفْتَهُ النَّوَازِلُ وَأَبْقَتِ الْمِلْحُ ، ثُمَّ أَهَّا
 لِلصَّبَاحِ الطَّلَقِ كَيْفَ آغْنَانْتَهُ الْأَصْوَاطِلُ وَأَطْلَقْتَ الْحُنُجَّ ، وَوَا أَسْفَا لَتِلْكَ الذَّخِيرَةِ الَّتِي
 فَذَلَكْتَ بِهَا الْأَيَّامَ ذَخَائِرِي ، وَالسَّرِيرَةَ الَّتِي طَالَمَا صُنْتُهَا أَنْ تَمْرَبَسْرَائِرِي ؛ شَفَقًا عَلَيْهَا
 مِنْ سَهَامِ دَهْرِ الذَّخَائِرِ مُوَلَّعَةً ، وَسَتَرًا لَهَا مِنْ عَيْنِ زَمَانٍ عَلَى السَّرَائِرِ مُوَقَّعَةً ؛ وَلِئِنْ صَحِبَ
 قَلْبِي بَعْدَهُ أَضْلَعِي ، وَتَحَلَّيْتُ بَعْدَ فَقْدِهِ عَلَى طَلَعِي فَإِنَّا غَدًا عَلَى أَثَرِهِ ، وَإِنْ كُنَّا الْيَوْمَ عَلَى
 ١٠ خَبَرِهِ . وَقَصَّرَ الْحَيَاةَ إِلَى قُصُورٍ ، كَمَا أَنَّ مُحْصُولَ غُرُورِهَا غُرُورٌ . وَالتَّادِبُ بِأَدَبِ اللَّهِ
 أَوْلَى مَا خَفَّفَ بِهِ الْمَسْلُوبُ عَنْ مَنَكِبِهِ . وَطَرِيقُ السَّلَاطِينِ لَا يَبْدُو أَنْ يُرَاجِعَهُ عَزَمٌ مُنَكَّبُهُ .
 فَأَنْشُدْهَا اللَّهُ أَمَّا جَعَلْتُ مُصِيبَتَهَا مُصِيبَةً عَلَى الشَّامِتِ بِمَا تَلَبَّسَ مِنْ صَبَرٍ يَلِيسُ عَلَيْهِ
 الْمَصِيبَةُ فَيُسَبِّحُهَا نِعْمَةً ، وَبِمَا تَسْتَشْعِرُهُ ^(١) مِنْ تَجَلُّدٍ فِي النَّازِلَةِ تُنْزِلُ عَلَيْهَا صَلَوَاتٌ مِنْ
 رَبِّهَا وَرَحْمَةً ؛ وَلَنْ تَرَى أَعْجَبَ مِنْ مُصَابٍ لَا تَرَى بِهِ إِلَّا مُصَابًا ، وَسَاكِنٍ تُرِبَ لَمْ
 ١٥ يَبْقَ بَعْدَهُ إِلَّا مِنْ سَقَى بِدَمْعِهِ تُرَابًا ؛ اشْتَرَكَ فِيهِ الْأَقْتَانِ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ ، وَعُزِّيَ بِهِ
 الْعَزِيزَانِ الْمَجْدُ وَالْكَرَمُ ، وَاسْتَبَاحَ الدَّهْرُ بِهِ الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ

وَتَمَّابَهُ الْبَاكُونَ فِيهِ فَلَمْ يَبْنَ * دَمْعُ الْحَقِّ لَنَا مِنَ الْمُتَعَمِّلِ

وكتب أيضا في مثل ذلك : أُنْخَرْتُ مَكَاتِبَةُ الْحَضْرَةِ — مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِهَا
 وَفِي صَبْرِهَا وَفِي أَجْرِهَا ، وَأَلْهَمَهَا التَّسْلِيمَ لِحُكْمِ مَنْ هُوَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهَا — إِلَى أَنْ



تتقضى نبوة الخطب، وتضع الأنفاس أوزارها للحرب، ويخرج ماء الجفن نار القلب،
وترجع الخواطر إلى عاداتها، وتنظر في الدنيا التي ما أصبحت إلا على عاداتها ومعاداتها،
فتكون الحضرة عرفت من غير تعريف، ووقفت على الحزم من غير توقيف، وتوفر
عليها الثواب بغير مُشارك، ورجعت إلى فهم مُدرك وصواب مُدرك. وتأخير التعزية
عن البادرة خلاف ما شرع فيها، ولكن إنما يحتاج أن يُثبت من صبره هاف، ويرم
من تجلده عاف، وقد علم الله أهتامي واغتمامي بفقد شيخها رحمه الله وعدمها منه من
لا عوض عنه إلا ثواب الله الذي يهون الوقائع، ويوطن على الروائع. وأسباب
التعزية غير واحد، منها أنه إنما درج في السن التي هي مُعترك المنايا، ومنها أنه ما خرج
عن الدنيا إلى أن رأى منها خَلْقاً يهون الرزايا، ومنها أنه لقي الله بعملٍ صالح هو بمشيئة
الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها، وكيفها مرضاته، وعلى الدعاء المقبول لها
ونعمت الجَنِّ دعواته. ولكن للألأف لا بد حسرة إذا جعلت أقرانها تنقطع، ومنها
أن الحزن لو أطيع والحزم لو أُضيع لما أفضى إلى مراد، ولا أعاد ميتاً قبل المعاد؛
وأحق متروك ما يَأْتُم طالبه، ويؤجر مُجانبه.

عن الدهر فاصفح إنه غير مُعتب وفي غير من قد وارت التُّرب فاطمع

- ١٥ والحضرة تُعلمني من لا حقة رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع، ومن تسليم خاطر
الحزن إلى حكم الله ما يسر خاطر الاستطلاع، وحسبه أبقاه الله تعالى من كل هالك،
ولا يجزع المحاسب من فدا لك. ومثله من أخذ بعزائم الله فيما هو آخذ وتارك. جبر
الله مُصابه، وعظم ثوابه، وسقى الماضي وروى توابه، ولا تذهب النفس حسرة
لما شهدت العين دَهابه

- ٢٠ وتخطفته يد الردى في غيبي * هبني حضرتُ فكنتُ ماذا أصنع؟

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القُرطبي ما كتب به إلى الصاحب
شرف الدين الفائزى يعزّيه في مملوك تُوفّي له وكان الصاحب قد جَرَعَ لفقده . ابتدأ
كتابه بأن قال

فِدَى لَكَ مَنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ * فلا أحدٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَ

إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةً ، وَنُتِنَ
في الأُسَى مُسْتَحْسَنَةً ؛ وإِنَّمَا الْإِنْفُسُ وَدَائِعُ مُسْتَوْدَعَةٌ ، وَعَوَارِ مُسْتَرْجَعَةٌ ، ومَوَاهِبُ
بِيدِ الْفَنَاءِ مُسْتَرْعَةٌ

فالعمرُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْطَعُ * والمرءُ بينهما خَيْالٌ سَارِي

وما يَرِحُ ذَوُو الْعَزَمَاتِ يَتَلَقَّوْنَ وَارِدَاتِ الْمَصَائِبِ بِصَبْرِهِمْ ، وما كان لِمُؤْمِنٍ وَلَا
مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ؛ وَإِن يَدِ اللَّهُ
الْمَلِيَّةَ بِفَيْضِ الْمَوَاهِبِ ، وَفِي اللَّهِ عَوْضٌ مِنْ كُلِّ بَاطِلٍ وَخَلْفٌ مِنْ كُلِّ ذَاهِبٍ ؛ وَإِذَا
سَلِمَ مَوْلَانَا فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ، فَلَا بَأْسَ إِذَا تَطَرَّقَتْ يَدُ الرَّدَى إِلَى مِلْكٍ يَدِهِ
فَأَنْتَ جَوْهَرَةُ الْأَعْنَاقِ ، مَا مَلَكَتْ * كَفَّكَ مِنْ طَارِفٍ أَوْ تَالِدٍ عَرَضُ

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندك لا بك ، والرزيةَ لك لا فيك .

* إِذَا سَلِمْتَ فَكُلَّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا *

وَإِذَا تَخَطَّكَ الْمَنِيَّةُ فَلَهَا فِي سِوَاكِ الْخِيَارِ ، وَلَنَا الْقِدْحُ الْمُعَلَّى إِذَا أَوْرَى زَنْدُ هَذَا
الْأَخْتِيَارِ . وَلَا بَدَّ فِي مَشْرِعِ الْمَنِيَّةِ مِنْ مَفْقُودٍ وَفَاقِدٍ

كُنْ الْمُعْزَى لَا الْمُعْزَى بِهِ * إِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنَ الْوَاحِدِ

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيث إنه أخذه منه ، وأبقاه له من حيث رآه ذاهباً
عنه ، فهو بِالْأَمْسِ غَارِيَةٌ مُرْدُودَةٌ ، وَالْيَوْمُ ذَخِيرَةٌ مُوجُودَةٌ ، وَكَانَ عَطِيَّةً مُسَلُوبَةً ،

وهو الآن نعمةً موهوبةً ، كُنتَ له وهو الآن لك ، وفُزْتَ به والسعيدُ من فاز
بِمَا ملك . وهذه دَارُ دَوَائِهَا دَوَائِهَا ، وَبَقَاؤُهَا فَنَائِهَا ، طالها مطلوب ، وسالها
مسلوب ، وإن لنا فيمن سَلَفَ لعزاء ، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم آقْدَاءُ ،
ولا بد من ورود هذا المشرع ، ومُلاقاة هذا المصراع .



- ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض التواب إلى
الأمير عز الدين الحموي النائب كان يدمشق تعزيةً بولده :

- أعز الله أنصار المقر الكريم العالی ، ولا هَدَمْتَ له الخطوب ركنًا ، ولا بَخَات له
الحوادث حِجْمِي ولا طَلَبْتَ عليه إَذَا ، ولا هَصَرْتُ أَيْدِي الْأَقْدَارِ من عروشه الناضرة
غُصْنًا ، ولا أذَاقَتْهُ الْأَيَّامُ بعد ما مرَّ أَسْفًا على من يَحِبُّ ولا حُزْنَا ، ولا سَلَبَهُ الْجَزَعُ
رداء الضبر الذي يَخْصَمُه بِجَزِيلِ الْأَجْرِ وإن شِرَكَه في الْأَسْفِ كُلُّ مَنْ . المملوك ١٠
يَقْبَلُ الْيَدَ الْكَرِيمَةَ ، وَنُهِىَ أَنَّهُ آتَصَلَ بِهِ النَّبَأُ الَّذِي صَدَعَ قَلْبَهُ ، وَشَغَلَ بِالْبُكَاءِ طَرْفَهُ
وبالْأَسْفِ لِسَانَهُ وبالْحُزْنِ لُبَّهُ ، وهو ما قَدَرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وفاء المولى الأمير ركن الدين
عمر — تَعَمَّدَهُ اللهُ بِرِضْوَانِهِ — الَّذِي أَخْبَارَ اللهُ لَهُ مَا لَدَيْهِ ، وَآرَتَصَى لَهُ الْبِفَاءَ الدَّائِمَ عَلَى
الْفَائِي فَتَقَلَّهَ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّ الدِّينَ قَدَدَ مِنْهُ رُكْنًا شَدِيدًا ، وَرَأْيًا سَدِيدًا ، وَعِزًّا وَحِزْمًا
مُعِينًا مُفِيدًا ، وَأَمِيرًا أَرْدَنًا أَنْ يَعِيشَ سَعِيدًا ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ شَهِيدًا ، فَبَايَ اللهُ ١٥
وإنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . لقد كَانَ لِلرَّجَاءِ فِي آعْتِضَادِ الدَّوْلَةِ الْفَاهِرَةِ بِهِ أَىُّ مَجَالٍ ، وَلِلْأَمَالِ
فِي الْإِنتِظَارِ بِبَاسِهِ ظُنُونٌ تُحَقِّقُ أَنَّ الْغَلْبَةَ لِلدِّينِ دَائِمًا مَعَ أَنَّ الْحُرُوبَ سِجَالٌ ، وَلِلْوَاكِبِ
بَطْلُوعٌ طَلَعَتْهُ أَىُّ إِشْرَاقٍ ، وَلِلْعَيُونِ عَنْ مَشَاهِدَةِ كَمَالِهِ وَأُتْبَهَةِ جَلَالِهِ أَىُّ إِغْضَاءٍ وَأَىُّ

إطراق ؛ ولله أى بدر هوى من أفق بوجه عن فلك ، وأى شمس ما رآته الجوارى
 الكُنس إلا قلن : حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك ؛ وأى حصن كانت منه
 ثمار الشجاعة تُجتنى ، وأى أسد برائته الصوارم وأجماته القنا ؛ لقد فتّ في عضد
 الدين مُصابه ، وأذهب صحّة الأنس به وحلاوة وجوده أو صابُ فقيده وصابه ؛ وكادت
 الصوارم أن تُشقّ عليه عُمودها ، والرايات أن تُقطّع عليه ذوائبها وتُغيّر بنودها ، والرماح
 أن تعرّض على النار لتُقصِف لا لتُتَقَفّ قُدودها ، والحياد أن تُتعرّض للحزن بذُيولها ،
 وتعتاض بالنوح عن صهيلها ؛ ولو أنصف لأنكته القلوب في ضماؤها ، ولو قُبِلَ الفداء
 لسمحت فيه النفوس بالنفائس ولو كانت الحياة من ذخائرها ، أولو كان الحتف مما
 يذافع بالجنود تحطمت دونه القنا في دروع عساكرها ؛ ولكنه السبيل الذى لا مَحِيدَ
 عن طريقه ، والمعرّس الذى لا بد لكل حى من النزول على فريقه ؛ وهو الغاية التى
 تستنّ إليها النفوس آستان الحيايد ، والحلبة التى تكا نحن وهذا الدارج نركض إليها
 ولكن السابق كان الجواد ، على أن المتأخر لا بدّ له من الحّاق ، وماذا عسى يُسرّ
 البدر بكاله وهو يعلم أن وراءه المحاق ! وفى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن
 كل رُزءٍ بعده جَلَلٌ ، وإذا أنتقل العبد إلى الله تعالى غير مفتون في دينه ولا مُثقل
 الظهير من الأوزار حمد في غدٍ مافعل ؛ وغُبط بقدمه على أكرم الأكرمين مسرورا ،
 ولقى الله وقد جعل في قلبه نورا وفى سمعه نورا وفى بصره نورا . والمولى أعزّه الله
 تعالى أولى من تلقى أمر الله بالتسليم والرضا ، وقابل أقداره بأن الحِيرةَ فيها قدر
 وقضى ، وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خلف ، وأجلُّ
 عوض يقال به للدهر الذى اعتذر بدوام المسرة فيهم : عفا اللهُ عمّا سلف ؛ وعلم أن

الخطب الذى هدّ رُكن الدين باحترابه وأجترابه ، قد صرفه إلى الأمد عن الإلزام
بساحة شهابه والتعرّض إلى جُمى نخره والنظر إلى حى صلاحه ، ففى بقائهم ما يُرغم
العبدى ، ويُعزّز حزب الهدى ، ويُقيم كلاً منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى
المولى مقام الشّبل المتّمسّى للأسد ، ويُنهضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم
من حسن الثّبات من الوالد وسُرعة الوَثبات من الولد ، والله تعالى يُجزل له من الأجر
أوفاه ، ويحفظ عليه — وقد فعل — أنراة ، ويجعله للإسلام ذُخراً ، ولا يُسمعه
مع طول البقاء بعدها نغزيرة أخرى .

(٨٦)

ومن أحسن الرّاء وأشجاء ما نطقت به الخنساء فى رثائها لأخيها صخر ، فمن ذلك قولها

أَلَا يَا صَخْرُ إِن أَبَكَيْتَ عَيْنِي * لَقَدْ أَصْحَكْنِي دَهْرًا طَوِيلًا

دَفَعْتُ بِكَ الْجَلِيلَ وَأَنْتَ حَتَّى * فَمِنْ دَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا

إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَبِيلٍ * رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَا

وقالت أيضا فيه

أَلَا هَيْلَتِ أُمُّ الدِّينِ غَدَاً بِهِ * إِلَى الْقَبْرِ ، مَاذَا يَجْعَلُونَ إِلَى الْقَبْرِ !

وَمَاذَا يُوَارِي الْقَبْرُ تَحْتَ ثَرَاهِ * مِنَ الْجُودِ ! يَا بؤْسَ الْحَوَادِثِ وَالْدَهْرِ !

فَشَارَ الْمَنَايَا إِذَا صَابَكَ رَبِّهَا * لِنَعْدُ عَلَى الْفَتَيَانِ بَعْدَكَ أَوْ تَسْرِى

وقالت

يَذْكُرْنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا * وَأَيُّكِهِ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ

وَأَوَّلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي * عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَتَكُونُ مِثْلُ أُنَى وَلَكِنْ * أَسَلَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّم بن نُؤَيْرَة في أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد في الرِّدَّة ، وكان متم قديم العراق فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ، فقيل له : يموت أخوك بالملأ وتبكي على قبرٍ بالعراق ! فقال

لقد لآمتنى عند الفبورِ على البُكا * رفيقٍ لتُدرِفِ الدموع السَّوافِكِ

أمرتُ أجلَ قبرٍ بالملأ أنت نائح * على كلِّ قبرٍ أو على كلِّ هالك

وقال : أتبكي كلَّ قبرٍ رأيته * لفبرٍ نوى بين اللوى فالدَّ كادِكِ

فقلت له : إن الشجاء يبعثُ الشجاء * فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأض مُصَابُهُ عِظاً فكأنه مدفونٌ بكلِّ مكان ، وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميِّت . وقيل أرثى بيت قالته العرب قول المُحدِّث

على قبره بين القبور مهابة * كما قبلها كانت على صاحب الفبرِ

وقيل : بل قول الآخر

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه * فطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره

فما كان قيسُ هلكه هلك واحد * ولكنَّه بُذِرتُ قومَ تهَدَّمَا

وقال الأصمعي : أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر

ومن عجب أن بتَّ مُستشعرُ الثرى * وبثَّ بما زودتني مُمتعاً

ولو أني أنصفتك الودَّ لم أثبت * خلافاً حتى ننطوي في الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطير الأسدي

الميا بمعبرٍ ثم قُولا لقبره : * ستفتك الغواذي مرَبَعاً ثم مرَبَعاً

فقي عيشٍ في معروفه بعد موته * كما كان بعد السَّيلِ تجراه مرَبَعاً



أَيَا قَبْرٍ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ * مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَضْجَعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ * وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبُرُّ وَالْبَحْرُ مُتَرَعًا!
بَلَى قَدْ وَسَّعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتٌ * وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضَيِّقَتْ حَتَّى تَصَدَّعَا
وَلَمَّا مَضَى مَعْنٍ مَضَى الْجُودُ وَالنَّدَى * وَأَصْبَحَ عَرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا
قال أبو هلال العسكري : هذه الأبيات أرى ما قيل في الجاهلية والإسلام .

وقال بكر بن الطحاح يرثي معقل بن عيسى

وحدثنى عن بعض ما قال أنه : رَأَتْ عَيْنُهُ فِيمَا تَرَى عَيْنُ نَائِمٍ
كَأَنَّ النَّدَى يَبْكِي عَلَى قَبْرِ مَعْقِلٍ * وَلَمْ تَرَهُ يَبْكِي عَلَى قَبْرِ حَاتِمٍ
وَلَا قَبْرِ كَعْبٍ إِذْ يَحُودُ بِنَفْسِهِ . وَلَا قَبْرِ حَلْفِ الْجُودِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ
فَأَيُّفْتُ أَنْ اللَّهَ فَضَّلَ مَعْقِلًا * عَلَى كُلِّ مَذْكُورٍ بِفَضْلِ الْمَكَارِمِ

وقال آخر

لَعَمْرُكَ مَا وَارَى النَّزَابُ فَعَالَهُ . وَلَكِنَّا وَارَى شَيْبًا وَأَعْظَا

ومثله لمنصور النخعي

فَإِنْ تَكَ أَفْنَتُهُ الْيَالَى وَأَوْشَكَتْ * فَإِنَّ لَهُ دِكْرًا سَبَقَ الْيَالِيَا

وقال التميمي في منصور بن زياد

أَمَّا الْقُبُورُ فَإِنَّهُنَّ أَوَانُسُ * بِفَنَاءِ قَبْرِكَ وَالدِّيَارُ قُبُورُ
عَمَّتْ صَنَائِعُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ * فَالْنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَاجُورُ
يُنْتَبِئُ عَلَيْهِ نَاسٌ مَنْ لَمْ تَوَلِّهِ * خَيْرًا لِأَنَّكَ بِالنَّاءِ جَدِيرُ
رَدَّتْ صَنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ . فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَشْهُورُ
فَالنَّاسُ مَا أَتَمَّهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ * فِي كُلِّ دَارَةٍ وَزَفِيرُ

وقال ابن القزّاز المغربي

سأبيك لا أن البكا عدل لوعتي * ولا أن وجدى فيك كفاء تتدنى
وقل لعيني أن تفيض دموعها * عليك ولو أن الذى فاض من دمي
وقال الحرّيمى

وأعدده ذخرًا لكلّ ملّة * وسهم الرزايا بالذخائر مولع
وإني وإن أظهرت منى جلادة * وصانعت أعدائى عليه لموجع
ولو شئت أن أبكى دما لبكيتّه * عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وقال أبو هلال العسكري

على الرغم من أنف المكارم والعلا * غدت داره قفرا ومغناه بلقعا
ألم تر أن البأس أصبح بعده * أشل وأن الجود أصبح أجدها
مرا على قبر المسود وأنظرا * إلى المجيد والعليا كيف تحشعا
فإن يك واره التراب فكبرا * على الجود والمعروف والفضل أربعا
ولا تساءل نوحا عليه مكررا * ونوحا انفقد العارفات مرجعا
ما كان قيس هلكت هلك واحد * ولكنه بذات قوم تضعضعا
ولا تحسبا أنى أواريه وحده * ولكتنى واريته والتدى معا

وقال أيضا

ألست ترى موت العلا والفضائل * وكيف غروب النجم بين الجنادل !
فما لنا يا أغفلت كلّ ناقص * ونقن فى الآفاق عن كلّ فاضل ؟
على الرغم من أنف العلا سيق للردى * بكلّ كريم الفعل حرّ الشمال
على أن من أبقتة ليس بخالد * وليس أمرؤ يرجو الخلود بعادل

رأيت المنايا بين غادٍ ورائح * فما للبرايا بين ساءٍ وغافل!
ولم أر كالدنيا حبيباً مُضِرَّةً * ولم أر مثل الموت حقاً بجاطل

وقال الرقاشي في البرامكة

أَلَا نَ اسْتَرْحَمَا وَاسْتَرَحْتُ رِكَابُنَا . وَقَلَّ الذِي يُجَدِّي وَمَنْ كَلَنَ يَجْتَدِي
فَقُلْ لِمَ طَايَا : قَدْ أُمِنْتُ مِنَ الشَّرَى * وَطَى الْفِيَا فِي فَدَفَدَا بَعْدَ فِدْفِدِ
وَقُلْ لِمَ نَايَا : قَدْ ظَفِرْتُ بِجَعْنِي * وَلَنْ تَظْفِرِي مِنْ بَعْدِهِ بِمُسُودِ
وَقُلْ لِلْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلِ : تَعْطَى * وَقُلْ لِلرَّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ : تَجْتَدِي
وَدُونَكَ سَيْقًا بِرَمِكًا مُهَيَّأً . أُصِيبُ بِسَيْفٍ هَاشِمٍ مُهَيَّأِ

وقال آخر

سَابِكُكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ . إِنِّي . رَأَيْتُ يَدَ الْمَعْرُوفِ بَعْدَكَ سَلَّتْ
رَبِيعٌ إِذَا ضَنَّ الْغَنَامُ بِمَائِهِ . وَلَيْتَ إِذَا مَا الْمَشْرِفَةُ سُلَّتْ

وقال عبد الله بن المعتز

أَلَسْتَ تَرَى مَوْتَ الْعُلَا وَالْمَحَامِدِ * وَكَيْفَ دَفَنَّا الْخَلْقَ فِي قَبْرِ وَاحِدِ
وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ يُسَيِّرُنْ عَوَامِدًا . وَيُحَسِّنُ إِنْ أَحْسَنَ غَيْرَ عَوَامِدِ

وقال أبو الطيب المتنبي

إِنِّي لِأَعْلَمُ — وَاللَّيْبُ خَيْرٌ — * أَنْ الْحَيَاةَ وَإِنْ حَرَصْتَ غُرُورُ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثَّرَى * أَنْ الْكَوَاكِبُ فِي الثَّرَابِ نَعُورُ
خَرَجُوا بِهِ وَلِكُلِّ بَالٍ حَوْلُهُ * صَعَقَاتُ مُوسَى يَوْمَ ذَلِكَ الطُّورُ

(١) كذا في ديوان المتنبي مطبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ وفي الأصل « قبل بل في الثرى » على

حذف أن المصدرية .

حتى أتوا جدًّا كأن ضريحه * في قلب كلِّ موحدٍ محفور
نبكى عليه وما استقرَّ قراره * في اللحدِ حتى صاغتَه الحور

ومنها

صبرًا على المَكْرُوه فيه تَكْرُمًا ^(١) * إنَّ العَظِيمَ على العَظِيمِ صَبُورُ
ولكلِّ مَفْجُوعٍ سِوَاكُمْ مُشَبِّهٌ * وليكُلِّ مَفْقُودٍ سِوَاكَ نَظِيرُ

وقال آخر

كُنْ فَرَّانًا أَنِّي تَخَلَّفْتُ بَعْدَهُ * أَدُورُ مَعَ الْبَاكِينَ فِي عَرَصَاتِهِ
وَصَارَتْ يَمِينِي مَا حَلَفْتُ بِقَبْرِهِ * وَكَانَتْ يَمِينِي قَبْلَهَا بِحَيَاتِهِ

وقال آخر

وَكُنْتُ أَخَافُ الدَّهْرَ مَا كَانَ بَاقِيًا * فَلَمَّا تَوَلَّى مَاتَ خَوْفِي عَلَى الدَّهْرِ

وقال آخر

وَلَمَّا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالْبَكَاءَ * أَجَابَ الْبَكَاءُ طَوْعًا وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ
وَإِنِّي يَتَقَطَّعُ مِنْكَ الرَّجَاءُ فَإِنَّهُ * سَيَبْقَى عَلَيْكَ الْحُزْنُ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

وقال آخر

فَوَاللَّهِ لَوْ أَسْطِيعُ قَاسِمَتُهُ الرَّدَى * فَمُتْنَا جَمِيعًا أَوْ يُقَاسِمُنِي عُمْرِي
وَلَكِنَّمَا أَرَوَّاحُنَا مَلَكٌ غَيْرُنَا * فَمَالِي فِي نَفْسِي وَلَا فِيهِ مِنْ أَمْرِي
أَحْمَلُهُ ثِقَلُ الزَّوَابِ وَإِنِّي * لِأَخْشَى عَلَيْهِ الثَّقَلَ مِنْ مَوْطِئِ الدَّرِّ
وَمَا أَنَا بِالْوَافِي وَقَدْ عَشْتُ بَعْدَهُ * وَرَبِّ اعْتَرَفَ كَانَ أُلْبَغَ مِنْ عُذْرِي

وقال آخر

يَا رَاحِلًا لَمْ يُبْقِ لِي * مِنْ بَعْدِهِ فِي الْعَيْشِ نَفْعًا

(١) في الديوان : « صبرًا بنى إسحاق فيه تكرمًا » .

ضاقَتْ عَلَى الْأَرْضِ فِيمَنَّاكَ وَضُقْتُ بِالْإِخْوَانِ ذُرْعًا
وَرَعَيْتُ فِيكَ النِّجَمَ يَا * مَنْ كَانَ يَحْفَظُنِي وَيَرْتَعِي
أَبْيَكُ بِالشُّعْرِ الَّذِي * قَدَرَقَ حَتَّى صَارَ دَمْعًا

وقال تاج الملوك بن أيوب يري أخاه

لو كَانَ يَسْفِي الدَّمْعَ غُلَّةً وَاجِدًا
لَشَفَى غَلِيلَ فَيْضِ دَمْعِي الْهَامِسِ
هِيَا لَا بَرْدَ الْغَلِيلِ وَقَدْ نَوَى * مِنْ كَانَ مِنْ عُدْدَى وَخَيْرِ ذَخَائِرِي
يَا لِلرَّجَالِ لِمَكْبَةٍ قَدْ أَذْهَبَتْ * جَلَدَ الْجَلِيدِ وَحُسْنَ صَبْرِ الصَّابِرِ
طَرَقَتْ فِي الْمَلِكِ الْمَعْظَمِ فَاثْنَى * مِنْ بَعْدَ بَهْجَتِهِ كَرْبَعِ دَائِرِ

ومنها

جَبَلٌ هُوَ فَارْتَحَتِ الدُّنْيَا لَهُ * فَكَأَمَّا رَكِبْتَ جَنَاحِي طَائِرِ

ومنها

مَنْ لِلنُّوَابِ يَوْمَ تَعْتَرِسُ الْوَرَى * قَسْرًا بِأَنْيَابِ لَهَا وَأُظَافِرِ
أَصْحَى وَحِيدًا فِي التَّرَابِ كَأَنَّهُ * مَا سَارَ بَيْنَ مَوَاكِبِ وَعَسَاكِرِ
قَدْ كَانَ لَا تَعْصِي الْبَرِيَّةُ أَمْرَهُ * فَانْقَادَ مُمْتِثًا لِأَمْرِ الْأَمْرِ
مَوْلَايَ دَعْوَةً وَالهِ غَادِرَتَهُ * وَفَقًّا عَلَى نُوبِ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِلزَّبَارَةِ عِنْدَهَا * هِيَا حَالِ الْمَوْتِ دُونَ الزَّائِرِ
لَوْ كَانَ خَصَمُكَ غَيْرَ حَادِثَةِ الرَّدَى * لَرَدَدْتُهُ بِذَوَابِلِ وَبَوَاتِرِ
أَوْ كَانَ يُدْرِكُ نَارُ مَنْ أَوْدَى بِهِ * رَيْبُ الْمَتُونِ لَكُنْتُ أَوَّلَ نَائِرِ
لَكِنَّهُ الْمَوْتُ الَّذِي قَهَرَ الْوَرَى * مِنْ حَيْثُ لَا تَنْتِيهِ قُدْرَةُ قَادِرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على بن الخليفة الناصر لدين الله
 الناس للموت تكيل الطراد * فالسابق السابق منها الجواد
 والله لا يدعو إلى داره * إلا من آستصلح من ذا العباد
 والموت نقاد، على كفه * جواهر يختار منها الحياذ
 والمرء كالظل ولا بد أن * يزول ذاك الظل بعد امتداد
 لا تصلح الأرواح إلا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفساد
 أرغمت ياموت أنوف القنا * ودست أعناق السيوف الحدا
 كيف تغرمت أميراً وما * أنجده كل طويل النجاد
 مصيبة أذكت قلوب الورى * كأنما في كل قلب زناد
 نازلة عمت من أجلها * سن بنو العباس لبس السواد
 مائمة في الأرض لكن لها * عرس على السبع الطباق الشداد
 طرقت ياموت كربما فلم * يقنع بغير النفس للضيف زاد
 قصمته من سدره المنتهى * غصنا فسلت يد أهل العناد
 يا ثالث السبطين خلفتى * أهيم من همى في كل واد
 يا نائما في غمرات الردى * كملت أجفاني بميل الشهاد
 ويأخيمع التراب أسقمى * كأنما فرشى شوك القناد
 دفت في التراب ولو أنصفوا * ما كنت إلا في صميم الفؤاد
 خليفة الله أصطير وأحسب * فما وهى البيت وأنت العباد
 في العلم والحلم بكم يقتدى ^(١) * إذا دجا الخطب وضل الرشاد
 وأنت لج البحر ما ضره * أن سال من بعض نواحيه واد

(٨٦)

٥

١٠

١٥

٢٠

ولما مات الإخشيد محمد بن طُغج رثاه جماعه من الشعراء منهم محمد بن الحسن
أبن زكريّا فقال

في الرزايا روائع الأوجال * والبرايا دَرِيْسةُ الآجال
وكذا الليل والنهارُ اعتبارٌ * للورى في تفكير الأحوال
كلُّ شيء وإن تمادى مداه * فَضْرُهُ لِلْفَناءِ أو للزَّوالِ
وأرى كلَّ عيشةٍ لأناسٍ * كَوْنُهَا مُؤَدَّبَةٌ بِوَشَكِ انْتِقَالِ
كلُّ ذى جِدَّةٍ - إذا ما الجديدُ * نِ اَلْحَا عليه - مُودٍ بِالِ
ما لَخْلَقَ من المَنُونِ مَقَرٌّ * لا ولا دون بطشها من مآلِ
كلُّ غَيْثِ الأَيَّامِ إنْ أَخْلَفَ الغَيْثُ أَطْلَتْ سَحَابُهُ بِانْهَمَالِ
بَغَعْنَا بواهب لا نراه * يَخْلُقُ الوجْهَ عنده بابتدالِ
بَغَعْنَا ببهجة الأرض في الأَر * ض وشمس الضحى وبدر الليالى
بَغَعْنَا بن حَمَى حُرمة الإسلام من حادث ومن خَتَالِ
بَغَعْنَا بالباسلِ البَطَلِ السَّامِى غداة الوغى إلى الأبطالِ
بَغَعْنَا بالواهب المَجْزِلِ المر * ناح حين السؤال للسؤالِ
عَجِبْتُ إذ دَنْتُ إِلَيْهِ المنايا * وَحَمَى عِزَّهُ المَنِيعُ العَالِى
أين من يشتري المدايح والشكرَ بِأسنى وَفَرٍ وأوفى نَوَالِ
قطع الموتِ وَضَلْنَا مِنْهُ كَرْهًا * وَالرَّدَى قاطعٌ لِكُلِّ اتِّصَالِ
رحمة الله والسلام عليه * فى الضحى والعشاء والآصالِ
وسقى الله حُفْرَةَ ضُمَّتْهُ * شَكَرَ وَاهٍ مِنَ الحَيَا هَطَالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال

إِن خبا بدُّهُ فقد لاح للأُمَّة لما خبا طلوعُ الهلالِ
نُورهُ مُشرقٌ مُضئٌ مَدَى الدهرِ منيرٌ وليس ذا أَضِحلالِ

وقال أبو الطيب المتنبي يرثيه

هو الزمانُ مُشَتَّ بالذي جمعاً * في كلِّ يومٍ نرى من صَرفِهِ بدعاً
لو كان مُتَمَتِّعٌ تَغْنِيهِ مَنَعُهُ * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ما صنعا
ذاق الحِمامَ فلم تدفعْ كُتائبهُ * عنه القضاء ولا أغناه ما جمعاً
لقد نعى من نعاه كلُّ مفتخرٍ * وكلُّ جودٍ لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلَّ بالإسلام حين تَوَى ! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ القضاء ومِلءَ الأرض ما وسعا
ترى الخُتوفَ غُلُوقاً في أَسَدَّتِهِ * لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمعا
لو كان يستطيع قَبْرُ ضَمِّهِ لَسَعَى * إليه شوقاً ليلقاه وإن شَسعا
فليعجب الناسُ من لحدٍ تَضَمَّنَ مَنْ * تَضَمَّنَ الرزقَ بعد الله فاضطعاعا
لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمَّ من كرمٍ * ومن نَخَّارٍ ومن نَعَماءٍ لا تُسعَا
يا لحدَّه إن تَضُقَّ عنه فلا عَجَبٌ * فيه الحجا والنهى والبأس قد جُمعا
يا لحدُّ طُلِّ إن فيك البحرَ مُحْتَبِسا * والليثَ منهصرا والجُودَ مجتَمعا
يا يومهُ لم تَحْصُ الفجعَ أَسْرَتُهُ * كلُّ الورى يردى الإخشيد قد فُجعا
يا يومهُ لم تدع صَبْراً لمصطبرٍ * ولم تدع مَذَمَّةً إلا وقد دَمعا
أردى الرِّفاقَ ردى الإخشيد فانقرضوا * فما ترى منهم في الأرض متجععا
يا أيها الملك الخليلي مجالسه * أحميت أعياننا الإغماض فامتنعا

٥

١٠

١٥

٢٠

ومنها

لئن مضيت حميد الأمر مفتقدا * لقد تركت حميد الأمر متبعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد



ثبَّتُ الجَنَانُ فلا نِكْسٌ ولا وَرَعٌ تلقاه مسترراً بالحيزم مُدْرِعا

أعطت أبا القاسم الأملأُ بيعتها * ولو أبت أخذت أسيافه البيعا

وأنقاد أعداؤه ذلاً لهيبته * وظل متبوعهم من خوفه تبعاً

أضحت به همُّ الغلمان عاليةً كأن مولا هم الإخشيد قد رحعا

وقال مهلهل بن يموت يرثيه أيضا

أى عز مضى من الإسلام ! أى ركن أضى حديث أنهدام !

ذاق موتاً محمد بن طغج هوليئ الشرى وغيث الغمام

فقد الناس مؤلى الإنعام * فهم سائمون كالأنعام

مات ربُّ العُلا وراعى الرعايا * والسرايا وكافل الأيتام

أين ما كمت فيه من عزك البا * ذخ والمرثقى عزيز المرام !

أين ذاك الحجاب والملك والهيبة أبى الزحام وقت الزحام !

من أمير وقائد وخطير ورئيس وماجيد وهمام

كلهم مطرق لديك من الهيبة خوف الإجلال والإعظام

أين تلك الخيام حولك إن عرست والأسد حول تلك الخيام

من عديد وعدة لك ما بين قعود فيها وبين قيام

لم يطق جمعهم دفاع الردى عنك ولم يمنعوك منع اعتصام

أسلمت الخيول قسراً وقد كنت عليها سوراً على الإسلام

خانك السيف وهو يصدر عن أمرك مستعداً بغير احتجام

خذل الرُّح وهو عونك لو با * ن لقاءً ونارَ نَقْعٍ قَسَامٍ
 لم تَرُدَّ القِسْيُ عَنكَ سَهَامَ السَّحَفِ والْحَتْفُ عِنْدَهَا فِي السَّهَامِ
 ما وَقَسَكَ الحِرَابُ حَرْبَ المَنَايا * حِينَ وَاغَاكَ جَيْشُهَا مِنْ أَمَامِ
 لَمْ يُحْصِنَكَ مَا أَقْنَيْتَ مِنَ الْآ * لَاتِ مِنْ جَوْشِنٍ وَلَا مِنْ لَامِ^(١)
 حَكَمَ المَوْتُ فَيْكَ مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ تُرَى حَاكِمًا عَلَى الْبُحَاكِمِ
 فَقَدَتْكَ القُسَاطُ وَجَدَّ أَمْدَى الدَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِهَا بِلَادُ الشَّامِ
 جُمِعَتْ يَثْرِبٌ وَمَكَّةُ وَالبَيْتُ إِلَى زَمَنٍ أَجَلُ وَالْمَقَامِ
 عَمَّ فَيْكَ الْمَصَابُ فَاشْتَرَكَ الْعَا * لَمْ فِي الرُّزْءِ مِنْهُ وَالْآلَامِ
 حَسِبْنَا اللهَ عَزَّ مِنْ حَكْمٍ يَحْشُرِي عَلَى الْحَاكِمِينَ بِالْأَحْكَامِ
 كُلُّ شَيْءٍ إِلَى زَوَالٍ، وَمِنْ ذَا * نَالَ مُلْكَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ أَحْقَارِ
 أَيْنَ أَيْنَ المُلُوكِ فِي سَالَفِ الدَّهْرِ دَهْتَهُمْ حَوَادِثُ الْآيَامِ
 أَيْنَ مِنْ قَدْ كَانُوا يُخَافُونَ فِي الْبَا * سٍ وَيُرْجَوْنَ لِلْعَطَايَا الحِسَامِ
 لَيْسَ يَبْقَى إِلَّا الإِلَهِ تَعَالَى * مَنْ لَهُ المُلْكُ ثَابِتًا بِالدَّوَامِ
 أَيْهَذَا الأَمِيرُ بَلِ يَا أَبَا القَا * سَمِ يَا بَنَ السَّمِيدِ القَمَقَامِ
 إَرْضِ حَكْمَ الإِلَهِ فِي المُلْكِ الْمَا * ضَى وَسَلَّمْ لِنَافِذِ الأَحْكَامِ
 وَهَناكَ الَّذِي بَلَغَتْ مِنَ الأَمْرِ وَمَا حَزَنَتْهُ بِحَسَنِ أَنْتِظَامِ
 مَا كَمُنْتَ الَّذِي رُزِيتَ وَلَا مَثَلُ الَّذِي قَدْ مَلَكْتَ فِي ذَا العَامِ
 أَنْتَ مِثْلُ الإِخْشِيدِ فَانْهَضْ بِمَا مَلَّكَ كَتَّ بِالْحَدِّ مِنْكَ وَالْإِعْتِزَامِ

وقال بعض الشعراء يرى الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بن المعز خليفة مصر

إن التصبر في الأمور جميل * إلا عليك فما إليه سبيل

(١) لام : مخفف "لأم" جمع "لأمة" وهي الدرع .

با حاملاً نفل العلاء وكأنه لعلو همتيه بها محمول

يا واهباً فوق المنى وكأنه * لسخانه مما يوجد بجيل

جاء منها

يا تُرْبُ لا تأكل لساناً طالما * وألى به التحميد والتهيل

يا تُرْبُ لا تعنف بكف طالما * قد كان يؤلم ظهرها القيسل

ومنها

يادهر تعلم ماجيت على الوزى * خطب لعمرك إن علمت جليل

ما كان ضرك لو مهلت بمشله * با دهر إنك بعدها لعجول

ومن المرائى المشهورة التى غنى بها واتصت أسباب الشارحين بسببها المريئة

العبدونية التى نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرى بها

بى مسامة المعروفين ببنى الأفطس، وهى من أمهات اقتصاد ووسائل العائد، فإنه

ذكر فيها عذو من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر من أبادهم الدهر بخواتمه وكنياته،

ووثب عليهم الزمن فما وجدوا حنة تقبهم من وشانه بوجدت [عليهم] الأيام بصرونها،

وسقتهم المنية بكأس خوفها . وما نحن نذكرها ونزيدها تبياناً بشرح من استهممت

أخباره . وخفيت على المطالع آثاره

وأول القصيدة

الدهر يفجع بعد العين بالأثر . فما البكاء على الأساخ والصور

أنهالك أنهالك لا أولك معدرة . عن وفعة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة * فالبيض والسمر مثل البيض والسمر

ولا هواده بين الرأس تأخذه * يد الضراب وبين الصارم الذكر

فلا تغرنك من دنياك نومتها * فما صناعة عينها سوى السهر

ما لِيَالِي — أقال الله عَثْرَتَا * من اللَّيَالِي وخانتها يَدُ الْغِيَرِ —

فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ * مَنَّا جَرَّاحٌ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصَرِ؟

تَسْرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُفَّرَ بِهِ * كَالْأَيْمِ^(١) نَارٍ إِلَى الْجَانِي مِنَ الثَّمَرِ

كَمْ دَوْلَةٍ وَلَيْتَ بِالنَّصْرِ خَدَمَتَهَا * لَمْ تُبْقِ مِنْهَا! وَسَلْ ذَكَرَكَ مِنْ خَبَرِ

هُوتَ "بَدَارًا" وَقَلَّتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ * وَكَانَ عَضْبًا عَلَى الْأُمْلَاكِ ذَا أَثَرِ

"دارا" الذي ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس، وقاتله الإسكندر؛

وسنذكر إن شاء الله أخبارهما في فن التاريخ

وَأَسْتَرْجَعْتَ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبْتَ * وَلَمْ تَدَّعِ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ



بنو ساسان هم الفرس الآخر ولهم دولة مشهورة انقرضت في الإسلام . وبنو يونا

أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر

أَبْنِ فِيلِيُوسَ . وسترد إن شاء الله أخبارهم

وَأَتَّبَعْتَ أُخْتَهَا طَسِمًا ، وَعَادَ عَلَى * عَادِ وَجُرْهُمَ مِنْهَا نَاقِضُ الْمِرَرِ

أخت طسم جدیس ، وهما أبناء عم كثير نسلهما وهم العرب العاربة ، وسنذكر

أخبارهما إن شاء الله في وقائع العرب . وعادهم قوم هود . وجرهم هو أَبْنِ عَوْفِ

أَبْنِ زُهَيْرِ بْنِ أَنَسِ بْنِ الْهَمَيْسَعِ بْنِ حُمَيْرِ بْنِ سَبَأِ الْأَكْبَرِ بْنِ يَشْجُبِ بْنِ يَعْرُبِ بْنِ

خُطَّانَ ، وقيل : إن العاقلة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلهم أبادهم الموت

وما أقال ذوى الهيئات من يمين . ولا أجارت ذوى الغايات من مضير

اليمين كلهم بآفاق العلماء بالأنساب من ولد خُطَّانَ ، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء

الله في التاريخ . ومضير بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد تقدم ذكرهم في الأنساب

ومزق سبأ في كل قاصية * مما ألقى رائح منهم بمبتكر

(١) الأيم : الأفي .

سبأ الذي أشار إليه هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وأسمه عبد شمس، وإنما قيل فيه سبأ لأنه أول من أدخل بلاد اليمن السبي. وكان له عشرة أولاد سكن الشام منهم أربعة وهم نخلم وعَسَان وجُدَام وعامله، وسكن اليمن منهم ستة: كِنْدَةَ ومَذْجَج والأزد وأنمار؛ وقد ذكر الله عز وجل تمزيقهم بقوله: (وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)؛ وسند ذكر أخبار سبل العرم وسد مأرب

وأنفذت في كليب حكما ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

كليب الذي ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذي ضرب به المثل فقيل: "أعز من كليب وائل". وأشار ابن عبدون في هذا البيت إلى ما كان من قتل جساس بن مرة كليباً وما وقع بين بكر وتغلب من الحروب التي نشرحها إن شاء الله في وقائع العرب. وقوله "ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر" كأنه أراد ما حكى أنه قتل في موضع لم يطلع عليه أحد، وهو مثل، يقال: فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خالياً

ولم ترد على الضليل صحته * ولا تلت أسداً عن ربها نجبر

الضليل الذي أشار إليه هو أمرؤ القيس بن نجبر بن الحارث بن عمرو، والحارث هو آكل المرأب، وسُمي أمرؤ القيس بالضليل لأنه ترك ملكه ونوجه إلى قيصر يطلب منه جيشاً يأخذ به ثأر أبيه من بني أسد. وإشارته إلى الصيحة لقول امرئ القيس في قصيدته السينية

(١) لم يذكر في الأصل سوى هؤلاء الأربعة وترك بياضاً بمقدار ما يسهل الاسميين الباقيين، والأصل مدول عن شرح هذه القصيدة لأن بدرين بالحرف الواحد ولم يذكرهما هو أيضاً. وفي كتاب المعارف لأن قتيبة أن أولاد سبأ بن يشجب هم حير وهلال وعمر والأسعد وأنمار وعامله ومرة. ولعل شارح هذه القصيدة أراد هؤلاء العشرة فروعه مطلقاً وهذا لا يمكننا تعيين الاثنين الباقيين بالضبط.

وَبُدِّلَتْ قُرْحًا دَامِيًا بَعْدَ صَحَّةٍ * لَعَلَّ مَنَايَانَا تَحْوِلَنَّ أَبْوَسًا

لَقَدْ طَمَحَ الطَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ * لِيُلبِسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلْبَسَا

والطَّاحُ رجل من بني أسد أرسله قيصر إلى امرئ القيس بَحْلَةً مسمومة، فلما لبسها تقطع ومات بأنقرة. وإشارته إلى أسد لأن بني أسد كانوا قتلوا حُجْرَ بن الحارث يوم ما قِطَ ٥

وَدَوَّخَتْ آلَ ذُبْيَانَ وَإِخْوَتَهُمْ * عَبَسًا، وَعَضَّتْ بَنِي بَدْرٍ عَلَى النَّهْرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء. وسيرد ذلك في وقائع العرب إن شاء الله تعالى

وَأَلْحَقَتْ بَعْدَى بِالْعِرَاقِ عَلَى * يَدِ ابْنِهِ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ وَالشَّعْرِ

أراد عدى بن زيد بن أيوب بن زيد مَنَاةَ بن تميم الشاعر. وأحمر العينين والشعر هو النعمان بن المنذر، وكان عدى هذا ترجمانا لأَبْرُويز وكاتبه بالعربية، فلما مات قابوس بن المنذر نلطف عدى وتخلل على أبرويز حتى ولي النعمان إمرة العرب وقدمه على إخوته وكان أدقهم، ثم آتهمه النعمان أنه وشى به، فأحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق؛ فنالطف ابنه زيد بن عدى ونوصل حتى خدَمَ أبرويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى ١٥
في التاريخ. والله أعلم

وَأَشْرَفَتْ بِحَبِيبٍ فَوْقَ فَارَعِيَةٍ * وَأَلْصَقَتْ طَلْحَةَ الْفَيَاضِ بِالْعَفْرِ

أشار إلى خبيب بن عدى الأنصاري وهو بَدْرِيٌّ وأُسْرِفِي السريّة التي خرج فيها مَرْنَدُ بن أبي مَرْنَدٍ وأنطلق به المشركون إلى مكة واشتره حِجْرُ بن إهاب التميمي حليف بني نُوْفَلٍ لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقته بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث ٢٠

أبا عقبة يوم بدر، فصلبه عقبة على خشبة بالتَّعْيِمِ وقتله . وطلحة الميَّاض هو طلحة
 ابن عبد الله التيمي أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قتل يوم الجمل،
 على ما سنده إن شاء الله تعالى

ومزقت جعفرًا بالبيض، وأختلست من غيلة حمزة الظلام للجزر

جعفر الذي ذكره هو جعفر بن أبي طالب أخو علي رضي الله عنهما قُتل في غزوة
 مؤتة . وحمزة هو ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أحد
 قتله وحشي غلام جبير بن مطعم، وجعله ظلامًا للجزر وصفه بالكرم

وبلغت يزدجرد الصين وأختزلت عنه سوى الفرس جمع الترك والخر
 ولم ترد مواضي رستم وقتل . ذى حاجب عنه سعدًا في آنية الغير

يزدجرد الذي ذكره هو ابن شهر يار آخر الملوك الساسانية، ورستم هو الأرمني وهو
 الذي قاتل سعد بن أبي وقاص وقُتل يوم الفادسية، على ما يأتي شرح ذلك في موضعه
 إن شاء الله تعالى

وحصبت شيب عثمان دماء، وخطت إلى الزبير، ولم تستحي من عمر

أشار في هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان والزبير بن العوام

رضي الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم

وما رعت لأبي القظان ضجبه . ولم تروده إلا الضبح في الغمر

أبو القظان هو عمار بن ياسر العنسي قُتل بصمين وكان مع علي، وعنه قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقتل عمارًا الفئة الباغية » . ولما قُتل كانت الراية
 يومئذ بيده فعطش فدعا بشربة من الماء فأثني بضجة^(١) شربها ثم قال : أخبرني

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخر شربة أشربها في الدنيا؛ فقتل يومئذ
رضي الله عنه

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن * وأمكننت من حسين راحتي شير

أشقاها هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
لقوله صلى الله عليه وسلم : ” يا علي ، أشقاها الذي يخضب هذه من هذه “ ، وأشار
إلى الحية علي ورأسه . والحسين الذي ذكره هو الحسين بن علي . وشير هو شمر
ابن ذى الجوشن وهو الذي أرسله عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرضه على
قتل الحسين ، وقيل : إن شمرا لم يباشر قتل الحسين ، والذي قتله سنان بن أبي أنس
النخعي ، وشمر فهو المُجهز والمحرض على قتله فلذلك ذكره

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة : فدت علياً بمن شئت من البشير

عمرو الذي أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم
ابن عمرو بن هصيص بن كعب ، أمير مصر لمعاوية بن أبي سفيان . وخارجة رجل من
سهم بن عمرو ، وكان من خبره أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل علي ومعاوية
وعمر ، فكان الذي اتتدب لقتل عمرو زادويه مولى بني العنبر ، ورصده إلى ليلة
الميعاد التي اتفقوا على الفتك بهم فيها ، فاشتكى عمرو تلك الليلة من بطنه ولم يخرج
للصلاة واستخلف خارجة ليصلي بالناس ، فلما قام في المحراب وثب عليه زادويه
وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله ، وأخذ زادويه وأدخل على عمرو ، فسمع الناس
يخاطبونه بالإمرة فقال : أو ما قتلت عمراً ؟ قيل له : [لا] إنما قتلت خارجة ، فقال :
” أردت عمراً وأراد الله خارجة “ ، فلذلك قال : ” وليتها إذ فدت عمراً بخارجة “

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون ، طبع ليد سنة ١٨٤٦ م .

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن * أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل : ما آغثاله أحد * وبعضنا ساكت لم يؤت من حصير

ابن هند الذي أشار إليه هو معاوية بن أبي سفيان ، أراد ما كان بينه وبين الحسن
ابن علي في أمر الخلافة . وأراد بالبيت الثاني ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن
مات مسموما وأن معاوية وعد زوجته الحسن جعدة بنت قييس الكندية بمائة
ألف درهم ويزوجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن ، ففعلت وسمته ، ولما مات الحسن
وفي لها بالمال وقال : حب حياة يزيد منعني تزويجه منك ، وقيل مات الحسن
حتف أنفه . والله أعلم

وعتمت بالردي قودي أبي أنس . ولم ترد الردي عنه فنا زفر

١٠ أبو أنس هو الضحاک بن قيس الفهري . يشير إلى ما وقع بينه وبين مروان
ابن الحكم بمرج راهط ، وكان الضحاک يدعو لابن الزبير فقتل الضحاک ، على ما ذكره
إن شاء الله في أخبار مروان ، وكان زفر بن الحارث الكلبي مع الضحاک ففر عنه
وأردت ابن زياد بالحسين فلم يئو بشيع له قد طار أو طفر

أشار إلى عبيد الله بن زياد بن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق ، وهو الذي
جهز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علي رضي الله عنهما . وقوله "يئو بشيع له"
١٥ أخذه من قول مهمل حين قتل نجير بن الحارث وقال : يؤ بشيع نعل كليب
وأزلت مضعباً من رأس شاهقه . كانت به مهجة المختار في وزر^(١)

أشار إلى مضعب بن الزبير بن العوام وقتله ، والشاهقة هي الكوفة جعلها شاهقة
لمنعها وكثرة رجالها ، وأراد ما كان بين مضعب وعبد الملك بن مروان من الحرب

التي قُتِلَ فيها مصعب . والمختار الذي ذكره هو المختار بن أبي عُيَيْد بن مسعود
أبن عمرو الثقفي ، أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقتل المختار ؛
وسنورد كل هذه الوقائع إن شاء الله في التاريخ .

ولم تُراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عيادته بالبيت والحجر

أراد عبد الله بن الزبير ، وكان يسمّى العائد لأنه كان يقول : أنا العائد بالبيت ،
وقته المجاج بن يوسف الثقفي لما وجهه عبد الملك لحربه .

ولم تدع لأبي الذبان قاضيته * ليس اللطيم لها عمرو بمبتصر

أبو الذبان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ، سُمّي بذلك لبحره . وقوله "قاضيته"
لأنه كان مظفراً على أعدائه فإنه غلب من كان يناوئه في سلطانه مثل عبد الله
ومصعب أبني الزبير ، وعمرو بن سعيد ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، ما منهم إلا من
قُتِلَ وحكم فيه قاضيته وهو سيفه ، ولم يُغن ذلك عنه لما أئته منيته . وأما اللطيم فهو
عمرو بن سعيد الأشدق ، سُمّي بذلك لميل كان في فمه فقيّل له من أجله : لطيم
الشیطان ، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظفرت بالوليد بن يزيد ولم * تبق الخلافة بين الكأس والوتر

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذي يقال له : الجبار العنيد ؛
أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله . و [قوله] (١) ولم تبق الخلافة بين
الكأس والوتر ، أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللهو واللعب
ولم يُعد قُضِبَ السفاح نايبة * عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

(١) من نادنه أن يذكر هذه الكلمة فلعلها سقطت من النسخ .

الجزء الخامس

السقّاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو أول خلفاء الدولة العباسية ، يشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وأنقراض دولة بني أمية وقتلهم على يديه

وأُسبِلَتْ عِبْرَاتٍ لِلْعُيُونِ عَلَى * دِيمِ بَفَجٍّ لَّالِ الْمَصْطَفَى هَدَرِ

أشار في هذا البيت إلى ذكر من قتل بفج وهم الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علي ، وعبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، على ما ذكره في التاريخ إن شاء الله تعالى وأشرق جعفرًا والفضل ينظره * والشيخ يحيى بريق الصارم الذكري

(٩٣)

أشار في هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ونكبة البرامكة في أيام الرشيد

١٠

وأخضرت في الأمين العهد ، وانتدبت * لجعفر بآبئه والأعبد القدر^(١)

الأمين هو محمد بن هارون الرشيد ، يشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذي كان الرشيد كتبه بينهما . وجعفر الذي أشار إليه هاهنا هو المتوكل ابن المعتصم ، أراد ما كان من قتل باغر التركي له بمواطاة من آبئه المستصر ، على ما بورده في أخباره

١٥

وَرَوَعَتْ كُلُّ أُمُومٍ وَمُؤْتَمِنٍ * وَأَسْلَمَتْ كُلُّ مَنْصُورٍ وَمُتَّصِرٍ

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أول من لقب بالمأمون ، ولقب به بعد ذلك ولد من أولاد المعتمد بن عباد ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة . والمؤمن فأول من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبني أمية ألقاب ، ثم لقب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون

٢٠

(١) كذا في شرح الفريدة العبدونية لأن بدرود . وفي الاصل : « وانتدبت » .

جعل أبنيه المؤتمن بعد المأمون ، وجعل أمر المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلعه ، فلما أفضت الخلافة إلى المأمون أزال المؤتمن فارتاع لذلك . وتلقب بالمؤتمن محمد بن ياقوت مولى المعتضد صاحب فارس ، وتلقب به سلامة الطولوني ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ثم تسمى بالمنصور . وأما المنصور فأول من لقب به هشام بن عبد الملك بن مروان ٥ على تلك الرواية ، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن عليّ العباسي ، ثم أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهديّ صاحب أفريقية ، ثم محمد بن أبي عامر بالأندلس ، وتلقب به ابن زيري الصنهاجي ، وتلقب به سابور صاحب بطليوس ، وعبد الله ابن محمد بن سلامة التيجي ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله ، وعبد العزيز ابن أبي عامر ، ثم تلقب به جماعة من الملوك بعد نظم هذه المراثية . وأما المنتصر فهو محمد بن المتوكل ، ومن تلقب بالمنتصر مزار بن اليسع صاحب سجلماسة . وكل هؤلاء أبادهم الموت

وأعثر آل عباس - لعالمهم - بذيل زباء من بيض ومن سمر ١٥ أشار في هذا البيت إلى ما كان من تغلب الأتراك والديلم على خلفاء الدولة العباسية حتى لم يبق لهم إلا اسم الخلافة ، على ما سيرد في أخبارهم . وقوله : بذيل زباء من بيض ومن سمر تنبيها على كثرة عدد المتغلبين على الأمر وقدرتهم على السلاح ولا وقت بعهود المستعين ولا * بما تأكد للعتز من ممر المستعين هو أحمد بن المعتصم العباسي ، أشار إلى ما كان من قيام المعتز على المستعين وهراب المستعين من سائرا إلى بغداد . والمعتز هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل ، وسترده أخبارهم إن شاء الله تعالى ٢٠

وأوثقت في عُراها كلُّ مُعْتَمِدٍ . وأشرقَتْ بقَدَّاهَا كلُّ مُقْتَدِرٍ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكل ، وهو أول من لُقّب بهذا اللقب ، وتلقّب به محمد
 ابن عباد بإسبيلية . والمقتدر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد ، وهو أول من لُقّب
 بالمقتدر ، ثم لُقّب به أحمد بن سليمان بن هود الجذامي بسرّ قسطة . ثم أخذ ابن عبدون
 في رثاء بني الآفطس فقال

- ٥ بني المظفر والأبام ما برحت * مراحلاً والورى منها على سَفَرِ
 مُحَقّاً ليومكم يوماً ولا حَمَلَتْ * بمنله لَيْسَةً في مُقْبِلِ العُمُرِ
 مَنْ لَلْأَسْرَةِ أَوْ مَنْ لَلْأَعْنَةِ أَوْ * مَنْ لَلْأَسِنَّةِ يُهْدِيهَا إِلَى الثَّغْرِ
 مَنْ لَلْبِرَاعَةِ أَوْ مَنْ لَلْبِرَاعَةِ أَوْ * مَنْ لَلْسِمَاحَةِ أَوْ لِلنَّعْجِ وَالضَّرَرِ
 أَوْ رَفِيعِ كَارِثَةٍ أَوْ دَفِيعِ آزِفَةٍ * أَوْ قَمِيعِ حَادِثَةٍ تَعْيَا عَلَى الْقَدَرِ
 ١٠ مِنْ لُظْيِ^(١) وَعَوَالِي الْخَطِّ قَدْ عَقِدَتْ * أَطْرَافُ أَلْسِنِهَا بِالْعِيِّ وَالْحَصْرِ
 وَطَوَّقَتْ^(٢) بِالنَّشَايَا السُّودِ بِيضَهُمْ * أَنْحَبَ بِذَلِكَ وَمِنْهَا سَوَى ذَكَرِ
 وَنَحَّ السَّجَاحِ وَوَنَحَّ الْجُودَ لَوْ سَلِمَا * وَحَسْرَةَ الدِّينِ وَالْدُنْيَا عَلَى عُمَرَا
 سَقَتْ ثَرَى الْفَضْلِ وَالْعَبَاسِ هَامِيَةً * تُعْزِي إِلَيْهِمْ سَمَاحًا لَا إِلَى الْمَطَرِ
 ثَلَاثَةٌ مَا أَرَفَى النَّسْرَانِ حَيْثُ رَقُّوا * وَكُلُّ مَا مَطَارِ رَنْتِ نَسِيرٍ وَلَمْ يَطِرِ
 ١٥ ثَلَاثَةٌ مَا رَأَى الْعَصْرَانِ مِثْلَهُمْ * فَضْلًا وَلَوْ عُزِّرَا بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ أَطْبَهُ * حَتَّى التَّمَعُّ بِالْأَضَالِ وَالْبُكْرِ
 مَنْ لِلْجَلَالِ الَّذِي عَمَّتْ مَهَابَتُهُ^(٣) * قُلُوبَنَا وَعَيُونُ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ

(١) كذا في شرح ابن بدرون ، وفي الأصل : "من للعدى ..." . (٢) كذا في شرح ابن بدرون

ضع ليد سنة ١٨٤٦ وفي الأصاين : "فطوّقت بالنشاي" . ولعل المراد بالنشاي ما يعلو السيوف من

الصدأ لإهمالها بعد موت أصحابها . وفي هامش شرح ابن بدرون إشارة إلى أنه في نسخة أخرى "وطوقت

بالنشاي السود ..." الخ . (٣) كذا في شرح ابن بدرون ، وفي الأصل : "رقا" .

(٤) في شرح ابن بدرون : "نصّت مهابته" .

أَيْنَ الْإِبَاءُ الَّذِي أَرْسَوْا قَوَاعِدَهُ * عَلَى دَعَائِمٍ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ ظَفَرٍ!
 أَيْنَ الْوَفَاءُ الَّذِي أَصَفَّوْا مَشَارِبَهُ * فَلَمْ يَرِدْ أَحَدٌ مِنْهَا عَلَى كَدَرٍ!
 كَانُوا رَوَاسِيَ أَرْضِ اللَّهِ، مَنْذَرًا * عَنْهَا أَسْتَطَارَتْ بَيْنَ فِيهَا وَلَمْ تَقِرْ
 كَانُوا مَصَابِيحَهَا فَمَذَّخَبُوا غَبَرَتْ * هَذِي الْخَلِيقَةُ يَا اللَّهَ فِي سَدَرِ
 كَانُوا نَبْجًا الدَّهْرِ فَاسْتَمَوْهُمْ خُدَعٌ * مِنْهُ بِأَحْلَامٍ عَادٍ فِي خُطَا الْخَضِرِ
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ أَطْبَقْتُ مَحَنٌ * وَلَمْ يَكُنْ وَرْدُهَا يُفْضَى إِلَى صَدْرِ
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ أَظْلَمْتُ نُوْبٌ * وَلَمْ يَكُنْ لِيْلَهَا يُفْضَى إِلَى سَحَرِ
 مَنْ لِي وَلَا مَنْ بِهِمْ إِنْ عُظِّلَتْ سُنَنٌ * وَأُخْفِيَتْ أَلْسُنُ الْأَيَّامِ وَالسَّيْرِ
 عَلَى الْفَضَائِلِ إِلَّا الصَّبْرَ بَعْدَهُمْ * سَلَامٌ مُرْتَقِبٍ^(١) لِلْأَجْرِ مُنْتَظِرِ
 يَرْجُو عَسَى، وَلَهُ فِي أُخْتِهَا طَمَعٌ * وَالدهِرُ ذُو عُقْبٍ شَتَّى وَذُو غَيْرِ
 قَرِظْتُ آذَانَ مَنْ فِيهَا بِفَاضِحَةٍ * عَلَى الْحَسَانِ حَصَى الْيَاقُوتِ وَالذَّرِيرِ^(٢)

ومن اجود الرءاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مرأى أبي تمام حبيب بن أوس الطائي
 فن ذلك ما قاله يرثى به غالب بن السعدى

هُوَ الدَّهْرُ لَا يُسَوِّى وَهَنْ الْمَصَائِبِ * وَأَكْثَرُ آمَالِ الرِّجَالِ كَوَاذِبُ
 فِيهَا غَالِبًا، لَا غَالِبَ لِرِزْيَةٍ * بَلِ الْمَوْتُ لَا شَكَّ الَّذِي هُوَ غَالِبُ
 وَقُلْتُ: أَنْحَى، قَالُوا: أَخْ مِنْ قَرَابَةٍ؟ * فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنْ الشُّكُورَ أَقَارِبُ
 نَسِيبِي فِي رَأْيِي وَعِزِّيمِ وَمَنْصِبِ^(٣) * وَإِنْ بَاعَدْتَنَا فِي الْأَصُولِ الْمُنَاسِبُ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الاصل: "مرتقب للامر..." .

(٢) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الاصل: "من الحسان..." .

(٣) فى ديوان أبي تمام: "ومذهب..." .

كأنت لم يقل يوماً: كأن، فتثنى * إلى قوله الأسماع وهي رواغب^(١)
ولم يصدع النادى بلفظة فيصل * سنانية في صفتحها التجارب^(٢)
ومنها .

مضى صاحبي وأستخلف البث والأسمى * على، فلي من ذا وهاذك صاحب
عجبت لصبري بعده وهو ميت * وكنت أمراً أبكى دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرنا كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب
وقال يرثي محمد بن الفضل الحميري

(٩٥)

رب دهر أصم دون العتاب * مُرَصَّد بالأوجال والأوصاب
جف دَر الدنيا فقد أصبحت تكتمال أرواحنا بغير حساب
لو بدت سافراً أهيت ولكن * شَغَف الخلق أنها في النقباب
إن رب الزمان يُحسن أن يُسدي الرزايا إلى ذوى الأوصاب
فلهذا يحف بعد أخضرار * قبل روض الوهاد روض الرواب

جاء منها

ذهبت ما محمد الغر من أيسامك الواضحات أي ذهاب
عبس اللحد وانثرى منك وجهها * غير ما عابس ولا قطاب
أظنا اللحد وانثرى لبك المسروج في وقت ظلمة الألباب
وتبدلت منزلاً ظاهر الحد * بيسمى مقطع الأسباب
منزلاً موحشاً وإن كان معمور * راجل الصديق والأحباب
يا شهاباً خبا لآل عبید الله أعز ز يفقد هذا الشهاب

(١) كذا في الديوان، وفي الأصل: "وهي لواع". (٢) في الديوان :

ولم يصدع النادى بلفظة فيصل : سنانية قد درتها التجارب

وقال في الأصل : ويروي، ثم وضع تحت بعض الكلمات ما هو مذكور في رواية الديوان .

ومنها

أَنْزَلَنَاهُ الْإِيَّامُ عَنْ ظَهْرهَا مِنْ * بَعْدَ إِثْبَاتِ رَجُلِهِ فِي الرِّكَابِ
 حِينَ تَمَّ الشَّبَابُ وَأَغْتَدَتِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ مَفْتُوحَةً الْأَبْوَابِ ^(١)
 وَحَكَى الصَّارِمَ الْمُحَلَّى سَوَى أَنْتَ حُلَاةَ جَوَاهِرِ الْأَدَابِ
 قَصَدَتْ نَحْوَهُ الْمَنِيَّةُ حَتَّى * وَهَبَتْ حُسْنَ وَجْهِهِ لِلتَّرَابِ

وفال يرى إسحاق بن أبي ربيع

أَيُّ نَدَى بَيْنَ الثَّرَى وَالْجُبُوبِ ^(٢) : وَسُودِدَ لَدُنِّي وَرَأَيْ صَلِيبَ
 يَا بَنَ أَبِي رِبْعِيَّ اسْتَقْبَلَتْ * مِنْ يَوْمِكَ الدُّنْيَا يَوْمَ عَصِيبِ
 شَقَّ جَبُوبًا مِنْ أَنَاسٍ لَوْ اسْتَطَاعُوا لَشَتُّوا مَا وَرَاءَ الْجُبُوبِ
 كُنْتُ عَلَى الْبَعْدِ قَرِيبًا فَقَدْ * صرَتْ عَلَى قَرْبِكَ غَيْرَ الْقَرِيبِ
 رَاحَتْ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِه * فَارْغَةَ الْأَيْدِي مِلَاءَ الْقُلُوبِ
 قَدْ عَلِمْتَ مَا رُزِيتُ، إِنَّمَا * يُعْرِفُ فَقَدْ الشَّمْسُ بَعْدَ الْمَغِيبِ
 إِذَا الْبَعِيدُ الْوَطِنِ اتَّسَبَه * حَلَّ إِلَى نَهْيِ وَادٍ خَصِيبِ
 أَدْنَتْهُ أَيْدَى الْعَيْسِ مِنْ سَاحَةِ * كَأَنَّهَا مَسَقَطُ رَأْسِ الْغَرِيبِ
 أَظْلَمْتَ الْأَمَلَ مِنْ بَعْدِهِ * وَغُرِمْتَ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبِ
 كَانَتْ خُدُودًا صَقَلَتْ بُرْهَةً ^(٣) * وَالْيَوْمَ صَارَتْ مَالِقًا لِلشُّحُوبِ
 كَمْ حَاجَةٍ صَارَتْ رَكُوبًا بِهِ * وَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ بِالرُّكُوبِ
 حَلَّ عَقَالِيهَا كَمَا أَطْلَقَتْ * مِنْ عُقْدِ الْمُزْنَةِ رِيحُ الْجُنُوبِ
 إِذَا تَيَمَّمَنَاهُ فِي مَطْلَبٍ * كَانَ قَلِيلًا وَرِشَاءَ الْقَلِيبِ

(٩٦)

(١) في الديوان : سَامَى الشَّبَابُ . (٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَفِي بَعْضِ نَسَخِ الدِّيَّانِ : "الْجُنُوبُ" .

وَفِي بَعْضِ آخَرِ : "الْجُبُوبُ" ، وَالْجُبُوبُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ (٣) كَذَا فِي الدِّيَّانِ ، وَفِي الْأَصْلِ "صَقَلَتْ مَرَّةً" .

ونعمة منه تسرّبلتها * كأنها طرّة بُردٍ قَشِيدٍ
من اللواتي إن وئى شاكراً * قامت لُسُيدِها مقامَ الحَطِيبِ
مَتى تُتَخَّجُ ترحلُ بتفضيله * أو غاب يوماً حضرت بالمغيِبِ
فما لنا اليومَ ولا للعُلا * من بعده غيرُ الأَسَى والتحيبِ
وقال يَرْنَى أحمد بن هارون القرشيّ

دأب عيني البكاء، والحزن دأبى * فاتركني - وُقِيت مابى - مِلمابى
سأجرى بقاء أيامِ عُمرى * بين بَئى وعَبْرَتى وآكثابى
فيك يا أحمد بن هارون خَصّت * ثم عمت رَزِيَّتِي ومُصَابِي
بِجَعْتِي الأَيَّامُ في الصادقِ الطَّريقِ قَتَى المَكْرُمَاتِ والآدَابِ
بِخَلِيلِ دون الأَخْلَاءِ [الأ^(١)] بل - صاحِبِ المِصْطَفَى على أَصْحَابِي
أَفْلَمَتِ تَسْرَبِلَ المَجْدِ وَاجْتَا * ب من الحمد أَيْمًا مُجْتَابِ،
وتراءته أَعْيُنُ النَّاظِرِيهِ * قَمَرًا باهراً ورِشَالِ غَابِ،
وعلا عَارِضِيهِ ماءُ النَّدَى الحَا * رى وماءُ الحِجَا وماءُ الشَّبابِ،
أرسلتُ نَحْوَهُ المِنيَّةُ عِيَا * قَطَّعَتْ مِنْهُ أَوْنَقُ الأسبابِ؟

وقال يَرْنَى أبا الصقر

لو صُحِّحَ الدَّمْعُ لى أو ناصَحَ الكَمْدُ * لَقَلِمَا صَحِيبَانِ الرُّوحُ والجَسَدُ
خاف الصَّفَاءُ أَخَ حَانَ الزَّمَانُ لَهُ * أَخَا فلم يَتَخَوْنَ جِسْمَهُ الكَمْدُ
تَسَاقُطُ الدَّمْعُ أَدْنَى مَا بَلَيْتُ بِهِ * لَوَجِدَ إِذْ لم تَسَاقُطُ مُهْجُهُ وَيَدُ
فوالذى رَنَكَتْ تَطْوِي الفِجَاجَ لَهُ * سَفَائُنُ البرِّ في خَدِ الثَّرَى تَحْدُ
لَأَنْفَدَتِ أَسَى إِن لم أُمِتْ أَسْفَا * وَيَنْفَدُ العُمُرُ بى أو يَنْفَدَ الأَمْدُ

(١) زيادة عن الديوان . (٢) ترك من باب ضرب : عدا في مقارنة خطو .

عَنِّي إِلَيْكَ فَأَتَى عَنكَ فِي سُؤْلٍ * لِي مِنْهُ يَوْمَ سُبُلِي مَهْجَتِي وَغَدُ
وَأَنْتَ بِجُرْيَةٍ نَابِتٍ جَارَتْ لَهَا * إِلَى ذُرَى جَلْدِي فَاسْتَوْهَل الْجَلْدُ
هِيَ النَّوَابِتُ فَاشْتَبَى أَوْقَعِي عَظَةً * فَإِنهَا شَجَرُ أَعْمَارِهَا رَشَدُ
هِيَ تَرَى قَلْقَلًا مِنْ تَحْتِهِ أَرْقُ * يَحْدُوهُمَا كَذُّ يَحْنُو لَهُ الْجَسَدُ
صَمَاءُ سَمِ الْعِدَا فِي جَنْبِهَا ضَرْبُ * وَشُرْبُ كَأْسِ الرَّدَى فِي ظِلِّهَا شَهْدُ
هَنَّاكَ أَمْ أَلْهَى لَمْ تُودِ مِنْ حَزْنٍ * وَلَمْ تَجْعُدْ لِنَبِيِّ الدُّنْيَا بِمَا تَجْعُدُ
لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ عِلْمِي بِالزَّمَانِ وَمَا * عَاشَتْ يَدَاهُ لِمَا رُبُّوا وَلَا وَلَدُوا
لَا يُعِيدُ اللَّهُ مَا حُدُودًا أَقَامَ بِهِ * شَخْصُ الْجَمَاعَةِ وَسَقَاهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ
يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ، دَعْوَى غَيْرِ مُنْتَبِ * إِنْ قَالَ: أَوْدَى النَّدَى وَالْبَدْرُ وَالْأَسَدُ
بَاتَ الثَّرَى بِأَنْحَى جَذَلَانٍ مُبْتَهَجًا * وَبِتَّ يَحْكُمُ فِي أَجْفَانِي السَّمَدُ
لَهْفِي عَلَيْكَ وَمَا لَهْفِي بِغَيْدِيَّةٍ * مَا لَمْ يَزُرْكَ بِنَفْسِي حَرًّا مَا أَجَدُ
أَمْسَى أَبُو الصَّقَرِ يُعْفُو التُّرْبَ أَحْسَنَهُ * دُونِي وَدَلُّو الرَّدَى فِي مَائِهِ يَرْدُ!
وَيْلَ لَأَمَكْ، أَقْصَرُ إِنَّهُ حَدَثُ * لَمْ يَعْتَقِدْ مِثْلَهُ قَلْبٌ وَلَا خَلْدُ
عَاقَ الزَّمَانُ شَقِيقَ الْجُودِ لَمْ يَقِهِ * أَهْلٌ وَلَمْ يَقْدِهِ مَالٌ وَلَا وَلَدُ
حِينَ آرَتَوَى الْمَاءَ وَأَقْتَرَتْ شَيْبَتُهُ * عَنْ مَضْجَعِكَ لِلْعَالِي نَعْرُهُ بَرْدُ
وَقِيلَ: أَحَدُهَا، بَلْ قِيلَ: أَمَجْدُهَا * بَلْ قِيلَ: أَمَجْدُهَا إِنْ فُتِرَ النَّجْدُ
رُؤْدُ الشَّبَابِ كَنَصْلِ السِّيفِ لَا جَعْدُ * فِي رَاحَتِيهِ وَلَا فِي عُودِهِ أَوْدُ
سَقَى الْحَبِيسَ وَمَحْبُوسًا بِبَرْزَخِهِ * مِنْ السَّمِيِّ كَثِيفِ الْوَدْقِ يَطْرُدُ

٥

١٠

١٥

٢٠

(١) في الديوان: "وإن بجيرية"، بالصغير، والبحرية: الداهية.

(٢) في الديوان: "إلانتها فُرض"، جمع فُرْصَة وهي موضع الاستقاء.

(٣) في الديوان: "يعنوله الجسد"، (٤) مثب: مستبح أو متخذل.

(٥) كذا في الديوان "خلد" وفي الأصل: "جلد"، (٦) في الديوان: "رضيع الجود".

بحيث حلَّ أبو صقر فودَّعه * صفو الحياة ومن لذاتها الرغد
بحيث حل فقيد المجد مغترِّباً * ومورثاً حشرات ليس تُفتَقَدُ

وقال يرئى عمير بن الوليد

أعدي النَّوحَ مُعَوَّلَةً أعدي * وزيدى فى بكائك ثم زيدى
وقومى حاسراً فى حاسرات * خوامش للنحور وللخُدود

٥

هو الخطبُ الذى ابتدع الرِّزَايا * وقال لأعين الثَّقَلَيْنِ جودى
ألا رُزئتُ خُرَّاسانُ فتاها * غداة ثوى عمير بن الوليد

ألا رُزئتُ بمسئول مُنيل * ألا رُزئتُ بمشلاف مُفيد
ألا إن الندى والجودَ حلَّاً * بحيث حَلَّتْ من حُفْرِ الصَّعيد

١٠

بنفسى أنت من ملك رمته * منيته بسهم ردى سديد
تجلَّتْ غمرة الهيجاء عنه * خَضِيبُ الوجه من دمه الحَسيد

فيا بحرَ المنون ذهبت منه * ببحر الجُود فى السنة الصَّلُود
ويا أسد المنون فرست منه * غداة فرسته أسد الأسود

أبالبطل النجيد فتكت منه ^(١) * نعم، وبقاتل البطل النجيد
ترأى للطعان وقد تراءت * وجوه الموت من حُمُرٍ وسُودِ

١٥

فيا لك وقعة جَلَّأ أعادت * أنسى وصابة جلد الجليد
ويا لك ساعة أهدت غايلاً * الى أكبادنا أبد الأبيد

ألا أبلغ مقالى الإمام الشَّخْلِينَةَ والأَمِينِ بن الرشيد
بأن أميرنا لم يألُ عدلاً * ونُصْحاً فى الرعايا والجُنود

٢٠

أفاض نوال راحته عليهم * وسامح بالطريف وبالتلبيد

(١) فى الديوان : فتكت منى .

(١)
 وأضحى دونهم الموت حتى * سقاء الموت من مقر هيد
 وما ظفروا به حتى قراهم * قشاعم أنسر وضباع يسد
 بطعن في نحورهم رشيق * وضرب في رؤوسهم عتيد
 فيايوم الثلاثة أخطبنا * غداة منك هائلة الورود
 ويايوم الثلاثة أعتمدنا * بفقد فيك للسند العميد
 وكم أختت فينا من عيون * وكم أعتت فينا من جدود
 فما زحرت طيورك عن سنج * ولا طلعت نجومك بالسعود
 ألا يا أيها الملك المردى * رداء الموت في جدث جديد
 حضرت فناء بابك وأعتراي * شجى بين الخنق والوريد
 رأيت به مطايا مهملات * وأفراسا صوافن بالوصيد
 فكنت عتاد إمامك عاب * وإنما قتل طاغية عنود
 رأيت مؤمليك عدت عليهم * عواد صعدتهم في كؤود
 وأضحت عند غيرك في هبوط * حظوظ كن عندك في صعود
 وأصبحت الوفود إليك وقفا * على أن لا مفاد لمستفيد
 فكلهم أعد الياس وقفا * عليك ونص راحلة القعود
 لقد سمحت عيون الجود لما * نويت وأقصدت غمر القصيد
 وقال يرنى محمد بن حميد الطوسي

كذا فليجل الخطب وليفدج الأمر * فليس لعين لم يقض ماؤها عذر
 توفيت الآمال بعد محمد * وأصبح في شغل عن السفر السفر
 وما كان إلا مال من قل ماله * وذخرا لمن أمسى وليس له ذخ

(١) المقر: السم أو الصبر أو شبهه، والهيدي: الحنظل.

وما كان يدرى المجتدى جودَ كَفِّهِ * إذا ما استَهَلَّتْ أنه خُـلِقَ العسرُ
 أَلَا في سبيلِ الله مَنْ عُطِّلَ له * يَخْأُجُ سبِيلِ الله وَأَنْشَغِرُ الثغرُ ^(١)
 فَنَّى كَلِمَا فَاضَتْ عِيُونُ قَبِيلَةٍ * دَمًّا ضَحِكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكُرُ
 [فَنَّى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْوِبُهُ * فَنَّى بِأَسْهٍ شَطْرُهُ فِي جُودِهِ شَطْرُ] ^(٢)
 فَنَّى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً * نَقُومُ مَقَامَ النُّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النُّصْرُ
 وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرَبُ سَيْفِهِ * مِنَ السَّلِّ ^(٣) وَأَعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمُرُ
 وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ * عَلَيْهِ الْخِفَاطُ الْمُرَّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
 وَنَفْسٌ تَعَاثُرَ الْعَارَ حَتَّى كَانَتْ * هُوَا الْكُفْرِ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونِهِ الْكُفْرُ
 فَأَثَبَتْ فِي مَسْتَقْعِ الْمَوْتِ رَجْلَهُ * وَقَالَ لَهَا : مَنْ تَحْتَ أَخْمَصِكَ الْحُشْرُ
 غَدَا غُدُوَّةً وَالْحَمْدُ تَشْجُ رَدَائِهِ * فَلَمْ يَنْصَرَفْ إِلَّا وَأَكْفَانُهُ الْأَجْرُ
 تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا مِمَّا أَتَى * لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدِسٍ خُضْرُ
 كَانَتْ بَنَى بَهَائِ يَوْمِ وَفَانِهِ * نَحْوُ سَمَاءٍ نَحَرَ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
 يُعَزَّوْنَ عَنْ ثَاوٍ تُعَزَّى بِهِ الْعُلَا * وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْجُودُ وَالْبَاسُ وَالشَّعْرُ
 وَأَنْى لَمْ صَبَرَ عَلَيْهِ وَقَدْ مَشَى * إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى آسَتْ سُيْهَادُهُو وَالصَّبْرُ !
 فَنَّى كَانَ عَذْبُ الرُّوحِ لَاعِنَ غَضَاصِهِ * وَلَكِنْ كِبَرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ كِبَرُ ^(٤)
 فَنَّى سَلَبَتْهُ الْخَلِيلُ وَهُوَ جَمَّى لَهَا * وَبَرَّتَهُ نَارُ الْحَرْبِ وَهُوَ لَهَا جَمْرُ
 وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْمَائِرُ فِي الْوَعَى * بِوَاتَرَ فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بَرُّ
 أَمِنْ بَعْدَ طَى الْحَادَنَاتِ شَمْعًا * يَكُونُ لِلْأَنْوَابِ الْعُلَا أَبَدًا نَشْرُ !
 [إِذَا شَجَرَاتُ الْعَرْفِ جُدَّتْ أَصُولُهَا * فَنَّى أَى فَرَجٍ يَوْجِدُ الْوَرْقُ النَّصْرُ] ^(٥)



(١) لم نجد في القاموس ولا في اللسان . (٢) زيادة من الديوان . (٣) في الديوان :
 "من الصبر" . (٤) رواية الديوان : فَنَّى كَانَ عَذْبُ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاصَةٍ * وَلَكِنْ كِبَرًا أَنْ يَقَالَ بِهِ كِبَرُ
 ٢٠

لئن أَبْغَضَ الدهرُ الْخَوْفُونَ لَفَقَدَهُ * لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ
لئن غَدَرْتُ فِي الرَّوْعِ أَيَّامُهُ بِهِ * لَمَّا زَالَتِ الْأَيَّامُ سِمَتُهَا الْغَدْرُ
لئن أُلَيْسَتْ فِيهِ الْمَصِيبَةُ طِيئُ * لَمَّا عُرِّيتْ مِنْهَا تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
كَذَلِكَ مَا نَنْفَكُ نَفَقَةً هَالِكًا * يَشَارِكُنَا فِي فَقْدِهِ الْبَدُو وَالْحَضَرُ
سَقَى الْغَيْثُ غَيْثًا وَأَرَتِ الْأَرْضُ شَخْصَهُ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا سَحَابٌ وَلَا قَطَرُ
وَكَيفَ آحْتَمَى لِلْسَّحَابِ صَدِيعَةٌ * بِإِسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ
تَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى * وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْغَمْرُ
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ * غَدَاةُ تَوَى إِلَّا أَشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي * رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحَرْلِيْسَ لَهُ عَمْرُ

٥

وقال يرثى إدريس بن بدر السامى

١٠

دَمَوْعٌ أَجَابَتْ دَاعِيَ الْحَزَنِ هُمُوعٌ * تَوَصَّلُ مِنَّا عَنْ قُلُوبٍ تَقَطَّعُ
عَفَاءٌ عَلَى الدُّنْيَا طَوِيلٌ فَإِنَّهَا * تَمَرَّقُ مِنْ حَيْثُ أَبْتَدَتْ تُجَمَّعُ
تَبَدَّلَتْ الْأَشْيَاءُ حَتَّى خَلَّتْهَا * سَتْنِي غُرُوبَ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ
لَهَا صِيحَةٌ فِي كُلِّ رُوحٍ وَمَهْجَةٌ * وَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ مَا خَلَا الْقَلْبَ تُسْمِعُ
أَمْدَرِيْسُ ضَاعَ الْمَجْدُ بَعْدَكَ كَلَّةٌ * وَرَأَى الَّذِي يَرْجُو بَعْدَكَ أَضْيَعُ
وَعُودِرَ وَجْهَ الْعُرْفِ أَسْوَدَ بَعْدَمَا * يُرَى وَهُوَ كَالْبِكْرِ الْكَعَابُ تَصْنَعُ
وَأَصْبَحْتَ الْأَحْزَانُ لَا لِمَبْرَةٍ * تُسَلِّمُ شَرْرًا وَالْمَعَالَى تُودَعُ
وَضَلَّ بِكَ الْمُرْتَادُ مِنْ حَيْثُ يَهْتَدِي * وَضَرَّتْ بِكَ الْأَيَّامُ مِنْ حَيْثُ تَنْفَعُ
وَأَضْحَتْ قَرِيحَاتِ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَوَى * تَقِيْظُ وَلَكِنْ الْمَدَامُ تَرِبُ^(١)

١٥

(١) تقيظ : يشتد حرها وفي الأصل والديوان : " نقاط .

(٢) تربع : تختصب .

٢٠

عِيُونَ حِفْظَانَ اللَّيْلِ فِيكَ مُحَرَّمًا * وَأَعْطَيْتَكَ الدَّمْعَ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُ
وقد كان يُدْعَى لَابَسُ الصَّبْرِ حَازِمًا * فَأَصْبَحَ يُدْعَى حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ
وَقَالُوا عِزَاءً : لَيْسَ لِلْوَتِ مَدْفَعٌ * فَقُلْتُ : وَلَا لِلْعِزَنِ لِلرَّءِ مَدْفَعُ
لِإِدْرِيسَ يَوْمَ مَا تَزَالُ لَذَكَرَهُ * دَمَوَعِي وَإِنْ سَكَنَتْهَا تَتَفَرَّعُ
وَلَمَّا نَصَبْنَا ثَوْبَ الْحَيَاةِ وَأَوْقَعْتُ * بِهِ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ مَا يَتَوَقَّعُ ٥
غَدَا لَيْسَ يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ مُعْذِمٌ * دَرَى دَمْعُهُ مِنْ وَجْدِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ
وَمَاتَتْ نَفُوسُ الْغَالِبِينَ كُلَّهِمْ * وَإِلَّا فَصَبْرُ الْغَالِبِينَ أَجْمَعُ
غَدَوْا فِي زَوَايَا نَعْشِهِ وَكَأَنَّمَا * قُرَيْشُ قُرَيْشٍ حِينَ مَاتَ جَمْعُ
وَلَمْ أُنْسَ سَعَى الْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ * بِأَكْشَفِ بَالٍ يَسْتَقِيمُ وَيُظَلِّعُ
وَتَكْبِيرُهُ خَمْسًا عَلَيْهِ مُعَالِنًا * وَإِنْ كَانَ تَكْبِيرُ الْمُصْلَيْنِ أَرْبَعُ ١٠
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي ، يَعْلَمُ اللَّهُ ، قَبْلَهَا * بَأَنَّ النَّدَى فِي أَهْلِهِ يَتَشَبَّعُ
وَقَمْنَا قُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُفْرِدَ الثَّرَى ، بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقْلَعُ

هذا مأخوذ من قول مسلم



فَأَذْهَبَ سَجْمُ دَهَبٍ عَوَادِي مُزْمِيَةٍ * أَنُنِي عَلَيْهَا السَّهْلَ وَالْأَوْعَارَ
أَلَمْ تَكْ تَرَعَا مِنَ الدَّهْرِ إِنْ سَطَا * وَتَحَفَظُ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا نَضِيعُ ١٥
وَتَبْسُطُ كَثْفًا فِي الْحَقُوقِ كَأَنَّمَا * أَنَامِلُهَا فِي الْبَاسِ وَالْجُودِ أَذْرَعُ
وَتَلْبَسُ أَخْلَاقًا كِرَامًا كَأَنَّمَا * عَلَى الْعِرْضِ مِنْ قِرْطِ الْحَصَانَةِ أَذْرَعُ
وَتَرْبِطُ جَانِبًا وَالْجَمَّةَ قُلُوبُهُمْ * تَزَعَزَعُ خَوْفًا مِنْ قَبْلِ تَزَعَزَعُ
وَأُمِّيَّةَ الْمُرْنَادِ يَحْضُرُكَ النَّدَى * فَيَشَبَّعُ فِي مِثْلِ الْغَلَا ^(١) فَيَشَبَّعُ
فَانْطِقَ فِيهِ حَامِدٌ وَهُوَ مُفْجَمٌ * وَالْحَمْدُ فِيهِ حَاسِدٌ وَهُوَ مُضْجَعٌ ٢٠

(١) في ديوان أبي تمام : * فيشبع في مل، الملا فيشبع *

ألا إن في ظُفرِ المنيّة مُهجة * تظّل لها عينُ العلا وهي تدمعُ
هي النفس إن تبك المكارم فقدّها * فن بين أحشاء المكارم تُنزعُ
ألا إن أنفًا لم يَدُ وهو أجدعُ * لفقدك عند المكرّمات لأجدعُ
وإن أمرأ لم يُمس فيك مُفجعًا * بلحوده، في عقله المُفجعُ

وقال يرثى القاسم بن طوق بن مالك

جوى ساور الأحشاء والقلب واغله * ودمعُ يَضِمُّ العينَ والجفنَ هامله
وفاجعُ موت لا عدو يخافه * فيبقى، ولا يبقى صديقًا يُجامله
وأى أخى عزٍّ وذى جبريّة * ينابذه أو أى رامٍ يناضله
إذا ما جرى مجرى دم المرء حُكّه * وبُتت على طُرق النفوس حَبائله!

فلو شاء هذا الدهرُ أقصرَّ شره * كما قصرت عنا لُحاهُ ونائله
سنشكوه إعلانًا وسرًّا ونيةً * شكيةً من لا يستطيع يُقاتله
فمن مبلغ عني ربيعة أنه * تقشعَ ظلُّ الجُود عنها ووابله
وأن الحجا منها استطارت صُدوعه * وأن الندى منها أُصِبت مَقاتله
مضى للزَّيَالِ القاسمُ الواهبُ اللّهي * ولو لم يُزِيلنا لَكنا نُزِيله
ولم يعلموا أن الزمانَ يريده * بنجع ولا أن المايا تُراسله

ومنها

طواه الردى طى الرداء وغُيبت * فضائله عن قومه وفَواضله
طوى شيما كانت تروح وتغدى * وسائل من أعيت تليه وسائله
فيا عارضا للعرف أقلع مُزنه * ويا واديا للجود جئت مسائله

(١) كذا بالأصل: ولعله محذوف عن «يُظلم» بمعنى يملأ. (٢) في الديوان: «وأى أخى عزاء.

أو جبرية». (٣) كذا في الديوان، وفي الأصل: «ويا واديا للعرف».

وقال يرثي محمد بن حميد ويسمى خطبة، وقيل : خطبة أخوه

بأبي وغير أبي - وذلك قليل - * ثاوٍ عليه ثرى النّـبـاج مـهـيـلٌ
خـدّـلـتـه أُسـرـتـه كـأـن سـرّـاتـهـم * جـهـلـوا بـأن الحـاـذـلَ المـخـذولُ
أـكـالَ أَشـلـاءِ الفـوـارـسِ بـالقـنـا * أـضـحـى بـهـنَ وِشـلـوهُ ما كـوـلُ
كُفـى ، فـقـتـلُ مـحـمـدٍ لـى شـاهـدٌ . أن العـزـيزَ مـعَ القـضـاء ذـلـيلُ

(١:١)

ومنها

هـيـات لا يـأتـى الزـمـان بـمـثـلـه * إنـت الزـمـانَ بـمـثـلـه لـبـخـيلُ
ما أنـت بـالمـقـتـولِ صـبـراً إـنـما * أـمـلـى غـداةً نـعـيـك المـقـتـولُ

ومنها

مـن ذـا يـحـدـثُ بـالبـقـاء صـمـيـره ! . هـيـات ! أنـت عـلى القـنـاء ذـلـيلُ
يـالـيت شـعـرى بـالمـكـارم كـلّـها * ما ذـا ، وـقـد فـقـدـتُ نـداك ، تـقـولُ

ومنها

يـا بـومَ خـطـبـه لـسـد أـبـيـت لى * حـرقاً أرى أـيـامـها سـسـتـطـولُ
ايـثُ لـو آتَ اللـيـثُ قـام مـفـامـه * لـأنـصـاع^(١) وـهو يـراعُهُ إـجـفـيلُ
لـمـا رآى جـمـعاً قـايـلا فى الوغـى . وأوـلو الحـفـاظ مـن القـايـلِ قـلـيلُ
لـاقى الكـريـهـة وـهو مُـغـمـدٌ رَوّـه . فـيـها وـلـكـنْ بـأسـه مـسـلـولُ^(٢)
ومـشـى إـلى المـوت الزُّوأم كـأنـما . هـو مـن مـحـبّـته إـلـيه خـلـيلُ

ومنها .

أـضـحـتُ عـِـرَاضُ مـحـمـدٍ ومـحـمـدٍ . وأخـيـمـا وكـأـنـهـن طـلـولُ
أبـى حـمـيـدٍ لـيس أوّلُ ما عـفا * بـعـد الأـسـود مـن الأـسـود الغـيـلُ

(١) انصاع : اهنل راجعا مسرما . (٢) كذا فى الديوان ، وفى الأصل : "ولكن سبعة ...".

مازال ذاك الصبر وهو عليكم * بالموت في ظل السيوف كفيْلُ
مستبسلون كأتما مُهْجَاتُهُمْ * ليست لهم إلا غداة تسيلُ
ألفوا المنايا فالقتيلُ لديهم * من لم يُخَلِّ العيش وهو قتيْلُ
إن كان ريبُ الدهر أنكلينكُم * فالموتُ أيضا ميتٌ مشكولُ

وقال يعزى مالك بن طوق

أمالكُ إن الحزنَ أحلام حالم * ومهما تدمُ فالحزنُ ليس بدائم
أمالكُ إفراطُ الصباية تاركُ * حينا وأعوجاجا في قناة المكارم
تأمل رويدا هل تعدتَ سائلا * إلى آدم أم هل تعدُّ ابنَ سالم!
متى تُرْع هذا الموتَ عيناً بصيرة * تحذ عادلاً منه شيهاً بظالم
فإن تكُ مفاجوفاً بأبيض لم تكن * تشدُّ على جدواه عقدَ التمام
بفارس دُعْمِي وهَضْبِي وائل * وكوكب عتابٍ وحمزة هاشم
شجا الریح فازدادتُ حينئذٍ لفقده * وأحدث شجواً في بُكاء الحماثم
فمن قبله ما قد أُصيب نبينا * أبو القاسم النور المين بقاسم
وخبر قيس بالخلية في ابنه * فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علي في التعازي لأشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم:
أصبِر للبلوى عزاءً وحسبةً * فتؤجر، أم تسلسو البهائم؟
حائقنا رجالاً للتجلد والأسى * وتلك الغواني للبكا والمآثم
وأى قتي في الناس أحرص من قتي * غدا في خفارات الدموع السواجم

(١) في نسخة من الديوان : "من لا تجل الحرب وهو قتيْل" وفي نسخة أخرى منه : "من لم يخل

وهل من حكيم ضيَّع الصبر بعدما * رأى الحكماء الصبر ضربة لازم
فلا برحت تسطو ربعة منكم * بأرقم عطايف وراء الأراقيم
فأنت وصنوك الشقيقان إخوة * خلقتهم سعوًا للأنوف الرواغم
ثلاثة أركان، وما أنهت سؤدد * إذا ثبتت فيه ثلاث دعائم

(١٠٢)

وقال يرثي عمير بن الوليد

كف الندى أمست بغير بنان * وفنائه أضحيت بغير سنان
جبل الجبال غدت عليه مائة * تركته وهو مهدم الأركان
أنعى عمير بن الوليد لغارة * بكى من الغارات أولعوان
أنعى قتي القتيان غير مكذب * قولى، وأنعى فارس الفرسان
عثر الزمان ونائبأت صروفه * بمقيلنا عثرات كل زمان
لم يترك الحدنان يوم سطا به * أحدًا نصُول به على الحدنان
قد كنت حشوا الدرع ثم أراك قد * أصبحت حشوا للحد والأكفان
شغلت قلوب الناس ثم عبوئهم * مذ مت بالخفقان والهملان
وأستعدوا الأحران حتى إنهم * يتحاسدون مضاضة الأحران
ما يرعوى أحد إلى أحد ولا * يشنق إنسان إلى إنسان
أصاب منك الموت فرصة ساعة * فعسدا عليك وأتما أخوان!
فمن الذى أبقى ليوم تكريم * ومن الذى أبقى ليوم طعان!

١٠

١٥

(١) كذا بالأصل • والذى فالديوان

من الذى يبنى ليوم كريمة * ومن الذى يدعى ليوم طعان

٦

وقال يرثى آبناه

كان الذي خَفْتُ أن يكونا * إنا إلى الله راجعون
 أمسى المَرْجَى أبو علي * مُوسِّدًا في الثرى يمينًا
 حين آستوى وأتتهى شَبَابًا * وحقَّق الرأى والظنوننا
 أَصَبْتُ فيه وكان عندى * على المصِيبات لى مُعِينا
 كُنْتُ كثيرًا به عزيزًا * وكُنْتُ صَبًّا به ضَيننا
 دافَعْتُ إلا المُنونَ عنه - والمرءُ لا يدفع المِسنونا
 آخِرُ عهدى به صريعًا * للوت بالداء مُستَكِينا
 إذا شَكَا غُصَّةً وَكَرَبًا * لاحَظَ أوراَجَعَ الأَيننا
 يُدِير في رَجْعِهِ لسانًا * يَمْنَعُهُ الموتُ أن يُبيننا
 يشْخُصُ طورًا بِنَظَرِيهِ - وتارةً يُطْرِقُ الجُفُوننا
 ثم قَضَى نَجْبَهُ وأَمْسَى * في جَدَثٍ للثرى دَفيننا
 بِأَشْرَ بَرْدٍ الثرى بوجهٍ * قد كان من قبله مَصُوننا
 بَعِيدَ دارٍ قَريبَ جارٍ * قد فارَقَ الإلفَ والقَرِيننا
 بُحَى يا وَاحدَ البَيننا * غادَرَتْنى مُفَرِّدًا حَزيننا
 هَوْنُ رُزْنى بك الرَزايا * على في الناسِ أَجمِيننا
 أَلَيْتُ أَنسَاكَ ما تَجَلَّى - صَبحُ^(١) نَهارٍ مُضْهِجِيننا
 وما دعا طائرٌ هَدِيدًا * ورجَعْتُ وَالِهَ حَيننا
 تَصَرَّفَ الدهرُ بى صُروفًا * وعاد لى شَأْنُهُ شُؤُوننا

٥

١٠

١٥

(١٠٢)

(١) كذا في الديوان، وفي الأصل: "نيس نهار".

وجَزَّ في اللحم بل بَرَّاه * وأَجْتَتْ من طَلَحَتْ فُتُونَا
أَصَاب مِنِّي صَمِيمَ قَلْبِي * وَخَفْتُ أَنْ يَقْطَعَ الْوَيْتَنَا
والمراء رَهْنٌ بِجَالَتِيهِ * فَشَدَّةٌ مَرَّةً وَلِينًا

- ومما قيل في شواذ المراثي ؛ من ذلك ما قالته جلييلة بنت مرة أخت جساس
زوج كليب لما قتل أخوها جساس زوجها كليبا ؛ وكان نساء الحى لما اجتمعن
للمأتم قان لأخت كليب : رَحَلِي جلييلة عنك فإن قيامها فيه شمانة وعار علينا عند
العرب ، فقالت لها : انخرجي عن مأتمنا ، فانت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ؛ فخرجت
وهي تجز أعطافها ، فلقبها أبودا مرة فقال لها : ما وراءك يا جلييلة ؟ فقالت : نُكَلِّ
العَدَدَ ، وحرز الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين ذلك غرس الأحقاد ،
وتفتت الأكباد ؛ فقال لها : أَوْ يَكْفُفُ ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت
جلييلة : أُمْنِيَّةٌ مَخْدُوعٍ ورب الكعبة ، أَبَالْبُدُنْ تدع لك وائل دم ربها ! قال : ولما
رحلت جلييلة قالت أخت كليب : رِحَلَةُ المَعْتَدِي وفراق الشامت ! وَيَلُّ [غدا] لآل
مُرة ، من الكرة بعد الكرة ! وبلغ قولها جلييلة فقالت : وكيف تسمت الحزة بهتك
سِتْرَهَا وترقب وترها ! [أسعد الله أختي ، ألا قالت : نَفَرَةُ الحياء وخوف الأعداء]^(٣)
- ثم أنشأت تقول

يَابْنَةُ الْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتُ فَلَا * تَعْجَلِي بِاللَّيْنِ حَتَّى تَسْأَلِي
فَإِذَا أَنْتِ تَبَيَّنْتَ الْبُذَى * يُوجِبُ اللَّيْنُ فُلُوحِي وَأَعْدُلِي
إِنْ تَكُنْ أختَ أَمْرِي لَيْمَتْ عَلَى * جَزَعٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَاغْلِي

(١) كذا في الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢١٦ طبعة بولاق وفي الأصل : « وبين رُزَّابن :

غرس الأحقاد ... » (٢) في الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب .. »

(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

جَلَّ عِنْدِي فَعَلُّ جَسَّاسٍ فَيَا * حَسْرَتَا عَمَّا أَتَيْتَ أَوْ تَجَلَّى
فَعَلَّ جَسَّاسٌ عَلَى صَنِيِّ بِهِ * قَاطِعٌ ظَهْرِي وَمُذْنِبٌ أَجَلِي
لَوْ بَعِينٌ فُقِيتَ عَيْنٌ سَوَى * أَخْتَهَا وَأَنْفَقَاتٍ لَمْ أَحْفِلْ
تَحْمِلُ الْعَيْنُ قَدَى الْعَيْنِ كَمَا * تَحْمِلُ الْأَمَّ أَدَى مَا تَفْتَلِ
إِنِّي قَاتِلَةٌ مُقْتَوْلَةٌ * فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَاخَ لِي
يَا قَتِيلًا قَوْضَ الدَّهْرِ بِهِ * سَقَفَ يَتَى جَمِيعًا مِنْ عَلِيٍّ
وَرَمَانِي فَقَدَهُ مِنْ كَثَبٍ * رَمِيَّةَ الْمُصْمِي بِهِ الْمُسْتَاوِلِ
هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي آسَتْ حَدِيثُهُ * وَبَدَأَ فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
يَا نَسَائِي دُونَكَ الْيَوْمَ قَدْ * خَصَنِي الدَّهْرُ بُرْزٍ مُعْصِلِ
مَسْنَى فَقَدْ كُتِبَ بَلَقَى * مِنْ وَرَائِي وَلَقَى مُسْتَقْبَلِي
لَيْسَ مِنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْنِ كَمَنْ * إِنَّمَا يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي
دَرَكُ الشَّائِرِ شَافِيهِ وَفِي * دَرَكِي ثَأْرِي تُعْكِلُ الْمُثَكِّلِ
لَيْتَهُ كَانَ دَمِي فَاحْتَلَبُوا * دِرَارًا مِنْهُ دَمَا مِنْ أَحْكَلِي

(١٠٩)

ولما مات معاوية بن أبي سفيان اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدرُوا على الجمع
بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن همام فقال : يا أمير المؤمنين، أجزل الله
أجرك على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيمًا،
وأُعطيَت جسيمًا؛ فأشكر الله على ما أعطيت، وأصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت

(١) في رواية أخرى أشار إليها همام الأصل : « دَمِيتَ عَيْنَ سَوَى » .

(٢) اعلى الصغير : رباه . (٣) في رواية أخرى إليها همام الأصل : « ورماني قتله ... » .

(٤) في الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢١٦ طبع بولاق : « وَأَنْتَنِي فِي هَدْمِ ... » .

(٥) في الكامل لابن الأثير : « يَشْتَنِي الْمَدْرَكَ الثَّانِي فِي ... » .

خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، وفارقت جليلا، وأعطيت جزيلا، إذ قضى معاوية نخبه، ووليت الرئاسة، وأعطيت السياسة، فأورده الله موارد السرور، ووفقك في جميع الأمور

فاشكر يزيد فقد فارقت ذا مِقة * وأشكر جباء الذي بالملك حاباكاً^(١)
 [أصبحت تملك هذا الخلق كلهم * فأنت ترعاهم والله يراكاً]^(٢)
 لأرزة أعظم في الأقسام قد علموا * مما رزيت، ولا عفي كعقباكاً
 وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نعت ولا نسمع بمنعاكاً

فتفتح للداس باب الرثاء وجرؤا على منواله .

وقال أبو نؤاس الحسن بن هاني يعزى الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهتبه بالأمين

١٠ تعز أبا العباس عن خير هالك * بأكرم حي كان أو هو كائن
 حوادث أيام تدور صروفها * لهن مساو مرة ومحاسن
 وفي الحى بالميت الذي غيب النرى * فما أنت مغبون ولا الموت غائب

وقال أبو تمام يرثي المعنم ويهتئ الواثق

١٥ ما للدموع تروم كل مرام * والجفن ناكل جمعة ومنام
 يا حفره المعصوم تربك مودع * ماء الحياة وقاتل الإعدام
 إن الصفائح منك قد نضدت على * ملقى عظام لو علمت عظام
 فتق المدامع أن لحدك حله * سكن الزمان وممسك الأيام
 ومصرف الملك الجسوح كأنه * قد زم مصعبه له بزام

(١) رواية الكامل للبرد (ص ٧٨٥ طبع ليبزح سنة ١٨٦٤).

إصبر يزيد فقد فارقت ذا مِقة * وأشكر بلاء الذي بالملك أصفاكاً

(٢) زيادة من الكامل .

هدمت صروف الدهر أرفع حائط * ضربت دعائمه على الإسلام
 دخلت على ملك الملوك رواقه * وتسربت لمقوم القوام
 مفتاح كل مدينة قد أبيحت * غلقا ومخلى كل دار مقام
 ومعرف الخفاء أنت حظوظها * في حيز الإسراج والإلجام
 أخذ الخلافة عن أسنته التي * منعت حى الآباء والأعمام
 فلسورة الأنفال في ميراثه * آثارها ولسورة الأنعام
 ما دام هارون الخليفة فالهوى * في غبطة موصولة بدوام
 إنا رحلنا واثقين بوائق * بالله شمس ضحى وبدر تمام
 لله أى حياة أنبعث لنا * يوم الخميس وبعد أى حمام
 أودى بخير إمام اضطربت به * شعب الرجال وقام خير إمام
 تلك الرزية لا رزية مثلها * والقسم ليس كسائر الأقسام

(١٠٥)

جاء منها

نقص كرجع الطرف قد أبرمته * يابن الخلائف أيما إبرام
 ما إن رأى الأقوام شمسا قبلها * أفلت فلم تعقبهم بظلام
 أكرم بيومهم الذى ملكتهم * فى صدره وبعامهم من عام

ثم أخذ فى مدح الوائق .

وفى هذه الواقعة يقول ابن الزيات

قد قلت إذ غيبوك وأصطفقت * عليك أيد بالترب والطين
 اذهب فنعم المعين كنت على الدنيا * ونعم الظهير للدين
 لن يجبر الله أمة فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

ومن أشد الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالاً أن يرثي امرأة أو طفلاً .
وقد أخذ على المتنبي في قوله يرثي أم سيف الدولة بن حمدان
سلام الله خالقنا حنوط * على الوجه المكمّن بالجمال
وقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ! ووتخه صاحب بن عباد في قوله فيها
رواف العز فوقك مُسَيِّطَر * ومُلكُك على أبنك في كمال

قال أبو الحسن علي بن رَشِيق الأزدى في كتابه المترجم بالعمدة والأغانى أيضا :
أشد ما حزن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" بجاء عملا
تاقا لم يبق فيه إلا الإفضاء . وإن يكن المتنبي أخطأ في هذا فلقد أجاد في غيره ،
والفاضل من عُدت سَقَطاته ، وحَفِظت هَفَواته وفَلَتاته ، وأنظر إلى قوله في أخت
سيف الدولة

يا أخت خير أُنح يا بَنَتَ خير أب * كنايةً بهما عن أشرف النسب
أجل قدرِك أن تُدعى مُوسى * ومن يَصِفُك فقد سَمَكَ للعرب
وقوله أيضا

ولو كان النساء كمن فقدنا * لُبِضَتِ النساءُ على الرجالِ
مَشَى الأُمراءُ حولِها حُفَاةً * كَأَنَّ المَرَّوْ من زِف الرِّثَالِ^(١)

ومن جيد ما رثي النساء به وأشدّه تأثيراً في القلب وإثارةً للحزن قول ابن عبد الملک
ابن الزيات في أم ولده

ألا مَنْ رأى الطفلَ المَفارِقَ أُمَّهُ * بعيدَ الكَرَى عيناها تبتدرانِ
رأى كُلَّ أُمٍّ وأَبْنِها غيرَ أُمٍّ * يَبْتَئِنُ تحتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
وبات وحيداً في الفِرَاشِ تحنُّه * بلا بُلِّ قَلْبٍ دائِمِ الحَفَقانِ

ومنها بعد أبيات

ألا إن سَجَلًا واحدًا قد أرقُتْهُ * من الدمع أو سَجَلين قد شَفَّيَانِي
فلا تَلَحَّيَانِي إن بكيتُ فإنما * أَدَاوِي بهذا الدمع ما تَرَيَانِ
وإن مكأنًا في الثرى خُطَّ لحدُّه * لمن كان من قلبي بكلِّ مكانٍ
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى ، * فهل أُنَمَّا إن عُجْتُ منتظران ؟
فهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عنها لأتِي * جَالِدٌ فمن بالصبر لأبنِ ثَمَانٍ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حِسْبَةً * ولا يَأْتِي الناس في الحدائِرِ
ألا من أُمْنِيهِ المُنَى وأُعِدُّه * لَعَثْرَةٌ أَيَّامٍ وصَرَفَ زَمَانٍ
ألا من إذا ما جِئْتُ أكرمَ مجلسي * وإن غبتُ عنه حَاطَنِي ورعَانِي
فلم أرَ كالأقدار كيف تُصَيِّنِي * ولا مثل هذا الدهر كيف رَمَانِي

وقال أبو تمام يرثي جارية له

ألم ترني خَلَيْتُ عَيْنِي وشَانَهَا * ولم أَحْفِلِ الدنيا ولا حَدَثَانَهَا
لقد خَوَّفَتْنِي النَّائِبَاتُ صرُوفَهَا * ولو أُنَمَّتْنِي ما قِيلَتْ أَمَانَهَا
وكيف على نار الليلَى مُعَرِّسِي * إذا كان شَيْبُ العَارِضِينَ دُخَانَهَا
أُصِبتُ بِجُودٍ سوفَ أُعْبَرُ بعدها * حَلِيفَ أَسَى أبكى زَمَانِي زَمَانَهَا
عَنَّا من اللَّذَّاتِ قد كان في يَدِي * فلما مضى الإلفُ أَسْتَرَدَّتْ عِنَانَهَا
مَنَحْتُ الدُّمْعَى هَجْرِي فلا مُحْسِنَاتَهَا * أَوَدَّ ولا يَهُوَى فَوَادِي حَسَانَهَا
يقولون : هل يبكي الفتى لخريدة * متى ما أَرَادَ اعْتَاضَ عَشْرًا مَكَانَهَا !
وهل يستعِصُّ المرءُ من نَحْسِ كَفِّهِ * ولو صَاغَ من حُرِّ اللَّجُونِ بِنَانَهَا !

وقال أبو الفتح كُشاجم يعزّي بابتة

تأس يا أبا بكر * لموت الحسرة البكر
فقد زوجتها القبر * وما كالقبر من صهر
وعوضت بها الأجر * وما كالأجر من مهر
زفأف أهديت فيه * من الخدر إلى القبر
فتاة أسبغ الله * عليها أفضل الستر
ورزء أشبه النعمة في الموقع والقدر
وقد يُختار في المكرو * ه للسر وما يدرى
فقابل نعمة الله * وما أولاك من شكر
وعز النفس عمافا * ت بالتسليم والصبر

وقال أبو مروان بن أبي الخصال الأندلسي في مثل ذلك

ألا باموت كنت بنا رءوفا * بجددت الحياة لنا بزورة
حدت لعملك الماثور لما * كفت مئونة وسترت عورة
فأنكحها الضريح بغير مهر * وجهزنا الفتاة بغير شورة

(١٠٧)

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في ابنين لعبد الله بن طاهر مانا صغيرين

في يوم واحد من قصيدة

نجان شاء الله ألا يطلعا * إلا آرتداد الطرّف حتى يافلا
إن الفجعة بالرياض نواضرا * لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو ينسآن لكان هذا غاربا * للكلمات وكان هذا كاهلا
لتهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أمهلت حتى تكون شماتلا

لَعَدَا سكونهما حَجًّا وَصِبَاهُمَا * حِلْمًا وَتَكَ الْأَرْيَحِيَّةُ نَائِلًا

إِنَّ الْمَسَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ مُنْمُوهُ * أَقْبَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا

وقال أبو الحسن الأنباري في محمد بن بقرية وزير عزة الدولة بختيار بن معز الدولة

أَبْنُ بُوَيْهٍ لِمَا صَلَبَهُ عَضُدُ الدَّوْلَةِ بَنَ رُكْنَ الدَّوْلَةِ بَنَ بُوَيْهٍ عِنْدَ خَلْعِ بَخْتِيَارٍ، وَهِيَ مِنْ

نَوَادِرِ الْمَرَاثِي

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ * لَحَقْتُ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا * وَفَوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ

كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا * وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ

مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ جَمِيعًا * كَمَا دَهَمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

وَلِمَاضِقِ بَطْنِ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ * يَضُمَّ عَلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ

أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَأَسْتَبَاوَا * عَنْ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ

لِعُظْمِكَ فِي النَّفُوسِ بَقِيَتْ تُرْعَى * بِجُرَاسٍ وَحُفَظَ ثِقَاتِ

وَتُسْعَلُ عِنْدَكَ النِّيرَانُ أَيْلًا * كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ

وَلَمْ أَرْ قَبْلَ جِدْعِكَ قَطُّ جِدْعًا * تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلِ زَيْدٍ * عَلَاهَا فِي السِّنِينَ الدَّاهِيَاتِ

أشار في هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما قُتِلَ وَصَلِبَ

فِي أَيَّامِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

ومما يدخل في هذا الباب ويلتحق به ما بطراً من الحوادث التي تقع بها البلية ،

وتشمل بسببها الرزية ، كاستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام ، وهزيمتهم

لجيشه اللطام ، فمن ذلك ما كتب به القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى الأمير

عزّ الدين سامة لما استعاد الفَرَج — خذلهم الله تعالى — مدينة بيروت : ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه في كتابه العزيز مُسْلِمًا لِنَبِيِّهِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) ، فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناسُ الناسَ ! وأين الموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون في البأساء والضراء وحين الباس ؛

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا * فقد صاروا أَقَلَّ من القليل

والمولى — أعزّه الله بنصره، وعوّضه أحسن العوّض من أجره، وكتب له ثواب تسليمه إليه وصبره — ليس بأول من وثق بمن خان، وقضية بيروت بأول مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن التجلّلات المستعارة تجلّة الوائق . والموثوق به لائقٌ به التجلُّ الصادق ؛ ومعاذ الله أن يتكسّر المجلس رأسه حياء ، أو أن يَسْخَطَ الله قضاءً ؛ أو أن يأسفَ على مال نقله من مودّعه الذي لا يؤمن من الآفات عليه ، إلى مودّع الله الذي يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج ما كان إليه ؛ والحمد لله الذي جعل مصائبنا في الدنيا فوائداً في الآخرة ؛ ثم الحمد لله الذي جعل البادرة للعدوان والعاقبة للتفوى . وقد علم الله أنى مُنَاسِمِهِ ومُساهِمِهِ ، ومُضْمِرٍ من الهم بما آتق من هذا المقدور ما مُقَدَّرَه عالم ؛ غير أنه لاحيلة لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبر جرى عليه القدر وجرى له الأجر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدر وكُتِبَ عليه الوزر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه ؛ والمسال غاد ورائح ، والمسال بالحققة هو العمل الصالح ؛ وإن آجتماع موصليها بحضرته فهو يُنْهِى ما عندي ، ويُؤدّي حقيقةً ودّى ؛ ورأيه الموفق .

وقال المظفر الأيُوردي لما استولى الفرنج على البيت المقدس في سنة اثنتين

وتسعين وأربعمائة قصيدة منها

(١)
مَرَجْنَا دِمَاءً بِالدموعِ السَّوَاجِمِ * فلم يَبْقَ مِنْهَا عُرْضَةٌ لِلزَّاحِمِ
وَشَرَّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يَفِيضُهُ * إِذَا الْحَرْبُ شَبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ
فَالْيَأْمُ بَنَى الْإِسْلَامَ! إِنِّ وَرَاءَكُمْ * وَقَائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ
أَتَمُّوِيمةً فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغِبْطَةٍ * وَعَيْشَ كُنُوزِ الْخَمِيلَةِ نَاعِمِ!
وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلءَ جُفُونِهَا * عَلَى هَبَّاتٍ أَقْبَضَتْ كُلَّ نَائِمِ
وَإِخْوَانَكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ * ظُهُورَ الْمَذَاكِي أَوْ بَطُونَ الْقَشَاعِمِ
يَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوَاتِ وَأَتَمُّ * تَجْرُونَ ذَيْلَ الْخَفِصِ فَعَلَ الْمُسَالِمِ
وَكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أُيْحِتْ، وَمِنْ دُمِّي * تُؤَارِي حَيَاءً حُسْنَهَا بِالْمَعَاصِمِ
بَحِثِ السِّيُوفُ الْبَيْضُ مَجْرَةَ الظُّبِيِّ * وَتُثْمِرُ الْعَوَالِي دَامِيَاتُ اللَّهَادِمِ
وَبَيْنَ أَخْدَاسِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَقَفَةٌ * تَظَلُّ لَهَا الْوِلْدَانُ شَيْبُ الْقَوَادِمِ
وَتِلْكَ حُرُوبٌ مَنْ يَغْبُ عَنْ غِمَارِهَا * لَيْسَ لِمَنْ يَقَرَّعُ بَعْدَهَا سَبٌّ نَادِمِ
سَلَّانَ بَأْيَدِي الْمُسْلِمِينَ قَوَاصِبًا * سَتَعْمَدُ مِنْهُمْ فِي الظُّلَى وَالْجَمَاجِمِ
يَكَادُ هَرَبُ الْمُسْتَجِيقِ بِطَيْبِنَةِ * يُنَادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ: يَا آلَ هَاشِمِ
أَرَى أَمْتِي لَا يَشْرَعُونَ إِلَى الْعِدَا * رَمَاحُهُمُ وَالْدِينُ وَاهِي الدَّعَائِمِ
وَيَحْتَنِبُونَ النَّارَ خَوْفًا مِنَ الْعِدَا * وَلَا يَحْسَبُونَ الْعَارَ ضَرْبَةً لَزَامِ
اتْرَضَى صَنَائِدُ الْأَعْرَابِ بِالْأَدَى * وَتُنْقِضِي عَلَى ذُلِّ كِبَاةِ الْأَعْجَامِ!
فَلَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَذُودُوا حِمِيَّةً * عَنْ الدِّينِ ضُنُوءًا غَيْرَةً بِالْحَمَارِمِ
وَإِنْ زَهَدُوا فِي الْأَجْرِ إِذْ جَمَشَ الْوَعْيُ * فَهَلَا أَتَوْهُ رَغْبَةً فِي الْمَغَانِمِ!

(١٠٩)

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسُوا إِلَّا بِأَجْدَعِ رَاغِمِ
دَعَوَانَاكُمْ وَالْحَرْبُ تَرْنُو مُلِحَةً * إِلَيْنَا بِالْحَاطِ النُّسُورُ الْقَشَاعِمِ
تُرَاقِبُ فِينَا غَارَةً عَرِيَّةً * تُطِيلُ عَلَيْهَا الرُّومُ عَضَّ الْأَبَاهِمِ
فَإِنِ أَتَمُّ لَمْ تَغْضَبُوا عِنْدَ هَذِهِ * رَمَتْنَا إِلَى أَعْدَائِنَا بِالْجَرَائِمِ

وقال علاء الدين على الأوتارى الدمشقي في مثل ذلك لما استولى التتار على
دمشق في سنة تسع وتسعين وسبعمائة

لَكَ عِلْمٌ بِمَا جَرَى يَا سُهَادِي * مِنْ جَمُونِي عَلَى آفْتَقَادِ رُقَادِي
لَمْ أَجِدْ عِنْدَ شِدَّتِي مُؤْنِسًا لِي . غَيْرَ سُهْدِي مُلَازِمًا لِسَوَادِي
وَحَبِيبُ الْعَيْنِ الرُّقَادُ جَفَاهَا . مُذْ رَأَاهَا حَلِيفَةَ الْأَنْكَادِ
أَحْسَنَ اللَّهُ يَادِ دِمَشْقُ عَزَاكَ * فِي مَغَانِيكَ يَا عِمَادَ الْبِلَادِ
وَبُرُسْتَاقِ نَيْرَبِيكَ مَعَ الْمِزَّةِ مَعَ رَوْتِي بِذَاكَ الْوَادِي
وَبَأْنُسٍ بِقَاسِيُونَتِ وَنَاسٍ . أَصْبَحُوا مَغْنَمًا لِأَهْلِ الْفَسَادِ
طَرَقَهُمْ حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِالْقَتْلِ وَنَهَبِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
وَبَنَاتِ مُحَجَّبَاتِ عَنِ الشَّمْسِ تَنَاءَتْ بَيْنَ أَيْدِي الْأَعَادِي
وَقُصُورُ مُشَبَّدَاتِ تَقَصَّصَتْ * فِي ذُرَاهَا الْأَيَّامُ كَالْأَعْيَادِ
وَبَيوتُ فِيهَا التَّلَاوُؤُ وَالذِّكْرُ وَعَالِي الْحَدِيثِ بِالْإِسْنَادِ
حَرَقُوهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَادَتْ * بِقَضَاءِ الْإِلَهِ رَبِّ الْعِبَادِ
وَكَذَا شَارِعُ الْعَقِيبَةِ وَالْقَصَصِ وَشَاغُورُهَا وَذَاكَ النَّادِي
أَصْبَحُوا الْيَوْمَ مِثْلَ أَمْسٍ تَقَضَّى . وَبَكَتْهُمْ سَمَاؤُهُمُ وَالْعَوَادِي
وَلَكَمْ سُورُهَا حَوَى مِنْ مُعْنَى . مُقَرَّجِ الْقَلْبِ وَالْحَشَى وَالْفَوَادِ
إِنْ بَكَى لَا يُفِيدُهُ أَوْ تَشَكَّى * وَجَدَ الْمُشْتَكَى حَلِيفَ سُهَادِ

١٠

١٥

٢٠

يشكى فوق ما آسكه بأضعا * في فيغدو وهمه في آزدباد
 فالغلا والجلأ مع الجوع والعز * ي ونهب الأفوات والأزواد
 والحصار الشديد والحبس والنحو * ف مع السادة العراة المكادى^(١)
 ونوزر الأموال من غير ووجد * بأعتساف الغم الغلاط الشداد^(٢)
 كاترا بكا كبر خوار أنت يا عيسه محمود غازان قان البلاد^(٣)
 يا ترى هل لكربا من مجير * أم لفتنيد آمرنا من مفادى
 لطف نسي على جيوش نولت * ثم ولت جريئة الأكباد
 كل تدب غضب حمى كمي * أمجد أصيد شجاع جواد
 إن سطا في هبانه كان بحرا * أو سطا خلته من الأساد
 أو بدا حاملا تحل عنترا * أو غدا سابق الجواد فغادى
 إن أنانى مبشر بلقادم * حاز روى ومهجتى وقيادى
 ولت اتراب شكرا وعقر * ب خدردى على بلوع مرادى
 لست أرجو غير البشير شفيعا * عند ربى فى المن بالإنجاد
 فهو الصادى الذى وعد الديشن ببصر جار على الآباد
 غير أن الفساد بكسب ذلأ * ويعمى الفساد طرق السداد
 وأرتكلب الفساد بورث فقرا * ونحارب البيوت عقى الفساد
 يا حبيب الإله لا تخلصى * عن عصاة غمرتهم بالأيادى

(١) المكادى : جمع "مكدى" اسم مفعول من كاد بمعنى حبس .

(٢) الغم جمع أغم وهو من لا يهصح .

(٣) ورد هذا البيت هكذا بالأصل : ناد سالد عه ديزين من المشتعلين بالله المراسية فقيل لدا إن

بعض الفاظه فارسية وبعضها الآخر طى أنه ترمى ولم يدر ما هو .

يا حبيبَ الإلهِ قد مسَّنا الضرُّ فجُدْ بالإسعافِ والإسعادِ
يا حبيبَ الإلهِ تُبْنَا إلى الله وأنتَ العِمَادُ حتَّى المَعَادِ
مَنْ لَأَسْرَى كَسْرَى حَيَارَى دَهْتَهُمْ - دَهْتَهُمْ جِيَادُ أَهْلِ الْعِنَادِ
واضع اللقط في الحسابِ عناءه - لو يعش - حصرُ كثرة الأعدادِ
منهمُ الطفلُ والصبيَّةُ والشابُّ يُنادى، مَنْ يُحِبُّ المنادى!
وَيُنَادِي عليهمُ برغيفٍ - وبزُرٍ بَحْسٍ بِسُوقِ الكَسَادِ
عَوَّصُوا عن سرورهم نغورور - وقصور البلادِ سُكْنَى البَوَادِ
وبأهل الودادِ شرًّا أناس - ويَلِينُ المهادِ شوكَ القَتَادِ
أَيُّ عَيْنٍ عليهمُ ليس تَبْكِي * أَيُّ قَلْبٍ عليهمُ غَيْرُ صَادِي!
فَلَأَنْتَ الرَّحِيمُ قَلْبًا وَلُبًّا - ولَأَنْتَ المهادِ لُسْلُ الرِّشَادِ
ولَأَنْتَ البَدِيعُ خَلْقًا وَخُلُقًا - ولَأَنْتَ السَّمِيعُ للإِنْشَادِ
ولَأَنْتَ الطَّرَازُ فِي كُلِّ مَعْنَى * وَلَسِيفُ المَقَالِ شَبُّهُ النِّجَادِ
ولَأَنْتَ الحَاوِي فُنُونَ صِفَاتٍ * دُونَ حَصْرِ لَهَا فَنَاءُ المِدَادِ
ولَأَنْتَ المَدْحُودُ من فوق عَرِشٍ - بَعْدُ مَاذَا يَقُولُ قُسُّ الإِيَادِ
جُلُّ قَصْدِ الفَصِيحِ بالنِّظَمِ مَعْنَى - تَشْرُفُضِلُ المَدْحُودِ بَيْنَ العِبَادِ
فَإِذَا كَانَ مُنْشَى المَدْحِ رَنَى - عَادَ مَدْحُ الفَصِيحِ جَمْعَ سَوَادِ
فَعَلَيْكَ الصَّلَاةُ يَرْجُو بِهَا الأَمْنُ عَلَى مَنْ سَائِرُ الأَنْكَادِ

وحيث آتھنا من المرائى والنوادر إلى هذه الغاية فلنذكر نبذة من الزهد

والتوكل .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الثاني في الزهد والتوكل

وهذا الباب — وفقنا الله وإياك لقصدنا، وألهمنا سلوك سبيل رشدنا، وأستعملنا
 في مَرَاضِيهِ، وجَنَّبنا عن الآثِمَاتِ بالقول والفعل إلى معاصيه — من هذا الفن هو
 واسطة عَقْدِهِ، وعَضُد زَنْدِهِ. وفَائِمُ مَرْحَفِهِ وَحَدَّ فِرْنَدِهِ، وَشَبَّ سِنَانِهِ، وَمَثَى عِانِهِ،
 وَإِنْسَانُ حَدَقَتِهِ وَحَدَقَةُ إِنْسَانِهِ؛ وكيف لا وهو للنفس دُرَّةُ تَاجِهَا، وَطِيبُ عِلَاجِهَا،
 وَوَاضِعُ مَنَاجِهَا؛ ودليها المُرْشِدُ إِذَا ضَلَّ الدَّلِيلُ، وَمُنْجِيهَا مِنَ الْهَوْلِ الْأَعْظَمِ إِذَا فَرَّ
 الْمَرْءُ مِنَ الْأَخِ وَالْأُمِّ وَالْأَبِ وَالْأَبْنِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْخَلِيلِ. فَتَأْمَلُهُ أَيُّهَا الْمُطَالِعُ بَعِينَ
 قَلْبِكَ قَبْلَ نَظَرِكَ، وَاتَّخِذْهُ مِنْ أَحْصَنِ جُنَّتِكَ وَأَعَدَّ عُدَدَكَ وَأَنْفُسَ ذَخَائِكَ؛
 وَرُضْ بِهِ نَفْسَكَ إِذَا جَمَحَتْ، وَسَكِّنْ بِهِ آمَالَكَ إِذَا مَالَتْ إِلَى الْمَطَامِعِ وَجَنَحَتْ.
 وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا ظُلٌّ زَائِلٌ، وَعَدُوٌّ قَدْ نَصَبَ لَكَ الشُّبَّانَ وَمَدَّ الْحَبَائِلَ، وَأَنَّكَ لَا بَدَّ
 مَسْئُولٍ عَمَّا آكَسَبْتَهُ مِنْهَا، فَلَيْتَ شَعَرَى مَا أَعَدَدْتَ لِحُجُوبِ الْمَسَائِلِ؟ فَهِيَ الْعَدُوُّ
 الَّذِي أَشْبَهَ بِالصَّدِيقِ، وَالْغَادِرُ الْمَاكِرُ الَّذِي مَا أَخَوْفَنِي أَنْ مَكَّرَهُ بِي وَبِكَ سَمَحِقٌ؛
 فَاقْتَصِرْ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْهَا، وَاعْلَمْ أَنَّكَ سَتَرْحَلُ فِي غَدِهَا؛ وَأَنَّ الْمَوْتَ نَازِلٌ بِكَ فَلَا يَنْفَعُكَ
 مَا جَمَعْتَهُ مِنْ مَالٍ وَخَوَّلَ، وَلَا يَصِحِّبُكَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَدَمْتَهُ لَا تَحْزَنُكَ مِنْ صَالِحِ
 الْعَمَلِ؛ وَأَنَّ مَالَكَ سَيَقْتَسِمُهُ مِنْ لَعَالِهِ لَا يَسْكُرُكَ عَلَيْهِ، وَمَاذَا يَنْفَعُكَ شُكْرُهُ أَنْ
 لَوْ فَعَلَ! وَغَايَةُ مَا يَنَالُكَ مِنْ دُنْيَاكَ، وَإِنْ بَلَغَتْ مِنْهَا مُنَاكَ، وَطَالَ بِهَا مَدَاكَ، أَنْ
 نَتَمَتَّعَ بِزَهْرَتِهَا، وَتَتَلَّ مِنْ لَذَّتِهَا؛ وَقَدْ عَلِمْتَ بِالْمَشَاهِدَةِ مِنْ حَالِكَ وَحَالِ غَيْرِكَ مَا يُؤْوِلُ
 أَمْرَ مَلَاذِهَا إِلَيْهِ فِي الْعَاجِلِ، وَمَا يُتَوَقَّعُ لِمَنْ أَقْتَصَرَ مِنْ دُنْيَاهُ عَلَيْهِا فِي الْآجِلِ؛
 فَلَا تَكُلْ وَالْمَشْرَبِ صَائِرًا إِلَى مَا عِلِمْتَهُ وَإِنَّمَا تَحْصِلُ اللَّذَّةَ بَعْدَ الْإِزْدِرَادِ؛ وَالْمَشْنَعُ

والمركب فأنت وهما في الموت والفناء على ميعاد، والملابس فستُخلَقُها الأيام بعد الحِدة، والمساكن فستُعَقَى الليالي آثارها ولو بعد مُدة؛ فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال، وقُصَّارها إلى الانتقال؛ وملاذها إلى هزلة الغاية، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية؛ فتقلَّل منها حسب طاقتك، واقتصر على ما تيسرُ به بعض خَلَّتْ وفاتك؛ وأعمل لآخرتك التي لا ينقضي أمدها، ولا يقنى من النعيم الدائم مددُها .
وقد أمرتك الخير وليتني به لو آثمت . وأوصحت لك سبيل الرشاد وليتني به لو مررت

أمرتك الخير لكن ما آثمتُ به . وما استقممتُ فاقول لك : استقم !
وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسكت به كان سببا لإرشادك . وذخيرة تجددها في يوم معادك .

ذكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحَد العالم زين الدين حجة المتكلمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : إعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين؛ وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أُقيم مقام الحال، إذ به يظهر الحال الباطن، وإلا فليس القول مراداً بعينه؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سُمي إسلاما ولم يسم إيمانا؛ والعلم هو السبب في الحال يعزى بحجى المثمر، والعمل يعزى بحجى الثمرة .

فأما الحال فنعني بها ما يُسمى زهدا . وهو عبارة عن أنصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه؛ فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل

(١١٦)

عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه؛ فخاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يُسَمَّى^(١) رغبةً وحباً؛ فإذا يستدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من^(٢) المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يُسَمَّى زاهداً، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يُسَمَّى زاهداً، لأن ذلك ليس في مظنة الرغبة، وإنما يُسَمَّى زاهداً تارك الدراهم والدنانير. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبايع لا يُقَدِّم على البيع إلا والمُشْتَرِي عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض رغبةً وحباً؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ وَشَرَوْهُ بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلوهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض. فإذا كُلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكلُّ من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة؛ ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا، كما تُخَصِّصُ اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو الميل في وضع اللسان. قال: ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصَوَّرْ إلا بالمعدول إلى شيء هو أحبُّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبِّ محال. والذي يرغب عن كلِّ ما سوى الله تعالى حتى الفردوس ولا يحبُّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق. والذي يرغب عن كلِّ حظٍّ يُتَالَى في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحُورِ العِينِ والقصور

(١) زيادة عن الاحياء.

(٢) كذا في الاحياء، وفي الأصل: «إليه».

والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول ، والذي يترك من حظوظ الدنيا
 البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاء ، أو يترك التوسع في الأكل
 ولا يترك التجمُّل في الزينة فلا يستحقَّ اسم الزهد مطلقاً ، ودرجته في الزهد درجة
 من يتوب عن بعض المعاصي في النائيين ، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض
 المعاصي صحيحة ، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك
 المباحات التي هي حظ النفس . والمفتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ،
 وإن كان زهداً في المحظور وأنصرف عنه ولكن العادة تخصّص هذا الاسم بترك
 المباحات . فإذا الزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله
 عدولاً إلى الله . وهي الدرجة العليا . وكما يُستَترَط في المرغوب فيه أن يكون خيراً
 عنده ، فيُستَترَط في المرغوب عنه أن يكون مقدرّاً عليه . فإن ترك ما لا تُقدَّر عليه
 محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لأبي المبارك : يا زاهد ، فقال :
 الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها . وأما أنا فمضت زهدت !



وأما العلم الذي هو المشعر لهذا الحال فهو العلم بكون المبروك حقيراً بالإضافة
 إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه . وما لم يتحقق هذا
 العلم لا يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع . فكذلك من عرف أن ما عند الله باق
 وأن الآخرة خير وأبقى . أي لذتها خيرٌ في نفسها وأبقى . فبقدر قوّة اليقين والمعرفة
 بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه
 يبيع نفسه وماله ، كما قال الله عز وجل : (إِنْ اللَّهَ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمَّا لَهُمْ بِأَنَّهُمْ الْجَنَّةَ... الآية، ثم بين أن صفة قمتهم رابحة فقال تعالى : (فَأَسْبِرُوا
بَيْنَهُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ)؛ فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن
الآخرة خير وأبقى؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إنما لضعف علمه
وقيته، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة في الحال عليه ولكونه مقهوراً في بد الشيطان،
وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت،
ولا يبق معه إلا الحسرة بعد الموت. قال : وإلى تعريف حساسة الدنيا الإشارة
بقوله تعالى : (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)، وإلى
تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَأْتِيكُمْ
تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ)، فنبه على أن العلم بنفاسه هو المرغَّب عن عِرضه. قال :
ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن محبوب في أحسن منه قال رجل :
اللَّهُمَّ ارِنِي الدُّنْيَا كَمَا تَرَاهَا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تَقُلْ هَذَا
وَلَكِنْ قُلِ اللَّهُمَّ ارِنِي الدُّنْيَا كَمَا ارْتَبَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ"، وهذا لأن الله يراها
حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير، والعبد يراها حقيرة في حق
نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عن
فرسه كما يرى حشرات الأرض [مثلاً]،^(١) لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس
مستغنياً عن الفرس؛ والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة
واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراهم متفاوتة بالإضافة إلى غيظه، والزاهد هو الذي
يرى تفاوتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره.

(١) كذا في الاحياء، وفي الأصل : "إلى ما هو خير منه". (٢) زيادة عن الإحياء.



وأما العمل الصادر عن حال الزهد : فهو تركُّ وأخذ . لأنه بيعٌ ومعاملةٌ
 واستبدالٌ الذي هو حير بالذي هو أدنى . فكما أن العمل الصادر من عقد البيع | هو
 ترك المبيع | وإخراجه عن اليد وأخذ العوض . فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه
 بالكُلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها
 ويدخل حب الطاعات ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه من القلب ، وتوظف
 على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات ، وإلا كان كن سلم المبيع
 ولم يأخذ الثمن . فإذا وقى سمرط الخالين في الأخذ والترك فليست بمر ببيعته الذي باع
 به . فإن الذي نأمله بهذا البيع وفي العهد . من سلم حاضرا في عتب وسلم الحاضر
 وأخذ بسمي في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراقه من سببه إن كان العاقد
 مما يُوثق بصدقه وفدوته ووفائه العهد . وما دام متمسكا لآلئها فلا يصح زهده
 أصلا . ولذلك لم يصف لله تعالى إخوة يوسف الزهد في دنياهم وإن كانوا قد
 قالوا : (يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَائِنَا مِنْهُ) وعزموا على إبعاده عن عزموا على إبعاده
 يوسف حتى تقع فيه أحدهم فترك ، ولا وصفهم أيضا الزهد في يوسف عند
 العزم على إخراجه إلا عند التسامح والبيع . فعلاجه الرعية الإسلامية . وعلاجه الزهد
 الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت
 فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم تكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك
 الزهد ، لأن ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه . وربما يسهو بك الشيطان بغروره
 ويخيل [إليك] أن الدنيا وإن لم تأت فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تتدلى بحمل

غروره دون أن [تستوثق و] تستظهر بموثق غليظ من الله تعالى، فإنك إذا لم تجتزب حال
 القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من طأن بنفسه كراهة المعاصي عند
 تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مُكَدَّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها . وإذا
 كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق بوعدها في المباحات . والموثق
 الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجزبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وقت بما
 وعدت على الدوام مع آتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق
 بها وتوقفاً ما، ولكن تكون من تغيرها على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة
 الرجوع إلى مفتحي الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى
 ما تركت فقط وذلك عند القدرة . قال : وليس من الزهد بذل المال على سبيل
 السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع ، فذلك كله
 من محاسن العادات ولا مدخل له في العبادات ، إنما الزهد أن تترك الدنيا
 لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة بـ [فأنما كل نوع من الترك فإنه
 يُتصوّر من لا يؤمن بالآخرة ^(١)] فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق به
 وحسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة ، وهى ألد وأهنأ من المال ،
 بل الزاهد من أنه الدنيا راغمة عفواً وصفواً وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان
 جاء وقبح أسم وفوات حظ للنفس ، فتركها خوفاً من أن يأس بها فيكون آتساً
 بغير الله ومحباً لما سوى الله ، ويكون مُشركاً في حب الله غير الله ، أو تركها طمعاً
 في ثواب آخر فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسراري
 والنسوان طمعاً في الحور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة
 وأشجارها ، وترك الترتين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة ، وترك المطاعم

(١) زيادة عن الاحياء . (٢) كذا الاحياء . وفي الأصل : « بموثق عليك » .

اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً، لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وما سوى هذه معاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً . وحيث قدمنا هذه المقدمة من أحوال الزهد في الحال والعلم فلندكر بيان فضيلة الزهد ودم الدنيا .

ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى : (نَخْرِجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم ، وذلك غاية الثناء ؛ وقال تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) جاء في التفسير : على الزهد في الدنيا ؛ وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قيل : معناه أيهم أزهده في الدنيا ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) وقال تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) ... إلى قوله : (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَصْبَحَ وَهْمُهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهْمُهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَثَرُهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " وقال صلى الله عليه وسلم : "إِذَا رَأَيْتَ الْعَبْدَ قَدْ أُوتِيَ مِثْقَلًا وَزَهْدًا فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَلْقَى الْحِكْمَةَ " وقال تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ

الحِكْمَةُ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) ، ولذلك قيل : من زهد في الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبك الله فأزهد في الدنيا" بفعل الزهد سببًا للحبة ، فمن أحبه الله فهو في أعلى الدرجات ، فبذبحي أن يكون الزهد في أفضل المقامات . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : "إن الثور إذا دخل القلب أنشرح له الصدر وأنفسح" . قبل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للوت قبل نزوله" ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ" قالوا : إنا نستحي من الله ، قال : تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا مؤمنون ، قال : "وما علامة إيمانكم ؟" فذكروا الصبر على البلاء ، والشكر على الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشهامة بالمدينة إذا نزلت بالأعداء ، قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تنموا ما لا تسكنون ولا تتأفسوا فيما عندهم ترحلون" ، بفعل الزهد نكلمة إيمانهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بإيل عشار حقل وهي الحوامل . وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم ، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظهر . فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يا رسول الله ، هذه أنفس أموالنا ، لم لا تنظر إليها ؟ فقال : قد نهاني الله عن ذلك ، ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنِمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) . وروى مسروق عن

(١١٥)

عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ألا تستطعم الله فَيُطْعِمَكَ ؟ قالت : وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع ، فقال : ” يا عائشة والذي نفسى بيده لو سألت ربى أن يُجِىرى معى جبال الدنيا ذَهَبًا لأَجراها حيث شئتُ من الأرض ولكن آخَرْتُ جُوع الدنيا على شَبَعها وفقر الدنيا على عِناها وحرب الدنيا على فرحها يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لِمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن أن يُكَلِّفنى ما كَلَّفهم فقال (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) والله ما لى بُدٌّ من طاعته وإنى والله لأَصْبِرَ كَمَا صَبَرُوا جهدى ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله ” .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحات قالت له أخته حفصة : أليس لَينَ الثياب إذا وَفَدَت عليك الوفود من الآفاق ، ومُرُ نصنعة طعام تَطْعَمُهُ وتُطْعَم من حصره . فقال : يا حفصة . أليس تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ قالت : بلى ، قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيت في النبوة كذا وكذا سنة لم يَسْبِعْ هو ولا أهل بيته غُدُوَّةَ إلا جاعوا عشية . ولا سَبِيعُوا عشية إلا جاعوا غُدُوَّةَ ؟ وناشدتك الله . هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لَيت في النبوة كذا وكذا سنة لم يَسْبِعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ؟ وناشدتك الله . هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَرَّبَتم إليه [يوماً] طعاماً على مائدة فيها آرتفاع فشَقَّ ذلك عليه حتى تغيَّرَ لونه ثم أمر بالمائدة فُرِفِعَتْ ووُضِعَ الطعامُ على دون ذلك أو وُضِعَ على الأرض ؟ ناشدتك الله . هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عِبَاءَةٍ مَثْنِيَةٍ فُتْنِيَتْ له ليلة أربع

طاقات فنام عليها ، فلما استيقظ قال : ” منعّموني قيامَ الليلة بهذه العبادة آمنوها باثنتين كما كنتم تتّوّنهن ” . وناشدتك الله ، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَصْعُ ثِيَابَهُ لَتُغْسَلَ بِأُتْبَانِهِ لَيْلًا فَيُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَمَا يَجِدُ ثَوْبًا يَخْرُجُ بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى تَحِفَّ ثِيَابُهُ فَيَخْرُجُ بِهَا إِلَى الصَّلَاةِ ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صَنَعَتْ لَهُ أَمْرَأَةٌ مِنْ بَنِي ظَفَرٍ كِسَاءَيْنِ إِزَارًا وَرِدَاءً وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْآخَرَ ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ بِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ قَدْ عَقَدَ طَرَفِيهِ إِلَى عُنُقِهِ فَصَلَّى كَذَلِكَ ؟ فَمَا زَالَ [يقول] حَتَّى أَبْكَاهَا ، وَبَكَى عَمْرُ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَاتَّخَبَ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّ نَفْسَهُ سَتَخْرُجُ . وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ زِيَادَةٌ مِنْ قَوْلِ عَمْرٍ وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ لِي صَاحِبَانِ سَلَكَا طَرِيقًا فَإِنْ سَلَكَتُ غَيْرَ طَرِيقَهُمَا سَلَكَتُ بِي طَرِيقٌ غَيْرُ طَرِيقَهُمَا ، وَإِنِّي وَاللَّهِ سَأَصْبِرُ عَلَى عَيْشِهِمَا الشَّدِيدِ لَعَلِّي أُدْرِكَ مَعَهُمَا عَيْشَهُمَا الرَّغِيدَ . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ” لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَغَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلَا يَلْبَسُ إِلَّا الْعَبَاءَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لِيُبْتَغَى بِالْفَقْرِ حَتَّى يَفْتَلَهُ الْقَمَلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْكُمْ ” . وَعَنْ أَنَسٍ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ” لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ ” . وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ ۚ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” تَبًّا لِلدُّنْيَا ! تَبًّا لِلدُّنْيَارِ وَالْدَّرْهِمِ ! “ فَقُلْنَا : نَهَانَا اللَّهُ عَنْ كَثْرِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَأَيُّ شَيْءٍ نَدْخِرُ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكَرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً يُعِينَهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ ” . وَفِي حَدِيثٍ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ” مَنْ أَثَرِ الدُّنْيَا

على الآخرة آتلاه الله تعالى ثلاث هَمًّا لَا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَسْتَعْنِي أَبَدًا وَخِرْصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”لَا يَسْتَكِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَلَّا يُعْرِفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرِفَ وَحَتَّى تَكُونَ فِلَةً الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ“ . وقال المسيح عليه السلام : الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَأَعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا . وقيل له :

يَا نَبِيَّ اللَّهِ . لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَبْنِيَ بَيْتًا نَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ ! قَالَ : آذِيبُوا فَأَبُوا بَيْتًا عَلَى الْمَاءِ ؛ فَقَالُوا : كَيْفَ يَسْتَعْمِلُ بَيْتًا عَلَى الْمَاءِ ! قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ عِبَادَةٌ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا ! وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”إِنْ رَأَى عَرَّصٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِي تَطْجَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ لَا بَارَبَ وَلَكِنْ أَجْوَعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمَ الَّذِي أَجْوَعُ فِيهِ فَأَنْضِرُكَ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ“ .

وَعَنْ أَبِي عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : ”خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ يَمْشِي وَجَبْرِيلُ مَعَهُ فَصَعِدَ عَلَى الصَّفَا . فَقَالَ لَهُ الْبَيْتُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمْسَى لَأَلِّ مُحَمَّدٌ كَفَّ سَوِيْقٍ وَلَا سَمْعَةً دَقِيقٍ . فَلَمْ يَكُنْ كَلَامَهُ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ سَمِعَ هَدَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَفْطَعَنَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَمَرَ اللَّهُ الْقَبَامَةَ أَنْ تَقُومَ“ قَالَ : لَا . وَلَكِنْ هَذَا إِسْرَافِيلُ وَدُنِيَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلَامَكَ ؛ فَأَتَادَ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ مَا ذَكَرْتَ . فَبِعْنِي بِمِفْتَاحِ الْأَرْضِ وَأَمْرِي أَنْ أَغْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ زُرْمَرْدًا وَيَاقُوتًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً فَعَلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلَكًا وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا . فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جَبْرِيلُ أَنْ يَوَاضِعَ اللَّهَ . فَقَالَ : ”نَبِيًّا عَبْدًا“ . لَا . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ”إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغْبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَعَثَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ“ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ عَامًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا“ .

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار هلكا عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب". والأحاديث في ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية؛ فلنذكر ما جاء من ذلك في الأثر.

٥ قيل: جاء في الأثر: لا تزال إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يسألوا ما نقص من دنيائهم، وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنيائهم على دينهم. فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال: تابعا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين: أتم أكثر أعمالا وأجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم، قيل: ولم ذاك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد. والآثار أيضا في ذلك كثيرة فلا تطول بسردها.

ذكر بيان ذم الدنيا وشيء من المواعظ

والرقائق الداخلة في هذا الباب

١٥ وقد ورد في كتاب الله عز وجل كثير في ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة؛ وهو أيضا مفسود الأنبياء ولذلك بعثوا، فلا حاجة إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها. فلنذكر نبذة من الأخبار والآثار الواردة في ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزالي رحمه الله في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين؛ فمن ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر على شاة ميتة فقال: "أَتَرَوْنَ أَنَّ الشاة هَيَّئَتْ عَلَى أَهْلِهَا؟" قالوا: مِنْ هَوَانِهَا عَلَيْهِمْ أَلقَوْهَا؟ قال: "والذى نفسى بيده للدنيا أهون على

الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة [ماء]“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”حُبُّ الدنيا أَشُّ كُلِّ خَطِيئَةٍ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”يَا عَجَباً كُلُّ الْعَجَبِ لِلصَّدَقِ بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور!“ .

٥

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مَرَبَلَةٍ فقال : ”هَلُمُّوا إلى الدنيا وأخذ خِرْقاً قد بَلَيْتَ على تلك المَرَبَلَةِ وَعِظَافاً فدَنِيَتْ فَنَالَ هذه الدنيا“ وهذه إشارة إلى أَنَّ رِيْبَتَهَا ستخلق مثل تلك الخِرْق . وَأَنَّ الأجسام التي تُرى بها ستصير عظاما بالية . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تَخْذُوا الدنيا رِبّاً فَتَحْذَكم عبيدا . اكْتَبَرُوا كَتَرَكُمْ عند من لا يُصَيِّعُ ، فَإِنَّ صاحب كثر الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كثر الله لا يخاف عليه الآفة . وقال أيضا : بامعشر الحَوَارِيِّينَ ، إِنِّي قد أَكْبَبْتُ لَكُمْ الدنيا على وجهها فلا تُنْعِشوها بعدى . فَإِنَّ من خَبِثَتِ الدنيا أَنَّ الله عَصِيَ فيها ، وإن من خَبِثَتِ الدنيا أَنَّ الآخرة لا تُدْرِكُ إِلا بِتركها ، أَلَا فاعْبُرُوا الدنيا ولا تَعْمُرُوها ، وأَعْلَمُوا أَنَّ أَصَلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدنيا ، وَرَبُّ شهوة أَوْرَشَتْ حُرّاً طويلاً . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال : ”إِنَّ الله جَلَّ شَأْؤُهُ لم يَخْلُقْ خَلْقاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدنيا وَإِنَّهُ مَذَّ خَلْقَهَا لم ينظر إليها“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”الْهَاجِمُ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنَ آدَمَ مَا لِي مَا لِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَنْتَ أَوْ لَيْسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ!“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عدل له وعليها يُعَادَى من لا علم له

١٠

١٥

وعليها يَحْسُدُ من لا فِقَّةَ له ولها يسعى من لا يَقِينَ له“ . وقال صلى الله عليه وسلم :
 ” من أصبح والدنيا أكبرُهمَّه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربعَ خصال
 هما لا ينقطع عنه أبداً وشغلاً لا يتفترغ منه أبداً وفقراً لا يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ
 منه أبداً“ . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ” يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعاً بما فيها“ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدي
 وأتى بى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَرَبْلَةٌ فيها رؤوس ناس وعِذرات ونحرق وعظام ،
 ثم قال : ” يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرِّصُ كحرِّصكم وتأمُلُ آمالكم هى اليوم
 عظامٌ بلا جلد ثم هى صائرة رماداً وهذه العِذرات هى ألوان أطعمتهم آكثسبوها
 من حيث آكثسبوها ثم قدَّفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتعالمونها وهذه
 انحرق البالية كانت رِياشهم ولباسهم فأصبحت الريح تُصَفِّقُها وهذه العظام عظام
 دوابهم التى كانوا ينجعون عليها أطراف البلاد من كان بائِكاً على الدنيا فليكن “ ،
 قال : ما برحنا حتى آتتْ بكأؤنا . وقال صلى الله عليه وسلم : ” الدنيا موفوفة بين
 السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا يظُر إليها وتقول يوم القيامة : باربِّ آجعلنى
 لأدنى أوليائك نصيباً اليوم فيقول آسكُننى يا لاشيء إنى لم أرضاك لهم فى الدنيا
 ١٥ أرضاك لهم اليوم“ ! . وقال صلى الله عليه وسلم : ” لَيَجِيَنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم
 كجبال تِهامة فيؤمرُّ بهم إلى النار“ قالوا : يا رسول الله ، مُصَلِّين؟ قال : ” نعم [كانوا]
 يُصَلُّون ويَصُومون يأخذون هَنَّةً من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وَشَبُّوا
 عليه “ . وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبه : ” المؤمن بين محافتين بين
 أَجَلٍ قد مضى لا يدرى ما الله صاع فيه وبين أَجَلٍ قد بقى لا يدرى ما الله قاض
 فيه فليترَّود العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لمَوْتِه ومن

(١) زيادة عن الاحياء .

- شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”احذروا الدنيا فإنها أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَأْرُوتَ“ . وقال عليه السلام لأصحابه : ”هل منكم مَنْ يريد أن يُذهِبَ اللهُ عنه الْعَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيرًا إِلَّا إِنَّهُ مِنْ رَغَبٍ فِي الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيهَا أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا وَقَصُرَ أَمَلُهُ فِيهَا أَعْطَاهُ اللهُ عِلْمًا غَيْرَ تَعَلُّمٍ وَهُدًى غَيْرَ هِدَايَةٍ إِلَّا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمُ الْمُلْكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالْتَّجَبُرِ وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْفَخْرِ وَالْبُخْلِ وَلَا الْمَحَبَّةَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى أَلَا مَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ لِلْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبَقْعَاءِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ لِلذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللهِ تَعَالَى أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صَدِيقًا“ . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : وَيَلُِّ لصاحب الدنيا ! كيف يموت ويتركها ، وبأمنها وتغرُّه ، وَيَثْبُقُ بها وتخذله ! ؛ وَيُوَلِّ للغترين ! كيف أنتم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يؤعدون ! وَيُوَلِّ لمن الدنيا همه ، والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ! وقيل له : عَلِمْنَا عِلْمًا وَاحِدًا يَحْبِنَا اللهُ عَلَيْهِ . قَالَ : أَنْفِضُوا الدُّنْيَا يَحْبِكُ اللهُ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لو تعلمون ما أعلم لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلَا تَرْتَمِ الْآخِرَةُ“ .

- وَمِنَ الْآثَارِ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ دَاوُدُ بْنُ هَلَالٍ قَالَ : مَكْتُوبٌ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا دُنْيَا ، مَا أَهْوَنَكَ عَلَى الْأَبْرَارِ الَّذِينَ تَصَنَعْتَ وَتَزَيَّنْتَ لَهُمْ ! إِنِّي قَدَفْتُ فِي قُلُوبِهِمْ بَغْضًا وَالصَّدُودَ عَنْكَ . وَمَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَهْوَنَ عَلَى مَنْكَ ، كُلُّ شَأْنِكَ صَغِيرٌ ، وَإِلَى الْفَنَاءِ تَصِيرِينَ ، قَضَيْتُ عَلَيْكَ يَوْمَ خَلْقِكَ أَلَّا تَدُومِيَ لِأَحَدٍ وَلَا يَدُومَ أَحَدٌ لَكَ . وَإِنْ بَعَلَ بِكَ صَاحِبُكَ وَشَتَّ عَلَيْكَ ؛ طَوْبِي لِلْأَبْرَارِ الَّذِينَ أَطْلَعُونِي مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى

الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم، ما لهم عندى من الخير إذا وفدوا إلى من قبورهم [إلا] النور يسرى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى . وقال عمار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى فى الأبنية والطرق، فقال : يا معشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا؛ فقالوا : ياروح الله، ودّدنا أننا علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى فأوحى إليه : إذا كان الليل فنادهم يُحييوك؛ فلما كان الليل أشرف على نَشْرِهِم نادى يا أهل القرية، فأجابه مُجيب لبيك ياروح الله؛ فقال : ما حالكم وما قِصَّتكم؟ قال : بنّا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية؛ قال : وكيف ذاك؟ قال : لُحِبْنَا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى؛ قال : وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبيّ لأمّه، إذا أقبلت فِرِحَ بها، وإذا أدبرت حَزِنَ وبكى عليها؛ قال : فما بال أصحابك لا يُحييوني؟ قال : لأنهم مُلْجَمُونَ بلُجْمٍ من نار بأيدى ملائكة غِلاظٍ شَدَادٍ؛ قال : فكيف أُجبتنى من بينهم؟ قال : لأنّى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا مُعَلَّقٌ على شفير جهنّم لا أدرى أنجو منها أم أُكَبّ فيها؛ فقال المسيح للحواريين : لَأَكُلُ الخبز الشعير بالملح الجريش ولُبُسُ المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة . قيل : وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن يا موسى لا تركننّ إلى حُبّ الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هى أشدّ منها .

وقال لُثْمَانُ لآبَنِهِ : يا بُنَيَّ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناسٌ كثير، فلنكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عز وجل، لعلك تجو وما أراك ناجيا . وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح

(١) زيادة عن الاحياء ج ٣ ص ١٨٨

(٢) فى الأصل وفى الاحياء : « قالوا » والسادق يقضى الأفراد .

في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاءٌ ليلَةٍ وغدأٌ يوم، فلا تَهْلِكْ في أَكْلَةٍ، وَصُم [عن] الدنيا وَأَفْطِرْ على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار .

وقيل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِقُ الأبدان، وَيَجِدُّ الآمال ، وَيُقَرِّبُ المِيتَةَ، وَيُبْعِدُ الأُمْنِيَّةَ ؛ قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تَعَبَ ، ومن فاته نَصَبَ . وفي ذلك قيل

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِعَيْشِ يَسْرُدَ ، فسوف لعمري عن قريب يَلُومُهَا
إِذَا أَذْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً * وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومَهَا

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها .

١٠ فلا أَسْكُنُ إليها ، فَإِنْ عَيْشَهَا نَكَدَ ، وصموها كَدَرُ ، وَأَهَانَهَا مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ ، إِنْما بِنِعْمَةٍ زَائِلَةٍ ، أَوْ بِلِيَّةٍ نَازِلَةٍ ، أَوْ مِيَّةٍ قَاصِيَةٍ . وقال أبو حازم : إِبْنَاكُمْ والدنيا ، فَإِنَّهُ بِلَغْنِ أَنَّهُ يُوقِفُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُعْظَمًا لِلدُّنْيَا فيقال : هَذَا عَظَمَ مَا حَقَّرَهُ اللَّهُ . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيِّفٌ وَمَالُهُ عَارِيَةٌ ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفي ذلك قيل

١٥ وما المسأل والأهلون إلا وديعةٌ * ولا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وزار رابعة السدوية أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : أَمْسِكُوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقال رجل لعلی رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لَنَا الدُّنْيَا ؛ فقال : وما أَصِفُ لَكُمْ مِنْ دَارٍ مَنْ صَحَّ فِيهَا مَا آمِنَ ، وَمَنْ سَقِمَ فِيهَا نَدِمَ ، وَمَنْ أَفْتَقَرَ

فيها حزن، ومن آستغنى فيها قُتِن، في حَلَالِهَا الْحَسَابُ، وفي حرامها العذاب . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : من قال ذا ؟ مَنْ خَلَقَهَا مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهَا، إياكم وما شَغَلَ من الدنيا فإن الدنيا كثيرةُ الأَشْغَالِ، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغلٍ إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرَةُ أَبْوَابَ . وقال أيضا : مسكينُ ابنِ آدمَ رَضِيَ بدارِ حلالِها حساب ، وحرامِها عذاب ، إن أخذه من حلِّه حُسُوبَ به ، وإن أخذه من حرامِ عُدْبَ به ، ابنُ آدمَ يستقلُّ ماله ولا يستقلُّ عمله ، يَفْرَحُ بِمَصْيِنِهِ في دينه ويحزَنُ من مصيبتِهِ في ديناه . وقال داود الطائي : يا ابنَ آدمَ، فِرْحَتَ ببلوغِ أَمَلِكْ، وإتَمَّا ببلغته بآتِقْضَاءِ أَجَلِكْ، ثم سَوِّفَتَ بِعَمَلِكْ، كَأَنَّ مَنْفَعَتَهُ لغيرك . وقال بِشَرُ : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طُولَ الْوَقُوفِ بين يديه . وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيءٌ يَسُرُّكَ إلا وقد أَلْصَقَ اللهُ إِلَيْهِ شَيْئًا يَسُوءُكَ . وقال الحسن : أَهْنِئُوا الدُّنْيَا، فوالله ما هي لأَحَدٍ بِأَهْنَأَ مِنْهَا لِمَنْ أَهَانَهَا . وقال أيضا : إذا أَرَادَ اللهُ بعبْدٍ خَيْرًا أعطاه عَطِيَّةً من الدنيا ثم يُمَسِّكُ، فإذا نَفِدَ أَعَادَ عَلَيْهِ، وإذا هَانَ عَلَيْهِ عَبْدٌ بَسَطَ لَهُ الدُّنْيَا بَسْطًا . قال الجنيدي : كان الشافعي رَحِمَهُ اللهُ مِنَ الْمُرِيدِينَ الْبَاطِقِينَ بِلِسَانِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ، وَعَظَّ أَخَاهُ فِي اللهِ تَعَالَى وَخَوْفَهُ بِاللَّهِ فَقَالَ : يَا أَحَى، إِنَّ الدُّنْيَا دَحْضُ مَرَلَةٍ، وَدَارُ مَدَلَةٍ، عُمرَانِهَا إِلَى الْخُرَابِ صَائِرٌ، وَسَاكِنُهَا إِلَى الْقُبُورِ زَائِرٌ، شَمَلُهَا عَلَى الْفُرْقَةِ مَوْقُوفٌ، وَغِنَاهَا إِلَى الْفَقْرِ مَصْرُوفٌ، الْإِكْثَارُ فِيهَا إِعْسَارٌ، وَالْإِعْسَارُ فِيهَا تَسَارٌ، فَافْزَعْ إِلَى اللهِ وَارْضَ بِرِزْقِ اللهِ . لَا تُسْتَسْلَفُ مِنْ دَارِ بَقَائِكَ فِي دَارِ فَنَائِكَ، فَإِنَّ عَيْشَكَ فِي زَائِلٍ، وَجِدَارٌ مَائِلٌ، أَكْثَرُ مِنْ عَمَلِكَ، وَقَصْرٌ مِنْ أَمَلِكَ . وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب .

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعْدَاتِ [تجارون و] تَبْكَونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرْكَبُنَّ مَوَالِكُمْ لَا حَارِسَ

لها ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته. ما لكم لا تتحاربون ولا تتأصحنون وأنتم إخوان على دين [الله]، ما فزع بين أهوائكم إلا خُبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحابيتم. ما لكم تتأصحنون في أمر الدنيا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحبّه ويعينه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم. لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك بأموركم. فإن قلتم: حب العاجلة غالب، فإننا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للأجل مما تكذون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه. فبئس القوم أنتم! ما حققتم إيمانكم بما يُعرف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبين لكم ولنريك من التور ما تطعن إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمتقوصة عقولكم فنعذرکم؛ إنكم لتبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم. ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآثم، وعاقبتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم! إني لأرى الله قد تبرأ منكم. ياق بعضكم بعضا بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بأكراه مخافة أن يستقبله صاحبه بمشله، فاصطحبتم على

(١٢٠)

(١) زيادة عن الإحياء. (٢) في الأصلين: «ما لكم لاتأصحنون في أمر الدنيا» بدخول لا اليافة والسياق يقتضي حذفه. وفي الإحياء: «ما لكم تتأصحنون في أمر الدنيا ولا تتأصحنون في أمر الآخرة ولا يملك أحدكم...». (٣) كذا في الإحياء، وفي أحد الأصلين: «فأتونا فلنبين لكم ولنريك من التور ما تطعن إليه قلوبكم». بتوكيد الأول وفي أصل آخر هكذا من غير توكيد. (٤) كذا في الإحياء، وفي الأصلين: «ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم». (٥) كذا في الإحياء، وفي الأصل: «فاصطحبتم على الغل...».

الفلّ، ونبتت مراعيكم على الدّمن، وتصافيتم على رفض الأجل . ولوّددت أن الله أراحني منكم وألحقني بمن أحبّ رؤيته، ولو كان حيّاً لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتمكم، وإنّ تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً . والله أستعين على نفسي وعليكم .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى : «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة؛ فاحذرّها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركّها، والغنى منها فقرها؛ لها في كل حين قتيل؛ تُنذَل من أعزّها، وتُفقّر من جمعها؛ هي كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه؛ فكُن فيها كالمداوي جراحته، يَحْتَمِي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء؛ فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة الخدّاعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وحلّت بآمالها، وسوّفت بخطّابها؛ فأصبحت كالعروس المجنّونة^(١)، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قالية؛ فلا الباقي بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدرّح، والعارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكّر؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطنى ونسى المعاد، فشغل لبه حتى زلت [به] قدمه، فعظّمت ندامته، وكثّرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألّمه، وحسرات الفوت بغصّته؛ وراغب فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب؛ نخرج بغير زاد، وقدم على غير مهّاد؛ فاحذرّها يا أمير المؤمنين، وكُن أسراً ما تكون فيها أحذراً ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما أطمأن فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السّار فيها أهلها غار، والنّافع فيها غدار ضار؛ وقد وُصل الرّخاء فيها بالبلاء، وجُعِل البقاء فيها

(١) في الأصل «المجنّبة» والفعل واوى كما في القاموس . (٢) زيادة من الاحياء .

(٣) كذا في الاحياء. وفي الأصلين : «ومن راعب» بزيادة «من» والسياق يأبأها .

(٤) كذا في الإحياء، وفي الأصلين : «والنّافع فيها غدا ضار» .

- إلى قَفاء، فسروها مشوبٌ بالأحزان، لا يرجع منها ما ولى وأدبر، ولا يُدرى ما هو آتٍ فيتظر، أمانها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشها نكد، وآبن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَدَرٍ، فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت الدنيا أيقظت النائم ونهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ! فما لها عند الله جل ثناؤه قَدَر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جَاحَ نَعُوضَةٍ فَبَيَّ أن يقبها إذ كَرِهَ أن يُخالِفَ على الله أمره، أو يُحِبَّ ما أنقض خالقه، أو يرفع ما وَضَعَ مَلِكُهُ. فزَوَّاهَا عن الصالحين آخِباراً. وبسطها لأعدائه آعْتَاراً، فيظن المغرور المتقندر عليها أنه أَكْرَمُ بها. ونسب ما صنع الله عز وجل بحمد صلى الله عليه وسلم حين شدَّ الحرج على بطنه. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مُقْبِلًا فَقُلْ: دَنْتُ عُجَلَاتِ عَقُوبَتِهِ، وإذا رأيت الفقر مُقْبِلًا فَقُلْ: مرحباً بشعار الصالحين. فإن شئت آفنديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي الجوع، وشيعاري الخوف. ولباسي الصوف، وصالئي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودأبي رجلاي، وطعامي وفاكهي ما شئت الأرض، أبيت لبس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء وليس على الأرض أغنى مني.
- وقال بعضهم لبعض الملوكة: إن أحق الناس بذي الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرقه، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجمه بشيء هو وضين به من أحبابه، فالدنيا أحق بالدم، هي الآخذة لما أعطى، الراجعة فيما
- (١) زواه زباً وزوياً: نخاه.

تَهَبْ؛ بِنَا هِيَ تُضَحِّكُ صَاحِبَهَا إِذْ أَضْحَكَتْ مِنْهُ غَيْرَهُ، وَبِنَا هِيَ تَبْكِي لَهُ إِذْ بَكَتْ عَلَيْهِ، وَبِنَا هِيَ تَبْسُطُ كَفَّهُ بِالْإِعْطَاءِ إِذْ بَسَطَهَا بِالْإِسْتِرْدَادِ؛ تَعْقِدُ النَّاجِ عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهَا الْيَوْمَ وَتُعَفِّرُهُ فِي التَّرَابِ غَدًا؛ سِوَاءِ عَلَيْهَا ذَهَابُ مَا ذَهَبَ وَبَقَاءُ مَا بَقِيَ، تَجِدُ فِي الْبَاقِي مِنَ الذَّاهِبِ خَلْفًا، وَتَرْضَى بِكُلِّ مَنْ كَلَّ بَدَلًا.

وعن وهب بن مُنَبِّه أنه قال : لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يَرُوعَتُكُمَا لِبَاسُهُ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي لَيْسَ يَنْطِقُ وَلَا يَطْرِفُ وَلَا يَنْقَسُ إِلَّا بِإِذْنِي، وَلَا يُعْجِبُكُمَا مَا مَتَّعَ بِهِ مِنْهَا فَإِنَّمَا هِيَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا وَزِينَةُ الْمُتَرَفِّينَ، فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَزَيِّنَكُمَا بِزِينَةٍ مِنَ الدُّنْيَا يَعْرِفُ فِرْعَوْنُ حِينَ يَرَاهَا أَنَّ قُدْرَتَهُ تَعِجْزُ عَمَّا أُوتِيْتُمَا لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي أُرْغِبُ بِكُمْ عَنْ ذَلِكَ فَأَزْوِي ذَلِكَ عَنْكُمَا، وَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي. إني لأزودهم عن نعيمها كما يزود الراعي الشفيع غنمه عن مراتع الهلكة، وما ذاك طوائفهم على ولكن ليستكموا نصيبهم من كرامتي سالمًا مُوقِرًا، إِنَّمَا يَتَرَيَّنَ لِي أَوْلِيَائِي بِالذَّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْخُوفِ وَالْتَقْوَى تَبَّتْ فِي قُلُوبِهِمْ فَتُظْهِرُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ، فَهِيَ ثِيَابُهُم الَّتِي يَلْبَسُونَ، وَدِثَارُهُم الَّذِي يُظْهِرُونَ، وَضَمِيرُهُم الَّذِي يَسْتَشْعِرُونَ، وَنَجَاتُهُم الَّتِي بِهَا يَفُوزُونَ، وَرَجَاؤُهُم الَّذِي إِيَّاهُ يَأْمُلُونَ، وَمَجْدُهُم الَّذِي بِهِ يَفْخَرُونَ، وَسِيَاهُهُم الَّتِي بِهَا يَعْرِفُونَ؛ فَإِذَا لَقِيْتَهُمْ فَاحْفَظْ لِمِ جَنَاحِكَ وَذَلِّلْ لَهُمْ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَخَافَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَارَبَةِ، ثُمَّ أَنَا النَّائِرُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) وخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوما [خطبة] فقال فيها :

اعلموا أنكم مَيِّتُونَ، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومَجْزِيُونَ بِهَا، فلا تَغْتَرِكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ، وَبِالْفَنَاءِ مَعْرُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَوْصُوفَةٌ؛

- وكل ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دُولٌ وسِجال؛ لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزلها؛ بينا أهلها فى رخاءٍ وسرور، إذا هم منها فى بلاءٍ وغرور؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم؛ وإنما أهلها فيها أغراضٌ مُستهدفةٌ ترميهم بسهامها، وتُقصيهم بحمامها؛ وكلُّ حَتْفٍ فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور. وأعلموا عبادَ الله أنكم وما أتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَنْ
- قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعماراً، وأشدَّ منكم بطْشاً وأثمر دياراً. وأبعد آثاراً؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طول ثقْلها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم غافية؛ استبدلوا بالقصور المشيدة، والسرير والنفارِق المهددة. الصخور والأحجار المُستندة، فى العبور اللاتئة المالحدة؛ فحلَّها مقترِب، وساكنها مُعترِب، بين
- أهل عِمارةٍ مُوحِشين، وأهل حَمالةٍ مُنشاغلين؛ لا يستأنسون بالعُمران، ولا يتواصلون
- تواصل الحيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب المكان والحوار، ودنو الدار؛ وكيف يكون بينهم نواصلٌ وقد طعنهم بكَلكله البلى، وأكثهم الجنادل والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غُضارة العيش زُفاناً؛ جُع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيات هيات! كلاً إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُعْتَبون. فكان قد صرَّته إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة
- فى دار المُنوَّى، وأزنتهم فى ذلك المَضْجَع، وضمَّكم ذلك المُستودع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثرت القبور، وحُصِّل ما فى الصدور؛ ووَقِّتُم للتَحْصِيل. بين يدى الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهتكت عنكم المحب والأسرار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كُلُّ نِيسٍ ما كسبت.
- إن الله عز وجل يقول: ﴿لَيَجْزَى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ بِمَا فِيهِمْ وَيَقُولُونَ

يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا . جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه، مُتَّبِعِينَ لأوليائه، حَتَّى يُحْلِلَنَا وإياكم دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ حميد مجيد .

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطْرِي بن الفُجَاءة وسترده في كلام البلغاء في باب الكتابة .

وقال بعضهم : يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَعْمَلُوا عَلَى مَهَلٍ، وَكُونُوا مِنْ اللَّهِ عَلَى وَجَلٍ، وَلَا تَعْتَرَوْا بِالْأَمَلِ، وَنَسِيَانِ الْأَجَلِ، وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ خَدَاعَةٌ، قَدْ تَنَحَّرْتُ لَكُمْ بَغْرُورَهَا، وَفَتَنَتْكُمْ بِأَمَانِيهَا، وَتَزَيَّنَتْ لِحُطَّابِهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالْعُرُوسِ الْمُجَلَّوَةِ، الْعَيُونُ إِلَيْهَا نَاطِرَةٌ، وَالْعُلُوبُ عَلَيْهَا عَاكِفَةٌ، وَالنَّفُوسُ لَهَا عَاشِقَةٌ، فَكَمْ مِنْ عَاشِقٍ لَهَا قَتَلَ، وَمُطْمَئِنٍّ إِلَيْهَا خَذَلَتْ، فَانْظُرُوا إِلَيْهَا بَعِينَ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّهَا دَارُ كَثُرَتْ بِوَأَثْقُمَا، وَذَقَهَا خَالِقُهَا، جَدِيدَهَا يَسْلَى، وَمَا كُنْهَا يَفْنَى، وَعَزِيزُهَا يَذَلُّ، وَكَثِيرُهَا يَقِلُّ، وَحَيٍّ يَمُوتُ، وَخَبِيرُهَا يَفُوتُ، فَاسْتَيْقِظُوا مِنْ غَفْلَتِكُمْ، وَأَنْتَبِهُوا مِنْ رَقَدَتِكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَقَالَ : فَلَانٌ عَلِيلٌ، أَوْ مُدْنَفٌ ثَقِيلٌ، فَهَلْ عَلَى الدَّوَاءِ مِنْ دَلِيلٍ، أَوْ عَلَى الطَّبِيبِ مِنْ سَبِيلٍ، فَيُدْعَى نَاكُ الْأَطْبَاءِ، وَلَا يُرْجَى لَكَ الشِّفَاءُ، ثُمَّ يَقَالُ : فَلَانٌ أَوْصَى، وَلِمَالِهِ أَحْصَى، ثُمَّ يَقَالُ : قَدْ ثَقُلَ لِسَانُهُ فَمَا بَكَلَّمَ إِخْوَانَهُ، وَلَا يَعْرِفُ جِيرَانَهُ، وَعَرِقَ عِنْدَ ذَلِكَ جَبِينُكَ، وَتَنَاعَ أَنْيُنُكَ، وَثَبَتَ يَقِينُكَ، وَطَمَحَتْ جُفُونُكَ، وَصَدَقَتْ ظُنُونُكَ، وَتَلَجَّجَ لِسَانُكَ، وَبَكَى إِخْوَانُكَ، وَقِيلَ لَكَ : هَذَا أَبْنُكَ فَلَانٌ، وَهَذَا أَخُوكَ فَلَانٌ، وَنُمِنْتَ الْكَلَامَ فَلَا تَنْطِقُ، ثُمَّ حَلَّ بِكَ الْقَضَاءُ، وَانْتَرَعْتَ نَفْسُكَ مِنَ الْأَعْضَاءِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَ ذَلِكَ إِخْوَانُكَ، وَأُحْضِرْتَ

أَكْفَانِكْ، فَمَسْلُوكْ وَكَفَنُوكْ، فَانْقَطِعْ عُوَادُكَ، وَاسْتِرَاحْ حُسَادُكَ؛ وَأَنْصَرِفْ أَهْلَكَ إِلَى مَالِكَ، وَبَقِيتْ مُرْتَهَنًا بِأَعْمَالِكَ .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، ويتخزمك بلباليه وأيامه، حتى يستغرق جميع أجزائك، فيم بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدئك ! لو كُشِفَ لك عما أحدثت الأيام فيك من القص لا ستوحشت من كل يوم بأن عليك . وأستثقلت ممز الساعات بك ؛ ولكن تدير الله فوق تدير الاعتبار ؛ وبالسلو عن غوائل الدنيا ووجد طعم لذاتها، وإنها لأمر من العالَم إذا تجدها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ . اللهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال : أيها الناس، إنكم خلقتُم لأمرٍ إن كنتم نصدقون [به] فإنكم حَقُّقٌ، وإن كنتم تكذبون به إنكم هَلَكِي . إنما خلقتُم للأبد، ولكنكم من دارٍ إلى دارٍ تُتَقَلَّبُونَ . عباد الله، إنكم في دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَصٌ، ومن شراكم شَرَقٌ، لا تصفون نعمة تُسَرُّون بها إلا بمرق أخرى تكهون فراقها، فأعملوا لما أنتم صائرون إليه خالدون فيه ؛ ثم غلبه البكاء ونزل .

١٥ ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأما درجاته فقد قال الغزالي رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث :

الأولى وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتة ولكنّه يحاها ويكتمها، وهذا يسمى التزهد، وهو مبدأ الزهد

٢٠

(١) كذا في الاحياء، وفي الأصل : « لو كشفت عما ... » .

(٢) زيادة عن الاحياء . (٣) الذي في الاحياء : « وان كنتم تكذبون به فإنكم هلكي » .

في حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهد يُذِيب أولاً نفسه ثم كسبه ، والزاهد يُذِيب أولاً كسبه ثم يُذِيب نفسه في الطاعة لافي الصبر على ما فارقته . والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير .

الثانية : الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنه لا يُشَقُّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون مُعْجَباً بنفسه وبزهده ، ويظن بنفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ؛ وهذا أيضاً نقصان .

الثالثة وهي العليا : أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خُزْفَةً وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه ناركا شيئاً | والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أحسن من خُزْفَةٍ بالإضافة إلى جوهرةٍ^(٢) ؛ فهذا هو الكمال في الزهد ، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه ؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهي السفلى : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام ككذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . وفي الخبر : ”إن الرجل ليؤقف في الحساب حتى لو وردت

(١) كذا في الإحياء ، وفي الأصل : « طاعة » .

(٢) زيادة من الإحياء .

مائةٌ بعيرٍ عطاشًا على عَرَقِهِ لَصَدَرَتْ رِوَاءٌ“؛ فهذا زهد الخائفين وكأَنَّهُم رَضُوا بالعدم
لو أُعْذِمُوا فَإِنَّ الْخُلَاصَ مِنَ الْأَلَمِ يحصلُ بِحِزْدِ العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جَنَّتِهِ
من الحُورِ والقصور وغيره ، وهذا زهد الزاجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً
بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سَرْمَدٍ لا آحرله .

الدرجة الثالثة وهي العليا : ألا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا يلتفت قلبه
إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو
مستغرق الهم بالله تعالى ، وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ، لأن من
طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود . وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه .

وطلب غير الله من الشرك الخفي ، وهذا زهد المحبين وهم العارفون ، لأنه لا يحب الله
تعالى خاصة إلا من عرفه ؛ وكما أن من عرف الديار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على
الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذة النظر إلى
وجهه الكريم ، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالحُورِ العين والنظر
إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره .

قال : ولا تَظَنَّ أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبق للذة الحُورِ والقصور
مُتَّسِعٌ في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم الجنة كلذة ملك الدنيا
والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى الاستيلاء على عُصفور
واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب
لللعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن

اللعب بالعصفور في نفسه أعلى والد من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما المرغوب عنه ، فقد كثرت فيه الأقاويل ؛ قال الغزالي رحمه الله : لعلمها تريد على مائة قول ، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، وتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للعمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا .

والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهد في كل صفةٍ للنفس فيها مُتعةٌ ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك .

وفي الدرجة الثالثة : أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم [والجاه] ، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة ؛ قال : وأعنى به كل علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها . قال : فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخرج ما فيه الزهد عن الحصر ؛ وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال : (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَحْرَبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال : (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) ثم رده في موضع آخر إلى اثنين فقال : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) ، ثم رده الكل

في موضع آخر إلى واحد فقال : (وَتَمَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)،
فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه . قال :
فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . وقال أبو سليمان
الداراني : سمعنا في الزهد كلاما كثيرا . والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله
عز وجل ، وقرأ قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) . قال : هو القلب الذي
ليس فيه غير الله . فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه .

وأما أحكامه فتقسم إلى فرص ونقل وسلامة . فالفرص هو الزهد في الحرام ،
والنقل هو الزهد في الحلال . والسلامة هو الزهد في الشهوات . فهذه درجاته وأقسامه
وأحكامه على سبيل الاختصار .

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

قال العراقي رحمه الله : اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى وصول وإلى
مهم . فالوصول كالحيل المستومة — إذ سالب الناس إنما يصبونها للترقي بركوبها وهو قادر
على المشي — وغير ذلك مما لا يخفى . ثم حصر المهمم الضرورية فتميز ما عداها أنه
فُضُول . قال : والمهمم أيضا ينطبق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته على
ما يشرحه من قوله . قال : والمهممات ستة أمور وهي : المطعم ، والملبس ، والمسكن
وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطالب لأغراض .

فالمهمم الأول المطعم ، ولا بد للإنسان من قوتٍ حلال يُقيم صُلبه ، ولكن له طولٌ
وعرض ووقت ؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد
لا يقنع به ، وهو لا يقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصاد على

قدر دفع الجوع عند شدته وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يتنح من غدائه لعشائه ، وهذه الدرجة العليا .

والثانية : أن يتنح لشهر أو أربعين يوما .

والثالثة : أن يتنح لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن أدنر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جداً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرص لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة ، فهذا لا يضاد الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأما عرضه فبالإضافة الى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مد ، وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المساكين في الكفارة ، وما وراء ذلك فهو آتساع وآشتغال بالبطن . ومن لم يقسِد على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب .

وأما بالإضافة الى الجنس فأقله ما يقوت وهو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ، فإذا ميّزت النخالة منه وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله .

وأما الأذم ، فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان ، وأعلاه اللحم وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا .

(١) كذا في الاحياء . وفي الأصل : « ولم يتنح » «لواو» .

وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً ثم يُنظر في وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، وبأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام وأسبوعاً وما زاد عليه . وأنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم واقتصارهم على ما يُمسك الرِّق . قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يُوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار؛ قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء . وجاء أهل قُبَاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشرية من لبن مشوية بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : "أما إني لست أكرمه ولكني أتركه تواضعاً لله تعالى" . وأتي عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشرية من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : أعزِلوا عني حسامها . وقال يحيى بن معاذ الرازي : الزاهد الصادق ، قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ؛ الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر مُعْتَمَدُهُ ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مَبْلَغُهُ إن شاء الله تعالى .

(١٢٦)

المهم الثاني الملبس ، وأقل درجاته ما يدفع الحر والبرد ويستريح العورة ، وهو كساء يَتَغَطَّى بِهِ ، وأوسطه قِمِصٌ وَقَلَنْسُوَةٌ وَنَعْلَانِ ؛ وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل ؛ وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجَاوِز حُدَّ الزهد . وشرط الزهد ألا يكون له ثوبٌ يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت ؛ فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من

٢٠

حيث المقدار . وأما الجنس ، فأقله المُسَوَّح الخشنة ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلىاه القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت ، فأقصاه مايسُتَر سَنَة ، وأقله ما يَبْقَى يوما ، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [وإن كان يتسارع الجفاف إليه ^(١)] ، وأوسطه ما يتناسك عليه شهرا وما يقار به . فطلب ما يبقَى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مُضَاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يَتَّبِع ذلك قُوَّتُه ودَوَامُه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محباً للعالم . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم كيف تركوا الملابس . قال أبو بردة أنحرجت لما عائشة رضى الله عنها كساءً مُبَدَّأ وإزاراً غليظا فقالت : قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : ”إن الله تعالى يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ الذى لا يُبَالِي ما لَيْسَ“ . وفى الخبر : ”ما من عبْدٍ لَيْسَ ثوبُ شهرة إلا أَعْرَضَ الله عنه حتى يَبْزِعَهُ وإن كان عنده حبيبا“ . وأشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا ، وأشترى سراويل بثلاثة دراهم ، وكان يلبس شَمْلَتَيْنِ بَيْضَاوَيْنِ من صوف وكانت تسمى حُلَّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد . وربما كان يلبس بُرْدَيْنِ يَمَانِيَيْنِ أَوْ تَحَوَّلِيَيْنِ . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سِيراً ^(٢) من سُندس قيمته مائتا درهم ، فكان أصحابه يلبسونه ويقولون : يا رسول الله ، أُنْزِلَ هذا عليك من الجنة ! تعجبا ، وكان قد أهداه إليه الْمُقَوِّس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يُكْرِمَهُ بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من المشركين وَصَلَهُ به ، ثم حرَّم لَبْسَ الحرير والديباچ . وقد صلى رسول الله

(١) زيادة من الاحياء .

(٢) السرا . بكسر السين وفتح التحتية مدودا : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

(١) صلى الله عليه وسلم في تَخْيِصَةٍ لها علم فلما سَلَّمَ قال : ”شَغَلَنِي النَّظَرُ إِلَى هَذِهِ آذَهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأَتَوْنِي بِأَنْجَانِيَّتِهِ“، ^(٢)بني كساء، فَأَخْتَارَ لِبَسَ الْكِسَاءِ عَلَى الثَّوْبِ النَّاعِمِ . وَكَانَ شِرَاكَ بَعْلِهِ قَدْ أَخْلَقَ فَأُبْدِلَ بِسَيْرٍ جَدِيدٍ فَصَلَّى فِيهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ : ”أَعِيدُوا الشَّرَاكَ الْخَلْقَ وَأَنْزِعُوا هَذَا الْجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ“ . وَعَنْ

جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ تَطْحَنُ بِالرَّحَا وَعَلَيْهَا كِسَاءٌ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا بَكَى وَقَالَ : ”يَا فَاطِمَةُ تَجْزَعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لَنَعِيمِ الْأَبَدِ“ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وَقَدْ أَوْصَى أُمُّهُ عَائِشَةُ بِاتِّبَاعِهِ إِذْ قَالَ : ”مَنْ أَحْبَبَنِي فَلَيْسَتْ بَسْتِي“ . وَقَالَ : ”عَلَيْكُمْ بَسْتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ“ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) ^(٣) . وَأَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَاصَةً وَقَالَ لَهَا : ”إِنْ أَرَدْتَ الْخَوْفَ بِي وَإِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَزِرْ عَنِّي ثَوْبًا حَتَّى تَرَوْنِي“ . وَعَدَّ عَلَى فَيْصِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرُونَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ أَدَمَ . وَفِي الْخَبَرِ : ”مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَدْرِي عَلَيْهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءً لَوَجْهِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْنِيَهُ مِنَ عِبْقَرِي الْجَنَّةِ فِي أَتْحَافِ الْيَاقُوتِ“

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَخْلَوْا لِقَوْلِهِمْ وَأَخْشَوْشُوا ، وَإِيَّاكُمْ وَزِيَّ الْعِجْمِ كَسْرَى وَفَيْصِرَ . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ : الْبَسَ مِنَ الثِّيَابِ مَا لَا يُشْهَرُكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَلَا يُحْقِرُكَ عِنْدَ الْجُهَالِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَوِّمْتَ ثَوْبِي سُفْيَانٍ وَنَعْلِيهِ بَدْرَهُمْ وَأَرْبَعَةَ دَوَانِيقَ . وَالْأَخْبَارُ فِي الثَّقَلِ مِنَ اللَّبَاسِ كَثِيرَةٌ فَلَا نَطُولُ بِسَرْدِهَا .

- (١) الْخَيْصَةُ : ثَوْبٌ خَرَأُوصُفٌ مُعَلَّمٌ . (٢) الْأَنْجَانِيَّةُ : نِسْبَةٌ إِلَى مَنْجِيحٍ كَمَا جَلَسَ مَوْضِعَ بِالْأُفْ . يُقَالُ فِي النِّسْبَةِ إِلَى مَنْجِيحٍ وَأَنْجَانِيَّةٌ يَهْتَجُّ بِأَنْجَانِيَّةٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ . (٣) كَذَا فِي الْأَحْبَابِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : «مِنْ أَجَلَةِ الْأَلْبِ ...» . (٤) زِيَادَةٌ عَنِ الْإِحْبَابِ . (٥) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَفِي الْأَحْبَابِ ، ج ٤ ص ٢٢٣ طَبْعُ بُولَايَ : «اثْنَا شُرَّةَ رُقْعَةٍ» .

المهم الثالث المسكن ؛ وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات ، أعلاها ألا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة ، وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سَعَف أو خُصَّ أو ما يشبهه ، وأدناها أن يطلب حُجرة مبنية إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينة لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجسيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى ، وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو من الفضول ، والفضول كله من الدنيا ، وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إذا أراد الله بعيدا شرا أدلك ماله في الماء والطين “ . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لبنة ولا قصبة على قصبة . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصّا فقال : ” ما هذا “ قلنا : خُصٌّ لنا قد وهى ؛ قال : ” أرى الأمر أعجل من ذلك “ . واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قَصَب فقيل له : لو بنيت ! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قَصَب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ! فقال : كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من بنى فوق ما يكفيه كُفّ أن يحمله يوم القيامة “ . وفي الخبر ” كل نفقة للبعد يُجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين “ . وجاء في تفسير قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) أنه الرياسة والتطاؤل في البُنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) كذا بالأصليين . وفي كتابي الخلاصة والتهذيب في أسماء الرجال « صفوان بن محرز » .

«كُلُّ بَنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكَنَّا مِنْ حَرٍّ وَبَرٍّ». ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صَرْحٍ قد بُنِيَ بِحَصٍّ وَأُجْرَ، فَكَبَّرَ وَقَالَ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَنَى بُنْيَانِ هَامَانَ لَفِرْعَوْنَ. وكان ارتفاع بناء السلف قَامَةً وَبَسْطَةً. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا عَلَّى الْعَبْدُ الْبَنَاءَ فَوْقَ سِتَّةِ أَذْرَعٍ ناداهُ مَلَكٌ: إِي أَيْنَ يَا أَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ. وقال الْمُضَلِّي: إِنِّي لَا أُعْجِبُ مَنْ بَنَى وَتَرَكَ وَلَكِنِّي أُعْجِبُ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَعتَبِرْ. وقال ابن مسعود: يَأْتِي قَوْمٌ يرفعون الطين، وَيَضَعُونَ الدِّينَ، وَيَسْتَعْمَلُونَ الْبِرَازِينَ، يَصْلُونَ إِلَى قِلَتِنَا، وَيَمُوتُونَ عَلَى غَيْرِ دِينِكُمْ.

المهم الرابع أثاث البيت؛ وللزهد فيه أيضا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكوز فرأى إنسانا يمشطُ لِحْيَتَهُ بِأَصَابِعِهِ فَرَمَى بِالْمَشْطِ، ورأى آخر يشرب من النهر بكففيه فَرَمَى بِالْكُوزِ، وهذا حكم كلِّ أثاث فإنه إنما يراد لمقصودٍ فإذا استغنى عنه فهو وبالٌ في الدنيا والآخرة، وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلِّ الدرجات وهو الخِزْفُ في كلِّ ما يكفي فيه الخِزْفُ وَلَا يُبَالَى أَنْ يَكُونَ مَكْسُورَ الطَّرَفِ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِحَصْلِ بِهِ. وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ في نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذي معه قَصْعَةٌ يَأْكُلُ فِيهَا وَيَشْرَبُ فِيهَا وَيَحْفَظُ الْمَتَاعَ فِيهَا، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف. وأدناها أن يكون له بعدد كلِّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول. ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة

(١٢٨)

أصحابه رضى الله عنهم . قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول^(٢) بشریط ، فجلس فرأى أثر السرير في جنبه عليه السلام فدمعت عيناه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” ما الذى أبكاك يابن الخطاب “ ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفية ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ! فقال صلى الله عليه وسلم : ” أما ترضى يا عمر أن تكون لها الدنيا ولنا الآخرة “ ! ، قال : بلى يا رسول الله قال : ” فذلك كذلك “ . ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال : يا أبا ذر ، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا ؛ فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا ؛ فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عُمَيْرُ بن سعد أميرِ حِمْصٍ على عمر قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معى عصا أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ، ومعى قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ، ومعى مطهرتي أحمل فيها شرايى ووضوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى ؛ فقال عمر : صدقت ، رحمك الله .

٥

١٠

١٥

(١) كذا في الأصلين والاحياء . ولم نجد في كتب اللغة التي بين أيدينا ، وفي لسان العرب ونهاية ابن الأثير « ضجعة » وقالوا في تفسيره : الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وفتحها المرة الواحدة ، والمراد ما كان يضع على عليه فيكون في الكلام مضاف محذوف وتقدير الكلام كانت ذات ضجعته أو ذات اضطجاعته ... “ . (٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهرا له اه قاموس . وقد ورد الحديث في نهاية ابن الأثير وفي لسان العرب « وإذا هو جالس على رمال سرير » وفي رواية أخرى « على رمال حصير » والرمال كخطام وركام ما ملأ أى نسج ، والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء ، سوى الحصير .

٢٠

وقدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سِتْرًا وفي يديها قُلْبَيْنِ من فضة فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال : "من أحل الستر والسَّوَارِينَ" ؟ فأرسلت بهما بلائًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد صدقتُ بهما فضَّعهما حيث ترى . فقال : "أذهب بعه وأدفعه إلى أهل الضُّفَّة" . فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "بأبي أيت قد أحسنت" . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأنصار ما لأحدهم إلا و به . وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض نوبًا قط . كان إذا أراد النوم نام على الأرض خسمة وحمل نوبه فوقه .

- ١٠ المنهم الخوامس المنكح . قال الغزالي : وقد قال قائلون : لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرتِه ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُبِّبَ إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف زهد فيهن ! ووافقه ابن عيِّنة . وقال : كان أزهْدُ الصحابة على أبي أي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبُصِعَ عشرة سُرِّيَّة . قال الغزالي : والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : كلُّ ما سَغَلَكَ عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم . والمراد قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكشَّفَ الحق فيه أنه قد تكون العُزُوبَةُ أفضل في بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازًا عن مِيلِ القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أئمة
- ٢٠

محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب ؛ وهذا كن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير آفة أخرى . قال : وأكثر الناس تشغلهم كثرة النساء فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك . قال أبو سليمان : الزهد في النساء أن تختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجُنَيْد : أحب للريد المبتدئ ألا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والتروج . فقد ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل والشرب ، فما شغل عن الله تعالى فهو محذور فيهما جميعاً .

(١٢٤)

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه .^(١) أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال . وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وأفتقر إلى من يخدمه أفتقر إلى جاد لا محالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقدّم بخدمته ، وقيام القدر والمحّل في القلوب هو الجاد . قال : وإنما يحتاج إلى المحلّ في القلوب إما لطلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم . فأما النفع فيغني عنه المال ، فإن من يخدم بأجرة خدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة . وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرهم إلا بحلّ له في قلوبهم أو محلّ له عند

السلطان؛ وقدر الجاه فيه لا ينضب . والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك؛ بل حق الزاهد ألا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً، فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين .

- ٥ وأما التوهّمات والتقديرية التي تُخَوِّج^(١) إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه لم يخلُ عن أذى في بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالأحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذا طاب المحلّ في القلوب لارخصة فيه أصلاً، واليسير منه داعٍ إلى الكثير، وضراوته أشدّ من ضراوة الخمر، فليحترز من قليله وكثيره .



- ١٠ وأما المال فهو ضروريّ في المعيشة أعنى القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا آكسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، هذا شرط الزهد، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً، وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوة يقين في التوكّل فأمسك منها متدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكلّ ما يفضل عن كفاية سنة،
- ١٥ ولكن يكون من ضعفاء الزهاد . قال : وأمر المنفرد في جميع ذلك أخفّ من أمر المئيل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يُرهب الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وآل تركهم وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذي يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود، فالزائد منه على الحاجة سمّ قاتل ، والاقتصار على قدر الضرورة دواءً نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن
- ٢٠

(١) كذا في الاحياء، وفي الأصل : « تخرج ... » .

سَمَّا قَاتِلًا فَهُوَ مُضَرٌّ ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعا لكنه قليل الضرر ، والسمّ محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره فن احتاط فإنما يحاط بنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضِيقِ الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة ، والمقتصر على [قدر^(١)] الضرورة والمهم لا يجوز أن يُنسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط .

وقد روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يُقرضه فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب ، عرفتُ مقتك للدنيا تخفت أن أسألك منها شيئا ، فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبأل في الآخرة ، وهو أيضا في الدنيا كذلك ، يعرفه من يُخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنّة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدّل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فياكلوه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعاصي فيكون هو مُعينا لهم عليها ، ولذلك شُبّه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القَرَإِذ لا يزال ينسج على نفسه حيا^(٢) ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا ، قال الشاعر

كُدُودُ كُدُودِ الْقَرَإِ نَسِجَ دَائِمًا * وَيَهْلِكُ عَمَّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاجِيَةٌ

(١٢٠)

قال : ولما آنكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مُهْلِكُ نفسه بأعماله وأتباعه هوى نفسه إهلاك دود القَرَإِ نفسه رفضوا الدنيا بالكلية ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين
(١) الزيادة عن الاحياء .. (٢) كذا في الاحياء وفي الأصل : « ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم » .

- بَدْرِيًّا كَانُوا فِيمَا أَهْلَ اللَّهِ لَهُمْ أَزْهَدُ مِنْكُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : كَانُوا بِالْبَلَاءِ أَشَدَّ فَرَحًا مِنْكُمْ بِالْخُصْبِ وَالرِّخَاءِ ، لَوْ رَأَيْتَهُمْ قَلْتُمْ : مَجَانِينَ ، وَلَوْ رَأَوْا خِيَارَكُمْ قَالُوا : مَا لَهُؤُلَاءِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ قَالُوا : مَا يُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .
- وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَعْزِضُ لَهُ الْمَالُ الْحَلَالَ فَلَا يَأْخُذُهُ وَيَقُولُ : أَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى قَلْبِي .
- فَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ فَهُوَ لَا مَحَالَةَ يَخَافُ مِنْ فُسَادِهِ ، وَالَّذِينَ أَمَاتَ حُبُّ الدُّنْيَا قُلُوبَهُمْ ٥
- فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) ، وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) ، وَقَالَ تَعَالَى : (فَأَعْرِضْ عَنْ مَوْتِي عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) ، فَأَحَالَ ذَلِكَ كَلْدًا عَلَى الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ الْفِكْرِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا مِنْ يَوْمٍ ذَرَّ شَارِقَهُ إِلَّا وَأَرْبَعَةُ أَمْلاكٍ يُنَادُونَ فِي الْأَفَاقِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ : مَلَكَانِ بِالْمَشْرِقِ ١٠
- وَمَلَكَانِ بِالْمَغْرِبِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا بِالْمَشْرِقِ : يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ هَلَمْ ، يَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا ، وَأَعْطِ مُسْكِنًا تَلْفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ بِالْمَغْرِبِ أَحَدُهُمَا : لِدُّوا الْمَوْتَ وَأَبْنُوا لِلْغُرَابِ ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا لِطُولِ الْحِسَابِ .

ذِكْرُ بَيَانِ عِلَامَاتِ الزَّهْدِ

- قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : اعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ تَارِكَ الْمَالِ زَاهِدٌ ، وَلَيْسَ ١٥
- كَذَلِكَ ، فَإِنْ تَرَكَ الْمَالَ وَإِظْهَارَ الْخَشْيَةِ سَهْلًا عَلَى مَنْ أَحَبَّ الْمَدْحَ بِالزَّهْدِ ، فَكَمْ مِنَ الرُّهَابِيِّينَ مَنْ رَدُّوا أَنْفُسَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى تَزْرِيسٍ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا زَمُّوا دِيرًا لَا بَابَ لَهُ ، وَإِنَّمَا مَسْرَّةُ أَحَدِهِمْ مَعْرِفَةُ النَّاسِ حَالَهُ وَنَظَرُهُمْ إِلَيْهِ وَمَدْحُهُمْ لَهُ ، فَذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى

الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد^(١) في جميع حظوظ النفس من الدنيا؛ بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المتدعين إذ قال : وقوم آذعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يُمَوِّهون بذلك على الناس لِيُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلا يُنْظَرُ إليهم بالعين التي يُنْظَرُ بها إلى الفقراء فيُحْقَرُوا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين و يَحْتَجُونَ لأنفسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأنت الأشياء داخلَةٌ إليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون [ما يأخذون] بَعْلَةً غيرهم، هذا إذا طُوبِئوا بالحقائق وأُلْحِثُوا إلى المضايق . وكل هؤلاء أَكَلَةُ الدنيا بالدين لم يَعْنُوا بتصفية أسرارهم ولا بهتذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فَأَذَعَوْهَا حالاً لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا مُتَّبِعُونَ للهوى . هذا كلام الخواص .

قال الغزالي رحمه الله : فإذا معرفة الزهد أمرٌ مُشْكَلٌ ، [بل حال الزهد على الزاهد مُشْكَلٌ] فينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألا يفرح بوجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال الله تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ، بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرح لفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده دأبه ومادحه ؛ فالأولى علامة الزهد في المال ، والثانية علامة الزهد في الجاه .

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله عز وجل ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة ، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبة ، إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كلماء

(١) كذا في الاحياء ، وفي الأصل : « حتى يكمل الزهد بل في جميع الخ » .

(٢) زيادة في الاحياء .

والهواء في القَدَح ، فالهواء إذا دخل خرج الهواء ولا يثبت به ، وكل من أَسِ بالله
 أَشْتَغَلَ به ولم يشتغل بغيره . وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب
 أَحَبَّ الدنيا والآخرة جميعاً وعَمِلَ لها ، وإذا بَطَنَ الإيمان في سويداء القلب وباشره
 أَبْغَضَ الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها . وقد ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم
 إني أسألك إيماناً يُبَاشِرُ قلبي . وقال أبو سليمان : من شُغِلَ بنفسه شُغِلَ عن الناس
 وهذا مقام العاملين ، ومن شُغِلَ بربه شُغِلَ عن نفسه وهذا مقام العارفين . والزاهد
 لا بد أن يكون في أحد هذين المقامين .

(١٢١)

وبالجملة فعلامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك
 لغلبة الأُنْس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أُتْرِمْثَل أن يترك الدنيا
 ولا يبالى مَنْ أَخَذَهَا ؛ وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول : أُنْجَى رِبَاطًا
 أو أَعْمُرُ مَسْجِدًا ؛ وهذا من كلام الأستاذ أبي علي الدقاق . وقال ابن خنيفة :
 علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال الجُنَيْد : علامته خَلَوْ القلب عما
 خلت منه اليد . وقال أحمد بن حنبل وسُفْيَان : علامته الزهد قِصَرُ الأَمَل . وقال
 رجل ليحيى بن مُعَاذ : متى أدخل حانوت التوكل وألبس بُرْدَ الزهد وأقعد مع
 الزاهدين ؟ فقال : إذا صرْتَ من رياضتك لنفسك في السرِّ إلى حدِّ لو قطع الله
 عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة بخلوسك
 على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . قالوا : ولا يتمُّ الزهد إلا
 بالتوكل ؛ فلندكر التوكل .

ذكر ما ورد في التوكل من فضيلته وحقيقته

أما فضيلته فقد قال الله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ، وقال الله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) ، وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ، وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أُرِيتُ الأُمَمُ في الموسم فرأيت أُمَّتِي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقليل لى أَرَضِيت قلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتئون ولا يتطيرون ولا يَسْتَرْقُونَ وعلى ربهم يتوكلون “ . وقال صلى الله عليه وسلم : ” مَنْ آتَقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَةَ رِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ آتَقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا “ . ١٠



وأما حقيقة التوكل فقد قال الغزالي رحمه الله : التوكل مشتق من الوكالة يقال : وَكَّلَ امرءٌ إِلَى فلان أَى فَوَضَعَهُ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ [فِيهِ] ؛ وَيُسَمَّى الْمُوَكَّلُ إِلَيْهِ وَكِيلًا ، وَيُسَمَّى الْمَفْوضُ إِلَيْهِ مُتَكَلِّلًا عَلَيْهِ وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مَهْمَا أَطْمَأْنَتَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَوَثِقَ بِهِ وَلَمْ يَتَّهِمْ فِيهِ . ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وأعلم أن حالة التوكل في القوة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل .

(١) في الاحياء ج ٤ ص ٢٣٢ «كفاه الله كل مشونة ورزقه ...» . (٢) الزيادة عن الاحياء .

(٣) كذا في الاحياء ، وفي «الأصل الموكل اليه ...» . (٤) كذا في الأصل . ٢٠

الثانية وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق في كل حال بها ، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماء ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه لو ثوقه بكفالتها وكفايتها وشفقتها .

- ٥ الثالثة وهي أعلاها : أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكانه مثل الميت بين يدي الغاسل يقبّله كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام في التوكل يُمرّك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته ، وأنه يُعطي ابتداءً أفضل مما يُسأل . وقد تكلم المشايخ في التوكل وبيان حذمه واختلقت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأحبر عن حذمه .

- ١٠ قال أبو موسى الدبلي : قلت لأبي يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لك ذلك سرك ، فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب . ولكن لو أن أهل الجحيم في الجنة يتنعمون ، وأهل النار في النار يُعذبون ، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكل . وسُئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كلّ حال ، فقال السائل : زدني ؟ فقال : ترك كلّ سبب يُوصّل إلى سبب حتى يكون [الحق] ^(١) هو المتوكل لذلك . وهذا مثل توكل إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال له جبريل : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، إذ كانت سؤاله يُفضي الى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولى ذلك .

(١٣٢)

(١) كذا في الاحياء ، وفي الأصل : « يعين » .

(٢) زيادة عن الاحياء .

قال أبو سعيد الخزاز : التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب؛
أشار بالأول إلى فزعه إلى الله تعالى وآبائه وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل
بيديه إلى أمه؛ والثاني إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به^(١). وقال أبو علي
الدقاق : التوكل على ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالتوكل
يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه.
وقال : التوكل بداية، والتسليم وسائط، والتفويض نهاية. وقال : التوكل صفة
المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدن.

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : ألا يظهر فيك آزعاج إلى الأسباب
مع شدة فافتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.
وقال أبو نصر السراج : شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشي وهو طرح البدن
في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكرًا، وإن
منع صبرًا. وكما قال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والتخلع من الحول والقوة.
وقال أبو بكر الدقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد.

وسئل ذو النون : ما التوكل؟ فقال : خلع الأرباب، وقطع الأسباب؛ فقال
السائل : زدني؛ فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية. وقال
مسروق : التوكل الاستسلام لجرىان القضاء والأحكام. وقال أبو عثمان : التوكل
الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه. وقيل : التوكل الثقة بما في يد الله والياس مما في يد
الناس. وقيل : التوكل فراغ السر عن التفكير في التقاضى في طلب الرزق.

(١) كذا في الاحياء، وفي الأصل : «و بالثاني الى سكون القلب الى التوكل وثقة به» .
(٢) في الأصلين : «سكن» والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٣) في الأصل «بجريان» بالباء.
ولم نجد هذا العمل يتعدى بالباء .

ذكر بيان أعمال المتوكلين

- قال الغزالي رحمه الله : قد يُظَنُّ أن معنى التوكل ترك الكسب [بالبَدْن] وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخُرْقَةُ المُلْقَاة وكاللحم على الوَضَم ، وهذا ظَنُّ الجهال ، فإن ذلك حرامٌ في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده . وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالآذخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التي هي جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضار أو قطعه . ثم ذكر شرط التوكل ودرجاته في كل واحد منها ، وقرن ذلك بشواهد الشرع ، فقال ما مختصره ومعناه :



- أما جلب النافع ، فالأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظناً يوثق به ، وموهم وهم لا تثق النفس به ثقة تامة ولا نظمئن إليه . فالدرجة الأولى المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدي الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مديده إليه وقال : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومدُّ اليد إليه سعيً وحركة ، وكذلك مضغه بالأسنان وآبتلاعه بإطباق أعلى الحنك على أسنانه فهذا جنون وليس من التوكل في شيء ، فإنه إن أنتظر أن الله تعالى يخلق فيه شيئاً دون الخبز أو يستخر ملكاً يعضغه ويوصله إلى معدته فهذا رجلٌ جهل سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمع أن الله تعالى يخلق نباتاً من غير بذر أو تلد
- (١) الزيادة عن الإحياء ، ج ٤ ص ٢٥٣ (طبعة بولاق) . (٢) كذا في الإحياء ، وفي الأصل : « معبوده » .

زوجه من غير مباذعة كُرميم، فكلّ ذلك جنون؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنه الذى يُطعمه ويسقيه، وأن يكون قلبه وآعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، فليمدّ يده يأكل فإنه متوكّل .

(١٣٣)

والدرجة الثانية الأسباب التى ليست متعيّنة، لكن الغالب أن المسبّبات لا تحصل دونها وأحتمال حصولها دونها بعيد كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادر التى لا يطرفها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطا فى التوكّل، بل استصحاب الزاد فى البوادر سنة الأولين مع الاعتماد على فضل الله عز وجل لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكّل وهو فعل الخواص . قال الغزاليّ فإن قلت: فهذا سعى فى الهلاك وإلقاء النفس إلى التهلكة، فأعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين: أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها حتى صبرت عن الطعام أسبوعا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر؛ والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة، فإنه لا يخلو غالب الأمر فى البوادر فى كلّ أسبوع أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى محلة أو قرية أو إلى حشيش يتقوت به؛ وعلى هذا كان يعول الخواص ونظرأوه من المتوكّلين . وقد كان الخواص مع توكله لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة، ويقول: هذا لا يقدر فى التوكّل .

وأما لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرفه طارق فيه وجلس متوكّلا فهو آثم به ساع فى إهلاك نفسه .

وأما القاعد فى البلد بغير كسب فليس ذلك حراما، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأثر عنه؛ فإن أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، فإن فتح باب البيت وهو بطال غير

٥

١٠

١٥

٢٠

مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى، ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يُشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله غير متطلع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى وأشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل ، فإن الرزق يأتيه لاحتالة ، فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل ^(١) [فإنهم] أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لو توكلتم على الله تعالى حقَّ توكله لرزقكم ^(٢) كما يرزق الطير تغدو خُمَصاً وتروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال “ . وقال عيسى عليه السلام : أنظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم ، فإن قائم نحن أكبر بطونا ، فأنظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق] ^(٣) . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعبٍ منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم في رزق الله تعالى ، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال ، وبعضهم يأكل بتعب كالنجار ، وبعضهم بامتهان كالصانع ، وبعضهم بعز كالصوفية ، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوساطة .

والدرجة الثالثة : ملازمة الأسباب التي يُتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى في التديرات الدقيقة في تفصيل الأكسباب ووجوهه ، وذلك يُخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي الناس كلهم فيه من التكسب بالحيل الدقيقة أكساباً مباحاً لمالٍ مباح . هذا ماخص ما أورده رحمه الله تعالى في جاب النافع ، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركها اختصاراً .

(١) زيادة عن الاحياء . (٢) كذا في الاحياء ، وفي الأصلين : « لرزقتم ... » .



وأما حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الآذخار، فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الآذخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويُفترق الباقي في الحال ولا يتدخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو الموفى بموجب التوكل تحقيقا، وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يتدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلا .

الحالة الثالثة : أن يتدخر لأربعين يوما فما دونها، فهذا يُوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين . وقال الخواص : لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما زاد عليها .



وأما دفع الضرار عن النفس والمال فقد قال الغزالي رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، أما في النفس فكالنوم في الأرض المسببة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل أو السقف المتكسر، فإن ذلك منتهى عنه وصاحبه قد عرض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأما في المال فلا ينقص التوكل إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقل البعير . فهذه أسباب عُرِفَتْ بِسَنَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فقد روى عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ“ .



وأما إزالة الضرر فقد قال الغزالي رحمه الله تعالى : إن الأسباب المزيلّة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش ، والحبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء وسائر أبواب الطب ؛ وإلى موهوم كالكي والرّقية .

أما المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت .

وأما الموهوم ، فشرط التوكّل تركه ، إذ بتركه وصّف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكّلين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لم يتوكّل من استترقى وأكتوى “ . وقال سعيد بن جبّير : لدغتنى عقربٌ فأقسمت على أُمّي لتستريقين ، فاولت الراقي يدي التي لم تلدغ .

وأما الدرجة الوسطى وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعل ذلك لا يناقض التوكّل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس بمحذور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بالتداوى وقال : ” ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام “ ، يعني الموت ؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء .

ومنهم من رأى أن ترك التداوى قد يُحمد في بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة :

الأول : أن يكون المريض من المكاشفين وقد كُوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ، وتحقّق ذلك إما برؤيا صادقة أو بخدس وظنّ أو بكشف محقق كحال أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرض موته : لودعونا لك طبيباً !

فقال : الطبيب نظر إلى وقال إني فعّال لما أريد ؛ وكان رضى الله عنه من المكشّفين ،
والدليل على ذلك أنه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هُنَّ أختاك ،
وما كان لهما إلا أُختٌ واحدة وكانت أمرأته حاملا فولدت أنثى ؛ فلا يبعد أن يكون
ككشف بآتباء أجله ؛ ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فعّله .

الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبه وأطلاع الله تعالى
عليه ، فينسبه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، كحال أبى ذر لما
رمدت عيناه ف قيل له : لو داويتهما ! فقال : إني عنهما مشغول ؛ ف قيل له : لو سألت
الله أن يعافيك ! فقال : أسأل فيما هوأهمّ عليّ منهما . وكحال أبى الدرداء فإنه قيل له
فى مرضه : ما تشكى ؟ قال : ذنوبى ؛ قيل : فما تشهى ؟ قال : مغفرة ربى ، قالوا :
ألا ندعوك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت
عزيز من أحبابه أو كالحائف من ملك فيشغله ذلك عن ألم الجوع .

(١٣٥)

الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يُؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم
كالسكى والرقية ، فتركه للتوكل ، كالربيع بن خيثم فإنه أصابه فالج ف قيل له : لو تداويت !
فقال : لقد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء
فهلك المداوى والمداوى ولم تُغنِ الرقى شيئا ، أى إن الدواء غير موثوق به .

الرابع : أن يقصد العبد ترك التداوى استيفاء لمرض لينال ثواب المرض بحسن
الصبر على بلاء الله تعالى وليجذب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها
فبرى المرض إذا طال تكفيرا ، وترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض .

٥

١٠

١٥

٢٠

ورغب في مضاعفة الأجر؛ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”حُمِّيَ
يَوْمَ كَفَّارَةُ سَنَةٍ“ .

السادس : أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البَطَرِ والطَّغْيَانِ بطول مدّة الصّحّة
فيترك التسدّوى خوفاً من أن يُعاجله زوال المرض فتعاوذه الغفلة والبطر والطغيان
أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصّحّة تُحرك
الهوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصي ، وأقالتها أنْ تدعو إلى التّنعّم
في المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة
الطاعات . وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يُخلِّه عن التنبيه بالأمراض والمصائب ؛ ولذلك
قيل : لا يخلو المؤمنون من علة أو قلة أو ذلة . قال : فلما أن كثرت فوائد المرض
رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها ، إذ رأوا لأنفسهم مزيّداً فيها لا من حيث رأوا
التداوى نقصاناً ، وكيف يكون ذلك نقصاناً وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم !
فهذه بُدّة كافية في مقامى الزهد والنوكل . فلنذكر الأدعية .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الثّاني

في الأدعية

وهذا الباب — يقبل الله مما ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات ، وجعلنا وإياك من
أعتمد على كرمه ومتّنه في الحركات والسكنات ؛ ووفقنا للتضرّع والسكرن إلى فضله ،
وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله — هو مشرّع الظّمان إلى موارد الكرم العذبة ،
ومَفَرِّجَ الحيران إذا أَلَمَّتْ به الضائقة وحصرته الكربة ؛ فيه يُتوسل إلى الله تعالى
في مطالب الدنيا والآخرة ، ويُتوصل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة ؛ كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووجدنا وهو الوفي الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضلله الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ما ستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحاً ، وتعول عليه مقياً وظاعاً وغادياً ورأحاً ؛ فلازمه في سائر أحوالك ، وتعاهده في بُرُكِّك وأصالك ؛ فستجنى إن شاء الله منه ثمار غرسك ، وتجيد حلاوة ذلك في قلبك وأنسه في نفسك .

وَأَعْلَمُ أَنَّ للدعاء ، كما قال ابن عطاء ، أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقافاً ، قال : فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار في السموات ، وإن وافق موافقته فاز ، وإن وافق أسبابه أُنْجَحَ . فأركانه حضور القلب والرفقة والإستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصديق . وموافقته الانحراح .

وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أما إنك ما دعوتني بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتني يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتني يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإني أذخرتها لك في الجنة فلا يُبْقِ له دعوة إلا يلتمها له حتى يَتَمَّتِ المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره في الآخرة“ .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الدعاء هو العبادة“ قال : وقرأ (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) . وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” ليس شيء أكرم على الله من الدعاء“ . وعن

ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الدعاء ينفع

- مما نزل وما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء“ . وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن الله عز وجل جبي كريم يستحي إذا بسط الرجل يديه أن يردّهما صَفْرًا ليس فيهما شيء“ . وعن أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”دعوة المسلم لأُترَدَ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بِائِم أو قطيعةٍ رَحِمَ إذا أن يستجيبَ الله له فيما دعا أو يتنزله في الآخرة أو يصيرف عنه من السوء بقدر ما دعا“ . وعن أنس رضى الله عنه قال :
- قبل يا رسول الله : إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابته ومنه ما لا نرى إجابته فقال : ”والذى نسي بيده ما من أحد يدعو بدعوة إلا آستجيب له أو صُرف عنه مثلها شراً“ قالوا : يا رسول الله ، إذا نُكثِرَ قال : ”الله أكثر وأكثر“ ثلاث مرات .
- وعنه رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”دعوة في السرِّ تعدل سبعين دعوةً في العلانيّة“ . وعن أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن لله عز وجل في الليل والنهار عُتْقَاءَ من النار ولكل مسلمٍ ومسلمةٍ في كلِّ يومٍ وليمة دعوة مستجابة“ . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ”إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أجبه وسألنى فلم أعطه وآستغفرنى فلم أعفر له وأنا أرحم الراحمين“ . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”إذا فزع الله على عبدٍ باب الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من فُتِحَ له بابٌ في الدعاء فُتِحَتْ له أبواب الإجابة“ . وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من لم يسأل الله يغضب عليه“ . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) الآية فقال صلى الله عليه وسلم : ”اللهم إنك

أَمَرْتُ بالدعاء وتَوَكَّلْتُ بِالْإِجَابَةِ لَيْكَ اللَّهُمَّ لَيْكَ لِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لِيكَ إِنَّ
الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ أَشْهَدُ أَنَّكَ فَرَدُّ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ وَأَشْهَدُ أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءُكَ حَقٌّ وَالْخَنَةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ
وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّكَ تَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ“. هذا مما ورد في الحديث
على الدعاء .



وأما ما ورد في نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البرِّ كلها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينفع حذرٌ من قَدَرٍ والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاء ليلقي البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاء ليرد القضاء المُبرَّم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدهما يدفع صاحبه إلى يوم القيامة". وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يرَدُ القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البرّ". وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء سلاحُ المؤمن وعمادُ الدين ونورُ السموات والأرض".



وأما ما ورد في الإلحاح في الدعاء وهيئة الدِّلة والإجابة؛ قال الله تعالى :
(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ). وعن عائشة رضي الله عنها قالت :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحِجِّينَ فِي الدَّعَاءِ". وعن أبي هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ادعوا الله وأتمموا وقنونا بالإجابة وأعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب ساهٍ لاهٍ “ . وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا جعل باطن كفيه إلى وجهه . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم “ . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن ربكم عز وجل حي كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صفراً لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حي لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليفرغ ذلك الخير على وجهه “ . وعن عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” الإخلاص هكذا ورفع أصبعاً واحداً من اليمين والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلي السماء والأتهاال هكذا ومدّ يديه شيئاً وجعل ظهر الكف مما يلي السماء “ . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء “ .



وأما ماورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع في الدعاء قال تعالى : (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” يستجاب لأحدكم ما لم يعجل

فيقول قد دعوتُ فلم يُسَجِّبْ لي“. وعنه صلى الله عليه وسلم : ”لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل“ قالوا : وكيف يستعجل ؟ قال : ”يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لي“. وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”لَيَبْتَغِينَ أَقْوَامَ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ عِنْدَ الدَّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ“. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إياك والسجّع في الدعاء فإني شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .



وأما ما ورد فيمن تجاب دعواتهم . قال الله عز وجل : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) . وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”نَحْمُسُ دَعَوَاتٍ لَا تَرُدُّ دَعْوَةُ الْحَاجِّ حَتَّى يَصْدُرَ دَعْوَةُ الْغَازِي حَتَّى يَرْجِعَ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ حَتَّى يَنْتَصِرَ دَعْوَةُ الْمَرِيضِ حَتَّى يَبْرَأَ دَعْوَةُ الْأَخِيهِ بِالْغَيْبِ وَأَسْرَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِجَابَةِ دَعْوَةِ الْأَخِيهِ بِالْغَيْبِ “ . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْوَالِدِ دَعْوَةُ الْمَسَافِرِ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ“. وفي حديث آخر : ”دَعْوَةُ الصَّائِمِ بَدَلُ دَعْوَةِ الْوَالِدِ“ . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : ”إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”الإمام العادل لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ إِمَامٌ مُقْسِطٌ دَعْوَةُ الصَّائِمِ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنْصَرْتُكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”دَعَاءُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ مِثْلُ دَعَاءِ النَّبِيِّ لِأُمَّتِهِ“. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٥

١٠

١٥

٢٠

”أَسْرِعُ الدَّعَاءَ إِبَاجَةً دَعْوَةً غَائِبٌ لَغَائِبٌ“. وعن أبي الدرداء، رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”دَعْوَةُ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَعْدِلُ سَبْعِينَ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً وَيُوكِلُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مَلَكًا يَقُولُ آمِينَ وَلَكَ مِثْلُ مَا دَعَوْتُ“. وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ لَهُ مَلَكٌ عَنْ يَمِينِهِ وَمَلَكٌ عَنْ شِمَالِهِ وَلَكَ مِثْلُهُ“. وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”حَامِلُ الْقُرْآنِ لَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ“. وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ”إِذَا دَخَلْتَ عَلَى الْمَرِيضِ فَسَلِّمْهُ يَدْعُو لَكَ فَإِنَّ دَعَاءَهُ كَدَعَاءِ الْمَلَائِكَةِ“. وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”مَنْ أَلْهِمَ الدَّعَاءَ لَمْ يَحْرَمْ الْإِبَاجَةَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) وَمَنْ أَلْهِمَ التَّوْبَةَ لَمْ يَحْرَمْ الْقَبُولَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) وَمَنْ أَلْهِمَ الشُّكْرَ لَمْ يَحْرَمْ الزِّيَادَةَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَلَمَّا شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) وَمَنْ أَلْهِمَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يَحْرَمْ الْمَغْفِرَةَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) وَمَنْ أَلْهِمَ النِّفَقَةَ لَمْ يَحْرَمْ الْخُلْفَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)“.

(١٢٨)

ذكر الأوقات التي تُرْجى فيها إجابة الدعاء

قال الله عز وجل: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ لَهُ نَافِلَةً لَّكَ) وقال تعالى: (إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا). وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”يَنْزِلُ اللَّهُ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ“. وعنه صلى الله عليه وسلم: ”تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيُسْتَجَابُ دَعَاءُ الْمُسْلِمِ عِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَعِنْدَ

١٥

٢٥

نزول الغيث وعند زحف الصفوف في سبيل الله وعند رؤية الكعبة“ . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إذا فأت الأفياء وهبت الرياح فأرفعوا إلى الله حوائجكم فإنها ساعة الأوابين إنه كان للأوابين غفورا“ . وعن أبي أمامة قال قلت : يا رسول الله، أى الدعاء أسمع؟ قال : ”جوف الليل وأدبار المكتوبات“ . وعن ابن عمر قال : أفضل الساعات مواقيت الصلاة فادعوا فيها . وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ”خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعة لا يوافقها عبدٌ يصلى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه“ . وقد اختلف في ابتداء وقت هذه الساعة ف قيل : أول ساعة من طلوع الشمس ، وقيل : آخر ساعة من غروبها ، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر ، وقيل : من الزوال إلى ابتداء الصلاة ، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب ، وقيل : إنها تنتقل في ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القدر في شهر رمضان . روى عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أسمعتك أبالك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعة الجمعة؟ قال : نعم ، سمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعة الجمعة يقول : ”هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تفضى الصلاة“ . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه“ فقلت : يا أبت ، أى ساعة هى؟ قال : ”إذا تدلى نصف الشمس للغروب“ ، فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصد لها الشمس ، فإذا تدلى نصف الشمس للغروب أعلمها ، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّى . وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

٥

١٠

١٥

٢٠

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف القرشي البوني رحمه الله تعالى دعوات الساعات في الأئمة النورانية فبدأ بيوم الأحد وذكروا كل ساعة منه، ثم ذكر يوم الاثنين فقال: ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثلاثاء فقال: ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين. وكذلك في بقية ساعات الأيام والليالي، يذكر كل ساعة ويُحيل في دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التي قبلها؛ فرأيت أن الراغب في الدعاء يحتاج في معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذر ذلك على كثير من الناس، فرتبت الأدعية على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه ليسهل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقها؛ فقلت وبالله التوفيق:

(١٣٩)

دعاء يدعى به في الساعة الأولى من يوم الأحد. وفي الثامنة من ليلة الاثنين وفي العاشرة من يوم الاثنين. وفي الخامسة من ليلة الثلاثاء وفي السابعة من يوم الثلاثاء. وفي الثانية من ليلة الأربعاء وفي الرابعة من يوم الأربعاء. وفي الحادية عشرة من ليلة الخميس وفي الأولى من يوم الخميس. والحادية عشرة من ليلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة. وفي الثامنة من ليلة السبت، وفي السابعة من يوم السبت. وفي الخامسة من ليلة الأحد، وهو:

”رَبِّ اغْنِني في بحر [من] نور هيبتك حتى أخرج منه وفي وجهي شعاعات هيبية تحطّف أبصار الحاسدين من الجن والإنس فتُعِمِّمهم عن رمي سهام الحسد في قرطاس

(١) في الأصلين: ”اللغة النورانية“ وصحة الاسم ما ذكرناه، وفي دار الكتب المصرية منه نسختان

خطيتان تحت رقم (١٩٩٣ و ٨٥٠ م تصوف).

(٢) زيادة من اللغة النورانية.

نعمتى ، وأَجْبُنِي عنهم بحجاب النور الذى باطنه النور وظاهره النار؛ أسألك باسمك
النور وبوجهك النور يا نور النور أن تحجبنى فى نور آسمك بنور آسمك حجاباً يمنعنى من
كُلِّ نَقِصٍ يُبَازِجُ مِنِّى جَوْهَرًا أو عَرَضًا إِنَّكَ نُورُ الْكُلِّ وَمَنُورُ الْكُلِّ بِنُورِكَ» .

قال البونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرة فى هذه الساعة على وضوء بعد
صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدو؛ ويناسب هذا
الدعاء من القرآن قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية ، قال : من قرأ
هذه الآية هذا العدد المتقدم فى بيت مظلم وعيناه مغلوقتان شاهد أنوارا عجيبية تملأ
قلبه ، وإن استدام ذلك تشكّلت له فى عالم الحس . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم
وأهل الخلوات ، وكتابه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوه وخَصْمِهِ
لم يكن يعهدها من قبل ؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا
من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الاثنين
وفى الحادية عشرة من يوم الاثنين ، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم
الثلاثاء ، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء ، وفى الثانية عشرة
من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس ، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعة ،
وفى التاسعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت ، وفى السادسة من ليلة
الأحد وهو :

«رَبِّ فَتَرَحَّنْ بِنَا تَرْضَى بِهِ عَنِّى فَرَحًا يُبْهِجُنِي بِجَمِيلِ الْمَسَارِّ ، حَتَّى لَا يَنْبَسِطُ شَيْءٌ
مِنْ وَجُودِي إِلَّا بِمَا بَسَطَهُ جُودُكَ الْعَلِيِّ . رَبِّ فَتَرَحَّنْ بِذِيْلِ الْمَرَادِ مِنْكَ بِفَنَاءِ إِرَادَتِي
مَنِّى حَتَّى لَا يَكُونَ فِى كَوْنِي إِرَادَةٌ إِلَّا إِرَادَتُكَ مَحْفُوظَةٌ مِنْ عَوَارِضِ التَّكْوِينِ ، وَأُبْهِجْ

بذلك في سرّ سماء الأفراح في الوجودين برزق الباطن والظاهر ، إنك باسط الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسِطِ إذا البسط والجود » .

- هذا الذكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات تسعاً وأربعين مرة أذهب الله تعالى عن قلبه الحزن وعن صدره الحرج والضيق ، وهي عنه كل هم وغم ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفترج الله تعالى عنهم ، وذلك بعد صلاة تسليميتين ؛ والآيات المناسبة لهذا القسم (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) الآية ، (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ) الآية . قال البوني : ويقدم على ذكر هذه الآيات (١) اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْفَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، يقول ذلك بعد الذكر الأول مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجباً ، ويزداد (٢) [به] ذو السرور سرورا لا يعرف سببه . ويصلح هذا الذكر لأرباب الفيض من أهل الخلوّات فإنهم يَسْتَرْحُونَ منه أنسا في خلواتهم ومخاطبات بالفاظ مختلفة بقدر الفيض والمقام والسبب ، يعرف ذلك من كانت له إحاطة بكشف أسرار الدعوات والأسماء .
- دعاء يُدْعَى به في الساعة الثالثة من يوم الأحد ، والعاشر من ليلة الاثنين وفي الثانية عشرة من يوم الاثنين ، وفي السابعة من ليلة الثلاثاء وفي التاسعة من يوم الثلاثاء ، وفي الرابعة من ليلة الأربعاء وفي السادسة من يوم الأربعاء ، وفي الأولى من ليلة الخميس وفي الثالثة من يوم الخميس ، وفي الأولى من ليلة الجمعة وفي الثانية عشرة من يوم الجمعة ، وفي العاشرة من ليلة السبت وفي التاسعة من يوم السبت ، وفي السابعة من ليلة الأحد . وهو :

(١) كذا في اللغة النورانية ، وفي الأصل « والآية » .

(٢) كذا بالأصل : وفي اللغة النورانية : « يضاف بعد الذكر الأول مثل هذا العدد المذكور » .

(٣) زيادة من اللغة النورانية .

« رَبِّ قَلْبِي فِي أَطْوَارِ مَعَارِفِ أَسْمَائِكَ تَقْلِبُنِي تُشْهِدُنِي بِهِ فِي ذَرَاتٍ وَجُودِي
 مَا أودعته ذَرَاتٍ وَجُودِي الْمَلِكِ وَالْمَلَكُوتِ حَتَّى أُعَايِنَ سَرَيَانَ سِرِّ قَدْرِكَ^(٢) فِي مَعَالِمِ
 الْمَعْلُومَاتِ فَلَا يَبْقَى مَعْلُومٌ إِلَّا وَبِيْدِي سِرِّ دَقِيقَةٍ مِنْهُ مَجْذُوبَةٌ بِيَدِ الْكَمَالِ وَنُورِ الطُّوْعِ ؛
 وَأَذْهَبَ ظِلْمَةُ الْإِكْرَاهِ حَتَّى أَنْصَرِفَ فِي الْمُهَجِّ بِمُهْجَاتِ الْمَحَبَّةِ إِنَّكَ أَنْتَ الْمَحَبُّ الْمَحْبُوبُ
 يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ » .

قال : من دعا بهذا الأسم والذكر ستَّ عشرة مرة بعد صلاة ثلاث تسليمات
 قلب الله قلبه عن كل خاطره فيه نقص^(٤) إلى كلِّ خاطره فيه كمال^(٥) [في حقِّه] ، ويصلح
 لأَرْبَابِ الْإِسْتِخَارَاتِ ، وفيه لِسُرْعَةِ قِضَاءِ الْحَاجَاتِ مَعْنَى بَدِيعٍ ؛ وَالْآيَاتِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ
 (قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ،
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الْآيَةَ ؛ وَمَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ
 مِنَ الْقُرْآنِ .

وهو ذكر يصلح لأَرْبَابِ الْقُلُوبِ مِنْ تَكَرُّرِ الْخَوَاطِرِ وَالْوَسَاوِسِّ ، وَلَهُ فِي تَقْلِبِ
 الْأَحْوَالِ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَنْ فَهَمَ ذَلِكَ ؛ وَكَذَلِكَ مِنْ كُتُبِ الذِّكْرِ كُلِّهِ وَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ
 عَصَمَهُ اللَّهُ فِي تَقْلِبَاتِهِ مِنَ الْآفَاتِ حَتَّى فِي أُمُورِ دُنْيَاهِ وَآخِرَتِهِ .

(١) كَذَا فِي اللَّعَةِ ، وَفِي أَحَدِ الْأَصْلِينَ « مَا أودعته فِي دُورَاتِ » وَفِي الْأَصْلِ الْآخِرِ « مَا أودعته
 مِنْ ذَرَاتٍ ... » .

(٢) فِي إِحْدَى نَسَخِ اللَّعَةِ الْمَخْطُوطَةِ « سِرِّ قَدْرَتِكَ ... » .

(٣) كَذَا فِي اللَّعَةِ النَّوْرَانِيَةِ وَفِي الْأَصْلِينَ : « مَجْذُوبَةٌ بِيَدِ الْكَمَالِ يَبْدُو الْكَمَالُ وَنُورُ الطُّلُوعِ أَذْهَبَ » الْخ .

(٤) كَذَا فِي اللَّعَةِ النَّوْرَانِيَةِ ، وَفِي الْأَصْلِينَ : « قَلْبُ اللَّهِ قَلْبُ كُلِّ مَنْ خَاطَرَهُ فِيهِ نَقْصٌ ... » .

(٥) زِيَادَةٌ مِنَ اللَّعَةِ النَّوْرَانِيَةِ .

(٦) كَذَا فِي اللَّعَةِ النَّوْرَانِيَةِ ، وَفِي الْأَصْلِينَ : « وَالْآيَةُ ... » .

دعاء يدعى به في الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفي الحادية عشرة من ليلة الاثنين وفي الأولى من يوم الاثنين، وفي الثامنة من ليلة الثلاثاء وفي العاشرة من يوم الثلاثاء، وفي الخامسة من ليلة الأربعاء وفي السابعة من يوم الأربعاء، وفي الثانية من ليلة الخميس وفي الرابعة من يوم الخميس، وفي الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفي الحادية عشرة من ليلة السبت وفي العاشرة من يوم السبت، وفي الثامنة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ قابلي بنور اسمك مقابلة تملأ وجودي ظاهرا وباطنا حتى تمحو منّي حظوظ الأشكال كلها فيبدولي في وجودي ومن وجودي سرّ ما كتبه قلم تقدريك من كل مُستودع في مُستقرّ ومستقرّ في مستودع فلا يخفى عليّ ما غاب عني فأنظرني بك وأنظر منّ سواي بنور اسمك فأرى الكمال المطلق في الملك المطلق، يا مُودع الأنوار ١٠ قلوب عباده الأبرار يا سريع يا قريب» .

قال : من دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصد أيّ حاجة أراد، أسرع الله تعالى قضاءها ونمى له ما يملكه من مال أو جاه أو حال أو مقام . ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة في أيّ شيء وُضع عليه . ويصلح هذا الذكر لطالبي المكاشفات من أرباب الخلّوات فإنهم إذا داوموا هذا الذكر أُلقي إليهم ١٥ الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريع يا قريب يا مبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب في الأفعال المرتبطة بعالم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به في الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفي الثانية عشرة من ليلة الاثنين وفي الثانية من يوم الاثنين، وفي التاسعة من ليلة الثلاثاء وفي الحادية عشرة

(١) كذا في اللغة النورانية . وفي الأصل : «أنتك» .

(١٤١)

من يوم الثلاثاء، وفي السادسة من ليلة الأربعاء وفي الثامنة من يوم الأربعاء، وفي الثالثة من ليلة الخميس وفي الخامسة من يوم الخميس، وفي الثالثة من ليلة الجمعة وفي الثانية من يوم الجمعة، وفي الثانية عشرة من ليلة السبت وفي الحادية عشرة من يوم السبت، وفي التاسعة من ليلة الأحد . وهو :

«رب أسألك مدداً روحانياً تقوى به قُوى الكَيْفَةِ والحَزَنَةِ حتى أقهر بمبادئ نفسي كُلَّ نَفْسٍ قَاهِرَةٍ فتنقبض لي رِقَابُهَا آنقباضاً تسقطُ به قُواها ، فلا يبق في الكون ذورُ روحٍ إلّا ونارُ القهر أحمدت ظهوره ، يا شديدُ إذا البطش يا قهَّارُ يا جبارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهرية فأنفعلت له النفوس بالقهر أن تكسوني ذلك السرَّ في هذه الساعة حتى ألينَّ به كُلَّ صعب ، وأذلَّ به كُلَّ منيع بقوتك إذا القوة المتين» .

قال : من دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة ، ثم دعا على ظالم أخذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لاغير . ويناسب هذا الدعاء من آي القرآن العظيم (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) . قال : في هذا الذكر وقع الجبارة ، وقطع دابر الظالمين ، ونحرب ديار الماردین ، وما شابه ذلك . وهو ذكر يلقى بالسالكين في مبادئ الرياضات والمتهين في مقامات التجلّي إلى الخلوة ؛ وهو من الأسرار العجيبة ، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد في قلبه خفةً ناعاً بالخاصة ، ولا يذكره محمومٌ إلّا برئ من حمّاه لوقته ، وإن كتبه وعلقه عليه دامت صحته .

دعاء يدعى به في الساعة السادسة من يوم الأحد، وفي الأولى من ليلة الاثنين وفي الثالثة من يوم الاثنين، وفي العاشرة من ليلة الثلاثاء وفي الثانية عشرة من يوم

(١) كذا في إحدى نسخ الة النورانية، وفي الأصلين : ”واكني...“ .

الثلاثاء، وفي السابعة من ليلة الأربعاء وفي التاسعة من يوم الأربعاء، وفي الرابعة من ليلة الخميس وفي السادسة من يوم الخميس، وفي الرابعة من ليلة الجمعة وفي الثالثة من يوم الجمعة، وفي الأولى من ليلة السبت وفي الثانية عشرة من يوم السبت، وفي العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

- «رَبِّ صَفَّنِي [من كدرات الأغيار^(١)] صفاء من صفته يدُ عنايتك من نقص^(٢) التكوين حتى ينجلي في مرآة قلبي ومستوى نفسي كلَّ اسم أنقطع في قُوَّة جبرائيل فقوى به على كشف ما في اللوح من أسرار أسمائك ومجامع رسائلِك، فكَلَّ نفس منفوسة أمتدت لها من دقائقه دقيقة^(٣) طرفها منه والثاني لمن هو به، ومجامع هذه الدقائق في دقيقة^(٣) الأسم الجبرائيل العالم العليم العلام، ياذا الكرم الذي علم بالقلم، فوَّاد الوحي والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه في هذه الساعة إلى مثلها . إلهي ١٠ مَنَظِّفِي بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقى عنك بما به تلقى [عنك جبرائيل^(١)] مما أملاً به وجودي بلا ميلٍ لغلبة حتى أتلذذ بمصافاتك تلذذ جبريل برسائلِك ، إنك علام الغيوب» .

- قال : من دعا به نحسا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات ألهم رشده في عواقب أموره . والأسم اللائق بهذا الدعاء يا علام الغيوب يا عالم الخفيات ١٥ وماشاكل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدرياق الأكبر . وهذا الذكر للذي قُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنه مهما استدامه ألهم قلبه إلى علوم جلية، ويُحاطب

(١) زيادة من اللغة النورانية .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللغة النورانية، وفي الأصلين : «من نقص التلوين ...» .

(٣) كذا في الأصلين بالبدال في هذه البكلمات ، وفي اللغة النورانية بالراء فيها جميعا .

في نفسه بإلقاءات^(١) من وحي الإلهام، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به في الساعة السابعة من يوم الأحد، وفي الثانية من ليلة الاثنين وفي الرابعة من يوم الاثنين، وفي الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفي الأولى من يوم الثلاثاء، وفي الثامنة من ليلة الأربعاء وفي العاشرة من يوم الأربعاء، وفي الخامسة من ليلة الخميس وفي السابعة من يوم الخميس، وفي الخامسة من ليلة الجمعة وفي الرابعة من يوم الجمعة، وفي الثانية من ليلة السبت وفي الأولى من يوم السبت، وفي الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

(١٤٦)

«رَبِّ أَوْقِفْنِي مَوْقِفَ الْعَزَّ حَتَّى لَا أَجِدَ فِي ذَرَّةٍ وَلَا رَقِيقَةٍ وَلَا دَقِيقَةٍ إِلَّا وَقَدَ غَشَّاهَا مِنْ عِزِّ عِزَّتِكَ مَا مَنَعَهَا مِنَ الذَّلِّ لغيرك، حَتَّى لَا أَشْهَدَ ذَلَّ مَنْ سِوَايَ لِعِزَّتِي بِكَ مُؤَيِّدًا بِرَقِيقَةٍ مِنَ الرِّعْبِ يَخْضَعُ لَهَا كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَجَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَأَبْقِ عَلَيَّ ذَلَّ الْعَبودية فِي الْعِزَّةِ بَقَاءً يَسْطِ لِسَانَ الْإِعْتِرَافِ، وَيَقْرِضُ لِسَانَ الدَّعْوَى، إِنَّكَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُنْكَبِرُ الْقَهَّارُ» .

قال : من دعا بهذا الدعاء في هذه الساعة أو في ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة بعد صلاة وحضور قلب نُصِرَ على أيِّ عدوٍّ قصده ظاهرا وباطنا .

دعاء يدعى به في الساعة الثامنة من يوم الأحد، وفي الثالثة من ليلة الاثنين وفي الخامسة من يوم الاثنين، وفي الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفي الثانية من يوم

(١) كذا في اللمة النورانية، وفي الأصل : بالقاب .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللمة النورانية وفي نسخة أخرى منها «حتى يخضع له ...» وفي الأصلين :

«حتى يخضع له ...» .

(٣) في هامش إحدى نسخ اللمة النورانية . «ثلاث تسلّيات ...» وكتب عليها كلمة «صح» وأشار .

التي موضعها بعد كلمة «صلاة» .

الثلاثاء، وفي التاسعة من ليلة الأربعاء وفي الحادية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السادسة من ليلة الخميس وفي الثامنة من يوم الخميس، وفي السادسة من ليلة الجمعة وفي الخامسة من يوم الجمعة، وفي الثالثة من ليلة السبت وفي الثانية من يوم السبت، وفي الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«إلهي أطلع على وجودي شمس شهودي منك في الأكران والألوان حتى أمشي
بما أشهدني في آفاق الملكوت فاكشف منه معنى كلمة التكوين فينفع لي كل
مكون أنفعاله للكلمة بإذنك الذي سخّرت به ما في الوجودين بلا ظلمة وضع ولا ظلمة
طبع، إنك منور الكل بكلك ومنور الأنوار بنورك الذي صدوره عن آسمك النور
والظاهر والحي والقيوم، كل شيء هالك إلا وجهه» الآية .

قال البوني : لا يذكر أحد هذا الذكر في ساعة من هذه الساعات تسعاً وأربعين
مرة إلا كساه الله نوراً يجد ذلك في نفسه، ويُسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسرى
كلمته في الأسباب سرّياناً عجيباً . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم
ما يكشفون .

دعاء يدعى به في الساعة التاسعة من يوم الأحد، وفي الرابعة من ليلة الاثنين
وفي السادسة من يوم الاثنين، وفي الأولى من ليلة الثلاثاء وفي الثالثة من يوم الثلاثاء،
وفي العاشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السابعة من
ليلة الخميس وفي التاسعة من يوم الخميس، وفي السابعة من ليلة الجمعة وفي السادسة
من يوم الجمعة، وفي الرابعة من ليلة السبت وفي الثالثة من يوم السبت، وفي الأولى
من ليلة الأحد . وهو :

«سيدى أدخلني في بواطن رياض آسمك من الباب الخاص الذي لا يُعجّب بنور
ولا بظلمة ولا بشيء منه ولا بشيء خارج عنه، وأطلق يد قوّاي في نيل النعمة،

وألهمني تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكون بك فيه وأكون بك مبتهجا منك
وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوفٌ رحيمٌ رحمنٌ .

قال : هذا الذكر بخاصية فيه يجلب الفرح ويذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو
الكرب ؛ ومن دعا به أربعين مرة في ساعة من هذه الساعات على طهارة ^(١) وأستقبال
فُرَج به كربُه وأنجلي غمُه .

دعاء يدعى به في الساعة العاشرة من يوم الأحد ، وفي الخامسة من ليلة الاثنين
وفي السابعة من يوم الاثنين ، وفي الثانية من ليلة الثلاثاء وفي الرابعة من يوم
الثلاثاء ، وفي الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الأولى من يوم الأربعاء ، وفي الثامنة
من ليلة الخميس وفي العاشرة من يوم الخميس ، وفي الثامنة من ليلة الجمعة وفي السابعة
من يوم الجمعة ، وفي الخامسة من ليلة السبت ، وفي الرابعة من يوم السبت ، وفي الثانية
من ليلة الأحد . وهو :

« يا مَنْ نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لا شيءٍ لشيءٍ لا يتناهى ، أظهرت الحروف بالقلم
فكان لها صريف في ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الخلق والصدر
واللها واللسان ، كلّ جنس صدر عنه اسمٌ لا يعلم تركيبه سوى ملك قلبك ، وكلّ نوع
صدر عنه مرتباً ، فلوح إسرائيل أظهره بقوة ، في آحاد كلماته من جزئيات تراكيبه ،
أسألك بهذا السرّ الخفى الذى وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرّاً ودعته فيه

(١) في هامش إحدى نسخي اللغة النورانية : « وصلاة ثلاث تسليمات » وكتب عليها كلمة « صح »

يوم إمكان وجوده، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أعاين الغيب بما به حَى
الروح الباقي، يا حَى، ياه يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارئُ أنت هو» .

قال البوني : هذا الذكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات مائة مرة يُسرله
قضاء أى حاجة قصدها بغير مشقة .

- دعاء يدعى به في الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفي السادسة من ليلة
الاثنين وفي الثامنة من يوم الاثنين، وفي الثالثة من ليلة الثلاثاء وفي الخامسة من
يوم الثلاثاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية من يوم الأربعاء،
وفي التاسعة من ليلة الخميس وفي الحادية عشرة من يوم الخميس، وفي التاسعة من
ليلة الجمعة وفي الثامنة من يوم الجمعة، وفي السادسة من ليلة السبت وفي الخامسة
من يوم السبت، وفي الثالثة من ليلة الأحد . وهو :

- «يا من لوجوده العلى باعتبار حكمته إلى كل موجود حصل من وجوده أسم يليق به^(٢)
هو مفتاحه الخاص، ومعناه المغيب، وحقيقته الوجودية وسره القابل، فما في الأكوان
جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العلوى والسفلى إلا ومقاليد أحكامه متعلقة باسم
من أسمائه، وأجتماعها برافتها بيد أسمك الذى آستأثرت به عن جميع خلقك فلم
يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فاسماؤك الهى لا تُخصى، ومعلوماتك لا نهاية لها،
أسألك غمسة في بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فاتصمرف في الكون
باسم الكمال تصرفاً ينشئ النقص بالوقوف على عبودية النقص، إنك المعز المذل
اللطيف الخبير العذل المحيب» .

(١) في اللة النورانية : المغيب .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللة النورانية، وفي الأصلين : «من جوده...» .

قال : مَنْ ذكر هذا المذكور ست عشرة مرة في ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا ، وتيسير أسباب ، وسكون بحر هائج ، وسلطان غاصب ، ونفس متمردة من شيطان الإنس والجنّ وماناسب ذلك إلّا أجيب له لوقته ، وذلك على طهارة وصلاة^(٢) وجمع همة في موضع خال من الأصوات .

دعاء يدعى به في الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد ، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين ، وفي الرابعة من ليلة الثلاثاء وفي السادسة من يوم الثلاثاء ، وفي الأولى من ليلة الأربعاء وفي الثالثة من يوم الأربعاء ، وفي العاشرة من ليلة الخميس وفي الثانية عشرة من يوم الخميس ، وفي العاشرة من ليلة الجمعة وفي التاسعة من يوم الجمعة ، وفي السابعة من ليلة السبت وفي السادسة من يوم السبت ، وفي الرابعة من ليلة الأحد . وهو :

« تعاليت يا من تقاصر كل فكر عن حصر معني من معاني أسمائه ، فكل علو ورفعة^(٤) فن ذلك العلو والرفعة صدوره ظاهرا وباطنا ، تقديس مجدك يا من أستاذ عرشه أظهر فيها كبرياه ومجده ، أسألك بالصفات التي لا تعلّق لها بموجود ، يا ذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء ، أسألك الأنس بمقابلات سرّ القدر أنسا يحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتي بك فأطيب بوقتي لك ، فلا يتحرك ذو طبع لمخالفتي إلّا صغر لعظمتك وقصم بكبريائك ، إنك جبار الأرض والسماء ، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب » .

(١) كذا في اللغة النورانية ، وفي الأصل : « ثم سأل الله تعالى فن سأل فيه رزقا ... » .

(٢) كذا في إحدى نسخ اللغة النورانية ، وفي الأصلين : « بحر هائل » .

(٣) في إحدى نسخ اللغة بعد كلمة « صلاة » بين الأسطر : « ثلاث تسليمات » .

(٤) كذا في اللغة النورانية ، وفي الأصلين : « فن دون ذلك العلوانح » .

قال البوني : من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد] ^(١) كُفِيَ لوقته [شَرَّما يحاذره] ^(٢) . فهذه دعوات ساعات الأيام والليالي .

ذكر ما يدعى به في المساء والصباح ، والغدق والروح ؛
والصلاة والصوم ، والجماع والنوم ؛ والورد والصدَر ،
والسفر والحضر ؛ وغير ذلك .

- فأما ما يقال عند المساء والصباح ؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد سأله فقال : يا رسول الله مُرْنِي بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ ، فقال : ” قل اللهمَّ عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذُ بك من شرِّ نفسي وشرِّ الشيطان وشرِّك قَلْبِي إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ وإذا أخذتُ مَضْجَعَك ” . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : ” أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ” . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : ” أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والأمر والليل والنهار وما سَكَنَ فيهما من شيء لله وحده لا شريك له اللهم اجعل أَوَّلَ هذا النهار لنا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا أسألك خير الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين ” . وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : ” اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك الذنور ” . وإذا أمسى قال : ” اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت ” . وعنه صلى

(١) الزيادة عن إحدى نسختي اللغة النورانية . (٢) في كتاب الأذكار للنووي ص ٣٩ : كذا وقع

في كتاب ابن السني ، ثم قال هو غير متبع ولعله صلى الله عليه وسلم قال ذلك جهرا ليسمعه غيره فيتعلمه ام . ٢٠

الله عليه وسلم أنه قال: "من قال حين يصبح أو يمسي اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء [لك] بنعمتك [عليك] وأبوء بذنبي فأغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فمات من يومه (١) أو من ليلته دخل الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصليّ الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درّجات وكنّ له عدل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجاباً من الشيطان حتى يمسي فإن قالها حين يمسي كان له مثل ذلك وكنّ له حجاباً من الشيطان حتى يصبح"، وفي رواية: "من قالها في يوم مائة مرّة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرّزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ومن قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطّت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قال حين يمسي أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لدغة عقرب حتى يصبح". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يصبح في أوّل يومه أو في أوّل ليلته بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثاً لم يضرّه شيء في ذلك اليوم أو تلك الليلة". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال إذا أصبح بسم الله العليّ الأعلى الذي لا ولد له ولا صاحبة ولا شريك أشهد أن نوحاً رسول الله وأن إبراهيم خليل الله وأن موسى نبيّ الله وأن داود خليفة الله وأنّ عيسى روح الله وكنّته ألقاها إلى مريم وأنّ محمداً رسول الله وخاتم النبيّين لا نبيّ بعده لم تلسعه حية ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يمسي وإذا قالها إذا أمسى لم يخف شيئاً من ذلك حتى يصبح".



وأما ما يقال عند النوم؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 ”وإذا أخذت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل
 أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبةً ورغبةً إليك
 لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك اللهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ونييتك الذي
 أرسلت فإن مت من ليلتك مت على فطرة الإسلام وأجعلن آخر ما تتكلم به“ .
 قال البراء بن عازب : فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت اللهم آمنتُ
 بكتابك الذي أنزلت قلت : ورسولك قال : ”ونيتك الذي أرسلت“ . وعن
 عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من
 الليل يقول : ”اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت قيام
 السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق
 والجنة حق والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليت توكلت
 وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ^(١) وما أسررت
 وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت“ .



وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما ؛ رُوى عن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إذا ولى الرجل بيته فليقل بسم الله اللهم
 إني أسألك خير المواجه وخير المخرج باسم الله وبلحنا وباسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا
 ثم ليسلم على أهله“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”إذا دخل الرجل بيته فقال باسم الله
 قعد الشيطان على الباب وقال ما من مقبل فهل من غداء فإذا أتى بغدائه فقال باسم الله

(١) كذا في رواية الأذكار للنووي من رواية الصحيحين ، وقد ورد في الأصل بدون ما الموصولة
 إلا في الفعل الأول دون الأفعال الباقية .

قال ما مِنْ غَدَاءَ وَلَا مَقِيلَ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”إذا خرج الرجل من بيته فقال سبحان الله قال الملك هُدَيْتَ وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكلت على الله يقول الملك كُفِيتَ يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمل بمن كُفِيتَ وهُدِيْتُ ووُقِيتَ“ . وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته صباحاً قط إلا قال : ”اللهم إني أعوذ بك أن أزلَّ أو أضلَّ أو أظلم أو أجهل أو يُجهَلَ عليَّ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”ما من مسلم خرج من بيته يريد سفراً أو غيره فقال حين يخرج بِاسْمِ الله آمَنْتُ بالله أعصمتُ بالله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله إلا رُزِقَ خَيْرَ ذلك المَخْرَجِ وصُرف عنه شرُّ ذلك المَخْرَجِ“ . وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال فضيل بن مرزوق — أحسبه رفعه — قال : ”من قال حين يخرج إلى الصَّلَاةِ اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا شُبهة خرجتُ خوفَ سخطك وابتغاءَ مَرْضَاتِكَ أسألك أن تُثَقِّنِي مِنَ النَّارِ وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكلَّ الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يفرَّغَ من صَلَاتِهِ“ . وعن فاطمة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : ”باسم الله والسلام على رسول الله اللهم أغفر لى وأفتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللهم أغفر لى ذنوبى وأفتح لى أبواب فضلك“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم أفتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك“ .

(١) وضع على حاشية إحدى النسخ «لعلها بنت قيس» ووضعت هذه الزيادة في نسخة أخرى في صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رضى الله عنها فقد روى هذا الحديث الإمام النورى في كتاب الأذكار . عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدته اهـ وجدته هى فاطمة الزهراء .



وأما ما يقال عند النداء؛ فقد رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 ”إذا كان عند الأذان فُتِحت أبواب السماء وأسُجِيب الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة
 لم تُرَدِّ دعوة“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”من قال حين يسمع المؤذّن وأنا أشهد
 أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله رضيَ اللهُ ربّاً ومحمدا
 رسولاً وبالإسلام ديناً غُفِرَ له ذنبه“ . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من سمع
 المؤذّن فقال اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلةَ والفضيلةَ
 وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلتَ له شفاعتي يوم القيامة“ . وعنه صلى الله عليه
 وسلم : ”إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّةً
 صلى الله عليه بها عشرة“ .



وأما ما يقال عند دخول الخلاء؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 إذا دخل الخلاء قال : ”اللهم إني أعوذ بك من الخُبثِ والخبائثِ“ وإذا خرج قال
 ”غفرانك“ . وفي لفظٍ إذا خرج قال : ”الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني“ .
 وعن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال :
 ”اللهم إني أعوذ بك من الرّجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم“ ، وإذا
 خرج قال : ”الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني“ .



وأما ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأَعْضاء؛ قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : ”لا صلاةَ لمن لا وضوءَ له ولا وضوءَ لمن لم يذكر اسم الله عليه“ . وعن عليّ
 ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا عليّ

إذا تَوَضَّأَتْ فَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ وَالصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ . وعن محمد بن الحَفَيفَةِ قَالَ :
 دَخَلْتُ عَلَى وَالِدِي عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَإِذَا عَنِ يَمِينِهِ إِنَاءٌ مِنْ مَاءٍ
 فَسَمِعْتُ ثُمَّ سَكَبَ عَلَى يَمِينِهِ ثُمَّ تَمَضَّمُضَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ حَصِّنْ قُرْبِي وَأَسْتَرْ عَوْرَتِي وَلَا
 تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ . ثُمَّ تَمَضَّمُضَ وَأَسْتَنْشَقَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَقِّنِي حُجَّتِي وَلَا تَحْرِمْ نِي رَائِحَةَ
 الْجَنَّةِ . ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَقَالَ : اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهِي يَوْمَ تَسْوَدُ الْوُجُوهَ وَلَا تُسَوِّدْ وَجْهِي
 يَوْمَ تَبْيِضُ الْوُجُوهَ . ثُمَّ سَكَبَ عَلَى يَمِينِهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ أُعْطِنِي كِتَابِي يَمِينِي وَالْخَلَدَ بِشِمَالِي .
 ثُمَّ سَكَبَ عَلَى شِمَالِهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تُعْطِنِي كِتَابِي بِشِمَالِي وَلَا تَجْعَلْهَا مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِي .
 ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ غَشَّنَا بِرَحْمَتِكَ فَإِنَّا نَخْشَى عَذَابَكَ ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ بَيْنَ
 نَوَاصِينَا وَأَقْدَامِنَا . ثُمَّ مَسَحَ عُنُقَهُ فَقَالَ : اللَّهُمَّ نَجِّنَا مِنْ مُقَطَّعَاتِ النَّيْرَانِ وَأَغْلِلْهَا . ثُمَّ
 غَسَلَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَدَمَيَّ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَوْمَ تَرَلَّ فِيهِ الْأَقْدَامُ .
 ثُمَّ أَسْتَوَى قَائِمًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ كَمَا طَهَّرْتَنَا بِالْمَاءِ فَطَهِّرْنَا مِنَ الذُّنُوبِ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ
 هَكَذَا ، يَقْطُرُ الْمَاءُ مِنْ أُنَامِلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بُحَّتِي ، أَفْعَلْ كَفْعَلِي هَذَا فَإِنَّهُ مَا مِنْ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ
 مِنْ أُنَامِلِكَ إِلَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهَا مَلَكًا يَسْتَغْفِرُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، يَا بُحَّتِي مَنْ فَعَلَ
 كَفْعَلِي هَذَا تَسَاقَطَتْ عَنْهُ الذُّنُوبُ كَمَا يَتَسَاقَطُ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ .
 وعن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَعَا نِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ” يَا عَلِيُّ
 إِذَا تَوَضَّأْتَ فَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَمَامَ الْوُضُوءِ وَتَمَامَ مَغْفِرَتِكَ وَرِضْوَانِكَ “ . وعن
 عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ
 وَضُوءَهُ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ “ . وعن

(١) الْمُقَطَّعَاتُ مِنَ الثِّيَابِ شِبْهُ الْجُبَابِ وَفِي النَّزِيلِ (قَطَّعْتُ لَهُمْ ثِيَابًا مِنْ نَارٍ) أَيْ قَطَّعْتُ وَخَيَّطْتُ

وَجَعَلْتُ لِبُوسًا لَهُمْ . ١٠ هـ عَنْ لِسَانِ الْعَرَبِ .

على رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا على إذا فرغت من وضوءك فقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اللهم أجعلنى من التوابين وأجعلنى من المتطهرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك وتفتح لك ثمانية أبواب الجنة فيقال أدخل من أيها شئت“ .



وأما أدعية الصلاة؛ فهي إما أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها. فأما ما يقال قبلها فقد روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها بأى شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتح الصلاة إذا قام من الليل؟ قالت : إذا قام يفتح صلاته يقول : ”اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدنى لما آخلت فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم“ .



وأما ما يدعى به فى نفس الصلاة؛ فقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ثم يقول : ”سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك“ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر فى الصلاة سكت هنية قبل أن يقرأ؛ فقلت : يا رسول الله، بأى أنت وأمى، ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة؟ قال : ”أقول اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد“ . وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه رأى

النبي صلى الله عليه وسلم يصلي قال : فكبر فقال " الله أكبر كبيرا ثلاث مرات
والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاث مرات اللهم إني أعوذ
بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " . قال راويه عمرو بن مُرة :
نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهمزه : المَوْتة وهى الجنون . وعن عليّ
أبن أبى طالب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبر
ثم قال : " وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيئا مُسْلِما وما أنا من
المشركين إن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك
أُمرْتُ وأنا أولُ المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربّي وأنا عبدك ظلمتُ
نفسى وأعترفُ بذنبي فأغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت وأهدني لأحسن
الأخلاق لا يَهْدِي لأحسنها إلا أنت وأصْرِفْ عني سيئها لا يصْرِفْ سيئها إلا أنت
لبيك وسعديك والخير كله في يديك [والشر ليس إليك] ^(١) وأنا بك وإليك تباركت
وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك " ، فإذا ركع قال : " اللهم لك ركعتُ وبك أمنتُ
ولك أسلمتُ خَشَعْتُ لكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَنَفْسِي وَعَظْمِي وَعَصْبِي " ، فإذا رفع رأسه قال :
" سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وما بينهما وملء ما شئت
من شيء بعد " ، فإذا سجد قال : " اللهم لك سجدتُ وبك أمنتُ ولك أسلمتُ
سجد وجهي للذى خلقه وصوّره فأحسن صوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك الله أحسن
الخالقين " ، فإذا فرغ من الصلاة وسلم قال : " اللهم آغفر لي ما قدّمتُ وما أخرتُ
وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ وما أنت أعلم به منّي أنت المقدم وأنت المؤخر
لا إله إلا أنت " . وقد ورد في لفظ آخر أنه يقول : اللهم آغفر لي إلى آخر الدعاء
بين التشهُّد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صليت مع رسول الله

- صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقول في ركوعه: "سبحانَ ربِّي العظيم"، وفي سجوده: "سبحانَ ربِّي الأعلى". وفي لفظ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده وركوعه: "سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ". وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال: "ربنا لك الحمد ٥ ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجحَد منك الجَد". وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال وهو ساجد ثلاث مرَّات ربَّ اغفر لي لم يرفع رأسه حتَّى يُغفرَ له". وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول: "التَّحِيَّاتُ الْمُبَارَكَاتُ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ اللَّهُ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ". وروى: السَّلامُ في الموضعين. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا نقول في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم: السَّلامُ على الله السَّلام على فلان، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم: ١٥ "إن الله هو السَّلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التَّحِيَّاتُ لله والصلوات والطَّيِّبَاتُ السَّلام عليك أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلام عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ فإذا قالها أصابت كلَّ عبد صالح في السماء والأرض أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يَخْتِيرُ فِي الْمَسْئَلَةِ مَا شَاءَ". وقد علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الصلاة عليه. وقد سأله كعب بن عُجْرَةَ عنها فقال: "قولوا اللهم صلَّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إِنَّكَ حميدٌ مجيدٌ وبارك

على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد“ . وعن
أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إذا فرغ أحدكم
من التشهد فليتعوذ بالله من أربع من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة النجيا والممات
وشرّ المسيح الدجال“ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق
رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : علّمني دعاء أدعو به في الصلاة وفي بيتي ؛ قال :
”قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً
من عندك إنك أنت الغفور الرحيم“ . وروى بعد قوله من عندك : وأرحمني إنك
أنت التواب الرحيم .



- ١٠ وأما ما يدعى به بعد التسليم ؛ فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما
قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ : ”لا إلهَ إلا الله وحده
لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانعَ
لِمَا أُعْطِيََ ولا مُعْطَىَ لِمَا مَنَعْتَ ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَنَّةِ مِنْكَ الْجَنَّةُ“ . وعن عبد الله
ابن الزبير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلمَ من
صلاته يقول بصوته الأعلى : ”لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد
وهو على كل شيء قدير لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله ولا نعبد إلا إيَّاه له النعمةُ وله
الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلهَ إلا الله مُخْلِصِينَ له الدينَ ولو كره الكافرون“ .
وفي طريق آخر : ”له الدينَ وهو على كل شيء قدير“ . وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صَلَّى الصَّبحَ قال : ”اللهم إني أسألك علماً نافعاً
ورزقاً طيباً وعملاً مُتَقَبَّلاً“ . وعن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :
- ٢٠

”من قال حين ينصرف من صلاته سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له“. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت“. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”ما من عبد بسط كفيه في دبر صلاته ثم يقول

• إلهي إله إبراهيم وإسماعيل ويعقوب إله جبريل وميكائيل وإسرافيل أسألك أن تستجيب دعوتي وتعصمني في ديني فأني مبتلي وتبالي برحمتك فأني مذبذب وتنفي عني الفقر فأني مستمسك إلا كان حقاً على الله ألا يرد يديه خائبتين“. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”من قال دبر كل صلاة الحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرة وسبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة وتمائم المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرَتْ ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر“. وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في آخر وتره : ”اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أخصي شأناً عليك أنت كما أئنت على نفسك“. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله

• صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر، وفي لفظ : في قنوت الوتر : ”اللهم أهديني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقبي شرماً قضيت إنك تقضي ولا يقضي عليك وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت“. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة فقال : ”اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأثنا وشاهدنا وغائبنا اللهم من أحييته منا فأحيه على الإيمان ومن توفيته منا فتوفه على

الإسلام اللهم لا تحرِمنا أجره ولا تُضِلَّنَا بعده“. وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علي“ إذا صليت على جنازة رجلٍ قفل اللهم هذا عبدك ابن عبدك ابن أمتك ماضٍ فيه حكمك خلقتَه ولم يكن شيئاً مذكوراً نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللهم لَقِّنْهُ حُجَّتَهُ وألْحِقْهُ بِنَبِيِّهِ محمد صلى الله عليه وسلم وثبِّتْهُ بالقول الثابت فإنه أفتقر إليك وأستغنيَ عنه كان يشهد أن لا إله إلا الله فاغفر له وأرحمه ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده اللهم إن كان زاكياً فزكّه وإن كان خاطئاً فاغفر له وإذا صليت على جنازة امرأة قفل اللهم أنت خلقتها وأنت أحييتها وأنت أمّتها تعلم سرّها وعلايتها جثثك شفعا لها فاغفر لها وأرحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها وإذا صليت على جنازة طفل قفل اللهم أجعله لوالديه سلفاً وأجعله لها ذخراً وأجعله لها رشداً وأجعله لها نوراً وأجعله لها قرطاً وأعقب لوالديه الجنة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده“. وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على جنازة يقول : ”اللهم اغفر له وأرحمه وأعف عنه وعافه وأكرم نزلَه ووسّع مدخله وأغسله بماءٍ وتلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجته وقِه فتنة القبر وعذاب القبر وعذاب النار“ ؛ قال عوف رضي الله عنه : فتمتيت لو كنتُ أنا الميت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .



وأما ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقين والدفن ، وما في ذلك من الأجر ؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”من رأى جنازةً فقال الله أكبرُ صدقَ الله ورسوله هذا ما وعدنا الله ورسوله اللهم زدنا إيماناً وتسليماً كُتِبَ له عَشْرُونَ

٥

١٠

١٥

٢٠

حسنةً في كلِّ يومٍ من يومٍ يقولها إلى يوم القيامة“ . وقال صلى الله عليه وسلم :
 ”لَقَنَّا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”إِذَا وَضَعْتُمْ مَوْتَاكُمْ
 فِي الْقَبْرِ فَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه
 كَانَ إِذَا سَوَّى عَلَى الْمَيِّتِ التُّرَابَ قَالَ : ”اللَّهُمَّ أَسْلِمَهُ إِلَيْكَ الْأَهْلُ وَالْمَالُ وَالْعَشِيرَةُ
 وَذَنْبُهُ عَظِيمٌ فَاعْفِرْ لَهُ“ . وعن سعيد بن عبد الله الأودي قال : شهدت أبا أُمَامَةَ
 وَهُوَ فِي النَّزْعِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاصْنَعُوا بِي كَمَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَنْ نَصْنَعَ بِمَوْتَانَا ، أَمَرْنَا فَقَالَ : ”إِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَسَوِّتِمْ التُّرَابَ عَلَى قَبْرِه
 فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِه فَلْيَقُلْ يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ وَلَا يُجِيبُهُ ثُمَّ يَقُولُ
 يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةٍ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا ثُمَّ يَقُولُ يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانَةٍ فَإِنَّهُ يَقُولُ أَرْشَدْنَا
 رَحِمَكَ اللَّهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ فَلْيَقُلْ أَذْكُرْنَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهِادَةً أَنْ لَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مَحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْتَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا
 وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا فَإِنْ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَأْخُذُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِيَدٍ صَاحِبِهِ وَيَقُولُ أَنْظِرْ
 بِنَا مَا نَقْعُدُ عَنْدَ مَنْ لَقْنُ حُجَّتَهُ فَيَكُونُ اللَّهُ حُجَّتَهُ دُونَهُمَا“ ، فقال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ
 فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ أُمُّهُ ؟ قَالَ : ”فَيَنْسِبُهُ إِلَى حَوَاءَ يَا فُلَانُ بْنُ حَوَاءَ“ .



وأما ما يقال عند زيارة القبور؛ عن عائشة رضى الله عنها أنها تبعَت النبيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى زِيَارَةِ الْبَقِيعِ فَقَالَ لَهَا : ”قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأَخِرِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ
 لَاحِقُونَ“ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى الْمَقَابِرَ قَالَ : ”السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ أَتَمَّ لَنَا فَرَطُ
 وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ لَنَا وَلَكُمْ“ .



وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفطر قال : ”اللهم لك صُمتنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل مِنّا إنك أنت السميع العليم“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”من قال اللهم لك صُمتُ وعلى رزقك أفطرتُ عليك تَوَكَّلْتُ كُتِبَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ صَامَ ذَلِكَ الْيَوْمَ“ . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إِن أَحَدَكُمْ لَتَوْضَعُ مَائِدَةً بَيْنَ يَدَيْهِ فَمَا تَكَادُ أَنْ تُرْفَعَ حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ“ . قيل يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال : ”لأنه يُسَمَّى الله إِذَا وُضِعَتِ الْمَائِدَةُ وَأَكَلَ وَيَحْمَدُ الله إِذَا رُفِعَتْ“ . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”إِذَا نَسِيَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَذْكُرَ آسَمَ الله فِي أَوَّلِ طَعَامِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ“ . وعنه صلى الله عليه وسلم : ”مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ بِغَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ“ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال : ”الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوَّغهُ وجعل له مَخْرَجًا“ . ومن رواية أنس : ”الحمد لله الذى أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي وَهَدَانِي وَكَلَّ بِلَاءَ حَسَنِ أَبِلَانِي الْحَمْدُ لله الرَّازِقِ ذِي الْقُوَّةِ اللَّهُمَّ لَا تَتَرَعَّ مِنَّْا صَالِحًا أَعْطَيْتَنَاهُ وَلَا صَالِحًا رَزَقْتَنَاهُ وَاجْعَلْنَا لَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ“ . وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال : ”الحمد لله الذى أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَأَشْبَعَنَا وَأَوَانَا وَكَفَانَا“ . وعن علي رضى الله عنه قال : دعانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا على إِذَا شَرِبْتَ مَاءً فَقُلِ الْحَمْدُ لله الذى سَقَانَا مَاءً عَذْبًا قُرَانًا بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أَجَا بِذُنُوبِنَا ثُمَّ كُتِبَ شَاكِرًا“ . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيته قال لهم : ”أَفْطَرْتُ عِنْدَكُمْ

٥

١٠

١٥

٢٠

الصائمون وأَكَل طَعَامَكُمْ الْإِبْرَارُ ونزلت عليكم الملائكة“؛ ورؤى : ”وصلت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده“ .



وأما ما يقال عند لباس الثوب واللباسه، وعند النظر في المرأة والتسريح وفي المجلس؛ روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استجد ثوبا — سَمَاهُ بِاسْمِهِ قِيصًا أو إزارا أو عمامة — يقول: ”اللهم لك الحمد أنت كَسَوْتَنِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ“. وعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”يا علي إذا لَبِسْتَ ثَوْبًا فَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ لَمْ يَلِغِ الثَّوْبُ رِقَبَتِكَ حَتَّى يُغْفَرَ لَكَ يَا عَلِيُّ مِنْ لَيْسَ ثَوْبًا جَدِيدًا وَكَسَا أَسْمَالَهُ^(٢) عُرْيَانًا أَوْ مَسَكِينًا كَانَ فِي جِوَارِ اللَّهِ وَأَمْنِهِ وَحَفِظَهُ مَا دَامَ عَلَيْهِ مِنْهُ سَلَكٌ“. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ“^(٤). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نظر في المرأة يقول: ”الحمد لله رب العالمين الذي خلقني وسوَّى خَلْقِي وجعلني بَشَرًا سَوِيًّا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ“؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لا يَمَسُّ

(١) الذي في أذكار النووي: «أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ...» بدون كلمة «من» .

(٢) في الأصول «أوكسا أسماله...» وظاهر أن السياق يقتضي الراودون «أو» وقد ورد ما يشبه

هذا الحديث في أذكار النووي (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» . (٣) السلك: الخيط .

(٤) ورد هذا الحديث في أذكار النووي هكذا: «من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذي كساني

هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه» .

وجه من قالها سوء أبدا . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علي إذا نظرت في المرأة فقل اللهم كما حسنت خلقي فأحسن خلقي وأرزقي" . وعن الرضي علي بن موسى عن أبيه عن آبائه آبا فأبا رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من أمر المشط على رأسه ولحيته في كل يوم سبع مرات وقال في كل مرة سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يقارنه ذنب" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من جلس في مجلس كثر لغظه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك" .



(١٥١)

وأما ما يقال في المرض والرقى والوسواس والحرق ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للريض : "باسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا" . وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وجع قد كاد يبطلي فقال لي صلى الله عليه وسلم : "أجعل يدك اليمنى عليه ثم قل باسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد سبع مرات" ، ففعلت ذلك فشفاني الله تعالى . وعنه صلى

(١) كذا في الأصول ، وفي صحيح مسلم : « باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا بإذن ربنا وقال ابن أبي شيبة : يشفى وقال زهير : يشفى سقيمنا » وفي أذكار النووي (ص ٦١) : « وروينا في صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وغيرها ، إلى أن قال : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا بإذن ربنا ، وفي رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا اه فا في الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

(٢) الذي في صحيح مسلم : « عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضع يدك على الذي تألم من جسدك » وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

- الله عليه وسلم : ”مَنْ عاد مريضًا لم يحْضُرْ أَجْلُهُ فقال عنه سبعَ مرّات أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشْفِيكَ إِلَّا عافاه الله من ذلك المرض“ . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خَدِّه وقال : ”أَذْهَبِ الْبَاسُ ، رَبَّ النَّاسِ وَأَشْفِ أَنْتَ الشَّافِي شِفَاءً لَا يَغَادِرُ سَقَمًا“ . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أَنه قرأ في أُذُنِ مبتلى فآفاق ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
 ”ما قرأت في أذنه“ ، قال : قرأت (اَلْحَسْبُكُمْ اَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عِبْتًا) إلى آخر السورة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ”لو أَنَّ رجلاً مُوقِنًا قرأ بها على جبل لزال“ : وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”من رأى صاحب بَلَاءٍ فقال الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَقَ عافاه الله من ذلك البلاء كأنَّنا ما كان أبدا ما عاش“ . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أُرْقِي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين فاضعُ يدي على صدره وأقول : أَذْهَبِ الْبَاسُ ، رَبَّ الناس ؛ بيدك الشفاء ولا كاشفَ له إلا أنت . وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفع الحديث أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”هذه الكلمات دواءٌ من كلِّ داء أعودُ بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عاتمة من السامة والهامة وشرَّ العين اللَّامة ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ ومن شرِّ أبى قِترَةَ وما وَلَدَ ثلاثون من الملائكة أتوا ربَّهم عز وجل فقالوا وَصَبَّ بَارِضًا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وأمسحوا بَوْصَبِكُمْ رُقِيَّةً محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صَفْدًا^(٢) أو كَتَمَهَا أَحَدًا فلا أَفْلَحَ أبدا“ . وعن علي رضى الله عنه قال : من أَشْتكى ضُرَّسه فليأخذ الترابَ من موضع يسجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى ، ثم يقول : بسم الله ، والشافى الله ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله . وعن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه أناه رجل فذكر له أن

أباه آحتبس بولهُ وأصابته حصاةٌ منعتهُ البول فعلمهُ رُقيسة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : ”ربَّنَا الله الذى فى السماء تقدّس اسمكُ أمرُك فى السماء والأرض كما رحمتكُ فى السماء فأجعل رحمتكُ فى الأرض وأغفر لنا حُوبنا وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فانزِلْ شفاءً من شفائك ورحمةً من رحمتك على الوجع فيراً“ ؛ فأمره برُقيهِ بها فرفاه بها فبرئ . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغتَمّاً، فقال : يا عجد ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك ؟ قال : ”الحسن والحسين أصابتها عين“ ؛ فقال : يا عجد صدّق العينَ فإن العينَ حقّ ، ثم قال : أفلا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات ؟ فقال : ”وماهنّ يا جبريل“ ، فقال : قل اللهمّ ذا السلطان العظيم ، ذا المنّ القديم ، ذا الوجه الكريم ، والكلمات الثقات ، والدعوات المُستجابات عافِ الحسن والحسين من أنفُسِ الحنّ وأعْيِنِ الإنس ؛ فقالها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبان بين يديه ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ”عَوِّذُوا أَنْفُسَكُمْ بهذا التعوُّذ فإنه لم يتعوّذ المتعوّذون بمثله“ . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ”أَمَانٌ لك من الحرق أن تقول سبعاً نك ربّى لا إلهَ إلا أنت عليك توكلتُ وأنت ربّ العرش العظيم“ . وعنه أيضاً رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علىّ أمانٌ لك من الوسواس أن تقرأ (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)“ .



وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابة ؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال : ”اللهم إني أسألك من خير“ .

﴿١٥٦﴾

هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق“ . وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال
 لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا عليّ إذا دخلت السوق فقل حين تدخل
 باسم الله وبالله أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله يقول الله
 عز وجل عبدى هذا ذَكَرْنى والناسُ غافلون أشهدوا أنّى قد غفرتُ له“ . وعن عمر
 ابن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”من دخل السوق فقال
 لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيى ويُميت وهو حيٌّ لا يموت
 بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ورفع له ألف ألف
 درجة“ أو قال : ”وبنى له بيتاً فى الجنة“ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ”إذا أفاد أحدكم الجارية أو المرأة أو الدابة فليأخذُ بناصيتها وليدعُ بالبركة وليقل
 اللهم إني أسألك خيراً وخيراً ما جُبلت عليه وأعوذُ بك من شرّها وشرّاً ما جُبلت
 عليه فإن كان بعيداً فليأخذُ بذروة سنامه“ .

✦ ✦

وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر؛ عن أبي بن كعب
 رضى الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبها رجلٌ
 فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ”لا تسبها فانها مأمورة ولكن قل اللهم إني أسألك
 خيراً وخيراً ما فيها وخيراً ما أُمرتُ به وأعوذُ بك من شرّها وشرّاً ما فيها وشرّاً ما أُمرت
 به“ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
 سمع الرعد أو البرق قال : ”اللهم لا تقتلنا غضباً ولا تقتلنا بغتةً وعافنا قبل ذلك“ .
 وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد
 والصواعق قال : ”اللهم لا تُهلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعدابك وعافنا قبل ذلك“ . وعن
 أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شيء من الدعاء إلا فى الاستسقاء

حتى يرى بياض إبطيه . وعن كعب بن مُرّة السلمي رضي الله عنه قال : كُنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله آستسقى الله لمطر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللهم آسفنا غيثاً مُغيثاً مريعاً مريثاً عاجلاً غير راثٍ نافعاً غير ضار" ، قال : فاجتمعوا حتى أحيوا، فَأَتَوْهُ فَشَكَّوْا إِلَيْهِ الْمَطَرَ فَقَالُوا : يا رسول الله، قد تهذمت البيوتُ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده : "اللهم حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا"، فجعل السحاب يتقطع يميناً وشمالاً . وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئاً في أفق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة، ثم يقول : "اللهم إني أعودُ بك من شرّها" ؛ فإن رأى مطراً قال : "اللهم صَيِّباً هَيِّئْنَا" . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطر قال : "اللهم صَيِّباً نافعاً" .



وأما ما يقال في الخوف والشدائد . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوَّف الرجل من السلطان فليقل اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم كن لي جاراً من فلان بن فلان يسمي الذي يريد وشر الحين والانس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرط على أحد منهم أو يظلي عرَّ جارك وجل شأوك ولا إله غيرك" . وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من خاف من السلطان أو غيره فليفرغ إلى هذه الدعوة الله أكبر وأعر من خلقه جميعاً الله أكبر وأعر مما أخاف وأحذر وأعوذ بالله الذي لا إله إلا هو مُمسيك السموات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلا بإذنه من شر فلان

(١) جمعوا : شهدوا الجمعة .

(٢) أحيوا : حيث ما شئتهم أو حمن حالها أو صاروا في الخصب . من القاموس .

أَبْنِ فُلَانٍ يَارَبَّ كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّهِ عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ شَأُوكَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ يَقُولُهُنَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّ ذَلِكَ“ . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علي إذا اشتد بك أمرٌ فكَبِّرْ ثَلَاثًا وَقُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ وَأَعِزُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَعِزُّ مِنْ خَلْقِهِ وَأَقْدَرُ وَأَعِزُّ مِمَّا أَخَافُ وَأَحْذَرُ اللَّهُمَّ أَدْرَأْ بكَ مِنْ نَحْوِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ فَإِنَّكَ تُكْفِي بِإِذْنِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ“ .



(١٥٣)

وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي الْغَضَبِ وَالْفَزَعِ . عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفِعْلِ أَحَدُهُمَا تَحَمُّرَ عَيْنَاهُ وَتَنْفِخَ أَوْدَاجِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ“ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ”إِذَا فَزَعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّالِثَةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ فَإِنَّهَا لَمْ تَضُرَّهُ“ . قَالَ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَعْلَمُهَا مِنْ بَلْغٍ مِنْ وَلَدِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَلْغُ مِنْهُمْ كَتَبَهَا فِي صَكٍّ وَعَلَّقَهَا عَلَيْهِ ؛ وَفِي لَفْظٍ : ”إِذَا فَزَعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ“ يَعْنِي الْكَلِمَاتِ ؛ وَفِي طَرِيقٍ : كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَجُلًا يَفْزَعُ فِي نَوْمِهِ ۖ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : ”إِذَا أَضْطَجَعْتَ لِلنَّوْمِ فَقُلْ“ يَعْنِي الْكَلِمَاتِ ، فَقَالَهَا فَذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُ .



وَأَمَّا مَا يُقَالُ فِي السَّفَرِ وَرُكُوبِ الدَّابَّةِ وَالسَّفِينَةِ وَدُخُولِ الْقَرْيَةِ ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا تَوَضَّأَ ۚ

(١) ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي أَذْكَارِ النَّوَى مَرَّاتٍ وَلَمْ تَذْكُرْ فِيهِ كَلِمَةَ «وَعَذَابِهِ» .

فأسبغ وضوءه وصلى ركعتين، ويقول وهو في مجلسه مستقبِل القبلة: "الحمد لله الذى خلقنى ولم أكن شيئاً ربّ أعنّى على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالى والأيام فى سفرى ناحفظنى وفى أهلى فاخلفنى". وعن النبىِّ صلى الله عليه وسلم: "ما استخلف العبدُ فى أهله إذا هو شدّ عليه ثياب سفره خيراً من أربع ركعات يُصلِّيْن^(١) فى بيته يقرأ فى كل واحدة بفاتحة الكتاب وقول هو الله أحد ثم يقول اللهم إنى أتقرب بهت إليك فاجعلنّ خليفتى فى أهلى ومالى قال فهو خليفته فى أهله وماله وولده ودورٍ حول داره حتى يرجع إلى داره". وعن أنس رضى الله عنه قال: لم يُرد النبىُّ صلى الله عليه وسلم سفيراً قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه: "بك انتشرت إليك وجّهت^(٢) وبك اعتصمت أنتِ ثقتى ورجائى اللهم أكفنى ما بهتنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به متى اللهم زودنى التقوى وأغفر لى ذنبى وجّهنى إلى الخير أينما توجهت". وعن النبىِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا ركبتم الإبل فتعوذوا بالله وأذكروا اسم الله عليه فإن على سنام كلِّ بعيرٍ شيطاناً". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره يريد السفر كبر ثلاثاً ثم قال: "سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنّا له مُقرّنين وإنا إلى ربّنا مُتعلّقون اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا وآطِمْ عَنَّا بَعْدَهُ اللهم أنت

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية ج ٦ ص ٤٠٣ وفى الأصل «بضمهم» .

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بهامش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ ج ٣ ص ٣٩ مع شىء يسير جداً من النقص أو الزيادة . وفيه «أجعلنّ خليفتى فى أهلى ومالى فهن خليفته» الخ .

(٣) كذا بالأصليين وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال «اللهم لك انتشرت وإليك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى اللهم أكفنى ما أهتمنى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به اللهم زودنى التقوى» الخ .

- الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد“ ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم فاهن وزاد فيهن : ”آثبون ثابتون لربنا حامدون“ . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من حج أو عمرة فأشرف على شرف كبر ثلاثاً ثم قال : ”لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آثبون ثابتون لربنا حامدون“ صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحراب وحده وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال“ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”أَمَّا نَأْتِي مِنَ الْعَرْقِ إِذَا رَكِبُوا السُّفُنَ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ بِسْمِ اللَّهِ تَجَرُّهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ“ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : ”يا أرضُ ربِّي وربُّكَ اللهُ أعوذُ بالله من شركٍ وشرِّ ما فيك وشرِّ ما يدبُّ عليك أعوذُ بالله من أسيدٍ وأسودٍ ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ومن والد وما ولد“ . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا علي إذا نزلت منزلاً فقل باسم الله اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المُنزِلين تُرْزَقُ خَيْرُهُ وَيُدْفَعُ عَنْكَ شَرُّهُ“ . وقال صلى الله عليه وسلم : ”مَنْ نَزَلَ مِنْزَلاً ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ“ . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”إذا أردتَ الدخولَ إلى مدينةٍ أو قريةٍ فقل حين تُعَانِيهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ مَا كَتَبْتَ فِيهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا كَتَبْتَ فِيهَا اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَيْرَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا“ .

وَحَبَّبْنَا إِلَى أَهْلِهَا وَحَبَّبَ أَهْلُهَا إِلَيْنَا“ . وعن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرْقُرِيَّةَ يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ : ”اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلَنَّ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلَنَّ وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنِ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَظْلَلَنَّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا“ . وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ قَرْيَةً عَدَلَ إِلَيْهَا وَقَالَ : ”اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَيْرَهَا وَأَصْرِفْ عَنَّا وَبَاءَهَا وَحَبَّبْنَا إِلَى صَاحِبِ أَهْلِهَا وَحَبَّبْهُمْ إِلَيْنَا“ .



وأما ما يقال في الزواج والجماع ؛ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لِي فِي أَهْلِي وَبَارِكْ لِأَهْلِي فِي وَارْزُقْنِي مِنْهَا وَارْزُقْهَا مِنِّي وَاجْمَعْ بَيْنَنَا مَا جَمَعْتَ فِي خَيْرٍ وَإِذَا فَرَقْتَ بَيْنَنَا فَفَرِّقْ فِي خَيْرٍ“ . وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِي فَإِنْ قُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ“^(١) ، أَوْ قَالَ : ”لَمْ يُسَلِّطْ عَلَيْهِ“ .



وأما ما يقال في قضاء الدين ونجاح الحوائج ؛ عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ

(١) كَذَا بِالْأَصْلَيْنِ ، وَفِي أَذْكَارِ النَّوَوِيِّ (ص ١٢٥) عَنْ رِوَايَةِ صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ » . وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ : لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا هـ .

- الأنصار يقال له أبو أمانة ، فقال : ” يا أبا أمانة مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة “؛ قال : همومٌ لَزِمَتْنِي وديونٌ يا رسول الله ؛ قال : ” أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك عنك وقضى عنك دينك “؛ قال : بلى يا رسول الله ؛ قال : ” قل إذا أصبحت وأمسيت اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال “؛ قال : فعلت ذلك فأذهب الله همي وقضى عني ديني . وعن معاذ ابن جبل رضى الله عنه أنه تخلف عن صلاة من الصلوات ففقده النبي صلى الله عليه وسلم فلما جاءه قال : ” ما خلفك عن الصلاة يا معاذ “؛ قال : ليوحنا اليهودي على دينٍ فخشيتُ إن خرجتُ أن يلزمني فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ فى أهلى ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : ” ألا أعلمك كلماتٍ إذا قلتهن قضى الله عنك دينك ولو كان مثل الأرض أو مثل صبرٍ ذهباً أو ورقاً قضاه الله عنك “؛ قلت : بلى يا رسول الله قال : ” قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء وتزعج من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تؤليج الليل فى النهار وتوليح النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب رَحِمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِمَهُمَا تُعْطِيهِمَا مِنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُهُمَا مِنْ تَشَاءُ أَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ وَرَحْمَتِكَ أَنْ تَقْضَى عَنِّي دَيْنِي “ . وعن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من كانت له

(١) كذا فى أذكار النورى ص ٣٩ ، وفى الأصلين : « ... من الجبن والحزن ... » .

(٢) كذا فى نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب ص ٢٦٤

وفى الأصلين : « ألا أعلمك ... » .

• (٣) صبر ككفف جبل من جبال اليمن مطل على قلعة « تَعَزَّ » المدينة المشهورة بها اه نقله عن

تاج العروس .

١٥٥

حاجةً إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم فليَتَوَضَّأْ وَلِيُحْسِنِ الْوُضُوءَ وَلِيَصِلَّ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ لِيُثْنِيَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَصِلَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لِيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَكِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعِزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ لَا تَدْعُ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا“ . وعن علي رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ”يا علي إذا خرجت من منزلك تريد حاجة فاقرا آية الكرسي فإن حاجتك تُقضى إن شاء الله تعالى“ . وعنه رضي الله عنه قال : ”إذا أراد أحدكم الحاجة فليُكْرِزْ في طلبها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من بيته آخر سورة آل عمران وآية الكرسي وإنا أنزلناه في ليلة القدر وأُمّ الكتاب فإن فيها قضاء حوائج الدنيا والآخرة“ .

✦ ✦

وأما ما يقال في ردِّ الضلالة عن مكحول رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضلالة :
اللَّهُمَّ هَادِي وَرَادَّ الضَّوَالِ أَرُدُّدْ عَلَيَّ ضَلَاتِي وَلَا تُعَنِّ بِطَلْبِهَا وَلَا تَفْجَعْنِي بِمُصِيبَتِهَا فَإِنِهَا مِنْ رِزْقِكَ وَعَطَائِكَ . وكان يقول في الآبق : اللَّهُمَّ ضَيِّقْ عَلَيْهِ الْبِلَادَ وَاجْعَلْهُ فِي أَضْيَقٍ مِنْ ضَرُورَةِ الْحَمْلِ حَتَّى تَرُدَّهُ .

✦ ✦

دعاء الاستخارة ؛ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الأمر : ”اللَّهُمَّ خِرْلِي وَأَخْتَرْلِي“ . وعن جابر

(١) كذا بالأصل وقد راجعنا كثيرا من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق اليه ، وفي كتاب الفوائد في الصلوات والهجاء المطبوع بالمطبعة الكائنات سنة ١٢٩٦ هـ ص ٢٨ وردت العبارة الآتية في عزية العبد الآبق وهي « اللهم اني أسألك يا مالك السموات والأرض ومن فين أن تجعل اللهم الدماء والأرض وما فيها على عبد فلان بن فلانة أضيق من حلقة حتى يرجع الى مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين » .

آبْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الْأَسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، يَقُولُ : ” إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنْتُ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي — أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ — فَاقْدُرْهُ لِي [وَيُسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ] وَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي — أَوْ قَالَ فِي تَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ — فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَأَصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ “ .

١٠ ذكر ما ورد في أسماء الله الحسنى والأسم الأعظم

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” إِنْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ أَسْمَاءً مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ إِنَّهُ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثْرَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُتَمِّينُ ، الْعَزِيزُ ، الْجَبَّارُ ، الْمُتَكَبِّرُ ، الْخَالِقُ ، الْبَارِئُ ، الْمَصْصُورُ ، الْغَفَّارُ ، الْقَهَّارُ ، الْوَهَّابُ ، الرَّزَّاقُ ، الْفَتَّاحُ ، الْعَلِيمُ ، الْقَابِضُ ، الْبَاسِطُ ، الْخَافِضُ ، الرَّافِعُ ، الْمُعِزُّ ، الْمُنْزِلُ ، السَّمِيعُ ، الْبَصِيرُ ، الْحَكَمُ ، الْعَدْلُ ، الْلطِيفُ ، الْخَبِيرُ ، الْحَلِيمُ ، الْعَظِيمُ ، الْغَفُورُ ، الشَّكُورُ ، الْعَلِيُّ ، الْكَبِيرُ ، الْخَفِيزُ ، الْمُقِيتُ ، الْحَسِيبُ ، الْجَلِيلُ ، الْكَرِيمُ ، الرَّقِيبُ ، الْحَيُّبُ ، الْوَاسِعُ ، الْحَكِيمُ ، الْوَدُودُ ، الْمُحِيطُ ، الْبَاعِثُ ، الشَّهِيدُ ، الْحَقُّ ، الْوَكِيلُ ، الْقَوِيُّ ، الْمُتَيْنُ ، الْوَلِيُّ ، الْحَمِيدُ ،

المُحْصِي، المُبْدِي، المُعِيد، المُحْيِي، المُتِي، الحَيّ، الْقَيُّوم، الواحد، الماجد،
الواحد، الصَّمَد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر،
الباطن، الوالي، المتعال، البرّ، التسوّاب، المنتقم، العفو، الرؤف، مالك الملك،
ذو الجلال والإكرام، المُفْسِط، الجامع، الغني، المُغْنِي، المانع، الضارّ، النافع،
النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصُّبور .

وقد نبّه البوني رحمه الله في اللّعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى
وخاصية كل اسم منها، ورتب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

النمط الأول

مِنْ نَظْمِ الْأَسْمَاءِ أَسْمَهُ اللَّهِ، وَالْإِلَهِ، وَالرَّبَّ، وَالْخَالِقَ، وَالْبَارِيَّ، وَالْمَصُورَ، وَالْمُبْدِيَّ،
وَالْمُعِيدَ، وَالْمُحْيِيَّ، وَالْمُتِيَّ . قال البوني : هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلا أذكارا
لذا كرين [على اختلاف^(١) أحوالهم، فأنه والإله ذكر الأَكْبَرِ وَالْمَوْجِبِينَ فِي الْغَالِبِ .
و[أسمه] الربّ، والخالق، والباري ذكر الأَكْبَرِ مِنَ السَّالِكِينَ الْمُرِيدِينَ . وَالْمَصُورَ،
والمبدئ، والمعيد، والمُحْيِي، والمُتِيّ ذكر عباد الله المتعبدين والمتبصرين^(٣) .

النمط الثاني

الأحد، الواحد، الصمد، الفعّال، البصير، السميع، القادر، المقتدر، القويّ،
القائم ، قال : هذه الأسماء العشرة سلك واحد في تقارب الأذكار ؛ وهذا القسم
فيه أذكار السالكين المتعلقين بأسرار التوحيد ذكرهم الأحد والواحد . وأما الصمد

(١) الزيادة عن اللّعة النورانية .

(٢) في إحدى نسخ اللّعة النورانية : من المسلّكين المربين .

(٣) في إحدى نسخ اللّعة : "المعتبرين والمتبصرين" .

- فذكر يصلح للراضين بالجوع ، فذاكره لا يحسّ بالم الجوع البتّة ما لم يدخل عليه
 ذكرا غيره . والفعال آسم للغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وأغتمام القلب
 [بهذا السبب] ؛ فهما ذكره من هذه صفته تقابلت أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح .
 وأما السميع والبصير فتزنيه جليل ، وهو ذكر يصلح للملحين في الدعاء فإنه ربما أسرع
 لهم الإجابة . وأما القادر ، والمقتدر ، والقوى ، والقائم فذكر يصلح لأصحاب
 الإعياء والحرف الثقلة ؛ ولو علم سرّه من يعانى الانتقال وأستدامه لم يحسّ بثقل فيما
 يتعاطاه البتّة ؛ ومن نقشها في فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته ؛ ومن ضعف
 عن شيء ما وعلقه عليه وذكّره قوى لوقته .

النمط الثالث

- الحلى ، القيوم ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدير ، العلى ، العظيم ، الكبير ،
 المتعال . قال : هذا القسم من الأسماء يحتوى على أذكار المراقبين ، وفيه أعمال
 جليّة البرهان ؛ فالحلى القيوم آسمان جليلان ، ذكرٌ لأهل الحضرة ، وهو من
 أذكار إسرافيل وملائكة الصّور أجمعين ، يصلح أن يذكر من مبادئ الفجر إلى
 طلوع الشمس ، يجد ذاكره من الزيادة والخشية والتطاع إلى طلب الفضائل ما لم

- (١) في نسختي اللغة النورانية : «لأترقيين» .
 (٢) كذا في إحدى نسختي اللغة وفي الأثرى والأصاين « ما لم يدخل عليه ذكر غيره » .
 (٣) الزيادة عن اللغة النورانية .
 (٤) في نسختي اللغة النورانية «نقات» .
 (٥) في الأصلين ونسختي اللغة النورانية «ون نقشهم» بهم الجمع وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضها .
 (٦) كذا في إحدى نسختي اللغة ، وفي الأصلين وفي نسخة أخرى من اللغة «ياحى ياقيوم الرحمن» الخ .
 (٧) كذا في إحدى نسختي اللغة ، وفي نسخة أخرى منها وفي الأصلين «القدوس» ووجد بأحد الأصلين
 كلمة «القدير» فوق كلمة القدوس .

يعهده قبل؛ ومن نقش المسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة] مستقبل القبلة
 على ذكرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذكره إن كان حاملا ، وأحيا رزقه إن كان قليلا .
 وأما الرحمن الرحيم فأذكر شريفة للضطرين وأمان الخائفين لا ينقشه أحد في خاتم
 في يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه ما دام عليه . ومن أكثر من ذكره كان
 ملطونا به في كل أموره . وأما الملك والقدير فذكر يذكر عند كل ذي ملك وقدره
 فإنه ما من ملك يستديم هذا الذكر في عموم أوقاته إلا ثبت ملكه وأنسبط قدرته ؛
 ويصالح للسالك الذي تغلبه شهوات نفسه ؛ فإنه ما يستديم ذكره من هذا مقامه إلا
 بعث الله اليه قوة ملكية تؤيده وتصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلى
 العظيم فالتزيه . والكبير المتعال مناسب للتزيه أيضا ، وهما آسمان لا تقان بأهل
 التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامة في الذكر بهما قسم .

(١٥٧)

المنط الرابع

المهيمن، المقيت، العزيز، الجبار، المتكبر، المحيط، الحفيظ، الفاطر، المحيد،
 ذو الجلال . قال البوني : أما المهيمن ، والمقيت فللعلم والاستيلاء والمراقبة
 في الجزئيات والكلديات . والعزيز، والجبار، والمتكبر فن أسماء صفات الذات
 اللازمة للخوف والرهبة والعظمة ، لا يذكرها دليل إلا عز ، ولا حقير إلا ارتفع ،
 ولا بين يدى جبار إلا ذل وخضع ، ولا يذكرها ملك من ملوك الأرض إلا وجد

(١) هذه العبارة سافطة من نسختي اللغة وموجودة بالأصليين .

(٢) هكذا في نسختي اللغة وفي الأصليين أحيا الله ذكره وإن كان حاملا وأحيا رزقه وإن كان قليلا .

(٣) زيادة عن نسختي اللغة النورانية .

(٤) كذا في نسختي اللغة النورانية ، وفي الأصليين : « وهما آسمان يليق » .

(٥) في الأصليين « بهم » . (٦) في نسختي اللغة النورانية : « فاعلم بالأشياء » .

(٧) في الأصليين ونسختي اللغة بهم الجمع ، وقواعد اللغة تقتضي ما وضعناه .

٥

١٠

١٥

٢٠

في نفسه ذِلَّةً وأنكسارا . وأما الحفيظ فإنه آسم سريع الإجابة للخواصين
في الأسفار . وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال فأسماء التنزيه وزيادات
في التوحيد .

النمط الخامس *

- ٥ . العليم، الحكيم، البديع، النور، القابض، الباسط، الأول، الآخر، الظاهر،
الباطن؛ قال : هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن، فأما العليم، والحكيم
فلتوحيد الخالص، لا يصلحان إلا لمن أُبهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله
تعالى يُعسرُ على الفكر إدراكه، فإنه إذا استدام ذِكْرُ العليم الحكيم يسر الله عليه علم ما سأل
وعرفه الحكمة فيه، ومنه أسمه البديع أيضا [مثل ذلك] . وأما النور، والباسط،
والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات . ومن أراد أن ينظر شيئا في منامه فليذكر هذه
١٠ . الأسماء على طهارة وهو في فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويعمل همته فيما يريد
فإنه يُمثَّلُ له في نومه كشف ذلك . وأما القابض، والأول، والآخر، والباطن،
فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد .

النمط السادس

- ١٥ . الحليم، الرؤوف، المتأن، الكريم، ذو الطول، الوهاب، الغفور، الغافر، العفو،
المجيب . قال : هذا النمط من الأسماء عليه مدار إبقاء الوجود ودفع الأضداد وجمع
المتفرق؛ أما الحليم، والرؤوف، والمتأن، فذكر للخواصين؛ ما داومه من يخاف شيئا
إلا أوجده الله تعالى برِّد الطمأنينة وسكَّن رَوْعَهُ . قال البوني : وذكر [إلى] من له

* (١) هكذا في الأصلين، والذي في نسختي اللمعة : "عليه فيما يناله، وعرفه الحكمة فيما سأل" .

أطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلق مَعِدَّة ثم أمسك النار لم تَعُدْ عليه، ولو تنفس حينئذ على قِدر تَغْلِي سَكَنَ غَايَاتُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، ولا يكتبها أحد ويقابل بها من يخاف منه إلا أطفأ الله شره عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوته إلا نَزَعَ اللَّهُ منه التزوع إليها في أشاء ذكره. وأما الكريم، الوهاب، وذو الطول فلا يستديم على هذا الذكر مَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُهُ ومُسْتَه حَاجَةٌ إلا يَسِّرَ اللَّهُ عليه من حيث لا يشعر، ومن نَقَشَ هذه الأسماء وعلقها عليه لم يدرك كيف يُسِّرَ اللَّهُ عليه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والعاقل، والعفو، فنظم متقارب لسؤال دفع المؤمن خصوصا من آلام الدين والدنيا. وأما المحيب، فيذكر في آخر الدعوات.

النمط السابع

(١٥٨)

الكافي، الغني، الفتح، الرزاق، الودود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نعم المولى ونعم النصير. قال: هذا النمط من الأسماء جليل القدر، به يُتَرَلَّ الله الرغائب من كل مفضل به على أحد من عباده، فاسمه الكافي، والغني، والفتح، والرزاق لا يذكر أحد هذه الأسماء الأربعة وهو يَتَمَتَّى شيئا لم تبلغه أمينته إلا بلغه بإذن الله تعالى من جهة لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هذا الذكر على القليل إلا كثره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو في رتبة وهيمته طائفة أعلى منها إلا يسر الله له الوصول إليها. وأما الودود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنمط جليل النظم لأرباب الهجوع والخلوة، واللطيف خصوصا لتفريح الكرب في أوقات الشدائد لا يضاف إليه غيره، لا يذكره من يُؤَلِّه شيء في نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

(١) في الأصلين ونسخي اللمعة «ولا يكتبها أحد ويقابل بهم الخ».

النمط الثامن

الشديد ، ذو القوة ، المتين ، السريع ، الرقيب ، المقتردر ، القاهر ، الوارث ،
 الباعث ، القوى^(١) . هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن ؛ فأما الشديد وذو القوة
 والقاهر والمقدر فهي أسماء التَّهَرُّ لا يذكُرُها ضعيف الهمة إلَّا قَوِيَتْ نفسه ، ولا يدعو^(٢)
 بها أحد على ظالم في أحترق الشهر في السابعة من الليل في بيت مظلم حاصر الرأس^(٣) .
 على الأرض لا حائل بينه وبينها مائة مرة يقول في آخرها : يا شديد خذلى^(٤)
 بحق من فلان ؛ ولا يشخص شيئاً فأنه أعلم بما يعمل . قال : وقد جُربَ مِثْنِين من^(٥)
 المرات . ولا ينقشها أحد في خاتم ويتختم به إلَّا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكُها من^(٦)
 نفسه ويُدْرِكُها غيره منه ، ويرتاع منه كل جبار عَنيد عند رؤيته ، حتى كأن الجبال
 على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه . وأما السريع ، والرقيب ، والمتين ، فذكر^{١٠}
 لأرباب المراقبة في الأفعال تفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار . وأما الوارث ،
 والباعث ، فالحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة .

(١) في إحدى نسخي اللعة النورانية بدل اسم القوى بين السطور اسم «الشكور» ، ولم يرد في نسخة
 اللعة الثانية شيء بعد كلمة الباعث .

(٢) في الأصلين ونسخي اللعة «لا يذكُرهم .. ولا يدعوهم» ، وكذلك ما عليه رقم (٢) .
 (٣) في المخصص ج ٩ ص ٣١ : وامتناع القمر احتراقه ويوم التحاق آخر الشهر لأن الشمس تمتع
 الهلال فيه ولا تبيته .

(٤) كذا في إحدى نسخي اللعة وفي نسخة أخرى والأصاين «لا حائل بينه وبينها يقول في آخرها
 مائة مرة : يا شديد خذلى الخ» .

(٥) في الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر : «إلا استجيب له» .
 ٢٠

(٦) كذا في الأصلين وإحدى نسخي اللعة وفي أخرى «ولا تنجسني» .

النمط التاسع

التواب، الشاكر، الولي، الحبيب، الوكيل، القريب، الصادق، البر، الباقي، الخلاق . قال : هذا القسم مرتب على سلوك مقامات السالكين، فالتواب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والولي للأولياء، والحبيب لأهل الكفاية، والوكيل للتوكلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبر مع أهل البر، والباقي مع الشهداء، والخلاق لذوى الاعتبار . ولشايخ في هذا الميدان مجال رحب بحسب اختلاف أحوالهم .

النمط العاشر

الهادى، الخبير، المبين، علام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القدوس، السلام، المؤمن، وينتظم في ذلك المعز، والميدل، وما في آخر سورة الإخلاص . قال : فالهادى، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجوع وسهر، ويذكر هذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول : آهدنى يا هادى، وخبّرني يا خبير، وبين لي يامبين، ويسمى ما يريده وذلك في جوف الليل، فإذا أدركه النوم مثل له كشف ما أراد من أى نوع شاء . هذا مختصر ما قاله البونى في ترتيب أسماء الله الحسنى .



(١٥٩)

وأما ما ورد في الأسم الأعظم؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك أنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ فقال : "لقد سألت الله بالأسم الذى إذا سُئِلَ به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب". وعن أنس بن مالك

رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من الأنصار يقال له أبو عيَّاش ^(١) الزُّرْقِيُّ يصليّ ، فدنوت منه ، فدعا في صلاته : اللهم إني أسألك — بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المَنَّانُ بديعُ السموات والأرض ذو الجلال والإكرام — أن تغفرَ لي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى“ . وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”أسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وفاتحة آل عمران الْمَلَأَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ“ . وعن أبي أمامة وأسمه صدى بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن أسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن في البقرة وآل عمران وطه“ ؛ قال فالتسّتها فوجدت في البقرة آية الكرسي (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، وفاتحة آل عمران (الْمَلَأَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ، وفي طه (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) .

والأدعية المختارة كثيرة وقد أتينا منها بما فيه كفاية لمن توجه إلى الله تعالى وسأله .
ولنختم هذا الباب بما ختم به البخاري كتابه : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

(١) في أحد الأصلين « أبو العباس » وفي الآخر « أبو عياس » بالدين المهملة وهو محرف عن « أبي عيَّاش » الزُّرْقِيُّ الأنصاري وهو صحابي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بمسّفات كما في تهذيب التهذيب .

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس في أحد الأصولين الفتوغرافيين :

تم الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري،
والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس في الأصل الثاني الفتوغرافي :

كل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، على يد
مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري
التيمي القرشي، عُرف بالنويري، عفا الله عنهم .
ووافق الفراغ من كتابته في يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر
ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المعزية .
يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء السادس القسم الخامس
من الفن الثاني في الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب
للرعية عليه إن شاء الله تعالى .
الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه ، وسلم
تسلما كثيرا . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤/٩٣/٢٠٠٠)

